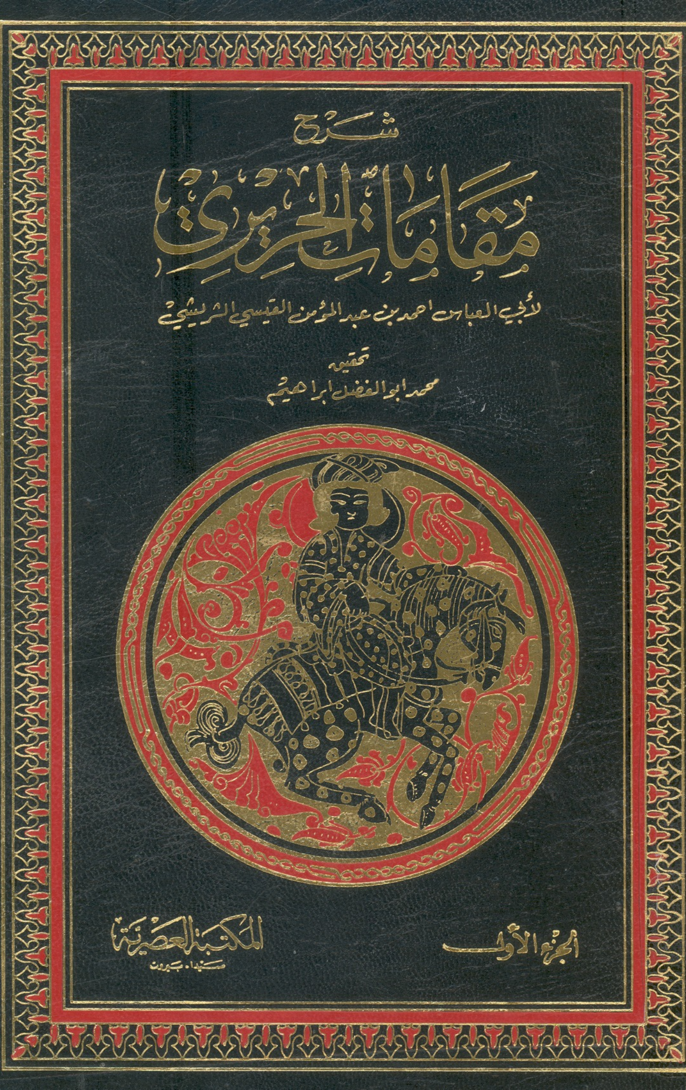
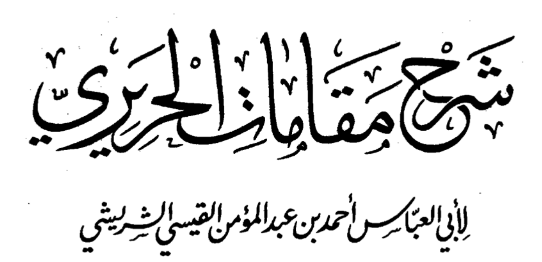

شرح
مقامات الحريري
لأبي العباس احمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي
تحقيق
محمد ابو الفضل ابراهيم
الجزء الأول
المكتبة العصرية
صيدا . بيروت





# شرح مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي




## لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

### الجزء الأول



١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE



# مُقدمة

## مقامات الحريرى

١ - لم يبلغ كتاب من كتب الأدب مابلغته هذه المقامات - التى أبدع إنشاءها الأستاذ الرئيس أبو محمد القاسم بن علىّ الحريرىّ - من نباهة الذكر، وبعد الصيت، واستطارة الشهرة . فإنه لم تكد تصدر منها النسخة الأولى فى بغداد حتى أقبل الوراقون على كتابتها، والعلماء على قراءتها عليه من شتى الجهات ؛ ذكروا أن الحريرى وقّع بخطه فى شهور سنة أربع عشرة وخمسمائة على سبعمائة نسخة[1] ؛ كما أن العلماء فى جميع الأقطار العربية أخذوا يتدارسونها فى المدارس والمعاهد، ويقرءونها فى الأندية والمحافل ، بل إن شهرتها امتدت فى حياته إلى الأندلس ، فوفد فريق من علمائها على الحريرىّ ببغداد - منهم الحسن بن علىّ البطليوسى ، والحجاج بن يوسف القضاعى، وأبو القاسم عيسى ابن جهور - وقرءوا عليه بمنزله هذه المقامات ، ثم عادوا إلى بلادهم حيث تلقاها عنهم العلماء والأدباء ، وتناولوها رواية وحفظاً ، ومدارسة وشرحاً . .

ولمؤرخى الآداب العربية أقوال مختلفة فى سبب إنشائها . .

نقل ياقوت عن عبد الله بن محمد بن محمد بن أحمد النقور البزاز ببغداد ، قال : سمعت الرئيس أبا محمد القاسم بن علىّ الحريرى صاحب المقامات . يقول : أبو زيد

---

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٧ .

السَّرُوجيّ ، كان شيخاً شحاذا بليغاً ، ومكدياً فصيحا ، ورد علينا البصرة ، فوقف يوماً فى مسجد بنِي حرام ، فسلّم ثم سأل الناس — وكان بعض الولاة حاضرا ، والمسجد غاص بالفضلاء — فأعجبتهم فصاحته ، وحسن صياغة كلامه وملاحته ، ثم ذكر أسر الروم ولده . . واجتمع عندى عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيت لهم ماشاهدت من ذلك السائل ، وما سمعت من لطافة عبارته وتحقيق مراده ، وظرافة إشارته فى تسهيل إيراده ؛ فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل ومجلسه مثل ماشاهدت ، وأنه سمع منه فى معنى آخر فصلا أحسن مما سمعت ، وكان يغيّر فى كل مسجد زِيَّه وشكله ، ويُظهر فى فنون الحيل فضله ، فتعجبوا من جريانه فى ميدانه ، وتصرفه فى تلوّن إحسانه . فأنشأت المقامة الحرامية ، ثم بنيت عليها سائر المقامات ، وكان أول شيء صنعته . وذكر ابن الجوزى هذه الحكاية فى تاريخه ، وزاد فيها أن الحريرى عرض هذه المقامة الحرامية على أنوشروان بن خالد وزير السلطان ، فاستحسنها ، وأمره أن يضيف إليها ما شاكلها ، فأتمها خمسين مقامة[1] .

وفى رواية لابن خلكان ، قال : لما عمل الحريريّ المقامات أنشأها على أربعين مقامة ، وحملها من البصرة إلى بغداد ، وادعاها ، فلم يصدق ذلك جماعة من أدباء بغداد ، وقالوا : إنها ليست من تصنيفه ، بل هى لرجل مغربيّ من أهل البلاغة مات بالبصرة ، ووقعت أوراقه إليه ، فادّعاها . فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته ، فقال : أنا رجل منشيء ، فاقترح عليه إنشاء رسالة فى واقعة بعينها ، فانفرد فى ناحية من الديوان ، وأخذ الدواة والورقة ، ومكث زمانا كثيرا ، فلم يفتح الله عليه بشيء من ذلك ، فقام وهو خجلان ، وكان فى جملة

---

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٣ .

-من أنكر دعواه فى عملها أبو القاسم علىّ بن أفلح الشاعر ، فلما لم يعمل الحريرىّ الرسالة التى اقترحها الوزير أنشأ ابن مفلح :

شيخٌ لنا من ربيعة الفرسِ    يَنْتِفُ عُثْنُونَهُ من الهوَس
أنطقه الله بالمشَانِ كما    رَمَاهُ وَسْطَ الديوان بالخرس

وكان الحريرىّ يزعم أنه من ربيعة الفرس ، وكان مولعاً بنتف لحيته عند الفكرة ، وكان يسكن مشارف البصرة ، فلما رجع إلى بلده عمل عشر مقامات أخَر ، وسيرهنّ إليه ، واعتذر من عِيِّه وحَصَره فى الديوان لما لحقَه من المهابة [1] .

وقال ابن خلكان أيضاً : رأيت فى شهور سنة ستّ وخمسين وخمسمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات ، وجميعها بخط مصنفها الحريرىّ ، وقد كتب أيضا بخطّه على ظهرها أنه صنفها للوزير جمال الدين عميد الدولة أبى علىّ الحسن ابن أبى العز علىّ بن صدقة وزير المسترشد ... قال : ولاشك أن هذه الرواية أصح لكونها بخط المصنّف [2] .

٢ـوقد نسب الحريرىّ رواية هذه المقامات إلى الحارث بن همام ، وعَنَى بهذا الاسم نفسه ، ونظر فى ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم حارث وكلُّكم همام » ، فالحارث الكاسب ، والهمام كثير الاهتمام بأموره ، وما من شخص إلا وهو حارث وهمام .

وجعل بطل هذه المقامات أبا زيد السروجىّ ؛ وتختلف الروايات أيضا فى حقيقة أمره ، فمن قائل: إنه اسم خيالىّ وضعه الحريرىّ واستوحاه من صورة الشحاذ الذى لقيه فى مسجد بنى حرام بالبصرة . ومن قائل بأنه كنية اسم حقيقى

---

(١) ابن خلكان ١ : ٤٢٠ .    (٢) ابن خلكان ١ : ٤٢٠ .

لرجل اسمه المطهر بن سلام ، ذكره القفطى فى إنباه الرواة ضمن تراجم النحاة ، وقال فى حقه : صاحب أبى محمد القاسم بن علىّ الحريرى البصرىّ ، أنشأ المقامات على لسانه ، وكان فيه فضل وأدب ، وله معرفة بالنحو واللغة والعربية ، قرأ على أبى محمد الحريرىّ بالبصرة ، وتخرّج به ، وروى عنه (١) .

وأيًّا كان الخلاف حول سبب إنشاء هذه المقامات وبطلها أبى زيد ، فإنّ هذه المقامات عملٌ فنىّ رائع منقطع القَرين ، حوى من متخيَّر الألفاظ ومنتخل الأساليب وناصع البيان ، مع إحكام السبك وإشراق الديباجة والبعد عن الركاكة والابتذال ـ ماجعلها قمة فى الآداب العربية ترتفع عن مقام المتحدّى والمعارض على السواء . وقد صاغها مجالس متنوعة تختلف موضوعاتها باختلاف البلاد التى تخيل أنه زارها ، ورحل إليها ، ما بين فرغانة وغانة ، وأفرغها فى قوالب طريفة فى الأدب والنقد والوعظ والفكاهة ، يتخلّلها وصف للمجتمع وأحوال الناس ، وجعلها فى أسلوب السجع الكامل ، بعد أن وشّاها بألوان البديع ، من الجناس والطباق والمقابلة ، أو كما يقول المؤلف فى صدر كتابه : أنشأت ـ على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ـ خمسين مقامة تحتوى على جِدِّ القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وشّحتها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبَّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية .

وكان أول لقاء وقع بين الحارث بن همام وأبى زيد السروجىّ فى صنعاء ؛ وكانا فى رُواء الشباب وربيع العمر ، حيث لقىَ الحارث أبازيدٍ خطيبا واعظا ، ثم عرفه بعد ذلك مخادعا مخاتلا ، وعليه بنى الحريرىّ المقامة الأولى وأسماها المقامة الصنعانية . ثم

---

(١) إنباه الرواة ٣ : ٢٧٦

أخذ الحارث يقطع الأسفار ، ويجوب الفيافى والقفار ؛ ليلقى أبا زيد ؛ مرةً فى ساحة القضاء ، وأخرى فى مجالس الولاة ، وآونة فى أندية الأدباء ؛ واعظا أو شاعرا ، أو شحاذا أو مخاصما؛ ثم يمضى بهما العمر وتتابعُ الأيام؛ إلى أن يلتقيا فى أخريات عمرهما بالمسجد الجامع بالبصرة بعد أن خلقت جِدّتهما، وذوى عودهما، ورثَّ بُرْد شبابهما؛ وإذا أبو زيد يقف فى حشد الناس ؛ يعلن توبته ، ويندم على ما قدم من ذنوب وآثام، وينشد:

أستغفر الله من ذنوب أفرطت فيهنّ واعتديتُ
كم خضت بحر الضلال جهلا ورحت فى الغىّ واغتديتُ
وكم تناهيت فى التخَطِّى إلى الخطايا وما انتهيْت
فليتَنِى كنت قبل هذا نسيا ولم أجْنِ ما جنيتُ
يارب عفواً ، فأنت أهل للعفو عنى ، وإن عصيت

ثم يختفى أبو زيد ويعود إلى بلده سَرُوج ، يلبس الصوف، ويؤُمّ الصفوف ، ويجنح الحارث بعدها إلى الراحة ويكفّ عن الأسفار ؛ ويكون هذا آخر لقاء بينهما ، وبه تنتهى المقامة الخمسون ، آخر المقامات .

٣- ولم يكن الحريرى مبتدع فنّ المقامات ولا أبا عُذْرها ، بل سبقه إلى هذا الفن بديع الزمان الهمذَانى ، وإلى ذلك يشير بقوله فى صدر المقامات يتحدّثُ عمّن سبقه : هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سبّاقُ غايات ، وصاحب آيات ، وأن المُتَصَدِّىَ بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتىَ بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فُضالته ، ولا يسرى هذا المسرى إلا بدلالته ؛ ولله درّ القائل :

فلا قبل مبكاها بكيت صبابة
بسعدى شفيت النفْس قبل التندّمِ

ولكن بَكَتْ قَبْلِي فهيّج لى البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدِّم

ومع ذلك فإن من جاء بعدهما من كتّاب المقامات ؛ إنما قصد محاكاة الحريرىّ والنسج على منواله ،والسَّير فى دربه ؛ فمنهم من حاول ولم يوفَّق، ومنهم من عمل ولكنه أخفقَ . . .

فممّن حاول ذلك علىّ بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحِلّىّ، قال ياقوت: وردتُ آمِد فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأنا فى عنفوان الشّباب وريْعه ؛ فبلغنى أن بها علىّ بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحلىّ — وكان من العلم بمكان مَكين ، واعتلق من حباله بركن ركين ؛ إلا أنه كان لا يقيم لأحد من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزنا ، ولا يعتقد لأحد فضيلة ، ولا يقرّ لأحد بإحسان فى شىء من العلوم ولا حُسْن ،فحضرْتُ عنده ، وسمعت من لفظه إزراءه على أولى الفضل ،وتنديده بالعيب عليهم بالقول والفعل ؛ فلما أبرمنى وأضجر ، وامتدّ فى غيِّه وأصحر ،قلت له : أما كان فيمن تقدّم على كثرتهم وشغَف الناس بهم عندك مجيد قط ! فقال : لا أعلم إلا أن يكون ثلاثة رجال : المتنبى فى مديحه خاصة ، ولو سلكت طريقه لما برّز علىّ ، ولسقت فضيلته نحوى ونسبتُها إلىّ ، والثانى ابن نباته فى خطبه ،وإن كانت خَطَبى أحسن منها وأشهر ، وأظهر عند الناس قاطبة وأشهر . والثالث ابن الحريرىّ فى مقاماته . قلت : فما منعك أن تسلك طريقته ، وتنشد مقاماتٍ تخمد بها جمرته وتملكُ دولته ؟ فقال : يابنىّ ، الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ؛ ولقد أنشأتُها ثلاث مرات ، ثم أتأملها فأسترذِ لها ، وأعمد إلى البركة فأغسلها ؛ ثم قال: وما أظنُّ الله خلقنى إلا لإظهار فضل الحريرىّ [1] !

ومنهم أبو الطاهر محمد التميمىّ السرقسطىّ الأشتراكوىّ [2] المتوفى بقرطبة سنة

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٧ ـ ٢٦٩

(٢) منسوب إلى أشتركوى ، من أعمال تطيلة ، من بلاد الأندلس .

٥٣٨ ، أنشأ كتاب «الحسين مقامة اللزومية »[1] عارض بها مقامات الحريري، ولزم في نثرها مالا يلزم ، متأثرا بالمعرّي في لزوميّاته،فأبعد النجعة، وأتعب خاطره، وكدّ ذهنه ، وأسهر جفنه ، وصعّب على نفسه المسالك ، وقيّد كلامه نظما ونثرا. واتخذ راويه المنذر بن همام، وجعل بطله السائب بن تمام؛ ولكنّ هذه المقامات ذهبت بها عوادي الأيام ، فلم تصل إلينا .

ثم قام جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ المتوفى سنة ٥٣٨ أيضا ، فأنشأ مائة مقامة كالمقالة ، تدور كلها حول الوعظ ؛ ولكن ليس فيها راوٍ ،ولا بطل ؛ بل خاطب في جميعها نفسه ، وذكّرها بالآخرة ، ورغبها في الأعمال التي تؤدي بها إلى نعيم الله ورضوانه .. وكأنّ الزمخشري أحسّ في هذه المقامات بقُصوره عن غاية الحريري ، وبُعده عن مداه ، فقال :

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاتِهِ
أن الحريريَّ حريٌّ بأن نَكْتُب بالتبر مقاماتِهِ

ثم توالى المقلّدون جيلا بعد جيل ، كابن الجوزي وأبي العلاء أحمد بن أبي بكر الرازيّ وابن ناقيا وابن الصيقل الجزريّ وابن حبيب الحلبيّ وابن الورديّ والسيوطيّ وغيرهم ؛ إلى أن انتهى إلى خاتمة المقلدين الشيخ ناصيف اليازجي ، أحد أعيان البيان بلبنان في القرن التاسع عشر الميلادي؛ فدرس مقامات الحريري وحفظها ، ثم أخذ يروض قلمه على مقامات تنحو نحوها ؛ وتسلك نهجها ، وما زال يلتمس الوسائل ، ويتطلّب الذرائع ، ويرتاد نواحي الظفر ، ويتوخّى وجوه النُجح،حتى عمل أكثر من ستين مقامة سماها «مجمع البحرين » ، أي النثر والنظم ؛ وجعل راويها سهيل بن عباد ،وبطلها ميمون بن حزام ؛

---

(١) فهرست ابن خير ٣٨٧

وتنقّل بسهيل بن عباد فى البلدان — كما تنقل الحريرىّ بالحارث بن همام — ليلقى ميمون بن حزام ، سالكا مسالك أبى زيد فى المكايد وطرق التنكّر والتعلّق بفصيح الكلام ...

وعلى الرغم من دقة المحاكاة فى بعض هذه المحاولات ، فإن الحريرىّ يبقى منفردا بفنّه ، واحداً فى أسلوبه ؛ لايدانيه أحد منهم فى نثره أو نظمه ، بَذَّ من قبله، وأتعب مَن بعده، وستظلّ مقاماته من أجود ماجادت به القرائح ، وأجمل مانضحت به الأقلام ؛ على مرّ العصور والأيام . .

٤ ـ وإن كان لهذه المقامات منزلة عند القدماء ، عبر عنها ياقوت بقوله : « وافقه من السعد مالم يوافق مثله كتاب ، جمع بين الجودة والبلاغة واتّسعت له الألفاظ ، حتى أخذ بأرقها وملك ربقتها ، وأحسن نسقها ؛ حتى لو ادّعى الإعجاز لما وجد من يدفع صدره ، ولا يردّ قوله ، ولايأتى بما يقاربها ، فضلا عن أن يأتىَ بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة وبعد الصيت والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت به وأكثر . . . » ، ـ فإنها لم تخل من نَقْدِ بعضهم وتجريحهم له ؛ منهم ابن الأثير فى المثل السائر وابن الطقطقى فى الآداب السلطانية .

ومن أشهر من نال منه أبو محمد عبدالله بن أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب ، وضع رسالة جمع فيها المآخذ التى وقع عليها فى المقامات؛ قال فى مقدمتها : « وله أشياء فى أثناء مقاماته لورجع فيها لأقرَّ مع الإنصاف بالخطأ ساكتاً فسلّم ، أو لنازع مباهتاً . وأنا أسوقها على التوالى موضعا فموضعاً، مع تمهيد عذره ؛ لقلّتها فى جنب صوابه ، وما مر به من المحاسن فى أثناء كتابه ، علماً بأن الكامل من عُدَّت سقطاته ، والفاضل من أحصيت هفواته » .

وقد قام الإمام عبد الله بن برى فألف رسالة انتصر فيها للحريرىّ من

مآخذ ابن الخشاب ثم جاء عبد اللطيف بن يوسف البغدادى ، فنصب نفسه حكماً بينهما ، ووضع رسالة أسماها الإنصاف بين ابن برى وابن الخشاب فى كلامهما على المقامات .

٥ـ وبجانب الحركة الفكرية والأدبية التى أحدثتها المقامات فى المشرق ؛ فى العراق والشام ومصر . فإنّ مثل هذه الحركة قامت فى الغرب أيضا ؛ فى أسبانيا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا ؛ وكان أول ما عمِل من ذلك ماقام به المستشرق الهولندى جوليوس سنة ١٦٥٦م ، من ترجمة المقامة الأولى إلى اللغة اللاتينية ، ونشَرها فى الطبعة الثانية لكتاب تعليم اللغة العربية أربينيوس فى ليدن . ثم نقل المستشرق الهولندى شولتنس ست مقامات بين سنتى ١٧٣١ ، ١٧٤٠م ونقل بعده ڤانتوردى پارادى منتخبات من سبع عشرة مقامة بين سنتى ١٧٨٦م و ١٧٩٥ إلى اللاتينية أيضا .

وفى فرنسا قام المستشرق كوسان دى پرسڤال بنشر المتن العربى الكامل ، وطبع سنة ١٨١٢ م كما قام الأستاذ دى ساسى بجمع مخطوطات المقامات وشروحها ، وعمل منها شرحاً عربيًّا ، وطبع المتن والشرح فى باريس سنة ١٨٢٢م ، ثم طبع مرة أخرى فى باريس أيضا بين سنتى ١٨٤٧ ، ١٨٥٣م ، واشتهرت هذه الطبعة فى الشرق والغرب ، وتصدى لها بالنقد الشيخ ناصيف اليازجى .

أما فى ألمانيا ، فقد قام العلامة رُكَرت ، وترجم هذه المقامات سجعا باللغة الألمانية ، وقد اقتضى منه ذلك جهدا فى استعمال كلمات نادرة الاستعمال فى هذه اللغة حتى قال بعض النقاد الألمان : إن ركَرْت أجبر لغته على الألعاب الرياضية الشاقة ؛ وقد تمتّعت هذه الترجمة بشهرة عظيمة فى عالم الاستشراق .

وفى اللغة الإنجليزية قام تشنرى بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية فى سنة ١٨٦٧م وتبعه استجاس فترجمها أيضا فى سنة ١٨٩٨م .

وفى أسبانيا ترجم الشاعر اليهودى يوراى الحريزى هذه المقامات إلى العبرية، وطبعت هذه الترجمة فى لندن سنة ١٨٧٢ م.

وفى كثرة هذه التراجم والطبعات دلالة على ماناله الحريرى فى الحلقات الاستشراقية من التقدير فى نواحى الغرب (١).

٦ - وقد كانت المقامات من أوائل ماطبع من الكتب العربية؛ وأول طبعة لها كانت هى الطبعة التى ذكرت أنها كانت فى باريس سنة ١٨١٩م بعناية كوسان دى برسفال، ثم توالت طبعاتها بعد ذلك فى باريس ولندن وليدن وكلكته ولكناو ودهلى بالهند وبولاق والقاهرة وتبريز وبيروت (٢).

أما النسخ الخطية من هذه المقامات فلا تكاد تخلو مكتبة من المكتبات العربية فى الشرق والغرب من عدد وافر منها متناً أو شرحا، وفى دار الكتب المصرية من المقامات أكثر من ثمان وعشرين نسخة؛ غالبها نفيس، ومنها نسخة برقم ١٠٥ - أدب منقولة من خط المؤلف بعد سماعها عليه، وفى أولها إجازة بخطه، ونسخة برقم ٤٤٧٩ - أدب طلعت، وعليها خط المؤلف أيضا، ونسخة برقم ٢٥٩ - أدب، عليها سماعات مؤرخة سنة ٦٦٣، ونسخة بخط مرتضى الزبيدى كتبت سنة ١١٦٥، ونسخة برقم ١٥٢٩ - أدب بخط ابن نجدة كتبت سنة ٧٢٩، هذا عدا النسخ الخطية المشروحة (٣).

---

(١) أفدت هذه المعارف الاستشراقية؛ مما كتب به إلىّ العلامة الدكتور أرنست بانرت أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة فينا.

(٢) انظر معجم المطبوعات العربية لسركيس ٧٤٨، ٧٤٩

(٣) انظر فهارس دار الكتب.

## صاحب المقامات

١ ـ ومؤلف المقامات هو الرئيس أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرىّ منسوبا إلى صناعة الحرير أو بيعه ، ولد سنة ٤٤٦ هـ بالمشان ، وهى قرية قرب البصرة ، ثم رحل إلى البصرة وسكن فى محلة بنى حرام ـ وهم قبيلة من العرب سكنوا بالبصرة ـ وتأدب بها ، وقرأ العربية على أبى الحسن بن فضّال المجاشعىّ شيخ إمام الحرمين ،والفقه على أبى إسحاق الشيرازى . وعُيِّن صاحب الخبر بالبصرة ؛ وهو منصب ظل به إلى أن مات ، فتوارثه أولاده من بعده ، وظلّ فيهم إلى عهد العماد الأصبهانىّ الذى زار البصرة سنة ٥٥٦هـ .

وكان الحريرىّ ـ إلى جانب علمه وأدبه وتمرسه بفنون العربية جميعها ـ من ذوى الجاه واليسار ، كان له بالمشان أكثر من ثمانية عشر ألف نخلة ، يغلها ويتردد عليها ، وكان له منزل بالبصرة يقصده الأدباء والعلماء يقرءون عليه أو يفيدون من علمه ، وخاصّة بعد أن ألف المقامات وذاعَ أمرها بين الناس. وكان مرهف الشعور صادق الحسّ والتخمين ، حكى أنه زاره شخص غريب ليأخذ عنه شيئا ؛ فلما رآه استزرى شكله . ففهم الحريرىّ ذلك منه ، فلما التمس منه أن يُمْلِيَ عليه قال له : اكتب :

ما أنت أول سارٍ غَرّهُ قَمَرٌ ورائد أعجبته خُضرة الدِّمَنِ
فاختر لنفسك غيرى إننى رجل مثل المعيدىّ فاسمعْ بى ولا ترنى

فخجل الرجل وانصرف عنه .

٢ ـ وللحريرىّ ديوان رسائل أورد ياقوت شيئا منها ، وله الرسالة السينية التزم فى جميع كلماتها حرف السين ، والرسالة الشينية التزم فى جميع كلماتها حرف الشين ، أوردهما ياقوت أيضا .

وله شعر فى غير المقامات ، ذكر منه ابن خلكان قوله :

قال العواذل ماهـذا الغرامُ به أما ترى الشَّعر فى خَدّيْهِ قد نبتـا

فقلت والله لو أن المفنِّد لى تأمل الرشد فى عينيه ماثبتا
ومن أقام بأرض وهى مجدِبة فكيف يرحل عنها والربيع أتَى !

وأورد له صاحب الخريدة :

كم ظبــاء بحاجرِ فتِنت بالمحــاجر
ونفوسٍ نفائسٍ خُدرت بالمخــادرِ
وتَثَنٍّ لخــاطرٍ هاج وجــدًا لخاطر
وعِــذار لأجله عاذلى عــاد عاذرى
وشجون تضافرت عند كشف الضفائر

وأورد له ياقوت :

لا تخطونّ إلى خِطءٍ ولا خطإٍ من بعد ماالشيب فى فوديك قد وَخَطا
وأىّ عذر لمن شابت ذوائبه إذا سرى فى ميادين الصبا وخطا

وله غير الشعر والرسائل والمقامات مايأتى :

١ — درة الغواص فى أوهام الخواصّ ، بيّن فيه أغلاط الكتاب فيما يستعملونه من الألفاظ بغير معناه فى غير موضعه . طبع فى مصر سنة ١٢٧٢ هـ ، وفى ليبسك سنة ١٨٧١ م ، وطبع مع شرح الخفاجى فى الآستانة سنة ١٢٩٩هـ .

٢ — ملحة الأعراب فى صناعة الإعراب ، وهى أرجوزة ، وأولها :

أقول من بعد افتتاح القول بحمدِ ذى الطول شديد الحول

طبعت فى باريس وبيروت ومصر ، وقد شرحها بحرق الحضرمىّ ، وأسمى الشرح « تحفة الأحباب وطرفة الأصحاب » ، وطبع بمصر مرارا أيضا .

٣ — قصيدة من وزن الخفيف ، منها نسخة مخطوطه فى مكتبة برلين برقم ٧٧٩ ، وأوردها السيوطىّ فى المزهر ١ : ٢٨٦ — ٢٨٨ ، وأولها :

أيُّها السائلى عن الظاء والضّا دِ لكيلا تُضِلَّه الألفاظُ

١ ـ وتعتبر مقامات الحريرىّ أكثر الـكتب حظًّا فيماوقع لها من شروح ، وما أُديرَ حولها من تعاليق ، أحصى صاحب كشف الظنون أكثر من خمسة وثلاثين شارحا ، منهم محمد بن علىّ بن عبد الله الحلىّ ، ومحمد بن علىّ المعروف بابن حميدة ، ومحمد بن محمد المكى الصقلى المعروف بابن ظفر ، وأبو المظفر محمـد بن أسعد المعروف بابن حكيم ، وعلىّ بن الحسن المعروف بشميم الحلى ، وسليمان بن عبد الباقى بن سلامه الضرير ، والشهاب الحجازى ، وعبد الله بن الحسين العكبرى ، وقاسم بن قاسم الواسطى ، عبد اللطيف بن يوسف البغدادى ، وأبو الفتح ناصر بن السيد المطرزى ، ومحمد بن عبد الرحمن محمد بن مسعود الفندجيهىّ ، وأحمد بن عبد المؤمن القيسىّ المعروف بالشريشىّ ، وسليمان ابن عبـد القوى الحنبلى العروف بنجم الدين الطوفى ، وأحمد بن المظفر الرازى وغيرهم .

وممن قام بشرحها من المتأخرين المستشرق دى ساسى ـ كما ذكرنا ـ عمل شرحا من الشروح التى وقعت له ، وأضاف إليه فوائد من كتب الأدب والنحو والتاريخ . وطبع هـــذا الشرح فى باريس مع فهارس للألفاظ والأمثال والأعلام .

ولعل كثرة هذا العدد من الشارحين يرجع إلى مازخرت به المقامات من الـكلمات العربية ، والأمثال والأحاجى والألغاز ، والنكات النحوية والبلاغية مما يجعل ميدان الشرح ذا سعة وأودية الاستطراد كثيرة .

٢ـ وتختلف هذه الشروح إيجازا وإطنابا ، وأسلوبا ومنهجا ، ومن أوسعها مجالا ، وأجمعها لشتيت الفرائد ومنثور الفوائد ، ومتشعب الأغراض ، هذا الشرح الذى

وضعه العلامة أحمد بن عبد المؤمن القيسى المعروف بالشريشى . وقد وقعت له نسخة المقامات مما رواه عن أبى القاسم عيسى بن جهور وأبى الحجاج يوسف القضاعى وأبى الطاهر الخشوعى ، وهم ممن ذكرنا أنهم رحلوا إلى المشرق من علماء الأندلس ولقوا أبا محمد الحريرى فى بغداد ، وقرءوا عليه المقامات فى منزله ، وعادوا إلى بلادهم يحملون المقامات ؛ ضمن الكنوز النادرة التى حملوها من المشرق إلى المغرب عن طريق الرحلة والرواية ...

وقد وقف الشريشى جهده حقبة على هذه المقامات ، يتدارسها مع العلماء ، ويستوعب الكتب والأسفار والدواوين والشروح والتعاليق ، ليتخذ العدة لشرحها ؛ ولهذه الغاية يقول : لم أدعْ كتاباً أُلِّفَ فى شرح ألفاظها ، وإيضاح أغراضها إلا وعيته نظرا ، وتحققته معتبرا ومختبرا ، وترددت فى تفهمه وِرداً وصدَرًا ،وعكفت على استيفائه بسيطا كان أو مختصرا ... ولم أترك فى كتاب منها فائدة إلا استخرجتها ، ولا فريدة إلا استدرجتها ، ولا نكتة إلا علّقتها ، ولا غريبة إلا استلحقتها ... فاجتمع من ذلك حفظا وخطًّا أعلاقٌ جمة ، وفوائد لم تهتم بها قبله همة ؛ ثم لم أقنع بتدوين الدواوين ، ولا اقتصرت على توقيف التصانيف ؛ حتى لقيت بها صدور الأمصار ، وعلماء الأعصار » .

وجعل من أهم مقاصده فى هذا الشرح أيضا التعريف بالأمصار المذكورة فى المقامات ـ ماوسعه الجهد ـ ثم شرح الأمثال. وترجم للمشهورين من الآباء والأبناء والشعراء والأدباء والأعيان ، مع العناية بصنوف البديع وبسط أنواع الأدب وفنونه والإكثار من الشعر فى كل مناسباته . . . وخاصة الشعر الأندلسى فإنه حشد فيه مجموعة من مختار هذا الشعر ، وانفرد بنصوص نادرة منه لاتجدها فى غير هذا الكتاب .

وبهذه المزايا مجتمعة كان هذا الشرح مرجع الباحث وغُنية المتأدب، وغاية المطالع والمستفيد.

٣ ـ والشارح هو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسى الشريشى، ولد بشريش سنة ٥٧٧ ـ وكانت شريش من أجمل بلاد الأندلس، وأحفلها بأشجار الكروم والتين والعنب والزيتون ـ عاش فيها صدر شبابه، وتلقى بها على أبى الحسن بن لبّال وأبى بكر بن الأزهر وأبى عبد الله ابن زرقون وأبى الحسين بن جبير. ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى شريش، وتوفِّىَ بها سنة ٦١٩ هـ.

وقد ألف من الكتب غير هذا الشرح مختصرا لنوادر أبى على القالى وشرحا لكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وآخر لشرح الجمل للزجاجى، وجمع مشاهير قصائد العرب؛ كما وضع رسالة فى العروض. وكان أيضا شاعرا مطبوعاً شائق اللفظ رشيق المعنى.

ومن نموذج شعره تلك الأبيات التى أوردها المقرى فى ترجمته[(١)]، وكان قد سافر إلى الشام وشُغِف بها ثم رحل عنها، فقال يتشوّق إليها:

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرُ ... فإن قلبى بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكمُ ... مالذّ للعين لا نومٌ ولا سهرُ
إذا تذكرت أوقاتا نأت ومضت ... بقربكمْ كادت الأحشاء تنفطر
كأننى لم أكن بالنَّير َبيْن[(٢)] ضحى ... والغيم يبكى ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد، والأغصان راقصة ... والدّوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفحُ، أين عشيّاتى التى سلفت ... لى منه، فهى لعمرى عندى العُمر!
سقاك ياسفح، سفْح الدمع منهملا ... وقلّ ذاك له إن أعوز المطر

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الشرح واحد من ثلاثة شروح وضعها

(١) نفح الطيب ٢ : ٣١٧ (٢) النيربين، من قرى دمشق.

المؤلف : أولها مختصر ، وثانيها متوسط ، وثالثها هذا المطول ؛ وهو الذى اشتهر فى الخافقَيْن ذكره ، وأقبل عليه العلماء والمتأدبون دون غيره . . . ومن قصد البحر استقلّ السواقيا .

* * *

٤ ـ وحينما قمت بتحقيق هذا الكتاب تخيرت النسخ الآتية للرجوع إليها :

( ١ ) نسخة كاملة مخطوطة بدار الكتب برقم ١٧٥ ـ أدب ، مكتوبة بقلم معتاد ؛ إلا أنها تخلو من الضبط ، وتقع فى ٤٣٢ ورقة ، وفى كل صفحة ٣٥ سطرا ، وكل سطر يشتمل على ٢٢ كلمة تقريبا كتبت سنة ١١٣٠هـ ، وفى أولها وقفية على خزانة جامع شيخون سنة ١١٩٣ هـ وبعض التمليكات ، وقد رمزت لها بالحرف (ا) .

( ٢ ) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب برقم ١٧٨ ـ أدب ، تقع فى ١٢٧ ورقة ، وفى كل صفحة ١٩ سطرا ، كل سطر يشتمل على ١٢ كلمة تقريبا ؛ وهى نسخة جيدة صحيحة فيها بعض الضبط إلا أنها ناقصة تشتمل على شرح ١٧ مقامة فقط ، وبهامشها المقـامات ، وقد رمزت لها بالحرف (ب) .

( ٣ ) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب برقم ١٨٠ ـ أدب ، وهى نسخة خزائنية كتبت بخط نسخ واضح ، ولكنه خال من الضبط ، وتقع فى ٤٥٢ ورقة ، وفى كل صفحة ١٠ كلمات تقريبا ، وتحتوى على شرح خمس وعشرين مقامة . وقد رمزت لها بالحرف (ج) .

( ٤ ) نسخة طبعت فى بولاق سنة ١٣٠٠ هـ بتصحيح محمد الحسينى ، وقد رمزت لها بالحرف (ط) .

وجميع هذه النسخ كتب على هامشها المقامات .

هذا عدا مارجعت إليه من كتب الأدب واللغة والتاريخ ومجموعات الشعر ودواوين الشعراء .

ويطيب لى فى هذا المجال أن أنوه بفضل الصديق العلامة الحجة الدكتور محمود مكى الذى تفضل بقراءة هـذا الجزء بعد طبعه ، وكانت له ملاحظات قيمة أثبتها فيما بعد ، هذا بالإضافة إلى المعارف والمعلومات التى أفدتها منه ، وخاصة فى الأدب الأندلسى وتاريخه .

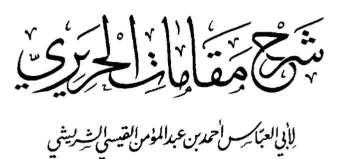
ويقع هذا الكتاب - إن شاء الله - فى ستة أجزاء ، وسألحق بآخره إن شاء الله الرسالتين السينية والشينية للحريرى ، وحواشى ابن الخشاب وابن برّى وغيرهما على المقامات ؛ فضلا عن الفهارس الفنية العامة .

ومن الله العون والتوفيق .

رمضان سنة ١٣٨٩ هـ

نوفمبر سنة ١٩٦٩ م

محمد أبو الفضل إبراهيم


شرح مقامات الحريري
لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الأستاذ اللغوىّ النحوىّ أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن ابن عيسى بن موسى بن عبد المؤمن القيسى الشَّريشىّ، تغمده الله برحمته ورضوانه، وأسكنه فسيح جناته بمنّه وكرمه آمين :

الحمد لله الذى اختصّ هذه الأمة بأفصح الألسنة وأفسح الأذهان، وشرّف علماءها بالافتنان فى أفانين البلاغة والبيان، وميّزنا بين سائر الأمم بالنثر المتفق الفِقَر والنظم المعتدل الأوزان.

نحمده على أفئدة هداها، وألسنة أطال فى شأو البلاغة مداها، ونصلّى على سيد المرسلين، وخيرةِ العالمين، الذى ختمت بنبوّته العامة النبوة، ونسخت بشرعته التَّامة الكتب المتلوّة، محمد سيد هذا العالم والمخصوص بعلوّ المكانة، وعموم الدّيانة فى ولد آدم، وعلى آله وصحبه الذين عزّروه ووقّروه، وآووْه إيواء الموفِين بالعهود ونصروه، ونقلوا شرعَه الكريم نقل التواتر وآثروه، وسلّم تسليما، وآتاهم من لدنه رحمة وأجراً عظيما.

ورضىَ الله عن الإمام المعصوم، المهدىِّ المعلوم، مجدّد معالم الديانة، والمليء بأداء الأمانة، والمشهور على تعاقب العصور بالزمان والمكان والمكانة، وعن خلفائه الراشدين المرشدين أئمّة الهدى، والتالين له فى شرف ذلك المدى، والقائمين بأعباء أمره الموعود أنه يبقى أبدا.

ونسأل الله تعالى لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين ابن الخلفاء الأئمة الراشدين، سعداً يُعلى أعلامه، ونصراً يصحب قلمه وحسامه، وتأييداً يُظهر أمره وينصر اعتزامه، حتى ينتظم شذَّان(1) الأمصار فى سلك ملكه، وتزدحم وفودُ الأمم

(1) الشذان، بالضم والفتح: المتفرق، وأصله فى الحصى والإبل.

على غَمْر بِرّه ، وتنطوى ضمائر القلوب ومخبّآتُ الغيوب على إخلاص طاعته والانثناء لأمره .

أما بعد ؛ فإن العلم أربحُ المكاسب ، وأرجحُ المناصب ، وأرفع المراتب ، وأنصع المناقب ، وحرفة أهل الهمم من الأمم ، ونِحْلة أهل الشرف من السلف ، لم يتقلد سالكَه إلا جيدُ ماجد ، ولم يتوشّح بُرْدَه إلا عِطْف جادٌ فى طلب الكمال جاهد ، ولم يستحقّ اسمه إلا الواحد الفَذّ بعد الواحد ، وهو وإن تشعّبت أفانينُه ، وتنوّعت دواوينُه ؛ فعلم الأدب علَمُه ، والأسّ الذى يبنى عليه كَلِمُه ، والرّوح الذى يخبّ فى ميدان الطّروس قلمُه ؛ ولذلك كان أوْلى ماتقترحه القرائح ، وأعلى ما تجنح إليه الجوانح ؛ فذوو الأخطار فى سائر الأقطار يتنافسون فى اقتنائه ، ويتصافنون فى عافِى إنائه[1] ، ويرتاحون لأوضاعه وتآليفه ، ويستريحون إلى أعبائه المكدودة وتكاليفه ، فإنه زمام المنظوم والمنثور ، وقِوام[2] نطقِ الألسنة وفكَر الصدور ، ومنشِّط المقال من عِقال الفهاهة ، ومميّز الأقدار بالمهابة والنباهة .

ولم يزل فى كلّ عصر من حَمَلتِه بدر طالع ، وزهر غصن يانع ، وعلَمٌ ترنو إليه أبصار وتومِىء إليه أصابع ، وصناعة البراعة بينهم تتمكّن وتتأصّل ، وتنويع البديع ينضبط ويتحصّل ، والآخِر يكدّ ذهنه فى تتميم ما غادره الأول ؛ إلى أن اعتدلت كفّتاه ، وامتلأت ضِفّتاه ، وراق مجتلاه ومجتناه ، وتناهَى فى الحسن والإحسان لفظه ومعناه .

وكان آخرَ البلغاء وخاتمة الأدباء ، أولهم بالاستحقاق ، وأولاهم بسِمَة السباق ، والفذّ الذى قد عقمت عن توءمه فتية العراق ، وفارس ميدان البراعة ،

(١) يقال : تصافن القوم الماء ؛ إذا قسموه بالحصص . والعافى : ما فضل فى القدر ؛ والكلام على الاستعارة .

(٢) قوام الأمر بالكسر : نظامه وعماده .

ومالك زمام القرطاس واليراعة ، والملبِّي عند استدعاء دُرَر الفِقَر بالسمع والطاعة ، أبو محمد القاسم بن عليٍّ الحريريّ ـ سقى الله ثراه صَوْب رحماه ، وكافأ إحسانه في الثناء عليه بحسناه ـ فبسط لسان الإحسان ، ومدّ أفنان الافتنان ، ومهّد جادّة الإجادة ، وقوّى مادّة الإفادة ، ولم يُبق فى البلاغة متعقّبا ، ولا للزّيادة مترقّبا ، لاسيّما فى المقامات التى ابتدعها ، والحكايات التى نوّعها وفرّعها ، والمُلَح التى وشّحها بدُرَر الفِقَر ورصّعها ؛ فإنه برّز فيها سابقاً ، وبزّ البلغاء فائتا ، وأتى بالمعنى الدّقيق للّفظ الرّقيق مطابقاً ، وخلّدها تاجاً على هامة الأدب وتِقصاراً[1] فى جِيد لغة العرب ، وروضة تحوم أنفاس الهمم عليها ، ولا تصل أيدى المطامع إليها .

ولمّا كانت من البراعة بهذا المحلّ الشهير ، وسارتْ مسير النَّيِّرين بين مشاهير الجماهير ؛ جعلتُ الاعتناء بها سهم نهمى ، والعكوفَ عليها حرزَ عزمى ، والدّءوب فى حفظ لغاتها وفكّ مخبآتها أهمّ همّى ، وصيَّرت تحفُّظَها فرضَ عينى ، والفكر الذى لا يحول وَسَنِى بينَه وبينِى . فبدأت بروايتها عن الشّيوخ والثّقات ، وتقييد ألفاظها عن أعلام هذه الجهات ؛ حتى لا أنقل لفظاً إلّا عن تحقيق ، ولا أثبت ضبطاً إلا من طريق .

فكان أوّل من أخذت عنه روايتها ، وتلقّيت منه درايتها ، ببلدى ، الشيخ الفقيه المقرئ أبو بكر بن أزهر الحجَرِىّ ، حدَّثنى بها عن صهره الفقيه المحدّث الراوية أبى القاسم بن عبد ربه القيسى المعروف بابن جهور ، عن منشئها أبى محمد الحريرىّ . وحدّثنى بها أيضا ببلدى الشيخ الفقيه الراوية أبو بكر بن مالك الفِهرىّ عن ابن جهور المذكور ، وعن الشيخ الفقيه أبى الحجَّاج الأُبَّذِى القضاعىّ ، كلاهما عن أبى محمد الحريرىّ . وحدّثنى بها أيضا إجازةً الشيخ الفقيه المحدّث أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الحجَرِىّ

---

(١) التقصار والتقصارة ، بالكسر : القلادة ؛ سميت بذلك للزومها قصرة العنق .

عن القُضاعيّ. وحدثني بها أيضا الكاتب الزاهد أبو الحسين بن جبير عن الشيخ الجليل بركات بن إبراهيم بن طاهر بن بركات القرشي المعروف بالخشوعيّ عن الحريريّ. وحدثني بها أيضا الشيخ الفقيه الأستاذ أبو ذرّ مُصعب بن محمد بن مسعود الخُشنيّ بسنده، بعد وقوفه رحمه الله على هذا الشرح وأمْرِه لي بتكميله.

وتلقيت بها جماعة من جلّة الأشياخ أكثرَ في العدد ممن ذكرت؛ لا يعدمني واحد منهم إفادة ضبطيّة أو لفظيّة، ولا يفقدني زيادة هزلية أو وعظية، فأخذتُها أخذ متثبّت، عن واع متمكّن.

ثم لم أدع كتاباً أُلِّفَ في شرح ألفاظها وإيضاح أغراضها، وتبيين الإنصاف بين انفصالها واعتراضها إلا وعيتُه[1] نظراً، وتحقّقتُه معتبراً ومختبراً، وتردّدت في تفهّمه وِرْداً وصدَراً، وعكفت على استيفائه بسيطاً كان أو مختصراً؛ حتى أتيت على جميع ما انتهى إليه وسعي ممّن فسرها، واستوعبت عامة فوائده الممكنة بأسرها؛ ولم أترك في كتاب منها فائدة إلا استخرجتُها، ولا فريدة إلا استدرجتها، ولا نكتة إلا علقتها، ولا غريبة إلا استاحقتها، ولا غادرت في موضع منها مستحسناً يشذّ عن جمعي، ولا مستجادا ينبُو عنه بصري أو سمعي.

فاجتمع من ذلك حفظاً وخطًّا أعلاقٌ جمّة، وفوائد لم تهتمّ بها قبلي همّة. ثم لم أقنع بتبيين الدواوين، ولا اقتصرتُ على توقيف التصانيف؛ حتى لقيت بها صدور الأمصار، وعلماء هذه الأعصار، فباحثتُ وناقشت، وتأوّلت وتداولت، وطالبت المتحفّظ بالأداء، والمتيقّظ بالإبداء؛ حتى لم أُبق في قادحةٍ زَنداً إلا اقتدحته، ولا مُقفَلا إلا افتتحته، فتحصّل لي من ذلك أيضاً عيون صائبة النواظر، وفنون قَلَّما توجد في مخبّآت الدفاتر.

وأنا في خلال ذلك ألتمس مزيداً، ولا أسأم بحثاً وتقييداً، إلى أن عثرتُ على

---

(١) ط ب: «أوعيته»، وأوعى الشيء: حفظه؛ مثل وعى.

شرح الفَنْجَديهى[(١)] للمقامات ـ والفنجديهىّ هو الشيخ الحافظ أبو سعد محمد ابن عبدالرحمن بن محمد المسعودىّ ،من قرية فنجديهمن عمل خراسان ـ فرأيت فى شرحه الغاية المطلوبة ، والبغية المرغوبة ، والضالّة التى كانت عنّى إلى هذا الأوان مطوية محجوبة ؛ فاستأنفت النّظر ثانياً ، وشمّرت عن ساعد الجِدّ لا متكاسلا ولا وانياً ، وعاينت نور المعنى فى نور اللفظ فأصبحت مجتانياً جانياً ، فاستوعبته أيضا أبلغ استيعاب ، وقيّدت من فوائده ما لم أجد قبله فى كتاب ، وأخذت منه أحاديث مسنَدةً أوردها ، وآثاراً مرفوعة قيّدها تليق بالباب الذى أوردت فيه ، وتورَد مصحَّحةً إما لألفاظه وإما لمعانيه ، وحذفت أسانيد ـ وإن كانقد أوردها ـ تخفيفاً عمّن يريدالمتن ويبتغيه ؛ فتمّ لى بهذا الغرض استيفاءُ مقاصده ، واستيعاب فوائده . وتركتُه مستلَب المعانى ، مطروق المغانى ، كالروض ركدتْ ريحه ، والجسم قبض رُوحه ؛ فانضاف من فوائد هذا التأليف البديع ـ إلى الفوائد الملتقَطة من الألسنة والمأخوذة من التصانيف المستحسنة ـ روضٌ كلهزهر،وسلْك كلّه دُرَر ، وأدبإن لم يجمعه التصنيف فهو بعد عين أثَر .

فاستخرت الله تعالى فى ضمّ ما انتشر من فوائدها ، ونظم ما انتثر من فرائدها ، والاعتناء بتأليفٍ فىالمقامات يُغنى عن كلّ شرحتقدّم فيها ، ولايحوج

---

(١) الفنجديهى ؛ منسوب إلى فنجديهة ، قال ياقوت : « فنجديهة ، بالفتح ثم السكون ثم فتح الجيم وكسر الدال وياء ثم هاء خالصة ، وينسب إليها فنجديهة . بلدة فيها خمس قرى؛ قد اتصلت عمارة بعضها ببعض ، قرب مرو الروذ» . وهو أبوسعيدمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود المسعودى ، المتوفى سنة ٥٨٤ ، ذكره صاحب كشف الظنون ، ووصفه العماد فى شذرات الذهب بالرحال الأريب وقال : مات عن اثنتين وثمانين سنة بدمشق ، وسمع من أبى الوقت وطبقته ، وأملى بمصر مجالس ، وعنى بهذا الشأن ، وكتب وسعى ،وجمع فأوعى ، وصنف شرحا طويلا للمقامات ، قال يوسف بن الخليل الحافظ: لم يكن فى نقله بثقة ، وقال ابن النجار : كان من الفضلاء فى كل فن ، فى الفقه والحديث والأدب ، وكان من أظرف المشايخ وأجملهم » .

إلى سواه فى لفظ من ألفاظها ولا معنًى من معانيها ، فتمّ من ذلك مجموعٌ جامع ، وموضوع بارع[1] ، أودعتُه من اللغات أصحَّها وأوضحَها ، وأسلسها قياد لفظ وأسمَحها ؛ وأولاها بالصواب فى مظانّ الاختلاف وأرجحَها ؛ ونسبت المشكِلَ منها إلى قائله من جهابذة العلماء ، وجمعت بين مشهور اللغات ومشهور الأسماء، وسبكت العبارة عن المعانى سبكاً يدلّ على الإلغاء والإصغاء . وهذا الفصل وإن سبقنى إليه مَنْ تقدّمنى من الشارحين قبلى ، فلى فيه مزيّة إيراد اللفظ البعيد عن الإشكال ، والمطابقة بين الأقوال وأرباب الأقوال .

ثم زدت فى فوائد هذا التأليف التعريفَ بالأمصار المذكورة فى المقامات على أوفَى ما يمكننى ؛ من ذكر مواضعها وأقدارها واختطاطها ، ومَنْ عَقَد صلحَها ، أو تولّى فتحها ؛ وهذه فوائد لا يخفى مكانها ، ولا ينكَر استحسانُها ، فالحاجة إلى التعريف بالمكان ، تتلو الحاجة إلى غوامض اللسان .

ثم استوعبتُ شرح الأمثال ونسبتها، جمعاً بين القائلين والأقوال، ولم أغفل منها الكثير الدّوْر ولا القليل الاستعمال ،وهذا الفن لم يتبعه أحد على الكمال ، وإن ذكره فإنما يذكره استطراداً بحسب الحال .

ثم استوفيتُ أيضا ذكر مَن وقع فيه من الرجال والنساء أتمّ استيفاء ، وعرّفت المشتهرين من الآباء والأبناء ، وبيَّنت أنسابهم وأمكنتهم ، وأخبارهم وحِرْفتهم ، وآثارهم ومدّتهم ، زيادة فى التّهمُّم[2] والاعتناء . وهذا الفن أيضاً لم يورده الشارحون حقّ إيراده ؛ ولا اعتمدوه بالتبليغ حقّ اعتماده ، وهو مهمٌّ فى الإفادة ، وعلى مغفله فى الوقت وبعدَه الإعادة .

ثم زدت فيه فصلين مفيدين لم أرَ مَنْ اعتنى بهما ،ولا من قَصَد قصدهما، سوى أبى سعيد النَّشْجَديهىّ فى بعض المواضع ، فإنه ألمح وألمع ، وأورد اليسير فما شفى ولا أقنع :

---

(١) ا : «فصار ذلك مجموعا جامعا ، وموضوعا بارعا » .

(٢) ط : « التهيم » ، تحريف ، صوابه من ا .

أحدهما: تبيين مأخذ الحريرىّ فى الكلام ، وإخراج الإحالات المودَعة فيه من حيّز الإبهام ،والردّ إلى المنشأ فى آيةٍ أو أثرٍ ، أو خطبة أو خبر ، أو حكمة فائقة ، أو لفظة رائقة ، أو بيتٍ نادر ، أو مثلٍ سائر ؛ وهذا تتميم بيِّن ، وتكميل متعيّن .

والفصل الثانى : التنبيه على صناعة البديع، وتوفية أسمائه ؛ كالتجنيس والتتميم والترصيع ، والإتيان بهذا النوع من التبيين والتنبيه على الجميع ، وبسط أنواع الأدب وافتنانه ، والإكثار من الشعر فى مظانّه من الجدّ والهزل فى المواضع اللائقة باستحسانه ، ومقابلة كل باب بما يزيد فى حسنه وبيانه ، والجرْى مع أبى محمد حسب اتساع خطوه وامتداد ميدانه .

ومن تمام التّصنيف ردّ الفرع إلى أصله ، والجمع فى الترتيب بين الشكل وشكله ، فأتبعتُ المواعظ بما يزيدها أثراً فى القلوب ، وأردفت المسلّيات بما يُعينُها فى إجلاء الكروب ، وسلكتُ هذه المسالك فى سائر الأساليب وأنواع الضروب ؛ فإن وُجِد فى هذا الكتاب لفظ ظاهره للهزل ، أو معنى ينسَب فيه إلى العذْل ؛ من وصف نوْر وثمر ، وذكر نديم وخمر ، أو نعت حُسْنٍ وحسن ، أو مدح سماع وأذن ، فلأنَّ أبا محمد بدأ بأمر فتمّم ، وخصّ نوعاً فعمّم ، مع أنّ صنعة الأدب مبنية على المُلَح ، وخواطر الأدباء جائشة بما سَنَح . فجاء من هذا الترتيب الغريب ، ما يضرب فى الإجادة بسهم مصيب ، ويثبت لى فى الجدّ والدءوب أوْفرَ نصيب .

ثم رأيت الشارحين لها من أولى البصَر كالفنجديهىّ وابن ظَفر[1]

---

(١) هو محمد بن أبى محمد بن محمد بن ظفر ؛ صاحب التصانيف المتنوعة السائرة ؛ ذكره القفطى فى الإنباه ٣ : ٧٥ ، وقال : « ورأيت له شرح المقامات ، قد صنفها لأهل المغرب ، وقد نقل ألفاظها من نسخة سقيمة فصحف وشرح التصحيف ؛ وسمعت أنه كان يعتذر من ذلك إذا قيل له ، ويقول : هذا أمر أحدثته العجلة وبعد الدار . وذكر صاحب كشف الظنون هذا الشرح وسماه : « التنقيب على ما فى المقامات من الغريب » .

قد جرّدوا من شروحهم مختصرات وجيزة ، اقتصروا فيها على إيراد اللغات ، فحذوتُ حذوَهم فى مختصرٍ أوردتُها فيه على الكمال ، ووفّيتها حقها من رفع الغلط وكشف الإشكال ، ولم أخلّ فى تصريفها واشتقاقها بوجه من الوجوه ولا حال من الأحوال ، فجاء غاية فى هذا الباب ، مغنيا فى اللغات الغريبة عن كل كتاب ؛ فإن فاته هذا الأصل بضروب من الإفادات وأنواع من الزيادات، فلذلك الفرع شُفوف الاستيعاب فى اللغات ، ومزية الاشتقاق والتصريف والشاهد من الشعر والآيات .

وكلّ ذلك بلطف الله تعالى ، وبسعد مَنْ شرّفت كتابى بخدمته ، وبنيتُ تأليفى على أداء شكر نعمته ، ونصبت نفسى لأقف ببابه الأعلى ، وأتزيّن بلثم تربته فأنا العبد وهو المولى ؛ عماد الأنام ، والظلّ الممدود على المسلمين والإسلام ، ونعمة الله التى هى من أفضل النعم الجسام ؛ منفّق سوق المعارف ، ومفجّر بحور المِنَن والعوارف ، المجير بفضله وعدله من المفاقر الفادحة والمخاوف ، سيّدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو عبد الله ابن إمام الأئمة الراشدين وولّى عهده سيدنا الأمير الأجلّ أبو يعقوب ، أيد الله سلطانهم ، وأيّد بيضتَهم وحزبهم ، وجمع القلوب على الانقياد لهم ، والوجوهَ على التوجّه قِبَلهم .

وهذا الكتاب وإن كان المعبِّر عن حسنه ، والغاية الملتمسة فى فنّه ، والجامع لما افترق فى سواه ، والمبرّز بما وشّحه من الزيادات وحلّاه ، فإنه لم يتم جماله ولا استوفى احتواءه على الفوائد واشتماله ، إلا ببركة مولانا الخليفة ، واقتران اسمه الكريم باسم ولىّ عهده المستحق للتقديم فى هذه الصحيفة . فالحمد لله على التوفيق لخدمتهم ، والمعونة على شكر نعمتهم، والتعرّض لخيرى الدنيا والآخرة فى ظلّ حرمتهم.

وقد بذلتُ فى الخدمة جَهْدى ، وأبرزت من فوائد هذا التأليف أنفس ماعندى ، ولم أتعاط قياماً بكل الواجب ، ولا وفاء بجميع الحقّ الراتب ؛ فالقول يقصر عن التحصيل ، وليس إلى مطاولة الطود ومكاثرة اليمّ من سبيل .

وقد كنت حين أتممتُ هذا التأليف ، وألقيت عن كاهلى الأعباء التى له والتكليف ، وجلوته كالحسناء ألقت فى المنصّة النّصيف ، كثرت خطابه إلىّ من البلدان ، وتواردت عليه رغبات الاستجادة والاستحسان ، فقلت : حتى يتشرّف بلثم اليمين العليا ، ويتخصص بقبول إمام الدين والدنيا ، فمن بابه الأسمى يُلتقط درّه المنظوم ، وببركاته يسطع مسكه العبِق[1] المختوم .

وها أنا أشرع ببركة الله وبركة خليفته المبارك الأهدى ، وبنجله المتقلّد منه صفة وعهداً ، فى شرح الخطبة كلمة كلمة ، وإيضاحها حتى لا أدع لفظة مبهمة ، ثم أشرح المقامات على الولاء ، وأسلك الجمعَ بين الإيجاز والاستيفاء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وسلم أفضل التسليم .

(١) ط : « العبق » تصحيف ، صوابه من ا .

بسم الله الرحمن الرحيم

# الصَّدْرُ

**اللَّهُمَّ إِنَّا نَحْمَدُكَ عَلَى مَا عَلَّمْتَ مِنَ الْبَيَانِ ، وَأَلْهَمْتَ مِنَ التِّبْيَانِ ، كَمَا نَحْمَدُكَ عَلَى مَا أَسْبَغْتَ مِنَ الْعَطَاء ، وَأَسْبَلْتَ مِنَ الْغِطَاء .**

* * *

اللهمّ إنا نحمدك ؛ اللهم اسم خصّصته الميم المشددة فى آخره بنداء البارى سبحانه ، والتُزم معها حذف حرف النداء لوقوع الميم خلفاً عنه ، ولحلّ اللام فى أوله ، لأنه لا يلى حرفَ النداء لامُ التعريف إلا فى قولهم : « يا ألله » ؛ لتكون اللام الزائدة نائبة عن حرف أصلىّ ، وهى همزة « إله » ، فصارت كالأصلىّ ، وفى غير هذا الاسم تتجرد اللام للزيادة فى أول الاسم . و « يا » زائدة فى أوله كذلك ، وهما جميعا لتخصيص الاسم وإزالة شياع التنكير عنه ، فلمّا تقاربا فى المعنى، وتشابها فى الزيادة ، وطلب كل واحد منهما أن يَلِىَ الاسمَ دون صاحبه ، ترك استعمال الجمع بينهما فى أول الاسم إلا فى ضرورة الشاعر لإقامة الوزن. وأما اللام فى قولهم : « يا ألله » فلما كانت نائبة عن حرف أصلىّ خفيت زيادتها ، فلما زادوا الميم فى آخره فضحت اللام وشهرت معنى الزيادة ، فامتنعت « يا » من أوله إلا عند الضرورة كامتناعها فى الرجل والغلام ؛ فلما كانت الميم هى الموجبة لمنع «يا» حُمِّلَ الاسم معها معنى « يا » فصار مختصًّا بالنداء ممتنعا من غيره .

ونحمدك ، معناه نثنى عليك بأتمّ وجوه الثناء كلها ، فيدخل تحته الشكر ،

والشكر ثناء يقابَل به معروف ، وفى الحديث : « الحمد رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره »[1] ، والحمد ذكر الرجل بما فيه من صفات جليلة . والشكر ذكره بماله من أفعال جزيلة ، من قولهم : دابّة شكور ، إذا ظهر بها من السِّمَن فوق ما تأكل من العلف . ويقال : أشْكَر من بَرْوَقة[2] ، وهى شجرة معروفة تخصب بأدنى مطر ؛ ويؤكد الفرق بينهما أن الحمد فى مقابلة الذمّ والشكر فى مقابلة الكفر ، فاختلاف نقيضيهما دليل على اختلافهما فى أنفسهما .

البيان: وضوح المعنى وظهوره ، والتّبيان : تفهّم المعنى وتبيّنه . والبيان مِنْك لغيرك ، والتّبيان منك لنفسك ، مثل التبيين تقول: بيَّنت الشىء لغيرى بياناً وتبيَّنته أنا تبيانا ؛ وقد يقع التِّبيان بمعنى البيان ؛ حكى أبو منصور الأزهرىّ رحمه الله: بيّنت الشىء تبييناً وتبياناً ، قال تعالى ﴿تبيْاناً لكلِّ شىء﴾[3] أى يبيّن لك فيه كل ماتحتاج إليه أنت وأمّتك من أمر الدين ، فهو لفظ عامّ أريد به الخاصّ . وقد يقع البيان لكثرة الكلام ، ويُعَدُّ ذلك من النفاق ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم: « الحياء والعىّ شعبتان من الإيمان ، والبَذاء والبيان شعبتان من النفاق» أخرجه الترمذى[4] . وقال: «العِىّ قلة الكلام والبَذاء الفحش ، والبيان كثرة الكلام» .

ألهمتَ: نبّهت عليه وفهّمته . وأسبغتَ : أتممت وكثّرت . وأسبلت : أطلت . والغِطاء ، أراد به ستر الله على عبده .

* * *

وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شِرَّةِ اللَّسَنِ ، وَفُضُولِ الْهَذَرِ ، كَمَا نَعُوذ بِكَ مِنْ مَعَرَّةِ اللَّكَنِ ، وَفُضُوحِ الْحَصَرِ . وَنَسْتَكْفِى بِكَ الافْتِتَانَ بِإِطْرَاء

(١) الجامع الصغير ١ : ٢٦٠

(٢) الميدانى ١ : ٣٨٨ ، قال فى شرحه : « هى شجرة تخضر من غير مطر ، بل تعيش بالسحاب إذا نشأ – فيما يقال » .

(٣) سورة النحل ٨٩ .

(٤) نقله فى الجامع الصغير ١ : ٢٦١ عن الترمذى وأحمد والحاكم .

الْمَادِحِ ، وَإِغْضَاءِ الْمُسَامِحِ ؛ كَمَا نَسْتَكْفِي بِكَ الانْتِصَابَ لإِزْرَاءِ الْقَادِحِ ، وَهَتْكِ الْفَاضِحِ .

* * *

نعوذ، أي نستجير . شِرّة: حدة، واللسن: حدة اللسان وإدلاله على الكلام. فضول: زوائد. الهذر : إكثار الكلام بغير فائدة . معرّة: شدة وصعوبة، والمعرّة: العيب والعار . وقيل : هي كل مايؤذيك ، وفلان يَعُرّقومَه ، أي يُدخل عليهم مكروها يلطّخهم به ؛ وأصله من العَرّة وهي الفَعْلة القبيحة ، أو من العُرّ وهو الجرب . واللَّكَن: احتباس اللسان عند الكلام. فضوح: شهرة وفضيحة. الحَصَر: العيّ ، وحَصِر حَصَراً إذا أعيا واستحيا أوضاق صدره. واستعاذ من شرّة اللسن لأنه من اقتدر على الكلام أدّاه إلى المطاولة في الجدل وتصوير الباطل في صورة الحق ، وفيه إثم على فاعله، وأصل الشِّرّة القلق والانتشار ، ومنه الشرّ ؛ وقد شرّ يشُرّ ، ومنه شرَر النار . ثم استعاذ من ضدّها وهي المعرّة ، لأن صاحبها لا يتم لفظه فيشين بذلك نفسه ، ويقصر عن مراده من البيان . ثم قرن بها الحصر لأن مَنْ يعتريه يتوالى عليه الوَهَلُ والخجل ؛ فلا يستطيع الكلام، فيفتضح ويشتهر عيبه.

وهذا الفنّ من الكلام يسمّى في صنعة البديع المقابلة، وأول من صدّر به كتابا عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب البيان[1]، فقال: اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العُجْب بما نحسن، ونعوذ بك من السَّلاطة والهَذر[2]، كما نعوذ بك من العِيّ والحَصَر ؛ وقديما تعوّذوا بالله من شرهما، ورغبوا إليه في السلامة منهما ؛ وقد قال النَّمِر بن تولب :

(١) البيان والتبيين ١ : ٣ ، مع اختصار وحذف .
(٢) السلاطة : حدة اللسان والصخب : والهذر : كثرة الكلام في خطأ .

أعذنى ربِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ ومن نفسٍ أعالجها علاجا

وقال محمد بن علقمة[١] :

لقد وَارَى المقابرُ من شريك كثيرَ تحـــلُّمٍ وقليلَ عابِ

صَمُـــوتاً فى المحافل غيرَ عَىٍّ جديراً حين ينطقُ بالصوابِ

ثم استرسل فى ذكر العىّ والبيان إلى غاية بعيدة ، واستشهد على النوعين بآيتين؛ بقوله تعالى: ﴿سلقوكم بألسنةٍ حِدَادٍ﴾[٢]، وفى الضدّ بقوله تعالى: ﴿أوَمَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيَةِ وهو فى الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[٣]؛ فاحتذى الحريرىّ هذا الحذو، فجاءت تشبيهاته أطبع وأصنع، وزاد عليه بأن ابتدأ بحمد الله على نعمة البيان ، ثم استعاذ مما استعاذ منه الجاحظ ، وبيان المقابلة فى كلامه أنه قابل شِرّة بعرّة واللّسن باللّـكن، والهذَر بالحصَر ؛ فإذا تفهّمْتَ مواقعها فى كلامِه قسْتَ عليهـا مايشبهها فى النظم والنثر .

وسئل قدامة الـكاتب عن المقابلة ، فقال : هى أن يضع الشاعر ألفاظا يعتمد التوافق بين بعضها وبعض فى المخالفة ، فيأتى فى الموافق بمايوافق ، وفى المخالف بمايخالف ، وأنشد فى ذلك :

فياعجباً كيف اتفقنا فناصحٌ وفِىٌّ ومطوىٌّ على الغِشِّ غادرُ[٤] !

فجعل بإزاء « ناصح » ، « وفىّ » ، « غاشّا : غادرا » . ومثله :

فتًى تمّ فيـــه مايسُرّ صديقَه على أنّ فيه مايَسوءُ الأعاديا[٥]

نستكفى : معناه نسألك ونطلب منك أن تـكفِيَنا الافتتان ؛ وذلك أن تصاب بفتنة الإعجاب ، وأصل الفتنة اختبار النضّة بالنار، قال تعالى فى الاختبار : ﴿وفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾[٦]، أى اختبرناك. والفتين: النضة المحرقة، والفتين أيضا : الحجارة المحرقة ، وهى الحجارة تُدلَك بها الأقدام فى الحمّام. والإطراء: الاسترسال فى مدح

(١) فى البيان والتبيين : « محرز بن علقمة » .
(٢) الأحزاب ١٩ .
(٣) الزخرف ١٨ .
(٤) تحرير التحبير ١٨١ — قال : وأحسبه لـكثير . وانظر العمدة ٢ : ١٤
(٥) النابغة الجعدى ، ديوانه ١٧٤ .
(٦) سورة طه ٤٠ .

الإنسان بحضره، وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لا تُطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله».

إغضاء: تجاوز ومسامحة، وأصله أن يبدوَ لك الشيء فتدنى جفنيك وتقصُر نظرك كأنك لم تره. والإغضاء: الإغماض وأغضيت عنه وأغمضت، إذا تغافلتَ عنه. المسامح: الموافق لغرضك، المتجاوز عن عيبك. الانتصاب: الظهور والاعتراض أمام الشيء. إزراء: تقصير وتنقيص. القادح: العائب، وقدَحت الدود فى الأسنان والشجر: أكلتْها، فكأنَّ فعل هذا العائب فى أعراض الناس فعلُ الدود فى الشجر. والقادح أيضا: الذى يضرب الزند بالحجر ليورى. هتك: شقّ، وهتكت الستر: خرقتَه. الفاضح: الذى يشهر عيوبك، وفضحت الشيء: كشفته.

* * *

وَنَسْتَغْفِرُكَ مِنْ سَوْقِ الشَّهَوَاتِ إِلَى سُوقِ الشُّبُهَاتِ؛ كَمَا نَسْتَغْفِرُكَ مِنْ نَقْلِ الْخُطوَاتِ إِلَى خِطَطِ الْخَطِيئَاتِ. وَنَسْتَوْهِبُ مِنْكَ تَوْفِيقًا قَائِدًا إِلَى الرُّشْدِ، وَقَلْبًا مُتَقَلِّبًا مَعَ الْحَقِّ، وَلِسَانًا مُتَحَلِّيًا بِالصِّدْقِ، وَنُطْقًا مُؤَيَّدًا بِالْحُجَّةِ، وَإِصَابَةً ذَائِدَةً عَنِ الزَّيْغِ، وَعَزِيمَةً قَاهِرَةً هَوَى النَّفْسِ، وَبَصِيرَةً نُدْرِكُ بِهَا عِرْفَانَ الْقَدْرِ.

* * *

نستغفرك: نسألك المغفرة، وهى من غفرتُ الشيء سترتَه. الشبهات: جمع شبهة وهى ما يشتبه عليك أمره. والخطوات: جمع خطوة؛ وهى ما بين القدمين. الخطط: جمع خطة وهى الطريق يخطّه الرجل فى الأرض يجعله حدًّا للشيء يحوزه ويعتمده. والخطّة، بالضم: المنزلة والمزية. والخطيئات: الذنوب، وهى من الخطأ، وجعل ما ساقه

فى المقامات كأنه شهوة اشتهى عماها ، ثم اشتبه عليه : هل فى ذلك رضا الله أم سخطه ! فكأنه ساق شهوة إلى سُوقٍ يجهل التَّبايع فيها فلعلَّه فيها خاسر الصفقة ، فلهذا استغفر الله منها. الرُّشد :الهداية رشده الله رشدا وأرشده :هداه . ورَشَدهو رُشْدًا ورشادا :اهتدى . متحلِّيًا : متَّصفا ومتزينا . مؤيدا : مُعانًا . وأصاب فى كلامه إصابة :إذا نطق بالصواب ، ورمى فأصاب لم يخطىء ؛ وقوله تعالى : ﴿ رُخاءً حيثُ أصَابَ[1] ﴾ ، أى حيث أراد ، قال الفرّاء : اختلفتُ أنا وعيسى النحوىّ فى الآية فقلت : ماأحدٌ أعلَم بهذا من رؤبة ، قال:فسرنا إليه فلقيناه يتوكأ على اثنين ، فقال : أين تصيبان؟أى أين تريدان؟ ، فقلت لصاحبى: كُفيتَ السُّؤال[2].ذائدة : دافعة . الزيغ: الميل ، وزاغ عن الحق:مال عنه إلى الباطل.العزيمة : الجدّ ، وعزم على الشىء :جدَّ فيه . قاهرة : غالبة . وهوى النفس:ماتحبّه وتميل إليه . بصيرةً : يقينا ، والبصيرة للقلب ، والبصر للعين . عِرْفان القدر ، أى معرفة أقدارنا .

* * *

وَأَنْ تُسْعِدَنَا بِالْهِدَايَةِ إِلَى الدِّرَايَةِ ، وَتَعْضُدَنَا بِالإِعَانَةِ عَلَى الإِبَانَةِ ، وَتَعْصِمَنَا مِنَ الْغَوَايَةِ فى الرِّوَايَةِ ، وَتَصْرِفَنَا عَنِ السَّفَاهَةِ فى الْفُكَاهَةِ ؛ حَتَّى نَأْمَنَ حَصَائِدَ الأَلْسِنَةِ ، وَنُكْفَى غَوَائِلَ الزَّخْرَفَةِ ؛ فَلا نَرِدَ مَوْرِدَ مَأْثَمَةٍ ، وَلاَ نَقِفَ مَوْقِفَ مَنْدَمَةٍ ، وَلاَ نُرْهَقَ بِتَبِعَةٍ وَلاَ مَعْتَبَةٍ ، وَلاَ نُلْجَأَ إِلَى مَعْذِرَةٍ عَنْ بَادِرَةٍ .

* * *

(١) سورة ص ٣٦ .

(٢) الخبر فى الكشاف ٤ : ٧٤ ، وروايته : « عن رؤبة ، أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة ، فخرج إليهما ، فقال : أين تصيبان ؟ فقالا : هذه طلبتنا ؛ ورجعا » .

الدّراية: مصدر دَرَيْتُ الشيء دِرايةً ودَرْياً، علمته. تعضُدنا: تقوّينا، وعضّده: أعانه وكان له عَضُدا. الإبانة: مصدر أبنت الشيء، أى بيّنته. تعصمنا من الغَواية، أى تمنعنا من الضلالة والفساد، والغَواية: مصدر غَوَى غيًّا وغَواية وغَوِىَ أيضا غَواية، وهما ضدّ رَشَد رُشْداً. الرواية: نقل الحديث من صاحبه إلى طالبه. تصرفنا: تزيلنا. السفاهة: الجهل، والفكاهة: المُزاح وماتستريح به النفوس وهى فى الكلام كالفاكهة فى الطعام. حصائد الألسنة: شرّ كلامها وقطعها فى أعراض الناس، وأراد ماجاء فى حديث معاذبن جبل رضى الله عنه، قال: قلت: يارسول الله، إنا لَمُؤاخذبما نتكلم؟ فقال: «ثكلتك أمّك يامعاذ! هل يَكُبُّ الناس فى النار على رءوسهم إلاحصائدألسنتهم!» فدعا الله أن يتمّ سعده بأن يؤمِنَه عادية الألسنة. والحصائد فى الأصل: جمع حصيدة وهى الحُزْمة من الزرع المحصود فهى فَعيلة بمعنى مفعولة، والحصيد: الشىء المحصود.

نكفى: نمنع. غوائل: قواتل ومهلكات، واحدها غائلة؛ وغالته المنيّة أهلكته. الزخرفة: تزيين الباطل، وأصلها تزيين الشىء بالزُّخرف وهو الذهب. نَرِد: نقصد. مورد مأثمة: موضع إثم، والمورد أصله الموضع يُشرب منه الماء. مندمة: ندم. نرهق: نُتَّهم ونعاب: والرهق: العيب، وتبعة: خطيئة يتبعه ضررها بعد الموت. معتبة: سخط، وهى من العتاب، وهو تقبيح القول على جهة الإشفاق، وأصله من عتبتُ الأديمَ، أى رددته إلى الدبّاغ ليصلح، ومنه: إنما يعاتَب الأديمُ ذو البَشَرة[1]. ويقال: عتب علىّ فى كذا عتباً فأعتبتُه، أى رجعت إلى مايريد وأرضيته. وباء «تبعة» وتاء «معتبة» يكسران ويفتحان. نلجأ: نُحْوَج. معذرة: اعتذار. بادرة: سَقْطه وَزَلّة، وقد بدرت الكلمة والفعلة:

(١) الميدانى ١: ٤٠ قال: «والمعاتبة: المعاودة، وبشرة الأديم: ظاهره الذى عليه الشعر، أى أن ما يعاد إلى الدباغ من الأديم، ما سلمت بشرته».

ـخرجت من غير أن يدبّر موقعها ، وفلان تُخشَى بوادره ، أى فلتاته .

* * *

اللَّهُمَّ فَحَقِّقْ لَنَا هَذِهِ الْمُنْيَةَ ، وَأَنِلْنَا هَذِهِ الْبُغْيَةَ ، وَلاَ تُضْحِنَا عَنْ ظِلِّكَ السَّابِغِ ، وَلاَ تَجْعَلْنَا مُضْغَةً لِلْمَاضِغِ ؛ فَقَدْ مَدَدْنَا إِلَيْكَ يَدَ الْمَسْأَلَةِ ، وَبَخَعْنَا بِالاسْتِكَانَةِ لَكَ وَالْمَسْكَنَةِ ، وَاسْتَنْزَلْنَا كَرَمَكَ الْجَمَّ ، وَفَضْلَكَ الَّذِى عَمَّ ، بِضَرَاعَةِ الطَّلَبِ ، وَبِضَاعَةِ الأَمَلِ . ثُمَّ بِالتَّوَسُّلِ بِمُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْبَشَرِ ، وَالشَّفِيعِ الْمُشَفَّعِ فِى الْمَحْشَرِ ، الذى خَتَمْتَ بِهِ النَّبِيِّينَ ، وَأَعْلَيْتَ دَرَجَتَهُ فِى عِلِّيِّينَ . وَوَصَفْتَهُ فِى كِتَابِكَ الْمُبِينِ ، فَقُلْتَ وَأَنْتَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾(١) . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الْهَادِينَ ، وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ شَادُوا الدِّينَ ، وَاجْعَلْنَا لِهَدْيِهِ وَهَدْيِهِمْ مُتَّبِعِينَ ، وَانْفَعْنَا بِمَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، وَبِالإِجَابَةِ جَدِيرٌ .

* * *

المُنية : ما يُتمنّى . والبُغْية : مايطلب . أَنِلْنا : أعطنا . تُضْحِنَا : تكشفنا . ظلّك السابغ : سترك المديد ، وأصلُ الظلّ الستر ، والموضع الذى لاتبلغه الشمس ، وفى الحديث « ضَحَا ظلّه » ، أى عدم فانكشف موضعه للشمس . مضغة : لقمة ، وكلّ مايمضغ لُقمة ، والماضغ هنا : العائب الآكل أعراضَ الناس ، وجعل العِرْض حين يعيبه مُضغة له ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لمَّا عُرِج

(١) التكوير ١٩ – ٢١ .

بى مررتُ بأقوامٍ لهم أظفار من نحاس يخمشُون وجوههم وصدورهم ، فقلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : « هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس ويقعون فى أعراضهم » . المسألة : الحاجة والفقر . بخعْنا : أقررنا ، وبخع له بحقِّه أقرّ به ، وبخع نفسَه : قتلها غيظا ، ومنه : ﴿فلعلَّكَ بَاخِعٌ نفسَك﴾[1] فالتعدّية بالباء غيرُ التعدّية بنفسها . الاستكانة : الخضوع . والمسكنة : الفقر والذلة . استنزلنا : طلبنا أن تُنْزِل علينا ، والاستنزال السؤال بتلطّف . والجمّ : الكثير . نضالك: إحسانك . عَمَّ : شَمَل . ضراعة : ذلة . البضاعة : المال يُتّجر به . الأمل : الرجاء ؛ يقول إن تجارتنا التى نحصل بها منك إحسانك ، رجاؤنا توكُّلُنا عليك . التوسُّل : التقرب . البشر : الخلْق ، وهو فى الأصل جمع بَشَرة ، وهى ظاهرة الجلد ، وسمُّوا بشرا ، لظهور أبشارهم خلافا لغيرهم من الحيوان . الشفيع : الطالب لغيره . والمشفَّع : الذى أُعْطِىَ الشفاعة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « خُيِّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتى الجنة فاخترت الشفاعة لأنَّها أعمُّ وأكفى ، أتَروْنها للمؤمنين المُتَّقين ! لا ولكنها للمذنبين المتلوّثين الخطائين »[2] .

المحشر : موضع اجتماع الناس يوم القيامة ، والمحشر أيضا : الحشر وهو الأشبه باليوم . ختمت : جعلته خاتمهم ، أى آخرهم . درجته : منزلته . عليّين : أعلى الجنة وكأنه جمع علِّيَّة . المُبين : المبيّن . رسول كريم ، قيل : هو جبريل ، وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم . مكين : رفيع المنزلة . ثَمّ : معناه هناك ، قال الزّجاجى : هى إشارة إلى ما كان متراميًا من الأماكن ، والأشهر أن المراد به فى الآية جبريل ؛ ولذا رجع الحريرى آخرا فأزال الآية من كتابه ، واستشهد بما اتفق مشاهير المفسرين على أن المراد به نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله تعالى : ﴿وما أرْسَلْنَاكَ إلّا رَحْمَةً للعالمين﴾[3] ، وليس رجوعه عن القول

(١) الكهف ٦ . (٢) نقله فى الجامع الصغير ١ : ١٨ .

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧

بعيب ، بل هو حسن ، إذ كان الرجوع عن الخطأ إلى الصواب واجباً ، إلا أن الثابت عند ابن جهور ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ ؛ قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو جبريل وهو الرسول لمحمد بالقرآن . ذِى قُوَّة : لأنه قلع بأحد جناحيه أربعَ مدائن لقوم لوط ؛ وهى سَدُوم ودامورا وصابورا وعمُورا ؛ فى كل مدينة مائة ألف إنسان سوى مافيها من الدوابّ والأنعام . آله ، أى أهله وأصله «أأل» فأبدلت الهمزة ألفاً ،وأكثرماتضاف إلى الظاهر ، وقد سُمِع إضافتُها إلى المضمر فى الشعر والكلام الفصيح ، خلافاً لأبى جعفر النحاس وأبى بكر الزُّبيدى، فإنهما منعا من إضافتها إلى المضمر ، وأكثرهم على أن همزتها مبدلةمن هاء «أهل» وصوابه أنّها أصل فى بابها ،من آل يئول إذا رجع لأنهم يرجعون إليه ويُرجع إليهم . الهادين : المرشدين إلى طريق الخير ، وقد هديته الطريق ، إذا أرشدته . شادوا : رفعوا وبنوا . هديه وهديهم : طريقته وطريقتهم ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهَ اللهَ فى أصحابى ، لاتتَّخذوهم غَرَضاً بعدى ، فمنْ أحبهم فبحبّى أحبهم ، ومَنْ أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن اذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » . جدير : حقيق .

* * *

وَبَعْدُ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَرَى بِبَعْضِ أَنْدِيَةِ الْأَدَبِ الَّذِى رَكَدَتْ فِى هَذَا الْعَصْرِ رِيحُهُ ، وَخَبَتْ مَصَابِيحُهُ ، ذِكْرُ الْمَقَامَاتِ الَّتِى ابْتَدَعَهَا بَدِيعُ الزَّمَانِ ، وَعَلاَّمةُ هَمَذَانَ رحمه الله تَعَالَى . وَعَزَا إِلَى أَبِى الْفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِىِّ نَشْأَتَهَا ، وَإِلَى عِيسَى بن هِشَامٍ رِوَايَتَهَا ، وَكِلاَهُمَا مَجْهُولٌ لاَ يُعْرَفُ ، وَنَكِرَةٌ لاَ تَتَعَرَّفُ .

* * *

أندية : مجالس واحدها ندِىّ ، والنَّدِىّ والنادى والمنتدى : مجلس القوم

للحديث ، وقيل هو من النَّدَى وهو الكرم ، لأنهم يُقصدون فيه فيُعطون . وقيل : هو من النداء الذى هو الصوت لأنه ينادى فيه بعضُهم بعضاً ليجتمعوا . وقيل :هو من النَّدَى وهو العَرَق لأن الداخل فيه يحتشم فيعرَق. والأدب: معرفة الأخبار والأشعار، وفلان أديب ، إذا كان متفنِّناً مشاركا. ركدت: سكنت ، والمقامات :المجالس،واحدها مَقامة،والحديث يُجتمع له ويجلس لاستماعه يسمّى مقامة ومجلساً ،لأن المستمعين للمحدّث مابين قائم وجالس ، ولأنّ المحدّث يقوم ببعضه تارةً ،ويجلس ببعضه أخرى ؛ قال الأعلم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحضّ على فعل الخير .

[ بديع الزمان الهمذانى ]

ذكر البديعَ أبو منصور الثعالبى فى يتيمته،فقال : « بديع الزمان هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهَمَذانى ، مفخر همَذان ، ونادرة الفلك وبِكْر عُطارد ، وفريد الدهر ، وغُرّة العصر ؛ ومَنْ لم يُلْفَ نظيرُه فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف الطّبع وصفاء الذهن وقوّة النفس، ولم يدرك قرينه فى ظرف النثر ومُلَحه وغرر النّظم ونكته ، ولم يُرْوَ أنَّ أحداً بلغ مبلغه من لُبّ الأدب وسِرِّه ، أوجاء بمثل إعجازه وسحره ، فإنه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب ، فمنها أنه كان يُنشَد القصيدة لم يسمعها قطّ ، وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلَّها ،ويوردها إلى آخرها،لاينخرم حرف منها . وينظر فى الأربع والخمس الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يعيدها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً . وكان يُقترَح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى غريب وباب بديع ، فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عمّا فيها، وكان ربّما يكتب الكتاب المقترَح عليه فيبتدئ بآخر سطوره ، ثم هلّم جرّا إلى الأوّل ، ويخرجه كأحسن شىء وأملحه ، ويوشّح القصيدة الفريدة من قبله بالرسالة الشريفة من إنشائه ، فيقرأ من النظم النثرَ ، ومن النثر النظم ، ويعطى القوافى الكثيرة ، فيصل

بها الأبيات الرشيقة . ويُقترَح عليه كلّ عروض من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف ، على ريق لا يبلعه ، و نَفَسٍ لا يقطعه ؛ وكلامه كلّه عفو الساعة وفيض اليد ومسارقة القلم ومجاراة الخاطر . وكان مع هذا مقبولَ الصورة . خفيف الرّوح ، حسن العشرة ناصع الظَّرْف ، عظيم الخُلُق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الودّ ، حلو الصداقة ، مرّ العداوة . فارَقَ همَذان سنة ثمانين وثلثمائة وهو مقتبل الشبيبة ، غضّ الحداثة . وقد درس على أبي الحسين بن فارس ، وأخذ عنه جميع عنده واستنفذَ علمه[١] . وورد حضرة الصاحب أبي القاسم بن عبّاد ، فتزوّد من ثمارها ، وحسن آثارها . وورد نيسابور في سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة[٢] ، فنشر بها بَزَّه ، وأظهر طرزَه ، وأملَى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الإسكندريَّ في الكُدْيَة وغيرها ، وضمّنها ماتشتهي الأنفس ؛ من لفظٍ أنيق قريب المأخذ بعيد المرام ، وسجْع رشيق المطالع والمقطع كسجع الحمام . وَجِدٍّ يروق فيملك القلوب ، وهزلٍ يشوق فيسحر العقول ...[٣] ثم ألقى عصاه بهَراة ، فعاش فيها عيشة راضية وحين بلغ أشده ، وأربى على أربعين سنة ؛ ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ؛ فقامت نوادب الأدب ، وانثلم حدّ القلم ، وبكاه الفضائل مع الأفاضل ، ورثاه الأكارم مع المكارم ؛ على أنه مامات من لم يمت ذكره ، ولقد خلد مَنْ بقِيَ على الأيام نظمُه ونثره ؛ والله عزّ وجل يتولاه بعفوه وغفرانه ، ويحيّيه بروْحه وريحانه »[٤]

---

(١) اليتيمة : « واستنفد علمه ، واستنزف بحره » .

(٢) في ط : « وولى » ، تحريف ، والعبارة في اليتيمة : « ثم قدم جرجان ، وأقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش في أكنافهم ، والاقتباس من أنوارهم ، واختص بالدهخذا أبي سعد محمد بن منصور أيده الله تعالى ، ونفقت بضائعه لديه ، وتوفر حظه من عادته المعروفة في إسداء المعروف ، والإفضال على الأفاضل . ولما استقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته ، وأزاح علله في سفرته فوافاها في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة . . . » .

(٣) حذف المؤلف هنا من كلام الثعالبي مايزيد عن صفحة .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٠ ــ ٢٤٢ .

وذكر الحصرىّ رحمه الله فى كتاب الزهرِ أن الذى سبّب للبديع رحمه الله تأليف مقاماته ، هو أنه رأى أبا بكر بن الحسين بن دريد قد أغْرَب بأربعين حديثاً ، ذكر أنه استنبطَها من ينابيع صدره ، وانتخبها من معادِن فكره ، على طبع العرب الجاهليّة ، بألفاظ بعيدة حُوشيّة ، فعارضه البديع بأربعمائة مقامة ، لطيفة الأغراض والمقاصد ، بديعة المصادر والموارد (١) . انتهى كلامه .

والذى جاء بها ، فيه قلة الإمتاع للسامع من حديثها ، وفيها مقامات لا تبلغ عشرة أسطار ، فجاءت مقامات الحريرىّ أحفل ، وأجزل وأكمل ؛ فلذلك فضلت البديعيّة. وقد صرح علماء الأدب فى كتبهم بتفضيل البديع على نُظرائه من أهل زمانه ، ولقبه بالبديع يدلّ على قدره الرفيع ، قال :

وَقَلَّمَا أبصرتْ عيناكَ من رجلٍ إلا ومعناه إنْ فتَّشت فى لقبِـهِ

وسئل بعض علماء الأدب من أهل عصرنا عن الحريرىّ والبديع ، فقال : لم يبلغ الحريرى أن يسمى «بديع يوم» ؛ فكيف يقارِن بديع زمان !

وجرى ذكر مقاماته فى مجلس بعض أشياخنا ، وكان حافظاً أديباً ، فقال : مقامات البديع يحكَى أنها ارتجال ، وأنّ البديع كان يقول لأصحابه فى آخر مجلسه : اقترِحوا غرضاً نبنى عليه مقامةً ، فيقترحون ما شاءوا ، فيملى عليهم المقامة ارتجالا فى الغرض الذى اقترحوه ؛ وهذا أقوى دليل إن صح على فضل البديع .

قوله علّامة : أى كثير العلم ، وهى بِنْيَةٌ للمبالغة .

[ ذكر همَذان ]

وهمَذان ، بفتح الميم ونقط الذال : بلد بخراسان . وقيل : همَذان من كُور الجبل . وبلَد همذان واسع جليل القَدْر كثير الأقاليم والكُوَر ، افتُتح سنة ثلاث وعشرين ، ويشرب أهلُها من عيون وأودية . وقال اليعقوبىّ : من أراد السَّير من الدِّينَور إلى همَذَان سار متنزّهاً إلى موضع ، يقال له : أسد آباذ مرحلتين ـــ

(١) زهر الآداب ٢٦١ .

ومن أسد آباذ إلى مدينة هَمَذَان مرحلتان ـ وهي كثيرة البرد . وقال فيها ابن خالويه ـ وهو همذاني ، واستوطن حلب عند بني حمدان:

إذا همذانُ اعترّها البردُ وانقضَى ... برغمك أيلولٌ وأنت مقيـمُ
فعيناكَ عَمْشَاوانِ وأنفُكَ سائـلٌ ... ووجهك مسودّ البيـاض بهيمُ
بلادٌ ـ إذا ماالصيفُ أقبل ـ جنةٌ ... ولكنّها عنـد الشتاء جحيمُ

ولبعضهم :

هَمَذَان متلِفة النفوس ببردِهـا ... والزَّمهرير ، وحَرُّهـا مأمونُ[(١)]
غلَب الشتاء مصيفَها وخريفَهـا ... فكأنّما تمّوزها كانُونُ

وكل الرواة يروونها « همَذان » بفتح الميم ونقط الذال ، إلا ابن اللّبانة فإني رأيت في شرحه: هَمْدَان بسكون الميم ودال غير معجمة ، وهي قبيلة يمانية ، قال فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه :

ولو كنت بواباً على باب جنّـةٍ ... لقلت لِهَمْدان ادخُـلوا بسلامِ[(٢)]

والرواية الأولى أثبت . قوله : « عزاً » أي نسب يقال : عزيته عَزْياً ، وعزوته عزوًا : نسبتَه ؛ واعتزى إلى بني فلان : انتسب إليهم ، وأبو الفتح في البديعيّة بمنزلة أبي زيد في الحريرية ، وعيسى بمنزلة الحارث . نشأتها : صنعتها. روايتها : إسناد أحاديثها . والنّكرة التي لا تتعرف ، هي في غير الأسماء .

* * *

فأشار مَنْ إشارَتُهُ حُكْمٌ ، وطَاعَتُهُ غُنْمٌ ، إلى أَنْ أُنْشِئَ مَقَامَاتٍ أَتْلُو فِيهاَ تِلْوَ الْبَدِيعِ ، وَإِنْ لَمْ يُدْرِكِ الظَّالِعُ شَأْوَ الضَّلِيعِ ، فَذَاكَرْتُهُ بِماَ قِيلَ فِيمَنْ أَلَّفَ بَيْنَ كلمتَيْنِ ، وَنَظَمَ

(١) معجم البلدان ٨ : ٤٧٦ ، ونسبهما إلى كاتب بكر .
(٢) من مقطوعة له ، أوردها ابن رشيق في العمدة ١ : ٣٤

بَيْتاً أَوْ بَيْتَيْنِ ، واستَقَلْتُ مِنْ هَذا المَقَامِ الَّذِى فِيهِ يَحَارُ الفَهْمُ ، وَيَفْرُطُ الوَهْمُ ، وَيُسْبَرُ غَوْرُ العَقْلِ ، وَتبِينُ قِيمَةُ المرْءِ فِي الفَضْلِ ، وَيُضْطَرُّ صَاحِبُهُ إلى أَن يَكُونَ كَحَاطِبِ لَيْلٍ ، أَوْ جَالِبِ رَجْلٍ وَخَيْلٍ ، وَقَلَّمَا سَلِمَ مِكْثَارٌ ، أَوْ أُقِيلَ لَهُ عِثَارٌ .

* * *

[ السبب فى إنشاء الحريرىّ للمقامات ]

غُنْم : غنيمة . وحكى الفنجديهى فى شرحه للمقامات : أن الذى أشار عليه بها هو شرف الدين أنوشروان بن خالد وزير الخليفة ، أمره بإنشاء المقامات وحكم عليه بها . وقيل : أمره بها صاحب البصرة وواليها . وقال : سمعتُ الشيخ الثقة أبا بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النَّقُور البزّار ببغداد يقول : سمعت الشيخ الرئيس أبا محمد الحريرى يقول : أبو زيد السَّروجىّ كان شحّاذاً بليغاً ، ومكدياً فصيحاً ، ورد علينا البصرة ، فوقف يوماً فى مسجد بنى حَرام يتكلّم ، ويسأل شيئاً ، وكان بعضُ الولاة حاضراً ، والمسجد غاصٌّ بالفضلاء ، فأعجبهم بفصاحَتِه ، وحسن صناعته وملاحَتِه ، وذكر أسر الروم ابنتَه ، كما ذكرنا فى المقامة الحرامية وهى الثامنة والأربعون ، قال : فاجتمع عندى عشيّة ذلك اليوم جماعة من معارف فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيتُ لهم ما شاهدتُ من ذلك السائل ، وسمعت من لطافة عبارته فى تحصيل مُرَادِه ، وظَرافة إشارته فى تسهيل إيراده ؛ فحكى كلّ واحد من جلسائى أنه شاهدَ مِن هذا السائل فى مسجده مثل ما شاهدت ، وأنه سمع منه فى معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت . وكان يغيّر فى كلّ مسجد زِيَّهُ وشكله ، ويظهر فى فُنون احتياله ، فعجبوا من جريانه فى ميدانه ، وافتنانه فى إحسانه ؛ قال الحريرىّ : فابتدأت فى إنشاء المقامة الحرامية تلك الليلة ، حاذياً حَذْوَهُ ، فلما فرغتُ منها أقرأتُها جماعةً من الأعيان ، فاستحسنوها غاية الاستحسان ،

وأنهوا ذلك إلى وزير السلطان ، واقترحوا عليّ أخواتها ، والله المستعان .

وهذا الذى ذكر الفَنْجديهيّ قد حدّثني بنحوه مَنْ يوثَق به من الطلبة . بسندٍ يتصل بأبى محمد الحريريّ ، وأن الحريريّ وفد مع أهل البصرة بغداد . فوجدوا بواسط أبا زيدالسَّروجيّ[1] ، فقال: يا أهل البصرة ،أنتم تزعمون أنكم لاتُكادون ولا تُخدعون ، وقد والله مشيت على مساجدكم ومحاضركم ، فما تعذّر عليّ فيها موضع لم أجلب منافعَ أهله بضروب من المكر . فلما بلغوا بغداد أخبروا بالقصة وزير السلطان ، فأمر الحريريّ بجمع المقامات .

لكن الذى ثبت عندنا ، هو ما حدثني به الشيخ الفقيه أبو بكر بن أزهر أنّ الفقيه الراوية أبا القاسم بن جَهْور ، حدّثه أن الحريريّ حدّثه أن قصة المقامة الثامنة والأربعين حق ، وأنّ رجلا قام بمسجد بنى حَرَام ، فأظهر التوبة من ذنبه ، وسأل عن الوجه فى كفَّارته ، فقام رجل من بين الناس ، فذكر أسر ابنته ، فنظم الحريريّ القصةوجعلها مقامة ، وأنها أول مقامة أثبتت فى الكتاب . وكان ابن جَهْور يقول : إنّ الذى أشار إليه بها فىقوله : « فأشار مَنْ إشارته حكم » هو المستظهر بالله العباسى ، وكان لهذا المستظهر رغبة فى الطلب ، وحظّ من الأدب ، وعناية بأهل العلم .

وحدّث ابن جهور أنه دخل بغداد فى أيامه وبها ألف رجل وخمسمائة رجل حامل علم ، وكلهم قدأثبت أسماءهم السلطان فى الديوان ، وأجرَى على كلٍّ واحد من المال بقدر حظّه من العلم . وكان ابن جهور يحدّث أن الحريريّ ألّف المقامات كلها على الرّكاب ، وذلك أن المستظهر بالله لما أمره بصنعتها ، أُخْرِج كالحافظ على العمال ،فكان يَخْرج فى الأبردين يتمشّى فى ضِفتى دجلة والفرات ، ويصقل خاطره بنظر الخضرة والمياه ، فلم ينقض فصل العمل إلا وقد اجتمع له

(١) السروجى ، بفتح السين : منسوب إلى سروج : بلدة قريبة من حران واسم أبى زيد السروجى المطهر بن سلار اللغوى ، وأحد من اشتغل بالنحو فى البصرة ، ذكره القفطى فى إنباه الرواة ٣ : ٢٧٦ .

مائتا مقامة ، فخلّص منها خمسين وأتلف البواقى ، وصدّر الكتاب ، ورفعه إلى السلطان ، فبلغ عنده أسنى المراتب .

قوله : « فذاكرته بما قيل فيمن ألف بين كلمتين ونظم بيتاً أو بيتين » ، قال أبو عمرو بن العلاء : الإنسان فى فسحة مِنْ عقله ، وفى سلامة من أفواه الناس ، مالم يضع كتابا أو يقلْ شعراً .

وقال العتابىّ : مَنْ صنع كتابا فقد استشرف للمدح والذم ، فإن أحسن فقد استهدف للحسدوالغيبة ، وإن أساء فقد تعرّض للشتم بكل لسان .

غيره : من صنّف فقد جعل عقله على طَبَق يعرضه على الناس .وقال حسان :

وإنّما الشِّعْرُ عقلُ المرء يَعْرِضهُ ... على البريَّة إن كَيْسًا وإنْ حُمُقا[1]

وإنَّ أحسن بيتٍ أنت قائلُهُ ... بيتٌ يقال إذا أنشدْتَه صَدَقَا

واستقلت : طابت الإقالة . المقام : موضع القدمين وأنت قائم . يحار : تحيّر : يَفْرُط: يسبق. الوهم : الغلط . يُسْبَرغور العقل ، يختبَر قدره ومنتهاه ، وأصله فى الجراحات يُختبَرغَوْرها ، أى بعد قعرها.والمسبار: الحديدةالتى يقاس بها مقدار غَوْر الجراحة، وسَبَرها : قاسها به ، يفعل ذلك الطبيب للقصاص أو للدواء ، ويقال لحديدته: السِّبار والمِسْبار والمِسْبَر والمكحل والمِيل والمِرْود والمجراف .

تبين : تتبيّن. يضطر : يُلجأ . حاطب ليل : جامع الحطب بالظلام ، وهذا مثل لأكثم بن صيفى حكيم العرب ،ذكره أبو عبيد فى الأمثال[2] ، وقال : إنما شبَّهه بحاطب الليل لأنه ربّما نهشته الحيَّة أو لسعته العقرب فى احتطابه ليلا ، فكذلك المهذار ربما أصابه فى إكثاره بعض ما يكره ، قال الفرزدق :

كمحتطبٍ ليلاً أساودَ هضبةٍ ... أتاه بها فى ظلمة الليل حاطِبُهْ[3]

وأبيَن من تفسيره أن حاطب الليل لايبصر مايحتطب ، فهو يؤلّف بين الحطب الكبيروالصغيرو،القوىّ والضعيف ،والجيدوالردىء ، فكذلك المكثار

(١) ديوانه ٢٩٢ . (٢) فصل المقال ٢٥ ، ولفظ المثل فيه: « المكثار كحاطب الليل » .
(٣) ديوانه ٥١

يأتى بالضعيف من الكلام والقوى والجيد والردىء، فشبّهه لذلك بالحاطب، وأراد بـ « جالب رجل وخيل » ما أراد بحاطب الليل ، لأنّ الراجل ضعيف والفارس قوىّ . والمكثار : الكثير الكلام ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَثُرَ كلامه كثر سَقَطُه ، ومن كَثُر سقطه كثرت ذنوبه ، ومَنْ كثرت ذنوبه ، كانت النار أولى به ، ألا ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت »[1] .

أقيل : أقيم ورفع . عِثار : انكباب وسقوط ، وإقالة العاثر أن ترفعه من سَقْطته ، ومنه الإقالة فى البيع ونحوه .

* * *

فلمّا لَمْ يُسْعِفْ بالإقَالَةِ ، وَلاَ أَعْفَى مِنَ الْمَقالَةِ ، لَبَّيْتُ دَعْوَتَهُ تَلْبِيَةَ الْمُطِيعِ ، وَبَذَلْتُ فِى مُطَاوَعَتِهِ جُهْدَ الْمُسْتَطِيعِ ، وَأَنْشَأْتُ ـ عَلَى مَا أعانيه مِنْ قَرِيحَةٍ جَامِدَةٍ ، وَفِطْنَةٍ خَامِدَةٍ ، وَرَوِيَّةٍ نَاضِبَةٍ ، وَهُمُومٍ نَاصِبَةٍ ـ خَمسِينَ مَقَامَةً ، تَحْتَوِى عَلَى جِدِّ الْقَوْلِ وَهَزْلِهِ ، وَرَقِيقِ اللَّفْظِ وَجَزْلِهِ ، وَغُرَرِ الْبَيَانِ وَدُرَرِهِ ، وَمُلَحِ الْأَدَبِ وَنَوَادِرِهِ ، إِلَى مَا وَشَّحْتُهَا به من الآياتِ ، وَمَحَاسِنِ الْكِنَايَاتِ ، وَرَصَّعْتُهُ فِيهاَ من الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَاللَّطَائفِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَالْأَحَاجِى النَّحْوِيَّةِ ، وَالْفَتَاوَى اللغَوِيَّةِ ، وَالرَّسَائِلِ الْمُبْتَكَرَةِ ، وَالْخُطَبِ الْمُحَبَّرَةِ ، وَالْمَوَاعِظِ الْمُبْكِيَةِ ، وَالْأَضَاحِيكِ الْمُلْهِيَةِ ، مِمَّا أَمْلَيْتُ جَمِيعَه على لِسَانِ أَبِى زَيْدٍ السَّرُوجِىّ ، وَأَسْنَدْتُ رِوَايَتَهُ إِلَى الْحَارِثِ بن هَمَّامٍ الْبَصْرِىّ .

* * *

يُسعف : يؤاتى وينيل الرغبة ، وأسعفت الرجل بمطلبه : ساعدتُه عليه .

(١) الجامع الصغير ٢ : ٣١٤ .

والإسعاف المصدر ، وساعفته مساعفة : قضيت إرادته . ولا أعفَى من المقالة ، أى لم يُعفنى من كلامه وإلحاحِه ،وأعفيت : الرجل وعانيته : أزلت عنه مايشقّ عليه ، وأصله الترك ، ومنه إعفاء اللحية ، وهو أن يتركها على حالها ،ومنه: عفا الله عنك . لبيت : أجبت وقلت :لبيك.أنشأت : ابتدأت وأخذت أفعل . أعانيه :أعالجه ، وأصلها من العَناء وهو التعب . قريحة : ذهن ، وأصلها ماء البئر النابع عند حفرها ، ومنه القُرْحة للجراحة ، لأن أصلها مادة وشبه الذهن بذلك لما يتولّد عنه من المعانى . فطنة : ذكاء ، والفَطِن : الذكىّ . خامدة : ساكنة ، وخمدت النار : سكن لهبها . روية تدبّر ، وروّأت الأمر ، تدبّرتَ كيف تصنعه ، وأصل الرويّة الهمز واستعملت بغير همز . ناضبة : جافة ، ونضب الماء : غار فى الأرض . ناصبة : متعبة ، وهمٌّ ناصب على معنى النسب ، أى ذو نَصَب ، ولو جاء على القياس لقيل : منصِب ، لأن فعله أنصبه الهمّ ، وقال بشْر :

تَعَنَّاكَ همٌّ من أُميمةَ مُنْصِبُ وجاء من الأخبار ما لا يكذَّبُ(١)

و نَصِب نَصَبًا :أعيا من التعب . جزلة : غليظه ومتينة . غُرَر :جمع غُرّة وهى خيار الشىء ومنه غُرّة الفرس وهو البياض فى جبهته فجعلها للبيان مجازاً .دُرَرُه : جمع دُرَّة،وهى الجوهرة العظيمة ، والكلام الحسن يشبّه بالدّرر والجواهر. مُلح : جمع مُلحة ، وهى مليح الكلام . نوادره: غرائبه.وشّحتها : زيّنتُها . الكنايات: ضرب من الألغاز ، وأصل الكناية أن تذكر الشىء بغير لفظه ، إما لإبهام على جليسك أو لتعظيم أو لتحقير ، فالإبهام أن تذكر لفظاً يُفهم من ظاهره غير مرادك ، مثل قوله تعالى حاكياً عن هود عليه السلام ، حين قال له قومه : ﴿إنا لَنَرَاكَ فى سَفَاهَةٍ ... قال ياقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾(٢) ، فليس فى اللفظ زيادة على فى

(١) مطلع قصيدة فى ديوانه ٧ ـ ١٢ ، ورواية الشطر الثانى فيه :

* كَذِى الشَّوْقِ لَمَّا يَسْلُهُ وَسَيَذْهَبُ *

(٢) سورة الأعراف ٦٦ ، ٦٧ .

السفاهة ، وقد تضمّن الـكلام التـكذيب لهم والتعظيم ، مثل كناية الرجل بأبى فلان ، تُرِكَ اسمه وعدل إلى كنايته تعظيما له . والتحقير: أن يكون الشيء خسيساً فتأنف من ذكره فتذكره بغير اسمه ، مثل قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾[1] فـكنى عن الحدَث بالأكل لمّا كان يتولد عنه . رصّعته : نظمته ، وألصقت بعضه ببعض ، وتاج مرصّع : مزيّن بخرز وجوهر يُنظم فيه . اللّطائف : الرقائقُ والـكلمة اللطيفة ، أى الرقيقة المعنى التى تحلّ فى القلب فتلطّفه . الأحاجى: ضرب من الألغاز واحدها أُحجيَّة، وهى قولك لصاحبك: أخرِجْ مافى يدى ولك كذا، تقول العرب : أحاجيك مافى يدى ؟ وحُجيَّاكَ مافى يدى؟ وهى من الحِجَى ، وهو العقل .

الفتاوَى اللغوية ، أرادبها المسائل المائة التى فى الثانية والثلاثين، والفُتيا : إظهار الشيء المسئول عنه عند السؤال . المبتكرة : التى لم يُسبَق إليها، وبكَر وابتَكر خرج بُكْرَة ، ومنه الباكور وهو المبكّر من كلّ شيء فى الإدراك ، وبِكْر كلّ شيء : أوّله . المحبَّرة : المزينّة ، وحبَّرت الشيء تحبيراً زيّنته ، وأصلها من الحبْر، وهى ثياب تصنع باليمَن فيها رقوم وتزيين . أمليت : ألقيت ، وأمليت على الصَّبىّ : ألقيت عليـه ما يُـكتب . أسندت : رفعت .

* * *

**وَمَا قَصَدْتُ بِالْإِحْمَاضِ فِيهِ ، إلاَّ تَنْشِيط قَارِئِيهِ ، وَتَـكْثِيرَ سوَادِ طَالِبِيهِ . وَلَمْ أُودِعْهُ مِنَ الْأَشْعَارِ الْأَجْنَبِيَّةِ إلاَّ بَيْتَيْنِ فَذَّيْنِ ، أَسَّسْتُ عَلَيْهِماَ بِنْيَةَ الْمَقَامَةِ الْحُلْوَانِيَّةِ وَآخَرَيْنِ تَوْأَمَيْنِ ضَمَّنْتُهمَا الْمَقَامَةَ الـكَرَجِيَّةِ[2] ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَخَاطِرِى أَبُو عُذْرِهِ ، وَمُقْتَضِب حُلْوِهِ وَمُرِّهِ .**

---

(١) سورة المائدة ٧٥ .

(٢) ا ، ط: «خواتم المقامة الـكرجية» ،وما أثبتة من ج .

هَذا مَعَ اعْتِرَافِي بِأَنَّ الْبَدِيعِ رَحِمَهُ اللهُ سَبَّاقُ غَايَاتٍ ، وصَاحِبُ آيَاتٍ ، وَأَنَّ المتَصَدِّىَ بَعْدَهُ لإنشَاءِ مَقَامَةٍ ؛ ولَوْ أُوتِىَ بَلاَغَةَ قُدَامَةَ ، لاَ يَغْتَرِفُ إلاَّ مِنْ فُضَالَتِهِ ، وَلاَ يَسْرِى ذَلِكَ الْمَسْرَى إلاّ بَدَلاَلَتِهِ .

* * *

الإحماض : الانتقال من شىء إلى شىء، وأصله فى الإبل ترعى الْخُلَّة ، وهى حُلْو المرعى فتملّه فتنتقل إلى الحِمْض تأكل منه فيُذهب الحمضُ عن قلوبها استيلاء الحلاوة ، فتنشط بذلك على الرعى فيقال : أحمض الرجل إحماضا ، والعرب تقول : الُخلة خبز الإبل ، والحمض فاكهتها ، فأراد به تنقُّله فى المقامات، من حكاية فائقة ، إلى قضية رائقة ، ومن موعظة تُبكِى إلى ماهية تُسلِّى ، وفى ذلك تنشيط وترغيب فى قراءتها ، وَنفىٌ للملَل والكسل عن قارئها . سواد: أشخاص ، ويسمَّى الشخص سواداً ، لأنه يسوّد الأرض بظله . أودعه :أضمّنه. الأجنبيَّة: التى ليست من شعره، والأجنبىّ: من ليس بينك وبينه قرابة، من الجنابة وهى البعد . فَذّيْن : منفردين هذا من شعر وهذا من آخر . توءمين : أخوين من شِعْرٍ واحد . أسّست : أصّلت ، والأساس أصل الحائط . الُحلْوانية والكَرَجِيَّة : منسوبتان إلى حُلوان والكَرَج ، وهما بلدان . ماعدا : ماجاوز . خاطرى : ذهنى . أبو عُذره ، أى أوّل صانع له، يقال للمرأة :فلان أبو عُذْرِها، أى أول زوج تزوجها فوجدها عذراء فافتضّها وأزال عُذْرَتها ، أى مابها من صعوبة . مقتضب. مقتطع . حُلْوِه ومُرِّه : جيّده ورديئه .

غايات : جمع غاية وهى طَلَق[1] الخيل، والسّباق منها الذى يجىء أبدا سابقاً ـ

(١) الطلق : الشوط الواحد فى جرى الخيل .

المتصدّى : المتعرّض . بلاغة : فصاحة ، وأصلها أن يبلغ الإنسان من الكلام والحجة ما أراد .

[ ذكر قدامة بن جعفر ]

قُدَامة ، هو أبو الوليد[1] بن جعفر ، كان بليغاً مجيداً عالمًا بأسرار صنعة الكتابة ولوازمها ، وله كتاب يعرف بسرّ البلاغة فى الكتابة ، وترجمته تدلّ على متضمَّنه ، وله تحقيق فى صنع البديع يتميّز به عن نظرائه ، وتدقيق فى كلام العرب يُرْبِىفيه على أكفائه ، وتحذيق فى علوم التعليم أضرم فيها شعلة ذكائه ؛ فلذلك سار المثل ببلاغته ، واتّفق المتقدّم والمتأخر على فضل براعته .

الفُضَالة : البقيّة من الماء وغيره ، وهى ما فَضَل عن الحاجة . واغترفها : أخذها بيده يَسْرِى ذلك المسرَى : يقصدذلك المقصد ، وأصل يسرِى، يسير بالليل .دِلاَلته : تقدّمه وهدايته ، وتفتح دالها وتكسر ، والفتح أكثر . والدليل بالفلاة : الذى يهدى القوم قصدهم .

* * *

وَلِلّٰهِ دَرُّ القائلِ :

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً
بِسُعْدَى شَفَيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِى فَهَيَّجَ لِى الْبُكَا
بُكَاهَا ، فقُلْتُ : الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

* * *

(١) كنيته فى معجم الأدباء ١٨ : ١٢ : « أبوالفرج »، واسمه قدامة بن جعفربن قدامة الكاتب . قال: « كان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ؛ وممن يشار إليه فى علم المنطق » -

مبكاها : بكاءها . صَبابة : شوقا هيّج : حرّك ، والبيتان لعديّ بن الرقاع ، وقبلهما :

وممّا شجاني أنني كنت نائمًا أعلَّل من فرط الكرى بالتنسّمِ[1]
إلى أن دعت ورقاءُ في غصن أيكةٍ تُردّد مبكاها بحسن الترنّمِ

فلو قبل مبكاها . . .

[ عديّ بن الرّقاع ]

وعديّ هو أبو زيد بن مالك ، ينتمي إلى معاوية بن الحارث ، وينسب إلى الرّقاع وهو جدُّ جَدّه . وكان شاعراً مقدَّماعند بني أمية، مدّاحاً لهم ، خاصًّا بالوليد بن عبد الملك ، ومنزله بدمشق ، وهو من حاضرة الشعراء لا مِنْ باديتهم ، وكان من أوصف الناس للمطيّة ، وكذا ذكره صاحب الأغاني[2] في ترجمته .

وقال نوح بن جرير لأبيه : مَنْ أنسب الناس[3] ؟ قال : ابن الرقاع في قوله :

لولاَ الحياءُ وأنَّ رأسي قَدْ عَسَا فيه المَشيبُ لزرتُ أمّ القاسمِ[4]
وكأنها بين النّساء أعارها عينيه أحورُ من جآذر جاسمِ
وَسْنَانُ أقصده النّعاس فرنّقتْ في عينه سِنةٌ وليسَ بنائمِ

* * *

أقرّ الحريريّ هنا للبديع بالفضل ، وجعله سبّاقا للغايات ، وما أحسن هذا الأدب منه ، مع علمه بفضل مقاماته على مقامات البديع ، ومن أدلّ دليل على ذلك أنه منذ ظهرت مقامات الحريريّ لم تُستعمَل مقامات البديع ، ثم إنه طبّق استعمالها آفاقَ الأرض، إلا أنه أسرَّ هنا شيئاً ،لأنه ختم كلامه ، بأنّ البديع فَضَله بالتّقدّم ؛ وهذا منه مذهب مستحسَن ، ألا تراه كيف بدأ بتجريد الفضل للبديع وحدَه ،

(١) الكامل للمبرد ٣ : ١٢٥ ؛ قال أبو الحسن الأخفش : الصحيح أن الشعر لنصيب .
(٢) الأغاني ٩ : ٣١٠ (٣) الأغاني : « الشعراء »
(٤) الأغاني ٩ : ٣١٣ ، وعسى ، أي اشتد وانتشر .

ثم لم يرَ لنفسه قدراً فى قوله : « وإن لم يدركِ الظّالعُ شأوَ الضليع » ؛ فجعل نفسه كالفرس الأعرج الذى جريُهُ إذا اجتهد دون مشى الصحيح ، وجعل البديعَ كالفرس العتيق الكامل القوّة . ثم لمّا بلغ إلى هذا الموضع بعد أسطار صرّح فى الظاهر للسامع بأنّ البديع سبّاق غايات ، وصاحب آيات ، وأومَى لمن فطن ، أنه إنّما فضَله بتقدّم الزمان . ثم خلط الكلام فى الخفاء بين المتقدّمين والمتأخرين ، ثم تناسى ذلك إلى آخر الكتاب فى السابعة والأربعين ، وصرّح هناك بتفضيل المتأخر على المتقدّم وتفضيله نفسَه على البديع ، حيث يقول :

إن يكُنِ الإسكندرىّ قبلِى فالطّلّ قد يبدو أمامَ الوَبْلِ

* والفضلُ للوابل لا للطَّلِّ *

ولو كان غيره من العلماء المنسوبين إلى سوء الأدب، ورأى فضل مقاماته ، لذمّ البديع ونقص كتابه فكان ينعكس الذمّ عليه ؛ وكذا رأينا فى الغالب مَن ادّعى لنفسه فضلاً ، وازدرى غيره، أنه قلَّما يكون إلا ممقوتا ، فلما أظهر الحريرىّ مدحَ البديع ، ووفّاه قسطَه من التفضيل والترفيع ، ولم ينظر إلى نفسه إلا بطرف خفىّ قلّ من يتفطَّن له ، ستر الله عليه ورفع صيته ، ووضع لكتابه القبول عند الخاصة والعامة .

فشرّقَ حتى لم يجد ذكر مشرقٍ وغرّب حتى لم يجد ذكر مَغْربِ[1]

فلا يذمّ كتابه إلا أحد الرجلين فذين ذكرهما؛ إمّا جاهل ، أو حاسد .

* * *

[ القديم والحديث فى الأدب ]

ومذهب الناس فى تفضيل الحديث على القديم؛ وأكثرهم على تفضيل القديم ، وقد أحسن حبيب حيث يقول :

نقّلْ فؤادك حيث شئتَ من الهوَى ما الحبّ إلا للحبيب الأوّلِ[2]

(١) ط : « مغرب ... مشرق » ، والوجه ما أثبته من ا ، ب .
(٢) ديوانه ٤٥٧ .

كم منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى     وحنينُه أبداً لأوّل منزلِ

وقال :

لاَ زِلْتَ مِنْ شكرِىَ فى حُلّةٍ     لابسُها ذو سَلَبٍ فاخرٍ[(١)]
يقول من تقرع أسماعَه :     ما تركَ الأوّل للآخر

وذكر ابن شرف علة ذلك فقال :

أُولع النَّاس بامتداح القديمِ     وبذمّ الحديثِ غير الذَّميمِ
ليس إلا لأنهم حسدوا الحىّ ومالوا إلى العظام الرَّميمِ[(٢)]

وللمتأخرين شعر كثير فى تفضيلهم أنفسهم على المتقدّمين ؛ من أحسنه قول المعرّى :

وإنّى وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه     لآتٍ بمالم تستطعه الأوائلُ[(٣)]

وقال ابن عمار :

أنا ابنُ عمار لا أخفى على أحدٍ     إلا على جاهلٍ بالشمس والقمرِ
إن كان أخّرنى دهرى فلا عجبٌ     فوائدالكتب يُستلحقْن فى الطُّرَرِ

والّذى ذكر أبو العباس فى الكامل هو الحق ، قال : وليس لِقدم العهد يفضَّل القائل ، ولا لحداثة العهد يُهضَم المصيب، ولكن يعطَى كلٌّ مايستحق[(٤)] .

[ القول فى الحمام ]

وأمّا بيت عدىّ فى الحمام ، فالحمام قد كثر ذكر العرب لها فى أشعارها ، ونلمّ هنا بفصل منها ؛ يروى عن علىّ رضى الله عنه أنه اشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحشة فقال له : «اتّخذ حمامةً تؤنسك وتصيب من فراخها ، وتوقظك للصلاة بتغريدها» .

(١) ديوانه ١٤٣ .
(٢) ألف باء ١ : ٥٩ ، ٦٠
(٣) سقط الزند ٥٢٥ .
(٤) الكامل ١ : ٢٩ .

ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتخذوا الحمام فإنها تلهى الجنَّ عن صبيانكم »[١] .

وروى جابر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يعجبه النظر إلى الحمام الأحمر وإلى الأترجّ .

وكان إبراهيم بن سيّار يعجَب بالحمام ، وكان إذا ذكرها يقول : إنّ الله جمع فيها حسنَ المنظر ، وكريم المخبر ؛ تكفيك مؤنتها ، وتكثر لديك معونتها ؛ فهى للطارق عُدّة ، وللمستوطن لذّة ، تطعم فى الصحراء ، وتعود عليك بالسَّرّاء ، ويأنس الوحيد بحركاتها ، وتُغْنيه عن الأوتار بنغماتها ؛ وغيرها من الطير يستعجم وهى ناطقة ، وينفر عنك وهى داجنة ، وفى طباعها سكونٌ إلى الناس واستئناس بهم ، وهى طير عفيف ، يبقى الذَّكَر بعد الأنثى مفرداً ، والأنثى مثل ذلك ، مع شدة اتفاقهما على المحبّة ، إن طارا طارا معاً ، وإن وقعا وقعا معا ، لها سرعة طيران ؛ لا تكاد تصيدها سباع الطير إلا بحيلة .

ولم تزل العرب تستحسن تسجيع الحمام وتغريد البلبل والوَرشان ، وقد ذكرت العرب من رقّة تسجيعه ما يبعث التذكّر ، ويولّد الشجون ، ويهيج الأسى ، ويجدّد رقّة القلب ؛ حتى يجعل البكاء فرضاً معها ، والتصابى لازماً لأجلها ، وأعراب وادى القرى إذا ظفروا بشراب الطائف ، أتوا حوائط النخل عند استعلاء الظهيرة ، إذا صارت الوراشين والفواخت إلى تلك الظلال ، فيشربون ويأنسون بتغريدهنّ ، ويقيمون ترجيع أصواتهنّ مقام المزامير والأوتار . وأنا أسوق من المنظوم ما يوافق هذا النثر ، كقول أبى صخر الهذلىّ :

ولمّا دعتْ غَوْرِيَّةُ الأيكِ سَجَّعَتْ ... فسجَّع دمعِى يستهلُّ ويستشرِى[٢]

---

(١) الجامع الصغير ١ : ٩ ، ولفظه : « اتخذوا هذه الحمام المقاصيص » .

(٢) زيادات شرح أشعار الهذليين ١٣٣١ ، عن الشريشى .

يذكِّرني شجوِى دعاء حمامةٍ ... ويبعث لوعاتِ الصَّبابة فى صدرى
بكتْ حزناً رزءَ الهَديل وشفَّنِى ... فراقُ حبيبٍ ضاق عن فقده صبرى

وأنشد الأصمعىّ فقال :

أيّها البلبل المغرِّد فى النَّخْـ ... ـلِ غريباً عن أهلِه حَيْرانا
أفراقا تشكوه أم ظَلْتَ تدعو ... فوق أفنان نخلةٍ وَرَشانا !
هاجَ لى صوتُك المغرِّد شجواً ... رُبَّ صوتٍ يهيِّج الأحزانا

وقال آخر :

أحنّ إلى حوائط ذات عِرْقٍ ... لتغريد الفواختِ والحمَامِ[1]
ألمّ بها بكلّ فتًى كريم ... من الفِتْيان مخلوع الزِّمامِ

وقال آخر :

إذا غَنَّتْ على الأغصان وُرْقٌ ... أجَبْنَاها بإعمال المُدامِ

وقال آخر :

سيُغنيك عن مزمارِ آل محرّقٍ ... ومربعهمْ تغريد تلك الحمائمِ
بأيكة أطيار تجاوبْنَ بالضحى ... عَلَى باسقاتٍ مائلات نواعِمِ

وأنشد أبو علىّ عفا الله تعالى عنه :

ومن بستان إبراهيمَ غَنَّتْ ... حمائمُ بينها فَنَنٌ رطيبُ[2]
فقلتُ لها وُقيتِ سهام رامٍ ... ورقط الريش مطعمها الحبوبُ
كما هيّجت ذا حزن مُعَنًّى ... على أشجانه فبكى الغريبُ

وقال نصيب :

لقد هتفتْ فى جُنح ليلٍ حمامةٌ ... تبكِّى على إلفٍ وإنى لنائمُ[3]

---

(١) ذات عرق : مهل أهل العراق . وهو الحد بين نجد وتهامة ــ ياقوت .

(٢) البيت الأول فى معجم البلدان ٢ : ١٧٠ ، وقال : « وأنشد الأبيوردى لبعضهم » وبستان إبراهيم فى بلاد أسد .

(٣) من أبيات أربعة فى ديوان المجنون . وكذا نسبهما صاحب ثمار الأزهار ٧٥ .

كذبتُ وبيت الله لو كنتُ عاشقاً     لَمَا سبقتنى بالبكاء الحمائمُ

وأنشد أبو العباس لحميد بن ثور :

وما هاجَ هذا الشّوقَ إلاّ حمامةٌ     دعت ساق حرّ ترحةً وترنُّمَا[1]

مُحَلّاةُ طوقٍ لم يكن من تميمةٍ     ولا ضربَ صَوّاغٍ بكفّيه درهما

تَغَنّتْ على غصنٍ عِشاءً فلم تَدَعْ     لنائحةٍ فى نوحها متلوَّما

إذا حرّكتْهُ الريح أو مال ميلةً     تغنّتْ عليه مائلا ومُقَوَّما

عجبت لها أنّى يكون غناؤها     فصيحاً ولم تَفْغَرْ بمنطقها فَمَا

فلم أرَ مثلِى شاقَه صوتُ مثلِها     ولا عَرَبيًّا شاقه صوت أعجما

وقال حبيب :

لتضعضعت عبراتُ عينك أن دعَتْ     ورقاء حين تضعضع الإظلامُ[2]

لا تشجَيَنَّ لها فإن بكاءها     ضحك وإنَّ بكاءك استغرامُ

هنّ الحمام ، فإن كسرتَ عِيافةً     من حائهنّ فإنّهنَّ حِمامُ

وسمع حبيب بخراسان غناء بالفارسية ، فلم يدر ما هو ، غير أنه شوّقه فقال :

حمِدْتُكَ ليلةً شَرُفت وطالتْ     أقام سهادُها ومضَى كَراها[3]

سمعتُ بها غناءً كانَ أولى     بأن يقتاد نفسِى مِنْ عَناها

ومسمعةً يحارُ السمعُ فيها     ولم تصمِمْه لا يصمِمْ صَدَاها

---

(١) الكامل ٣ : ١٢٤ . قال : « أما قول حميد : دعت ساق حر ؛ فإنما حكى صوتها » . وفى شرح الديوان : هو ذكر القمارى . وبعده فى الكامل :

إذا شئتُ غَنّتْنى بأجزاعِ بيشةٍ     أو النَّخل من تثليث أو بيلملما

مطوقة خَطْباء تَسْجَعُ كُلَّمَا     دَنَا الصّيْفُ وانجاب الربيعُ فأنْجَمَا

انجاب : أقلع . وانظر ديوان حميد ٢٤ ـ ٢٧ .

(٢) ديوانه ٢٧٩ وروايته «انحدرت» .

(٣) ديوانه ٤٦٧ ، وروايته :

شَكَرْتُكِ ليلةً حسنتْ وطلبتْ     أقام سرورها ومضَى كراها

ولم أفهم معانيهاَ ولـكنْ  وَرَتْ كبدى فلم أجهل شَجَاها
وظَلْتُ كأننى أعَمى معنًّى  يحبُّ الغانيات ولا يَراهَا

يعنى بهذا الأعمى بشاراً حيث يقول :

ياقوم أذْنى لبعضِ الحىّ عاشقةٌ  والأذن تعشق قبل العين أحياناَ[١]
قالوا بمن لاترى تهذِى! فقلتلهم:  الأذن كالعَيْنِ تو فِى القلب ما كانا[٢]

* * *

وَأَرْجُو أَلاَّ أَكونَ فِي هَذا الْهَذَرِ الَّذى أَوْرَدْتُهُ ، وَالْمَوْرِدِ الَّذى تَوَرَّدْتُه ، كَالْباحِثِ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ ، وَالْجادِعِ مَارِنَ أَنْفِهِ بِكَفِّهِ ، فَأَلْحَق بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

* * *

قوله : « الهذر الذى أوردته » ، أى الإكثار الذى أتيتُ به ، وقد تقدّم المورد[٣]. وتورّدته : اقتحمته. الباحث : المفتش ، والظّلف: للبقر والغنم كالحافر للخيل والحمير . وهذا مثل للعرب : وذلك أن ماعزة كانت لقوم ،فأرادوا ذبحها فلم يجدوا شَفْرةً ، فنبشت بظلفها فى الأرض ، فاستخرجت منها شفرة ، فذبحوها بها ، وقالوا : بحثتْ عن حتفها بظلفها ، فسارت مثلا .وقال الشاعر :

وكانتْ كعنز السوء قامت بظلْفها  إلى مُديةٍ تحت الثَّرى تستثيرُها[٤]

---

(١) الأغانى ٣ : ٢٣٨ .
(٢) توفى ، أى تبلغ.
(٣) صفحة ١٨ من هذا الجزء
(٤) للفرزدق ، ديوانه ٧١ ، وروى أبو عبيد قبله :

وكانَ يُجير النَّاسَ من سيفِ مالكٍ  فأصبح يبغى نفسه مَنْ يجيرُها

وقال أبو الأسود :

فلا تكُ مثل التى استخرجت بأظلافها مُدْيَةً أو بِفِيهاَ[1]
فقامَ إليهـا بها ذابحٌ ومَنْ يَدْعُ يوماً شَعوباً يَجِيها[2]

ولفظ المثل عند أبى عبيد «كالعنز تبحث عن المدية»[3] والجادِع : القاطع الأنف. والمارن : طرَف الأنف ، وأراد به قصيراً مولى جذيمة الأبرش.وقد ذكرنا قصته فى شرح الرابعة والعشرين. ورجا المصنف ألاّ يدركه من الضرر ما أدركا[4] من الضّرر حين جنيا على أنفسهما وانتفع غيرها . ضلّ سعيهم : خابت أعمالهم ، وأصل ضلّ، تحيّر فلم يدر أين يتوجّه ، وأصل السعى المشى بسرعة . سمع أعرابىّ رجلا يقرأ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ ، فقال: أنا أعرفهم ، قيل له : ومن هم ؟ قال : الذين يبرّدون ويأكل غيرهم .

* * *

عَلَى أَنِّى وَإِنْ أَغْمَضَ لِى الْفَطِنُ الْمُتَغَابِى ، وَنَضَحَ عَنِّى الْمُحِبُّ الْمُحَابِى ، لاَ أَكَادُ أُخْلُصُ مِنْ غُمْرٍ جَاهِلٍ ، أَوْ ذِى غِمْرٍ مُتَجَاهِلٍ ، يَضَعُ مِنِّى لِهَذَا الْوَضْعِ ، وَيُنَدِّدُ بِأَنَّهُ مِنْ مَنَاهِى الشَّرْعِ .

وَمَنْ نَقَدَ الأَشْيَاءَ بِعَيْنِ الْمَعْقُولِ ، وَأَنْعَمَ النَّظَرَ فِى مَبَانِى الأصولِ ، نَظَمَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ ، فِى سِلْكِ الإِفَادَاتِ ، وَسَلَكَهَا مَسْلَكَ الْمَوْضُوعَاتِ، عَنِ الْعَجْمَاوَاتِ وَالْجَمَادَاتِ .

* * *

(١) ديوانه ٢٢ (ضمن مجموعة نفائس المخطوطات ) .
(٢) رواية الديوان : « ومن يدع يوما شعوب » ، والشعوب : علم على المنية .
(٣) فصل المقال ٢٨٨ . (٤) كذا فى ا وفى ط: « أدركهما » .

أغمض : سامح وسدّ عينيه عمّالم يرض. والفطِن : الذكىّ . المتغابى: المتجاهل عن الشيء وهو عارف به ، وهو مما يُحمَد به الرجل ، قال حبيب :

ليس الغبىّ بسيّد فى قومِهِ لـكنَّ سيّد قومه المُتغابِى(١)

ونَضَح بالماء : غسل. المحابى : الذى يفضِّلنى على غيرى ، وحبانى: اختصّنى بالعطيّة ، وأصل حاباه أن تعطيَه ويعطيك ، وقد يكون فى معنى «حَبَاه» . الغُمْر : الجاهل ذِى غِمْر: صاحب عداوة . متجاهل : مستعمل للجهل وهو على خلافه ؛ يقول: إن سدّ عينيه عن عيبى فَطِنٌ ذو عقل ، أو تغابى حين يبصر لى خطأ ، أو رأى لى ذالك العيب محبّ ، فجعل يغسله عنّى لمحبته لـكلامى ؛ فلا أخلص مع ذلك ، إمّا من جاهل يعيب مالا يفهم، أو من عارف يُظهر لى عداوة وحسداً، فيردّ حسَنى قبيحاً ، وهو عارف بحسنى ؛ فيشيع فى الناس أنّ المقامات أكاذيب ، وهو عارف بفضلها وماقصِد بها .

[ من أقوالهم فى الحقد مدحا وذمًّا ]

والغِمْر : الحقد ، وصاحبه مذموم ، ولا أعرف من تعرّض من الفصحاء لمدح حامله سوى مايحكى أن عبد الملك بن صالح جيء به إلى الرشيد فى قيوده ، فقال له ابن خالد ــ وأراد أن يبكّته : بلغنى أنك حقود ، فقال عبدالملك : أيها الوزير ، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر ؛ إنهما لباقيـان فى صدرى ــ وفى رواية أخرى : إنمـا صدرى خِزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شرّ ــ فقال الرشيد : والله مارأيت أحدا احتجّ للحقد بمثل ما احتجّ به عبد الملك ، ففتح الباب لابن الرومىّ ، فقال يخاطب بعض من عابه بالحقد:

لئن كنتُ فى حفظى لمـا أنا مودَعٌ من الخير والشرّ انتحيت على عرضِى

(١) ديوانه ، الورقة ١٠٤ مخطوطة دار الـكتب رقم ١٢٩ ــ أدب

لَمـا عِبْتَنِي إلاَّ بفضـــــل أمانةٍ ورُبَّ امرئٍ يُزرِي على خُلُق محض [(١)]

ولولا الحُقود المستكنّات لم يكن
لينقض وترا آخرَ الدَّهرِ ذو نقضِ

وما الحقدُ إلّا توءم الشُّكرِ فى الفتَى
وبعض السجايا ينتسبن إلى بعضِ

فحيثُ ترى حِقداً على ذى إساءة
فثَمَّ ترى شُكراً على حَسَنِ العَوْضِ

ثم رجع إلى الطريقة المثلى، فانتحل المذهب الأعلى، وقال يعيبه، ضاربا بسهم البلاغة فى الوجهين :

يامادح الحقد محتالا له شُبَهاً لقد سلكت إليه مسلكاً وَعِثَا [(٢)]

يادافنَ الحِقْد فى ضِغْنٍ جوانحِه ساء الدَّفين الذى أضحت له جَدَثا

الحِقْدُ داءٌ دوِىٌّ لادَوَاء له يَرِى الصدور إذا ماجَمْرُه حُرِثا

فاستشفِيَنْهُ بصفحٍ أو محادثة فإنّما يُبْرَأ الصدور ما نَفَثا

إنّ القبيح إذا أصلحت ظاهِرَه يعود ما لمّ منـــه مرّةً شَعِثا

كم زَخرفَ القولَ ذو زورٍ ولَبَّسَهُ على العقول ولكن قلّما لبِثا

* * *

قوله: « يضع منّى » أى يحطّ من منزلتى. الوضع : الكتاب. يندّد : يشهر العيب، وندَّد به، إذا أسمعه المكروه. نقد الأشياء : فتّش وبحث عليها. المعقول = العقل. أنعم: بالغ. وأصل النّظم جعل حبّات الجوهر فى خيطها وضمّها فيه لغيرها؛ ثم سُمِّىَ بيتُ الشعر نظما، لأن الكلام فيه ملتصق بعضه ببعض كحبّ الجوهر

---

(١) الديوان : « إلا بما ليس عائبى . . . وكم جاهل يزرى » .
(٢) ديوانه الورقة ٤٥ ، مخطوطة دار الكتب ١٢٩ ـ أدب .

والبيت يضمه كالخيط ، والسلك : خيط الجوهر . والإفادات : الفوائد . سلَك: قصد. الموضوعات: الكتب المؤلفة ، أى أدخلها مدخل هذه الكتب. العجماوات: البهائم ، وسمّيت واحدتها عجماء لأن صوتها لا يُفهم منه معنى . والجادات : ما عدا الحيوان ، وأراد ما أُلِّفَ من الكتب مما لا حقيقة له فى الظاهر ، وقد ضُمِّنَ الحِكَمَ الشافية فى الباطن ،مثل كتاب كليلة ودمنة وغيره مماألف على ألسنة مالا عقل له ولا روح . وكذلك المقامات ، وإن كان ظاهرها كذبا فالقصد بها تمرين الطالب وتهذيبه وتذكية عقله ، وأن يكتسب تجارب الدّنيا من حكايات السَّروجىّ ، فيكون متنبّهاً لما يطرأ عليه من النّوازل ، فتؤمن على عقله الغفلة والخديعة ، إلى ما ينضاف إليه من تعليم صنعة الكتابة والشعر ، فإنّها أعون شىء عليها .

[ مما روى من الحكم على ألسنة البهائم وغيرها ]

ومما يحكى على ألسنة البهائم ما جاء فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بينا راع فى غنم إذ عدا عليها الذئب ، فأخذ شاة منها ، فطلبه الراعى منه حتى استنقذها ، فالتفت إليه الذئب وقال : من لها يوم السَّبْع ، يوم ليس لها راع غيرى ! »[1] .

بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها ، فالتفتت إليه البقرة فكلّمته فقالت: أنا لم أُخلَق لهذا ، وإنما خلقت للحرث ، فقال الناس: سبحان الله ! تعجبا وفزعاً ؛ أبقرة تتكلم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنى مؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر »[1] .

السَّبْع ، بسكون الباء : أرض المحشر والسبع : الفزع.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود وحتى يختبىء اليهودىّ وراء الحجر فيقول الحجر :ياعبدَ الله، يا مسلم هذا يهودىٌّ ورائى فاقتله »[2] .

(١) صحيح مسلم ١٨٠٧ ، ١٨٠٨ (٢) صحيح مسلم ٢٢٣٩

قالوا . خرج أسد وذئب وثعلب يتصيّدون، فاصطادوا حمار وحش وغزالاً وأرنباً، فقال الأسد للذئب : اقسم بيننا هذا ، فقال : الحمار للملك ، والغزال لى، والأرنب للثعلب؛ فرفع الأسد يده فضربه ضربة ، فإذا هو مجدّل بين يديه . ثم قال للثعلب : اقسمها ، فقال : الحمار يتغدّى به الملك ، والغزال يتعشى به ، والأرنب بين ذلك ، فقال الأسد : ويحك ما أقضاك! مَنْ علَّمك هذا القضاء ؟ قال : رأس هذا الذئب .

وحدّث الشعبيّ ، قال : صاد رجل قُبّرةً ، فقالت : ما تريد أن تصنع بى؟ قال: أذبحك وآكلك ، فقالت : والله ما أُشبِع من جوع ، وخير لك من أكلى أن أعلّمك ثلاث خصال : واحدة وأنا فى يدك ، والثانية وأنا على الشجرة ، والثالثة وأنا على الجبل ؛ قال : هاتى: قالت: لا تلهفنّ على مافات، فخلّى سبيلها، فلما صارت على الشجرة قالت : لا تصدّقنّ بما لا يكون أنه سيكون ، فلما صارت على الجبل قالت له : ياشقيّ لو ذبحتَنى أخرجت من حوصلتى درّتين ، كلّ واحدة عشرون مثقالاً ، قال : فعضّ الرجل على شفته تلهّفاً ، ثم قال: هاتى : الثالثة ، فقالت : أنت قد نسيت ثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ! ألم أقل لك : لا تلهفنَّ على ما فات ، ولا تصدّقن بما لا يكون أنه سيكون! أنا ولحمى ودمى وريشى لا يكون فىّ عشرون مثقالا، فكيف يكون فى حوصلتى درّتان كلّ واحدة عشرون مثقالا! ثم طارت وذهبت . وأمثال هذه المُلَح أكثر من أن تحصى .

* * *

وَلَمْ يُسْمعْ بِعَنْ نَبَأ سَمْعُهُ عَنْ تِلْكَ الحِكايَاتِ ، أَوْ أَثَّمَ رُوَاتَهَا فى وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ .

ثُمَّ إِذَا كَانَتِ الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ ، وَبِهَا انعِقَادُ العُقُودِ الدِّينِيَّاتِ ، فَأَىُّ حَرَجٍ عَلَى مَنْ أَنْشَأَ مُلَحًا للتَّنْبِيهِ ، لَا للتَّمْوِيهِ ، وَنَحا بِهَا مَنْحَى التَّهْذِيبِ ، لَا الأكَاذِيبِ ! وَهَلْ هُوَ فى ذَلِكَ إِلاَّ بِمَنزِلَةِ مَنِ

انْتَدَبَ لِتَعْلِيمٍ ، أَوْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ !

عَلَى أَنِّي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الهَوَى وأَخْلُصَ مِنْهُ ، لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِيَا

قوله : « نبا سمعُه » أي ارتفع ، وأصله في السَّيْف إذا ارتفع فلم يمض في الضربة . أثَّمَ : جعلهم أصحاب إثْم. انعقاد العقود ، أي ارتباط العقائد . حرج : إثم ، وأصل التحريج التضييق . التنبيه ، أي لينبّه به الغافل الذهنَ فيجعله حاضر الخاطر . نحا منحى : قصد مقصد . التهذيب : التلخيص ، وهذّبت الطالب : أخرجته وخلّصته ، ورجل مهذّب : مخلّص من العيوب . ويروى : ندب وانتدب ، فندب دعا ، وانتدب أجاب . وهدى : أرشد . صراط مستقيم : طريق معتدل ، ومَنْ فعل ما ذُكر مأجور غير آثم ، لكنّه مع هذا رضيَ أن يخلص ممن يتكلم في كتابه بتعييب ، وأن يخرج من هذا الكتاب كفافاً لا أجر ولا وزر ؛ بل نرجو له الأجر على نية الإفادة والتعليم ، إن شاء الله تعالى .

* * *

وَبِاللهِ أَعْتَضِدُ ، فِيمَا أَعْتَمِدُ ، وَأَعْتَصِمُ مِمَّا يَصِمُ . وَأَسْتَرْشِدُ ، إِلَى مَا يُرْشِدُ ؛ فَمَا الْمَفْزَعُ إِلاَّ إِلَيْهِ ، وَلاَ الاِسْتِعَانَةُ إِلاَّ بِهِ ، وَلاَ التَّوْفِيقُ إِلاَّ مِنْهُ ، وَلاَ الْمَوْئِلُ إِلاَّ هُوَ ؛ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ ، وَهُوَ نِعْمَ الْمُعِينُ !

أعتضد : أستعين.أعتمد : اقتصد . أعتصم : أمتنع.يصم ، يعيب . أسترشد: أستهدى . يرشد : يهدى و يدلّ على الخير . والمفزع: الملجأ ، وكذلك الموئل . وتقول:فزعتُ إلى فلان ، إذا لجأتَ إليه واستعنْتَ به ليحميَك ويمنعك،وفزعت منه :خفته ، والمفزع الذى ذكره مصدر بمعنى الفزع . وتقول : وألت من ذلك ، إذا نجوتَ منه ، وأنت موئلى منه ، أى للذى تنجّينى منه . والمفزع : الموئل والحصن ، تفزع إليه فينجيك من طالبك . أنيب : أرجع . والإنابة : الرجوع إلى الله تعالى والتوبة إليه .

# المقامة الأولى وهى الصنعانية

حدّث الحارث بن همّام قال : لمّا اقتعدْتُ غاربَ الاغترابِ ، وأنْأتني المتْربَة عن الأتْراب ، طوّحتْ بي طوائحُ الزّمن ، إلى صنْعاء اليَمن ، فدخلْتُها خاويَ الْوفاضِ ، باديَ الإنفاضِ ؛ لا أمْلكُ بُلغَةً ، ولا أجدُ في جرابي مُضغةً .

* * *

إن قيل : لأيّ معنى اختار الحريريّ حارثاً وهماماً وأبا زيد، دون غيرهم من الأسماء ؟ فالجواب أنه إنما قصدهم لأنهم أصدق الأسماء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المرفوع : « تَسَمَّوْا بأسماء الأنبياء ، وأحبُّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرّة »[1] . وصدْقهما أنه ليس أحد إلا وهو يحرث ، أى يحاول الكسب أو يهمّ بحاجته .

وأما أبو زيد ، فإن صدَق أنه إنسان بعينه كما تقدّم فى الصدر وقع الاكتفاء به ، وإن لم يصدق فقد حكى أهل اللغة أنه كنية الكِبَر ، وأنشد ابن قتيبة :

أعار أبو زيد يمينى سلاحَه وحدُّ سلاح الدّهر للمرء كالمُ[2]

وكنتُ إذا ما الكلب أنكر أهله أفدّى، وحين الكلب جذلان نائمُ

سلاحه : العصا. وإنكار الكلب أهله، إذا لبسوا السلاح. وجذلان نائم، فى الجدب إذا ماتت المواشى فيشبع من لحومها وينام . وقال ابن الأعرابىّ: يقال للشيخ الكبير: أبو زيد وأبو سعيد. والسَّروجىّ فى الغالب إنما يصفه بالكِبَر والهرم .

(١) نقله فى الجامع فى الصغير ١ : ٢٢٤

(٢) مايعوّل عليه ، مصورة بمكتبة المجمع اللغوى الورقة ٢٠١ .

فوقعت التسمية لغوية، وإنما عنَى بالحارث بن همام نفسه، لأنه يصفه بأشياء لاتليق إلا بالدهر ، مثل قوله :

وكل سرحٍ فيـــه ذئبي عائِثُ حـــتى كأنى للأنام وارثُ

* سامُهم وحامهم ويافثُ *

ومثل قوله :

ووترت أرْبابَ الأرا ئك والدَّرَانِك والسّجُوفِ

وهى كثيرة ، وفى الحسين له كلام لا يليق إلا بالدّهر، فجعل أخْذَ الحارث من أبى زيد، كناية عن علم الحريرىّ بماجرّب من صروف الدهر .

قوله : «اقتعدت» أى ركبت ، وأصله اتخذت قُعدة أو قَعودًا ، وهما اسمان للبعير يقعد عليه راكبه . والغارب : مقدّم سنام البعير . والاغتراب والغربة : التحوّل فى البلدان والبعد عن الأوطان ، وسيأتى ما أصلهما ، وأراد : لما اتّخذت ظهر الغربة قَعودًا. أنأتنى : أبعدتنى . المتربة : الفقر . الأتراب : الأصحاب على سن واحد . طوّحت: رمت .

وطوائح : نوائب ؛ تقول : طوّحتُ بالرجل ، إذا رميت به إلى الهلاك ، وقياس الطوائح المطاوح لأنك تقولُ : طوِّحت فهى مطوّحة والجمع مطوّحات ومطاوح . قال أبو عبيد : جاءت الطوائح على حذف الزيادة ، وردّ الفعل إلى أصله ، فإنه من طاحت فهى طائحة ، والجمع طوائح ، قال أبو عمرو الشيبانىّ : جاءت على النَّسب ، مثل لابن وتامر ، أى ذو لبن وذو تمر وذات تطويح ، قال الشاعر :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصــومَةٍ ومختبِطٌ ممّـا تُطِيحُ الطَّــوائحُ[١]

ومثله ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[٢] : تقديره ملاقح ، لأنك تقول : ألقَحَت الريح السحاب إذا جمعته وألقته . وضارع مرتفع بمضمر تقديره : يبكيه ضارع ، وهو الذليل .

* * *

[ مدينة صنعاء ]

صنعاء ، بلد باليمن ، وأضافها إلى اليمن ، لأنّ ثَمّ صنعاء أخرى ، وهى قرية بدمشق . وكان اسم صنعاء فى القديم « أَزال » ، قال ابن الكلبىّ والشرقى[٣] : ولما وافتْها الحبشة قالوا : نعم ، فسمّى جبلها نعم[٤] أى انظر ، فلما نظروا إلى مدينتها ورأوْها حصينة مبنية بالحجارة قالوا : هذه صنعاء ، وتفسيرها هنّية ، فسمّيَت صنعاء[٥] .

وحكى الهَمَذانىّ قال : وأهل صنعاء يقولون فى الإسلام : إنّها القرية المحفوظة ، وأنهم سمعوا هاتفاً يقول فى بعض أيام مَنْ حاربهم : كلٌّ عليكِ يا أزال ، وأنا أتحنن عليك !

وأقدم قصور اليمن وأنبهها ذِكْراً ، وأبعدها صيتاً غُمدان وقصر أزال ، وهى صنعاء .

---

(١) لنهشل بن حرى ؛ فى مرثية له ؛ وهو من شواهد الكتاب على أن الفعل المسند إلى ضارع ، حذف جوازا ، أى يبكيه ضارع . خزانة الأدب للبغدادى ١ : ١٤٧ .

(٢) سورة الحجر ١٥ .

(٣) هو الشرقى بن القطامى ، واسمه الوليد والشرقى لقب له .

(٤) فى ياقوت : « نعم ، أحد حصون اليمن » .

(٥) فى ياقوت : « قالوا : هذه صنعة ، ومعناها حصينة » .

والذى أسس غُمدان وابتدأ بنيانه،واحتفر بئره الذى هو اليوم سِقاية لمسجد جامع صنعاء،سامُ بن نوح عليه السلام، على مايذكره علماء صنعاء واليمن ، وذلك أنَّه لمَّا مات نوح اجتوى بعده السكنى فى الأرض الشماليّة ، فأقبل طالعاً فى الجنوب يطلب أطيب البلاد ، حتى صار إلى الإقليم الأوّل ، فوجد اليمن أطيبه مسكناً ، وصنعاءَ أطيبَ اليمن ، فوضع مقراته — وهى الخيط الذى يقدّر به البناء ويبنَى على حدّه — فوضع الأساس فى ناحية فجّ غُمدان فى غربىّ الجبل ، وهو اليوم معروف بصنعاء ، فلمّا ارتفع بعث الله طائراً ، فاختطف المقراة فطار بها ، وتبعه سام ، لينظر أين يقع ؛ فأمّ بها جنوب النَّعم من سفح نعم ، فوقع بها ، فلما اتّبعه طار بها ، وطرحها على حَرّة غمدان ، فلمّا قرّت ،علم سام أنه قد أُمِرَ بالبناء هنالك ؛ فأسس غُمدان،واحتفر بيده بئره المسمَّى كرامة ، ويُستقَى منها إلى اليوم لكنها أجاج(١) .

خاوى الوفاض : فارغ المزاود ، ويقال : خوّى الرّجل ، إذا سجد فترك بين جسده وبين الأرض خواء ، وخَوّى البعير : بَرَكَ على هذه الحال . والوفاض: جمع وَفْضة وهى شِبْه الجراب ، وهى أيضاً كنانة السهام إذا كانت من جلد لا من خشب ، فإن كانت من خشب مجلّد أو غير مجلّد فهى كنانة أو جُعْبة .

ابن سيده فى المحكم: الوفضة خريطة يحمِل فيها الراعى أداته وزاده.والوَفْضة: جُعْبة السهام . قال أبو منصور الأزهرىّ معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « أنّه أمر بصدقة [ أن ] توضع فى الأوفاض » :(٢) إنهم أخلاط الناس. قال الفراء : هم أهل الصُّفَّة . أبو عبيد: هذا كلّه عندنا واحد ؛ لأنّ أهل الصُّفَّة أخْلاط من قبائلَ شتَّى ، ويمكن أن يكون مع كلّ واحد منهم وَفْضة ، فعلى هذا مَنْ قصر الوَفْضة

(١) معجم البلدان ٤ : ٣٨٦ .
(٢) النهاية لابن الأثير ٥ : ٢١٠ ، قال فى شرحه : « هم الفرق والأخلاط من الناس » .

على الجُعْبة ، وخطَّأ الحريريّ بأنّ الزاد لا يكون فى الجُعْبة ، فهو المخطِئ والجاهل باتساع اللغة . بادى الإنفاض : ظاهر الفقر ، وقد أنفض ، إذا فنى زاده . وأنفضَ الجراب إذا انتفض وسقط ما فيه من بقية الزاد ، ومنه قولهم : النُّفاض يُقطِّر الجلَب[1] ، أى فناء زادهم يحمل إبلَهم قطاراً ،أى مربوطة بعضها خلف بعض ، تساق إلى السوق فتباع ، فيأكلون ثمنها ، قال الهذلىّ :

لَه ظَبْيـــةٌ ولَهُ عُـكَّةٌ إذا أنفضَ القوم لم ينفضِ[2]

ظَبية : جَريب صغير من جلد ظبى . بُلْغة : زاد للمسافر يبلغ به من يومه إلى غده . الجراب : وعاء من جلد يصنع للزاد . مُضْغة : لقمة .

* * *

فَطَفِقْتُ أَجُوبُ طُرُقَاتِهَا مِثْلَ الهَائِمِ ، وَأَجُولُ فِي حَوْمَاتِهَا جَوَلَانَ الحَائِمِ ، وأَرُودُ فِي مَسَارِحِ لَمَحَاتِي ، وَمَسَايِحِ غَدَوَاتِي وَرَوحَاتِي ، كَرِيمًا أُخْلِقُ لَهُ دِيبَاجَتِي ، وَأَبُوحُ إِلَيْهِ بِحَاجَتِي ، أَوْ أَدِيبًا تُفَرِّجُ رُؤْيَتُهُ غُمَّتِي ، وَتُرْوِى رِوَايَتُهُ غُلَّتِي ؛ حَتَّى أَدَّتْنِي خَاتِمَةُ المَطَافِ .وَهَدَتْنِي فَاتِحَةُ الإلطافِ[3] ،إلى نَادٍ رَحِيبٍ ، مُحْتَوٍ عَلَى زِحَامٍ وَنَحِيبٍ ، فَوَلَجْتُ غَابَةَ الجَمْعِ ، لِأَسْبُرَ مَجْلَبَةَ الدَّمْعِ ، فَرَأَيْتُ فِي بُهْرَةِ الحَلْقَةِ ، شَخْصًا شَخْتَ الخِلْقَةِ ، عَلَيْهِ

(١) مثل ، ذكره صاحب اللسان ، وقال فى شرحه : « يقول : إذا ذهب طعام القوم أو ميرتهم قطروا إبلهم التى كانوا يضنون بها ، فجلبوها للبيع فباعوها واشتروا بثمنها ميرة » .

(٢) لأبى المثلم الخزاعى . شرح ديوان الهذليين ٣٠٥ . العكة : النحى الصغير — وأنفضوا : ذهب ما عندهم .

(٣) متن المقامات : « الألطاف » ، بفتح الهمزة .

أُهْبَةُ السِّيَاحَةِ ، وَلَهُ رَنَّةُ النِّيَاحَةِ ، وهُوَ يَطْبَعُ الأسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ ، وَيَقْرَعُ الأسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِه ، وقَدْ أحَاطَتْ بِهِ أخْلَاطُ الزُّمَرِ ، إحَاطَةَ الهَالَةِ بالْقَمَرِ ، والأكْمَامِ بالثَّمَرِ ، فَدَلَفْتُ إلَيْهِ لأقْتَبِسَ مِنْ فَوَائِدِهِ ، وَأَلْتَقِطَ بَعْضَ فَرَائِدِهِ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ حِينَ خَبَّ فِي مَجَالِهِ ، وهَدَرَتْ شِقْشِقُ ارْتِجَالِه :

* * *

طفقت : أخذت وجعلت ، ومعناها ابتداء الفعل والدّخول فيه . أجوب : أقطع وأخرق ، وجَوْب الأرض: قطعها بالمشى . الهائم :الحيران. أجول: أتصرّف. حوماتها : جهاتها . الحائم : الطائر العاطش يحوّم حول الماء ، أى يدور به . أرود: ألتمس المسارح : مراعى البهائم . لمَحاتى: نظراتى، يريد المواضع التى يسرّحُ عينيه فيها بالنظر . مسايح : مسالك ، أراد طُرُقَه التى يسير فيها بالمشى بالغدوّ والعشىّ ، والسَّيْح: الماء الجارى على وَجْه الأرض ، وتكون المسايح أيضا جمع مَسِيحة أو مَسْحَة ، وهى الطَّوْفة، من قولك: مسحت البيت، أى طفت به ، فيكون على هذا «فعائل» ميمها أصلية، وعلى الأول «مفاعل» .أخلِق: أهين .ديباجتى: جلدة وجهى، يريد أنه يخلق وجهه بالمسألة كما يخلق الثوب ، وهذا من قول النبى صلى الله عليه وسلم : «المسألة كدوح وخدوش فى وجه صاحبها»، وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال المسألة بالرّجل حتى يلقى الله عز وجل، وما على وجهه مزْعة لحم»، أى قطعة. أبوح : أذكر . حاجتى : فقرى . تفرّج : تزيل . غُمّتى : غمّى ومايضيق نفسى . غُلّتى : عطشى . أدّتنى : أوصلتنى . خاتمة المطاف: آخر المشى . هدتنى: دلّتنى . والإلطاف: حسن السؤال وفاتحته ، أراد به سؤالك مَنْ تَلْقَى فى الطريق إذا دخلت بلداً غريبا، فإذا سألت بتلطّف أرشِدْت بسرعة، فسؤالك هو الذى فتح لك الطريق . ويقال:

الطَف سؤال الرّجل ، إذا رقّ لفظه ولم يكن فيه جفاء ، فتقبله القلوب ، وألطف الرجل سؤالَهُ، إذا سألك بحنان وتلطّف، واللطف الرفق ، وألطفتك أيضا: بَرَرْتك وأكرمتك،فالإلطاف مصدر ألطف ، ويروى : «الألطاف» جمع لُطْف وهو الرّفق ، يقال: لطف الله بالعباد لُطْفاً، رَفَق بهم رفقاً ، وهو راجع إلى الأوّل . نادٍ : مجلس . رحيب : واسع .محتو : مشتمل . نحيب : بكاء . ولجت : دخلت . غابة الجمع : وسط الناس، وأصل الغابة الشجر الملتفّ يغيب فيه مَنْ يدخله . لأسبُر : لأفتّش ، وأراد دخلت بين الناس لأجرّب وأعرف ما الذى أبكاهم وجلب دموعهم . ويروى، «مَحْلبة» بالحاء ،وهى من الحلْب، يقال: انحلبت عينه ، إذا سالت بالدمع . بُهْرة : وسط . شَخْت : دقيق ورقيق ، والشَّخْت : الحطب الرقيق . أُهْبة السياحة : آلة العبادة، وهى مثل العصا وركوة الماء وثياب الصوف وغير ذلك . يطبع الأسجاع، أى يرتبها ويصنعها ، تقول: طبعت الدرهم والسيف إذا صنعتهما ، وطبعت الكتاب إذا ختمته، وكانت الملوك تكتب فى فصوص خواتمها « لا إله إلا الله» و «الملك لله» وتطبع بذلك كتبها، وهذا المعنى أليق بطبع الأسجاع،أى يزينها ويختمها بجواهر كلامه ، ومن روى «لجواهر » باللام فعلى « يصنعها » لا غير ، والتفسير على الروايتين أخذته عن أبى ذرّ . والأسجاع الكلام المنقّر،له قافية كقافية الشعر، وكان من كلام الكهّان، وهذه الموعظة التى فى المقامة من الأسجاع . وسجعت الحمامة ، إذا غنّت على طريقة واحدة . يقرع :يضرب. الأسماع: الآذان . زواجر : نواهٍ ، وزجره : نهاه وانتهره . أحاطت : حلّقت : أخلاط : أصناف مختلطون. الزُّمَر : الجماعات. الهالة : الدارة حول القمر من نوره، والطّفاوة: الدارة حول الشمس.والساهور : هو غلاف القمر الذى يستتر فيه ما نقص منه. الأكمام : جمع كِمّ ،وهو الغلاف الذى ينشقّ عن الثمر ويحيط به. وسُمِّيَ كِمًّا لأنه يستر ما تحته، والأكمام : جمع قليل ، والكثير كمام . والثمر حمل الأشجار . دلفت : قربت ، ودلف الشيخ فى مشيته،إذا أسرع من ضعف فقارب خطوه. اقتبس من فوائده :

التمس وطلب أخذها واكتسابها . والفرائد : شذور الذهب تفصل مابين الجوهر. خبّ فى مجاله : أخذفى كلامه ، والخبّ عدوٌ سهل، وهو الذى تسميه العامةالسير، وفرس مسيار . والمجال للخيل : موضع تصرّفها وجريها . هدرت : صوّتت . شقاشق: جمع شقشقة،وهى النُّفاخة يخرجها فحلُ الإبل من حلقه عند هياجه ورغائه، ويرجع فيها هديره ؛ شبَّه صوت الواعظ حين يرفعه ويزجر به الناس بصوت البعير يهيج ويتابع الهدير ، قال الأخطل :

إذا هَدَرَتْ شقاشقه ونَشْبَتْ لَهُ الأظْفَار تُرْكَ له الهُدَارُ[1]

أراد: نَشِبَتْ وتُرِكَ ، فخفَّف .

* * *

**أَيُّهَا السَّادرُ فى غُلَوَائِهِ ، السَّادِلُ ثَوْبَ خُيَلاَئِهِ ، الجَامِحُ فى جَهَالاتِهِ ، الجَانِحُ إلى خُزَعْبَلاتِهِ . . . إلاَمَ تَسْتَمِرُّ عَلَى غَيِّكَ ، وَتَسْتَمْرِئُ مَرْعَى بَغْيِكَ ! وَحَتَّامَ تَتَنَاهَي فى زَهْوِكَ ، وَلاَ تَنْتَهِى عَنْ لَهْوِكَ !**

* * *

السَّادر : الراكب هواه، لا يردّه شىء استطالةً وبغياً ، ويقال للذى يطيل الجلوس فى الشمس حتى يتحيَّر بصره: قد سدَرفهو سادر . فى غلوائه: فى ارتفاعه للشرِّ ولجاجه فيه ، وهومِن غَلا يغلوفىالأمر ،إذا جاز الحدّ؛ فيقول: يأيُّها الأعمى الكثير اللَّجاج فى ركوب المعاصى؛ هلَّا نظرتَ بعين البصيرة، ورجعت عمَّا أنت عليه من الضلال ! السَّادل : المرخِي . خُيَلاَئه : كبره . الجامح : الجارى إلى غير

---

(١) ملحق ديوانه ٣٥٨ مما نقله عن الشربشى .

غاية ، وقد جمح الفرس إذا أكبّ رأسه،وجرى فى غير قصد ، فيريد أنه أكثر الفساد حتى جرى منه فى غير طريق . الجانح : المائل . الخزعبلات : الأباطيل ، وهو ما يتراءى للإنسان فى نومه من الخيال . تستمرّ : تدوم فى زورك . غيّك : ضلالك . تستمرئ : تستطيب من المرىء ، وهو ما يُلتذبه من الطعام . بغيك : ظلمك . تتناهى: تبلغ النهاية ، ونهاية الشىء ، آخره . زَهْوك : كِبْرك وعجبك. اللهو : ما يشغل عن الخير من أنواع الطرب .

[ نبذ من أقوال الشعراء فى ذم الكبر ]

وقال القاضى أبو جعفر(١) بن عمر فى ذمّ الكِبْر وما يتعلّق به :

وَلَا تُنْسَبْ إلى كِبْرٍ فهذا ... أبوكَ التُّرب يَخْفِضُك انْتِسابَا
ولا تصحبْ أخا كِبْرٍ وقدِّم ... على النَّفس الأعادِىَ والصِّحابَا
ولا تحبب محاباةً بمدحٍ ... كفى بالمرء حُوباً أن يُحابِى
وحاذِرْ أن تُرى فى القوْمِ رأساً ... ولا تنس الذّنوب وكن ذُنابى(٢)
تراباً كن هنا فعساك ألّا ... تَمَنَّى أن تكون غداً تُرابَا

وقال أبو نواس :

حَذَّرْتُكَ الكِبْرَ لا يغشاكَ مِيسَمُه ... فإنّه ملبسٌ نازعتَهُ اللهَ(٢)
يابؤسَ جلْدٍ على جَوْفٍ مُجوَّفُهُ ... يحوِى مقاذير إن كلمتَه تاهَا(٣)
يرى عليك له فضلاً يبين به ... إن نالَ فى العاجلِ السلطان والجاهَا
إنى لأمقتُ نفسِى عند نخوتِها ... فكيف آمنُ مقتَ الله إيّاهَا

(١) ط : « ابو حفص » ، وما أثبتة من ا » (٢) الذنابى: أذناب الناس .
(٣) رواية الديوان ١٩٧ :
يابؤسَ جلدٍ على عظمٍ مخرَّقُهُ ... فيه الخروق إذا كلّمته تاهَا

وقال أبو العتاهية :

عجبتُ للإنسان فى فخره ... وهو غداً فى قبره يُقبَرُ(١)
ما بالُ مَنْ أوّلُه نُطفـةٌ ... وجيفَـةٌ آخره يفخَـرُ !
أصبح لا يملك تقديمَ ما ... يرجو ولا تأخيرَ ما يحذَرُ

* * *

تبارزُ بِمَنْصِيَتِكَ ، مالكَ ناصيتِكَ ، وتجترِئُ بقُبْحِ سِيرَتِكَ ، على عالمِ سَرِيرَتِكَ ، وتتوارى عَنْ قَرِيبِكَ ، وأنتَ بمَرْأَى رَقِيبِكَ ، وَتَسْتَخْفِى من مَمْلُوكِكَ ، وَمَا تَخْفَى خَافِيَةٌ عَلَى مَلِيكِكَ .

أَتظنُّ أَنْ سَتَنْفَعُكَ حَالُكَ إذا آن ارْتِحالُكَ ! أَوْ يُنقِذُكَ مَالُكَ ، حِينَ توبِقُكَ أَعْمَالُكَ ! أَوْ يُغنِي عَنْك نَدَمُكَ ، إِذَا زَلَّتْ قَدَمُكَ ! أَوْ يَعْطِفُ عَلَيْكَ مَعْشَرُكَ ، يَوْمَ يَضُمُّك مَحْشَرُكَ !

* * *

قوله: « تبارز » ، أى تكاشف وتقابل. والبارز: الظاهر المنكشف. والناصية: شَعْر مقدم الرأس. تجترئ: تقدم وَتشجع. والجرىء: الشجاع المِقْدَام. سيرتك: عادتك ، وجمعها سِيَر وهى ما يعامل به الناس من خير أو شرّ ، وتقول : سرت سِيرَةً من خير أو شرّ ، إذا أحدثتَها فعمِل بها الناس بعدك ، فصارت عادةً لهم ، ولذلك فسرّنا السيرة بالعادة حيث وقعت ، وأصل السِّيرة هيئة على السَّيْر ، وذلك أنك تقول : جلس فلان جَلْسَةً بالفتح ، وهى المرّة الواحدة من جلوسه ، فإذا

(١) ديوانه ١٠٣ ، ورواية صوره فيه : « ما أحمق الإنسان فى فخره » .

كسرت الجيم فهى هيئة جلوسه، ومثله ركبَ رَكبَة، والرِّكبة هيئة ركوبه، وتقول: سار هذا الفعل سِيرة، والسِّيرة بالكسر : هيئة سيره فى الناس من حسن أو قبح أو صواب أو خطأ، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم: هيئة أفعاله حيث كانت. تتوارى : تستتر . بمرأى من رقيبك، أى بمنظر ربك أو بحيث يراك، ورقيب الشيء : حافظه وحارسه . مليكك : مالكك، وأراد أنَّ الإنسان إذا خلا بريبة، استتر بها عن أخيه وعبده حياء منهما، ولا يستحيي من ربِّه الذى يطَّلع على معاصيه، ولا يخفى عليه خافية، وأشار إلى قوله تعالى : ﴿ يستخفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ... ﴾ الآية، وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :

إن كنت تعلم أن الله ياعمرُ … يرى ويسمع ما يأتى وما تذرُ
وأنت فى غفلةٍ من ذاك تركب مَا … نهاك عنه، فأين الخوف والحذر !
تُجاهر الله إقداماً عليـه، ومِنْ … حُثَالةِ النَّـاس تسْتَحْيِى وتعتذرْ

و قال نابغة بنى شيبان :

إن من يركب الفـواحش سِرًّا … حين يخلُو بسرِّه غير خالِ(١)
كيف يخـلو وعنده كاتباه … شاهدَاه وربُّه ذو الجلالِ !(٢)

وقال أبو نواس :

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقُلْ … خلوتُ، ولكن قل علىَّ رقيبُ(٣)
ولا تحسبنَّ الله يغفـل ساعـةً … ولا أنَّ ما يخـفى عليه يغيبُ
لهـونا لعمر الله حتى تراكَمَت(٤) … ذنوبٌ على آثارهنَ ذنـوبُ

(١) ديوانه ٦٤ .
(٢) الديوان : « ذو المحال » .
(٣) ديوانه ٢٠١ .
(٤) رواية الديوان : « لهونا بعمر طال حتى ترادفت » .

حالك : عزّتك ومالك . آن : حان وقرب . ارتحالك : انتقالك . توبقك : تهلكك ، يقال : أوبقته الذنوب ، أهلكته فوبق ، أى هلك وويق أيضاً ـ وقال أعشى همْدان :

أستغفرُ الله أعمالِي الّتي سلفتْ مِنْ عثْرةٍ إن يعاقبْني بهـا أبق

زلّت : زلقت . معشرك : قومك . محشرك : موضعك الذى تُحشَر إليه .

* * *

هَلاَّ انْتَهَجْتَ مَحَجَّةَ اهْتِدَائِكَ ، وَعَجَّلْتَ مُعَالَجَةَ دَائِكَ ، وَفَلَلْتَ شباةَ اعْتِدائِكَ ، وَقَدَعْتَ نَفْسَكَ فَهِيَ أَكْبَرُ أَعْدَائِكَ !

أَمَا الحِمَامُ مِيعَادُكَ فَمَا إِعْدَادُكَ ! وَبِالْمَشِيبِ إِنْذَارُكَ ، فَمَا أَعْذَارُكَ ، وَفِي اللَّحْدِ مَقِيلُكَ ، فَمَا قِيلُكَ ! وَإِلَى اللهِ مَصِيرُكَ فَمَنْ نصيرُكَ ! طَالَمَا أَيْقَظَكَ الدَّهْرُ فتناعَسْتَ ، وَجَذَبَكَ الوَعْظُ فتقاعَسْتَ ، وَتَجَلَّتْ لَكَ العِبَرُ فَتَعَامَيْتَ ، وَحَصْحَصَ لَكَ الحقُّ فَتَمَارَيْتَ ، وَأَذْكَرَكَ الْمَوْتُ فتناسَيتَ ، وَأَمْكَنَكَ أن تُوَاسِيَ فَمَا آسَيْتَ .

* * *

انتهجت : ركبت . والنّهج المنهَج والمنْهاج : الطريق الواضح . محجّة : طريقه من حَجّه يحُجّه ، إذا قصده . اهتدائك : استقامتك . معالجة : مداواة . فَلَلْت : كسرْت . شَباة : حدّ . اعتدائك : جورك وظلمك . قدَعْت : كففت

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « ليس عدوّك الذى إن قتلته كان لك نوراً ، وإن قتلك دخلت الجنّة ، ولـكن أعدى عدوّك نفسُك التى بين جنبيك » . قال الأصمعى : كنّا بطريق مـكة فى بعض المنازل ، إذ وقفت علينا أعرابيّة فقالت : أطعمونا ممّا أطعمكم الله ، فناولها بعضُ القوم شيئاً فقالت له : كَبَتَ الله لك كل عدوّ لك إلّا نفسَك .

قوله : « أما » : حرف إخبار[1] واستفتاح كألا . الحِمام : الموت ، من حُمّ الأمر ، قضى . الميعاد : الموعد . ما إعدادك : ما استعددت له ، والإعداد مصدر أعدَّ للأمر إذا هيّأ له ما يحتاج إليه من عُدَّة ، يقول : الموت هو الذى وُعِدت به أن يأتيك ولا بدّ ، فاستعدّ له من أفعال البر .

وللفقيه الزاهد أبى عمران موسى بن عمران :

يا صاح فى الموتِ لناحـكمةٌ    بالغةٌ لو أننا ننتفـــعْ
فاعمـــلْ له قبل مفاجاتِهِ    ويَحْصِد الزارعُ ما قد زرعْ
لا حيلةً تُنْجيك منـه ولا    ذو وزَرٍ عنه به يمتــنعْ
كم أممٍ أفناهُمُ قبلنـــا    وشمل قومٍ شتّه فانصدعْ

ولحبيب :

فقد أيقَنَتْ بالموت نفسى لأنّنى    رأيتُ المنايا يَخْتَرِمْنَ حياتيـا[2]
فيا ليْتَ أنّى بعد موتِى ومبعَثِى    أكونُ رُفاتاً لا علىّ ولاليَا

المشيب: الشيب ، يقال: شاب رأسُه شيباً أو مشيبا . إنذارك : إعلامك، وأنذرك:أعلمك ممّا تحذر وخوّفك منه،وأراد قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾،[3] وانظر هذا المعنى فى الحادية والأربعين مستوفًى نظماً ونثراً .

(١) قوله : « أما : حرف إخبار... » الظاهر أن هذا استفهام تقريرى — حاشية ط .
(٢) ديوانه ٤٨٤ .    (٣) سورة فاطر ٣٧ .

أعذارك: جمع عذر ، والإعذار بكسر الهمزة مصدر أعذر فى طلب الحاجة إذا بالغ فيها .قال ابن السَّبْتِيّ وجنّس قوانيه :

الشَّيْبُ فى مفرقَىَّ حَلّا ... وعَقْد عهد المِلاح حُلّا
وكانَ كالآبنوسِ رأسِى ... فاحتلَّه عاجُه فخَلّا
وحَرَّمَتْ وصْلِى الغوانى ... وقُلْنَ قَتْلُ العميد حَلّا

اللحد : حفرة فى جانب القبر ، ولحَدَ الميت وألحده: شقّ له فى جانب القبر. وأصل اللفظة الميل .ومقيلك : مقامك ،وأصله النوم فى القائلة . قيلُك : حديثك المَقُول وحجّتك الواضحة ، والقول مصدر كالطحْن والذّبح ، والقيل : اسم للمَقُول كالطِّحْن بالكسر : اسم للدقيق المطحون، والذِّبْح اسم للمذبوح . يعقوب : القال والقيل اسمان لا مصدران . ابن سيده : القيل فى الأصل مصدر ، وحكى الفارسىّ قاله قولا وقيلا،مثل ذكَرَه ذكراً ، والقال يجوز أن يكون مصدراً ، فإنّ سيبويه حكى :ذامَه ذاماً وعابه عاباً،إلا أنه لم ينصَّ على القال . مصيرك:رجوعك . نصير : معدول عن ناصر للمبالغة . تناعست ، أى أظهرت أنك ناعس . جَذَبك : قادك بعنف ، ويقال:جذب،وجَبذ وهى أقلّ من الأولى،وصحّفت العامة هذه الثانية وقالوا :«جَبَد» بدال غير منقوطة.تقاعست : تأخَّرت وتصعّبت وتشبَّهْت بالأقْعس ؛ وهو الذى دخل ظهره وخرج صدره ، أى قادك الوعظ إلى الخير فلم تنقَدْ له ، والعرب تقول : عزة قَعْساء كأنها تتقعّس عن الذلة . تجلّت : ظهرت . والعِبَر : ما يُتَخوّف ويُتّعظ به عند رؤيته .حصحص : تبيّن، من الحصّ وهو ذهاب الشعر فيتبيّن ما تحته ، والحاء الثانية مبدلة من صاد ثالثة ، وإذا اجتمع الأمثال فى مثل هذا ، أبدلت العرب من الحرف الأوسط حرفاً من جنس الحرف السابق ، ومثله حثحثت ورقرقت ،أصلهما حثثت ورققت ؛هذا قول الكوفيين، وقال البصريون:

هما لغتان تقاربتا ، إذ لا يبدل الحرف إلا من مثله أو من مقاربه في المخرج ، وهذه الحروف متباعدة لا يصحّ إبدالها . ماريت : شككت : تؤاسى : تعطى .

* * *

تُؤْثِرُ فَلْساً تُوعِيهِ ، على ذِكْرٍ تَعِيهِ ، وَتَخْتَارُ قَصْرًا تُعْلِيهِ ، عَلَى بِرٍّ تُولِيهِ ، وَتَرْغَبُ عَنْ هادٍ تَسْتَهْدِيهِ ، إلى زَادٍ تَسْتَهْدِيهِ ، وَتُغَلِّبُ حُبَّ ثوبٍ تَشْتَهِيهِ ، على ثوابٍ تَشْتَرِيهِ .

يواقيت الصِّلاتِ ، أَعْلَقُ بِقَلْبِكَ مِنْ مَوَاقِيتِ الصَّلاَةِ ، وَمُغَالاةُ الصَّدُقاتِ ، آثَرُ عِنْدَكَ مِنْ مُوَالاةِ الصَّدَقاتِ ، وَصِحَافُ الألوان ، أشْهَى إلَيْكَ من صَحَائِفِ الأدْيانِ ، وَدُعَابَةُ الأقْرَانِ ، آنَسُ لَكَ مِنْ تِلاَوَةِ الْقُرْآنِ .

* * *

تؤثر : تفضّل . توعيه : تجعله فى وعاء . برّ : إحسان . توليه : تعطيه وتلصقه بمن تبرّه . هادٍ : مرشد لطريق الخير . ترغب عنه ، أى تتركه . تستهديه ، أى تسترشده وتسأله أن يهديك إلى الخير ، وتستهديه الثانية : تطلب أن يهدى لك هدية . يقول : تترك مَنْ يهديك إلى طريق الخير ، فلا تسأله الهداية ، وتقصد أعراض الدنيا من الأطعمة وغيرها ، وترغب أن تعطى منها هدية ، قال الزّاهد ابن عمران :

توقَّ وحاذِرْ من قَبُولِ هديّةٍ وإن جاءكَ فيها الحديثُ المرغِّبُ
فقد حدَثَتْ بعد الرّسولِ حوادثٌ تحذِّرنا منها ، وعنها ترغِّبُ
وكانت هديّاتُ الأوائل قبلنَا تؤلِّف فيما بينهــــمْ وتحبِّبُ
فعادَتْ بلايا يُسرِعُ المنُّ نحوها تفـــرّق فيما بيننـــا وتجنِّبُ

وله فى مثله :

احذَرْ هدَايَا النَّاس تأمن المِـــنّ بها أو قولَ واشٍ يَشِي
فقلّ مَنْ يهـــديك إلّا امرُؤٌ من رَغْبةٍ أو رَهْبَـــةٍ قَدْ خُشِي
التبس الأمر فـــلا تقدمن واُخشَ مقام الله فيمن خَشِي
كانت هَدَايا ثم عادت رِشًـــا وفى الرِّشا الْهلْكُ لِمَنْ يرْتَشِي
حَذَّرنا منهـا نبيّ الهُـــدَى إذْ لَعَنَ الرَّاشِيَ والْمُـــرْتَشِي

الثواب : المكافأة على الفعل ، وأراد به مايجازى الله به عباده على إحسانه من الأجر ، وهو من ثاب يثوب إذا رجع ، وأثبْتُ الرجل : أعطيته الثواب ، وهو المكافأة على فعله . قوله « يواقيت » : أى جواهر . الصِّلات : العطايا . أعلق : ألصق . مواقيت : أوقات ، وهى جمع ميقات .

* * *

[ من لطائف التجنيس ]

ومما يستحسن من تجنيس الصِّلات والصَّلاة ،حكاية أحمدبن المدّبر ـ وكان إذا مدحه شاعر ولم يرض شعره ، قال لغلامه : امض به إلى المسجد فلا تفارقه حتى يصلّى مائة ركعة ، ثم خلّه ،فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين ـ فجاء الحسين بن عبدالرحمن البصرىّ المعروف بالجمَل ، فاستأذنه فى النشيد ، فقال: أعرفتَ الشرط ؟ قال : نعم ، وأنشد :

أردْنَا فى أبى حسن مديحـــاً كما بالمدح تُنْتَجَـــعُ الوُلَاة
فقلنا أكرمُ الثقَلين طُـــرّاً ومن كفَّاه دِجْـــلَةُ والفُرَاتُ
فقالوا يقبل المدحاتِ لـــكنْ جَـــوائزه على المدحِ الصَّلاةُ
فقلت لهم : وما تغنِى صلاتى عِيالى، إنَّمـــا تُغْنِى الزَّكاةُ !

فأمّا إذ أبى إلاّ صَــــلاتى وعاقتْنى الهموم الشَّاغِــــلاتُ
فيأمر لى بكسر الصّـاد منها لَعَلِّى أن تنشِّطَنى الصِّـــلاتُ
فيصلحُ لى على هَذِى حيــاتى ويصلـــــحُ لى على هَذِى المماتُ

فضحك واستظرفه ،وأمر له بمائة دينار،وقال : من أين أخذت هذا ؟ قال : من قول أبى تمام :

هنَّ الحَمـامُ فإن كَسَرْتَ عِيَافةً مِنْ حَائِهن فإنَّهن حِمَـــامُ[1]

* * *

قوله :«مغالاة الصَّدُقات » ، أى الزيادة فى المهور ، وغاليت : زدت فى ثمن السِّلعة ورددتها غالية ، والصَّدُقات واحدتها صَدُقة وهى الصّداق،قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «من يُمْنِ المرأة تيسير صداقها وخِطبتها »[2]، قال عروة :وأنا أقول : من أول شؤمها أن يكْثُر صداقها . آثر : أفضل وأكثر أَثَرَةً . موالاة:متابعة . صحائف : جمع صحيفة، وهى الورقة يُكتب فيها من الرّقّ والقرطاس. دُعابة : مزاح، وفى فلان دُعابة،وتداعب الرّجلان:تمازحا، وفى الحديث: «كانت فيه صلى الله عليه وسلم دعابة»، وفى حديث جابر رضى الله عنه:« هلّا بكراً تداعبها وتداعبك! ». الأقران : الأصحاب والأمثال . تلاوة : قراءة ، وتلوته : قرأته ، واختلفوا فى اشتقاق القرآن،فقال أبو عبيدة: سُمِّىَ قرآناً لأنه يجمع السور ويضمّها،قال الله تعالى: ﴿فإذا قَرَأْنَاهُ فاتبِّعْ قُرْآنَهُ﴾[3] أى إذا جمعناله شيئاً فضمّه واعمل به ، وقال قطرب : سُمِّىَ قرآناً لأن القارئ يُظهره ويبينه ويلقيه مِن فِيه، من قول العرب: ماقرأت الناقة سلاًقطّ ،أى ما رمت به .وقال النبى صلى الله عليه وسلم :« إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد » ،قالوا : يارسول الله . ما جلاؤها ؟ قال : « قراءة القرآن » .

(١) ديوانه ٢٧٩ .
(٢) نقله فى النهاية لابن الأثير ٢ : ١١٨ .
(٣) سورة القيامة ١٨ .

تَأْمُرُ بِالْعُرْفِ وَتَنْتَهِكُ حِمَاهُ، وَتَحْمِي عَنِ النُّكْرِ وَلاَ تَتَحَامَاهُ، وَتُزَحْزِحُ عَنِ الظُّلْمِ ثُمَّ تَغْشَاهُ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ. ثُمَّ أَنْشَدَ:

تَبًّا لِطَالِبِ دُنْيَا ... ثَنَى إِلَيْهَا انْصِبَابَهْ
مَا يَسْتَفِيقُ غَرَامًا ... بِهَا وَفَرْطَ صَبَابَهْ
وَلَوْ دَرَى لَكَفَاهُ ... مِمَّا يَرُومُ صُبَابَهْ

* * *

العرف، أى المعروف. تنتهك: تبالغ فى تناوله بما لا يجوز. حماه: ماحُمى منه ومنع، وأصل الحِمَى موضع العشب يحميه الرجل لإبله. وانتهاكه: استئصال عشبه بالرعى، ونهكت الجلد وانتهكته، إذا أخذته بشفرة حتى يرق ويضعف. النُّكر: المنكر. تتحاماه: تتباعد عنه. تُزحزح عن الظلم: تُنَحِّى عنه غيرك وتزيله. وتغشاه: تأتيه وتباشره. تخشى: تخاف. وقال ذو الرمّة فى هذا المعنى، وهو أحسن شعرٍ قاله:

يارِبِّ قد أسرفَتْ نفسى وقد علمتْ ... علماً يقينا لقد أحصيتَ آثارى
يامخرج الرُّوح من نفسى إذا احتضرت ... وفارجَ الكرب زحزِحْنى عن النّار[١]

دعا لنفسه أن يكون من الفائزين، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجَنَّة فقَدْ فَازَ﴾[٢].

قوله: «تبًّا»، أى خسرانًا وهلاكًا، وتبّت يده: خسرت. قال تعالى: ﴿ومازَادُوهم غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[٣]، أى غير خسار وهلاك، قال الشاعر:

(١) ملحق ديوانه ص ٦٦٧ .
(٢) سورة آل عمران ١٨٥ .
(٣) سورة هود ص ١٠١ .

عَرادَةُ من بقيَّة قوم لوطٍ ألا تبًّا لما عملوا تبَابَا![1]

ثَنَى : عطف وردّ . انصبابه : جريه . يستفيق: يستريح ، وأفاق من المرض: استراح . غراماً : شدّة حبّ لازم له غير مفارق ، ومنه سُمِّيَ الغريم لملازمته التقاضى وإلحاحه فيه ؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَراماً ﴾[2] أى مُلِحًّا دائما ، ومنه ﴿إنَّا لَمُغْرَمُون﴾[3] ، وفلان مغرم بالنساء: يحبّهن ويلازمهنّ ، وقال حاتم :

فما أَكْلَةٌ إن نلتها بغنيمةٍ ولا جوعة إن جعتها بغرام

أى بهلاك وملازمة .

فرط صبابة : شدة شوق ومجاوزة حدّ فى ذلك . يروم : يطلب . صبابة . بقيّة الماء .

* * *

[ نبذ من الأشعار فى ذمّ الدنيا ]

وهذا الشعر مستحسن القوافى ، ومثله فى ذلك قول الزاهد ابن عمران[4] ، وكثيراً ما كان يستمدّ فى شعره من أدب المقامات :

تبًّا لذى جهل دعَا لمبرّةٍ وأجبتُه برًّا به فأذاعَهَا
منًّا وقد كافَأْتُه بهباتِهِ وذخرتُها عندى له ، فأضاعهَا
فَأَقْلِ اللئامَ من الرجال ولا تجبْ مَهْمَا دَعَوْكَ وجَنِّبَنْ أوْضَاعهَا

وقال آخر :

---

(١) لجرير ، ٨٣ ؛ وهو عرادة النميرى راوية الراعى ، وقبله :

أتانى عن عرادَة قولُ سوء فلا وأبى عَرادَة ما أصابا

(٢) سورة الفرقان ٦٥ .

(٣) سورة الواقعة ٦٦ .

(٤) هو أبو عمران موسى بن عمران المارتلى الإشبيلى ، ذكره ابن سعيد فى المغرب ١ : ٤٠٦ ، وأورد بعض شعره .

يامن يضيّع عُمْرَهُ متمادياً فى اللّهوِ أمْسِكْ
واعلم بأنّك لامحا لةَ ذاهبٌ كذهابِ أمْسِكْ

ولمنصور الفقيه فى الشعر المردف(١) :

إذا كُنْتَ تزعمُ أنَّ الفِرَاقَ فراقُ الحياةِ قريبٌ قريبْ
وأنَّ التقدّم ما لا يفوت على مايفوت مصيبٌ مصيبْ
وأنتَ على ذاك لا ترعَوِى فأمرُكَ عندِى عجيبٌ عجيبْ

وقال القاضى أبو حفص عمر فى معنى شعر الحريرىّ فى ذم الدنيا :

يارَا كِضًا فى طلابِ دنْيا ليس لمن تَصْرَعُ انتعاشُ
لم تُخشَ نارٌ هَوَى لَظَاهَا بمن له نحوَها انحياشُ
أعذر منكَ الفَرَاش حالاً علمت ما يجهل الفراشُ
طالبها لا تنــام عين عنها ولا يستقرُّ جاش
مَنْ لك بالرّىّ من شرابٍ يشتدّ من شربه العطاشُ
دَعْها فطلّابُهــا رِعاعٌ طاشت بألبابهم فطاشُوا
لم يَرِدوها فهم رِواءٌ وواردُوها هُمُ العِطَاشُ
فاظمأ لترَوَى ، وكن كقومٍ سُقوا بها غِبَّةً فعاشُوا(٢)
كأنَّ آمالَنا ظباء ونحن من حَيرةٍ خِدَاشُ
إن لآمالنا انبساطاً به لأعمارنا انكماشُ
كأنّ آجالنا صقورٌ ونحن من تحتها خَشَاشُ

ولابن الرومى رحمه الله :

لَعَمْرك ما الدُّنيا بدار إقامةٍ إذا زال عن عين اللبيب غطاؤُهَا

(١) الردف فى الشعر: حرف ساكن من حروف المد . واللين يقع قبل حرف الروى ، ليس بينهما شىء ، فإن كان ألفاً لم يجز معها غيرها ، وإن كان واواً جاز معه الياء . وانظر اللسان.
(٢) ب : « ماتوا بها عفة فعاشوا » .

فكيف بقاء النّاس فيها وإنما ... يُنال بأسباب الفناء بقاؤُهَا !

وقال آخر :

ومن يحمد الدنيا لعيشٍ يسرُّه ... فسوف لَعَمْرِى عن قريب يلومُها

إذا أدبرتْ كانتْ على المرءِ حسرةً ... وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

ولابن سارة رحمه الله تعالى :

بنُو الدُّنيا بجهل عَظَّمُوهَا ... فجلَّتْ عندهمْ وهى الحقيرهْ[1]

يُهارش بعضُهم بعضاً عليهاَ ... مهارشة الـكِلاب على العقيرهْ

* * *

ثمَّ إنَّهُ لَبَّدَ عجَاجتَهُ، وَغَيَّضَ مُجاَجَتَهُ، واعتَضَدَ شَكْوَتَهُ. وَتَأبَّطَ هِرَاوَتَهُ. فَلَمَّا رَنت الجْمَاعَةُ إلى تحفُّزِه، وَرَأَتْ تأهُّبَهُ لِمُزَايلَةِ مَرْكزِه، أدْخَلَ كلٌّ مِنْهُمْ يدَهُ فى جَيْبِهِ، فَأفْعَمَ لَهُ سَجْلاً مِنْ سَيْبِه، وَقَالَ: اصْرِفْ هَذا فى نَفَقَتِكَ، أَوْ فَرِّقْهُ عَلَى رُفْقَتِكَ. فقبِلَهُ مِنْهُمْ مُغْضِياً، وَانْثَنَى عَنْهُمْ مُثْنِياً، وَجَعَلَ يُوَدِّعُ مَنْ يُشَيِّعُهُ، لِيَخْفَى عَلَيْهِ مَهْيَعُهُ، وَيُسَرِّبُ مَنْ يَتْبَعُهُ، لـكَى يُجْهَلَ مَرْبَعُهُ .

* * *

قوله : «ثم إنه لبّد عجاجته»، أى سكّن غَبْرته المرتفعة حتى لصقت بالأرض . غَيّض: جفف . المُجَاجة : ما يُلقِى مِنْ فيه. وقد مجَّ الرجل ريقَه، إذا سال من حمق أو كِبَر. وأراد بلبّد عجاجته ، قطع كلامه الذى كان قد استرسل ، وأخذه من قول سليمان بن عبد الملك ، وقد تـكلّمَ وفد بين يديه ، فلم يصنعوا شيئاً ،

(١) قلائد العقيان ٣٠١ .

وتكلّم بعدهم رجل قبيح المنظر فأبلغ ، فقال سليمان : كأنّ كلامه بعد كلامهم سحابة لبّدت عجاجا .

وأراد بـ « فَيْض مُجاجته » ما كان يسيل من عينيه وأنفه عند البكاء . اعْتَضَدَها : جعلها تحت عَضُدِه . والشكوة : ركوة الماء تُصْنَع من جلد الثور أوالخروف . وتأبَّطها : جعلها تحت إبطه . هَراوته : عصاه . رنت : نظرت . تحفزه : تهيّؤه وعجلته للانصراف ، وتحفّز واحتفز ، إذا كان جالساً على عقبيه متهيّأ للقيام . تأهّبه : استعداده . مزايله : مفارقه . مركزه : موضعه الذى قام به . أفعم : ملأ ، ونعمت الشىء فعماً : ملأته . سجلا : دلوا . سيبه : عطاؤه ، معناه وهَب له نصيباً من عطائه . رفقتك : أصحابك . مغضيا : مستحييا ، وأصل « أغضى » كفّ بصره وضمّ جفنيه . انثنى : رجع وانعطف عن طريقه . مهيعه : طريقه البيّن . يسرّب : يفرّق ، فكأنه « تفعّل » من السَّرَب وهو الطريق ، كأنه يردّهم عن تشييعه فى طرق مختلفة ، أو يكون من لفظ السَّرَب ، وهو الجحْر ، فكأنه يغيّبهم عنه حيث يقصد تعمية طريقه عليهم ، أو يكون من لفظ السارب وهو الذاهب فى الأرض ، وقد سرب سروباً ، فكأنه يذهبُهم فى كلّ ناحية ليجهل مكانه . مربعه : منزله فى الرّبيع خاصة . والمربع : المنزل فى كل وقت ؛ من ربعت بالمكان ، أقمت به .

* * *

قال الحارث بن هَمَّام : فاتبَعْتُهُ مُوارِياً عَنْهُ عِيانى ، وَقَفَوْتُ إثْرَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَرَانِى ؛ حَتَّى انتَهَى إلى مَغَارَة ، فَانْسَابَ فِيهَا عَلَى غَرَارَةٍ ، فأَمْهَلْتُهُ رَيْثَمَا خَلَعَ نَعْلَيْهِ ، وَغَسَلَ رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ هَجَمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدْته مُحاذِياً لِتِلْمِيذٍ ، عَلَى خُبْزٍ سَمِيذٍ ، وَجَدْىٍ حَنِيذٍ ،

وَقُبَالَتَهُمَا خَابِيةُ نَبِيذٍ ، فَقُلْتُ له : يَا هذا ، أيكونُ ذَاكَ خَبَرَكَ ، وَهَذا مَخْبَرَكَ !

٭ ٭ ٭

مواريًا : ساترًا . عيانى : شخصى ، أى تبعتُه مستخفيًا بحيث لا يرانى . قفوْته : اتّبعته من جهةقفاه . انساب:دخل ، وأصلُ الانسياب ،جَرْى الحَيَّة على وجه الأرض ،أو جَرْى الماء كذلك،ولا يكون الانسياب إلاعلىوجه الأرض ، لا يقال : انساب فى الُجحر ؛ حدّثنى به بعض مَنْ لقيت من أصحابنا ، وكان أضْبَط النّاس للسان العرب ، قال:وقول الحريرى:«انساب فيها»وهم منه، ولوقال: «انشام فيها» لكان أمثل ، يشبّهه بالسيف إذا وُضع فى غمده. غَرارة : غفلة . رَيْث : قدْر . هجمت عليه : دخلت عليه فجأة ، ومنه هجم عليه الحرّ ، وهجمتْ عينه :دخلت فى رأسه . محاذيًا : ملاصقًا أو جالسًا بحذائه . تلميذ : متعلّم الصنعة. حَنِيذ : مشوىّ ، وحنذَ اللحمَ حَنْذًا : شواه بحجارة محمّاة . نبيذ ، أراد به خمرًا . خبرك ، أراد به أمرك الذى أنت عليه . مَخْبرك ، أى باطنك وما يختبَر منك .

[ أبو نواس فى مجالس الوعظ ]

ومما ينتظم فى هذا النمط حكاية أبى نواس حين رُئِىَ فى مجلس منصور ابن عمّار يبكى ، فظنّ النّاس أنه قد نَسَك ، فجعلوا يهنئونه ،ويقولون: نرجو لك من الله الخير ، فقال : أنا أهون على الله من ذلك ؛وليس كما تظنّون ، ولكن أبكى لبكاء ذلك الغزال ــ وغلام بالمجلس يبكى من وعظ منصور ــ ثم قال :

لم أبكِ فى مجلس منصورِ     شوقًا إلى الجنَّة والُحورِ

لكن بكائى لبـكا شادنٍ تَقيه نفسى كلَّ محذُورِ
تنتسب الألسن فى وصفِهِ إلى مَدَى عَجْزٍ وتقصِـيرِ

وحضر أيضاً مجلس بعض القصاص ، فقالوا له : لعلّ الله قد أقبل بك! فقال : إنما حضرت لأجل هذا الغزال ، ثم قال :

خلّيـانى والمعـاصِى وَدَعَا ذِكْرَ القِصاصِ
واسقيـانى الخَمْرَ صِرْفاً فى أباريقِ الرَّصَـاصِ
وعلى وجـه غَزالٍ طـائعٍ ليس بعـاصِى
بين فتيانٍ كرامٍ قد تواصَوْا بالمعـاصِى
وعلى الله ـ وإن أفـ ـرطتُ فى الذنب ـ خلاصِى

* * *

فزفَرَ زفْرَةَ القَيْظِ ، وكَادَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ يُحمْلِقُ إلَىَّ ، حَتَّى خِفْت أَنْ يَسْطُوَ عَلَىَّ . فَلَمَّا أن خَبَتْ نارُهُ ، وَتَوَارَى أُوَارُه ، أنشد :

لَبِسْتُ الخَمِيصَةَ أَبْغِى الخَبِيصَـهْ
وَأَنْشَبْتُ شِصِّىَ فى كلِّ شِيصَهْ
وَصَيَّرْتُ وَعْظِىَ أُحْبُـولةً
أُرِيغُ القَنِيصَ بهـا وَالْقَنِيصَهْ
وَأَلْجَأَنِى الدَّهْرُ حَتَّى وَلَجْـ
ـتُ بِلُطْفِ احْتِيالى على اللَّيْثِ عِيصَهْ

عَلَى أَنّْيِ لَمْ أَهَبْ صرْفَهُ
وَلاَ ابْضَتْ لِيَ مِنْهُ فَرِيصَهْ

وَلاَ شرعَتْ بِيِ على موردٍ
يُدَنِّسُ عِرْضِيَ نَفْسٌ حَرِيصَهْ

وَلَوْ أنْصَفَ الدَّهْرُ فِي حُكْمِهِ
لَمَا مَلَّكَ الْحُكْمَ أَهْلَ النَّقِيصَهْ

* * *

قوله: « فزفر زفرة القيظ» ،الزفرة :تنفّس المهموم أو المغتاظ ، والقيظ : شدّة الحرّ ، شبّه ما أبداه من شدَّة الغيظ بوهَج الحرّ . يتميّز : يتقطع ويتفرّق. يحملق : يحدّ النظر ، والحملقة: نظر الغضبان، والحِملاق: باطن الجفن. يسطو :يصول ويتناولني بالمكروه ، يقال : سطا عليه وبه،يسطو سَطْوًا وسطوة ، إذا قهرَه وأذلّه . خبت ناره : سكنت حدّة غيظه . توارى : تغطى واستتر . أُوارُه : لهبه و نار غيظه . والأوار :وَهَج النار . الخميصة : كساء فيه خطوط . وقال يعقوب وأبو عبيد : الخميصة : كساء مربّع أسود له علمان . الخبيصَة: نوع من الحلواء ، وتسميه عامتنا الخبيز ،بالزاى ، وكنى به عن لذة العيش . الشِّصّ : حديدة معوجّة يصاد بها الحوت، وتسمّى الصنارة . شيصة : ثمرة رديئة ؛ ومِنْ مُلح قصاص البلدان ، أنّ أبا عبد الله الخوّاص كان يقول فى قصصه :إنّما الناس مثل التمر ، فيهم الشيص والبُرْنِيّ ، يارب اجعلنا بُرنيًّا ولا تجعلنا شِيصاً . وقال قاصٌّ آخر : إن فى الجنة لحم جدى ولحم خروف ،ولحم كلّ شىء بلا عظم مثل الشِّيص فى بلادنا بلا نوى، يريد أنه لا يحتقر شيئاً ؛ فكل ما اتّخذ له أخذه . أُحبولة :آلة يصاد بها . أريغ : أطلب مايصعب أخذه ، كأنه يروغ من كذا ،وأصل راغ من كذا ،أى عدل عنه ورجع ،وهو يخفى رجوعه. قال الفراء :لا يقال للذى يرجع : راغ يروغ ، إلا أن يكون مخفياً

لرجوعه،قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[1]،أى رجع إليهم يضربهم مخفياً لرجوعه ، ومعنى «باليمين» أى بيمينه الذى حلف فى قوله تعالى : ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾[2]، أو يريد باليمين القوة، وقال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ﴾[3]، أى رجع إليهم فى إخفاء منه لرجوعه . القنيص والقنيصة : الذكر والأنثى مما يصاد من الوحش ، وهذا مَثَل ،وإنما أراد ما يأخذه من الناس بالحيل . ألجأنى : أحوجنى . ولجت : دخلت . لطْف : رقة وتلطّف . عيصه : بيته ، وأصله الشجر الملتفّ . واللّيث : الأسد . أهب : أخَفْ . صرفه : تقلّبه . نبضت : تحركت . فريصة : بَضعة فى آخر الكتف تتحرك عند الفزع . شرعت : دخلت . وعلى : بمعنى « فى » نحو قولك : كان ذلك على عهد فلان ، أى فى عهده. مورد موضع الماء . يدنّس : يوسخ ويعيب . عِرْضِى : ذِكْرى . نفس حريصة : كثيرة الرغبة والطمع . النقيصة : الخصلة القبيحة يفعلها الرجل فينقص بها .

وقال بعضهم :

غُضِّى عيونك يا عيونَ النَّرجسِ ... منكِ استحيْتُ بأَنْ أُقبِّلَ مؤنِسِي
نام الحبيبُ تَدبَّلَتْ أجفـــانُه ... وعيونـكنّ شواخِصٌ لم تنْعَسِ
فأجابنى تفلح صفحةِ خده ... بفصاحة من ألسن لم تُخْرَسِ
قَبِّلْ حبيبك ما اشتهيتَ فإنّ من ... عاداتنا كِتمانَ سِرّ المجـــالسِ
يارب إنْ قدَّرْتَهُ لمُقبِّلٍ ... غيرى فللمِسْوَاكِ أَوْ للأكْؤُسِ
ولئن قضيتَ لنا بصحبةِ ثالثٍ ... يارب فلْتكُ شمعةٌ فى المجلس

ومن أحسن ما قيل فى الدهر ، قول تميم بن المعز :

(١) سورة الصافات ٩٣
(٢) سورة الصافات ٩٣
(٣) سورة الأنبياء ٥٧

يا دهرُ ما أقساكَ من متلوّنٍ ... في حالتَيْك وما أقلَّك مُنْصِفاَ[1]
أتروح للنِّكس الجهولِ ممهّداً ... وعَلَى اللَّبيب الحرّ سيفاًمُرْهَفاَ![2]
وإذا صفوتَ كدَرتَ شيمة باخلٍ ... وإذا وفيت نقَضْتَ أسباب الْوَفَا
لا أرتضيكَ وإن كَرُمْتَ لأنني ... أدري بأنَّك لا تَدُوم على الصَّفَا
زمنٌ إذا أعطى استردَّ عطاءه ... وإذا استقام بدا له فتحرّفَا
ما قام خيرُك يا زمان بشَرِّه ... أوْلى بنا ما قلَّ منك وما كَفَى

**إدريس بن اليمان** [3]:

ماذا أقول لدنيا لو ظفرتُ بها ... أدَّبتُها غضَباً للعلْم والأدَبِ
شَجًا من أقذية الأيام برّح بي ... بل بالعوالي وبالهندية القضب

* * *

ثم قَالَ لِي : ادْنُ فَكُلْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُمْ وَقُلْ .

فَالْتَفَتُّ إلى تِلْميذِهِ وَقُلْتُ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَنْ تَسْتَدْفِعُ بِهِ الأذَى ، لَتُخْبِرَنِّي مَنْ ذا ؟ فقال : هَذا أَبُو زيدٍ السَّرُوجِيّ ، سِراجُ الْغُرَباء ، وَتَاجُ الأدباءِ .

فانصرفتُ مِنْ حيث أَتيْتُ ، وقضيْتُ الْعَجَبَ مِمَّا رأيتُ !

* * *

قوله : «ادن» ، أي اقرب . قل ، أي قل ماشئت. التلميذ: الخادم ، والجمع

(١) ديوانه ٢٧٤

(٢) النكس : الرجل الضعيف القصر عن غاية النجدة والكرم .

(٣) هو أبو علي إدريس بن اليماني العبدري الأندلسي ، صاحب الأمداح الكثيرة للملوك الطوائف ؛ ذكره صاحب المغرب في ١ : ٤٠٠ .

التلاميذ ، قال لبيد[١] :

* يَجلو التّلاميذ لؤلؤاً قَشِباً *

أى يجلو التلاميذُ لؤلؤاً جديداً ، وطلبة العلم : تلاميذ شيخهم . الأذى : الضرر . سراج : مصباح، يريد أنه للغرباء مصباح يفخرون به ويهتدون بحيلته، وللأدباء تاج يتزيّنُون به ويضعونه فوق رءوسهم . انصرفت : رجعت . قضيت العجب ؛ أى أتممته ، كأنه قال : قضيت حاجتى ممّا رأيت . ويقال : قضى نَحبَه من كذا ، أى بلغ مراده ، وقضى عليه القاضى ، أى قطع عليه ،والقاضى: القاطع للأمور المحكم لها ،وقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[٢] ، أى قطعهنّ وأحكم خلقهنّ ، ويكون «قضى» بمعنى «عمل».

(١) ديوانه ٣١ وصدره :

* فالماء يَجْلُو مُتُونَهنَّ كَمَا *

(٢) سورة فصلت ١٢ .

# المقامة الثانية وهى الحُلوانيَّة

حَكَى الحارثُ بن هَمَّام قال : كَلِفتُ مُذ مِيطَتْ عَنِّى التَّمائمُ ، ونِيطَتْ بِىَ العَمائمُ ، بأنْ أَغْشَى مَعانَ الأَدَبِ ، وأُنضِىَ إليه رِكابَ الطَّلبِ ، لأعلَقَ مِنه بما يكونُ لى زِينةً بَيْنَ الأنامِ ، ومُزْنةً عِنْدَ الأُوامِ . وكُنتُ لفَرطِ اللَّهجِ باقتباسِهِ ، والطَّمعِ فى تقمُّصِ لِباسِهِ ، أُباحِثُ كلَّ مَنْ جَلَّ وقَلَّ ، وأستَسْقِى الوَبْلَ والطَّلَّ ، وأتَعلَّلُ بعَسَى ولَعلَّ .

* * *

كَلِفْت ، أى اشتدّ حُبى ، والكَلَف : شدّة الحبّ والمبالغة فيه ، وفلان كَلِفٌ بفلان ، أى مبالغ فى محبّته . ومِيطَتْ وأميطت : أزيلت . التمائم : الأحراز . نيطت : عُلِّقت ، وإذا بلغ الصبيّ الحلم عند العرب أزلوا الأحراز عن عنقه ، وألبس العمامة والإزار ، وقُلِّد السيف ، فأراد : أحببت مذ بلغتُ الحلم مجالس الأدباء . أغشى : أقصد وأدخل .

المعان : المنزل . أبو عبيد ، يقال : البصرة مَعانٌ منَّا ، أى منزل منا ، قال المعرى :

معانٌ من أحبّتنا مَعانُ[1]

فالأول اسم موضع معلوم جنَّس به ، وجعله منزل أحبابه . وقال بعضهم :

---

(١) سقط الزند ١٧٢ ، والبيت مطلع قصيدة له ، وبقيته :

* تُجِيبُ الصّاهِلاتِ به القِيانُ *

سُمِّى معاناً لمعاينة الناس فيه بعضهم بعضاً ، أو لأنّ فيه أعيانا . أنضِى : أهزِل الركاب : الإبل ، وجَعَل للطلب إبلا مجازا ، وإنما يريد : أتعبت نفسى فرحلت إلى طلبه على الإبل . لأعاقِ منه : لأحصل منه على فائدة أتعاقَ بها . الأنام : الخلق. مُزْنة : سحابة . الأُوام : شدّة العطش ؛ يريد أنه يتعب نفسه فى طلب الأدب ليتزيّن به بين الناس ، ويعيش به إذا احتاج إليه . فَرْط اللَّهَج : شدّة الحب ، يقال : قد لَهِج بالشىء إذا أكثر الحديث به لحبّه فيه ؛ وحرصه عليه. و لَهِج الفصيل بالرّضاع ، إذا لجّ فيه . اقتباسه : اكتسابه . التقمّص : لبس القميص . لباسه : ثيابه ، أى أطمع أن ألبس من ثيابه قميصاً . أباحث : أسائل . جلّ : عظم . قلّ : حَقر . أستسقِى الوبْل والطلّ ، أى أطلب منه السقى ، والوبل : أشدّ المطر والطلّ : أضعفه ، ويقال : الركّ أضعف من الطلّ ، ومنه قيل للدنىء : ركيك . أتعلّل : أشغل نفسى وأطمعها . والعُلالة : الشىء اليسير . وعسى ولعلّ : معناهما الرجاء والطمع ؛ يريد أنه يسائل الجليلَ فى العلم والحقير ، ومَنْ كثر علمُه وكان كالوبْل ، أو قلّ وكان كالطّل ، وإذا فقد من يؤخذ عنه العلم رجا نفسه بوجوده وأطمعها . والتعلّل : قطع الزمان بالعيش اليسير ، وقد تعلّلَ بشرابه ، إذا أخذ منه قليلا قليلا ؛ فمعنى «أتعلّل بعسى ولعلّ » ، أذهب علّة وَجْدِى بالرجاء والطمع .

* * *

فَلَمـّا حَلَلْتُ حُلْوَانَ ، وَقَدْ بَلَوْتُ الإخْوَانَ ، وَسَبَرْتُ الأوْزَان ؛ وَخَبَرْتُ مَاشَانَ وَزَانَ ، أَلْفَيْتُ بِهاَ أَبا زيدٍ السَّرُوجىَّ يتقلَّبُ فى قَوالِبِ الانْتِسَابِ ، وَيَخْبِطُ فى أَساليبِ الاكْتِسَابِ ؛ فَيَدَّعِى تَارَةً أَنَّهُ مِنْ آلِ سَاسَانَ ، وَيَعْتزِى مَرَّةً إلى أَقْيَالِ غَسَّانَ ، وَيَبْرُزُ طوراً فى شِعَارِ الشُّعَراءِ ، وَيَلْبَسُ حِيناً كِبْرَ الكُبَراءِ .

* * *

[ ذكر حلوان ]

حلت : نزلت . وحلوان : بلدة بينها و بين مدينة بغداد أربع مراحل ، وهى من كُور الجبَل ، وسُمِّيت باسم بانيها ، وهُوَ حلوان بن على بن الحافِ بن قُضاعة ، وهى مدينتان بينهما نهر عظيم مقداره فرسخ ، وهى مقابلة لطَبرستان. وهى جبليّة سهلية بحرية لها زيتون ونخيل ، وبها قصب السّكر وافتتحت فى زمن عمر .

* * *

بلوت : جرّبت . الإخوان : الأصحاب . سبرت : فتشت . الأوزان : أقدار الناس . خبرت: جرّبت وعَرفت . شان : عاب ، وزان : زُيِّن؛ يريد أنه دخلها وهو مجرِّب عارف بالناس. ألفيت : وجدت . يتقلّب : يتنوّع . قوالب : جمع قالب، وقالب كلّ شىء : قياسه وما يُصنع عليه . يخبط : يمشى ، والخبْط : المشى فى الأرض على غير قصد كمشى الأعمى . أساليب: طرُق ، واحدها أسلوب . آل ساسان : ملوك الفرس . يعتزِى : ينتسب . أقيال : ملوك . غسان : قبيلة باليمن كان منها ملوك . وغَسَّان : ماء كان شِرْباً لولد مازن بن الأزد بن الغَوْث فسُمُّوا به . يبرز : يظهر. طوراً: حيناً . شعار : ثياب ، والشِّعَار ثوب يلى الجسد. كِبْر : تكبّر ،يريد أنه لقى أبا زيد بحُلوان يتنوّع بذلك فى أحوال المكدين ، ويجرى بذلك فى طرق اكتساب المعيشة فيدّعى أنه من آل ساسان .

[ شعار الكدية ]

وأصل هذا أنّ الفرس كان فيهم المُلْك، وكانت العرب تحت حكم ملوكهم،فلما بَعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لملكهم بكتابه يدعوهم به إلى الإسلام، مزّقوه ، فدعا الله عليهم أن يُمَزَّقوا كلّ مُمزَّق ، فأوقع بهم المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد حروب شديدة معظمها بالقادسيَّة ، فلم يبق لهم فى الملك رسم ، وصاروا فى خلافة عثمان رضى الله عنه تحت حكم المسلمين ، وكانوا أهل دَهاء وجراءة وحروب

ورماية ،فسكن من بقي منهم الأمصار ، واستعربوا وتفقّهوا ،فكان منهم مَنْ نفع الله به المسلمين، وكان منهم أهلُ أهواء وبِدَع،ونشأت منهم هذه الطائفة الخسيسة ، أهل الكُدْية ، فكانوا يطوفون على البلدان ، ويقولون : نحن من بنى ساسان، فينتسبون إلى ملوكهم ، ثم يتذلّلون فى السؤال،ويذكرون تلاعُبَ الدّهر وانقلاب حال الملوك إلى السؤال، ليقع الإشفاق عليهم، والميل بالرزق لهم ، حتى شعر الناس بمكرهم وخديعتهم ، فطُرِدُوا ، وصار النّاس إذا رأوا سائلاً متمسكاً قالوا : ساسانى . وقيل : إنّ ساسان اسم رجل معيّن، وهو أوّل من أسس الكُدْية ، فَنسِبوا إليه ، كما أنّ الطّفيليّ منسوب إلى رجل اسمه طُفيل وهو أوّل من تطفّل .

فأراد أن أبا زيد كان يتنوّع فى أحواله ، فيتمسكن تارة ويدّعى أنه من ساسان ، ويتعاظم أخرى فينتسب إلى غسّان ، ويبرُز مرة فى أحلاس الشعراء المكدين ، ويظهر ثانية فى ثياب فاخرةٍ ، لباس الكبراء المثرين .

* * *

يَبْدَ أَنَّهُ مَعَ تَلَوُّنِ حَالِهِ ، وَتَبَيُّنِ مُحَالِهِ ، يَتَحلَّى بِرُوَاءٍ وَرِوَايَةٍ ، وَمُدَارَاةٍ وَدِرَايَةٍ ، وَبَلاَغَةٍ رَائِعَةٍ ، وَبَدِيهَةٍ مُطَاوِعَةٍ ، وَآدَابٍ بَارِعَةٍ ، وَقَدَمٍ لِأَعْلاَمِ الْعُلُومِ فَارِعَةٍ ، فَكَانَ لِمَحَاسِنِ آلاَتِهِ ، يُلْبَسُ عَلَى عِلاَّتِهِ ، وَلِسَعَةِ رِوَايَتِهِ ، يُصْبَى إِلَى رُؤْيَتِهِ ، وَلِخَلاَبَةِ عَارِضَتِهِ ، يُرْغَبُ عن مُعَارَضَتِهِ ، وَلِعُذُوبَةِ إِيرَادِهِ ، يُسْعَفُ بمُرَادِهِ، فَتَعَلَّقْتُ بِأَهْدَابِهِ ، لِخَصَائِصِ آدابِهِ ، وَنَافَسْتُ فى مُصَافَاتِهِ ، لِنَفَائِسِ صِفَاتِهِ .

فَكُنْتُ بِهِ أَجْلُو هُمُومِي وَأَجْتَلِي
زَمَانِىَ طَلْقَ الْوَجْهِ مُلْتَمِعَ الضِّيَا

أَرَى قُرْبَهُ قُرْبِى وَمَغْنَاهُ غِنْيَةً وَرُؤْيَتَهُ رِيًّا ، وَمَحْيَاهُ لِى حَيَا

* * *

قوله : « بَيْدَأنه » ، أى غير . مُحاله : باطله ،والمُحال مالا يمكن أن يتصوَّر ، وهو « مفعل» من حالَ الشىء ، إذا تغير، كأنه زال عن وجهه . يتحلّى : يتزين . رواء : نظافة وحسن منظر . مداراة : حسن سياسة فى صُحْبَته ، وأصلها المخادعة . دراية ودَرْية : مصدر دَرَيت . بلاغة : فصاحة . رائعة : معجِبة ، ومَنْ شاهدها ارتاع وتعجَّب . والبديهة والبداهة : الأخذ فى الكلام من غير فكرة ، وهى الارتجال. مطاوِعة : مُنْقادة. بارعة : فائقة تفضُل غيرها . أعلام : جبال . فارعة : طائلة قد علتها ، واللام فى قوله : «لأعلام» زائدة ، وزيادتها إذا تقدَّمت أحسنُ منها إذا تأخرت ، مثل ضربت زيداً ولزيد ضربت . آلاته : عدده ، وأراد به هذه الأنواع التى قدّمها التى تحلّى بها . يلبَس: يصاحب ويخالَط. عِلَّاته : عيوبه التى ذكر من أنواع الغربة . سَعَة روايته : كثرة علمه وما يرويه. يُصْبِى: يميل . خلابة : خداع ، وقد خلبه خلباً وخلابة : خدعه . عارضته : قوة كلامه . معارضته : مقابلته ومناقضة كلامه ، وتقول : رغبت عن الشىء تركته وتزهدت فيه ،ورغبت فيه ، إذا أحببتَه ، فيريد أنّه لقوّة كلامه وصلابته لا يتعرّض أحد لجداله ، فهو يخادع به الناس حتى لا يعترَض له فيما يقول ، وقيل: معنى فلان شديد العارضة ، إذا أفحَش وَأسمع المكروه ، ورجل شديد العارضة، أى لا تُقْرَب ناحيته . إيراده : أخذه فى الكلام . يسعف : يساعد. أهدابه : أطراف ثوبه . وخصائص الشىء : ما يختصّ به ، أى ينفرد . نافست : زايدت وغاليت . مصافاته : مصاحبته. نفائس : جمع نفيس ، وهو الرفيع من كلّ شىء يسمَّى نفيساً ، من النَّفْس وهى العين ، حتى كأنه لرفعته تتعلّق به العين ، وقد قال المعرّى :

فالعينُ يسلَمُ منها ما رَأتْ فنَبتْ عنه وتلحقُ ما تَهْوَى من الصُّوَرِ [(١)]

قوله : «أجلو» ،أى أكشف.أجتلى: أنظر . طلق الوجه : مستبشرا ، والطلق

(١) ديوانه ١٥٠

ضدّ العابس . ملتمع : منير بادى اللمعان : قربى : نسباً ، ومغناه : منزله ، من قولهم: غنِىَ بالمكان يَغْنى غنيانا ، إذا أقام به . غُنْية : غِنًى ، يقال : غنى يغنَى غنًى فهو غنىّ ، إذا استغنى ، والاسم : الغُنْية . ريًّا : شبعاً من الماء ، ورَويت من الماء ضدّ عطشت : محياه : حياته . حياً : مطر عامّ . ويقول : إنه كان بمصاحبته أبا زيد يزول همه ، ويلقاه ببشر منه ، فيرى قربه منه بالودّ كقرابة النسب ، وكان منزله لما يجد فيه من الخصب أو من غزارة العلم يرى أنه غناه ، وإذا رآه زال عطشه للعلم أو للماء برؤيته . وقصْد تجنيس الألفاظ يبعد المعنى .

* * *

وَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً ، يُنْشِئُ لِي كُلَّ يَوْمٍ نُزْهَةً ، وَيَدْرأُ عَنْ قَلْبِي شُبْهَةً ، إلى أنْ جَدَحَتْ لَهُ يَدُ الإمْلاَقِ كَأْسَ الْفِرَاقِ، وَأَغْرَاهُ عَدَمُ الْعُرَاقِ بِتَطْلِيقِ الْعِرَاقِ ، وَلَفَظَتْهُ مَعَاوِزُ الإرفاقِ إلى مَفَاوِزِ الآفاقِ ، وَنَظَمَهُ فى سِلْكِ الرِّفَاقِ خُفُوقُ رَايَةِ الإخفَاقِ ، فشَحَذَ لِلرِّحْلَةِ غِرَارَ عَزْمَتِهِ ، وَظَعَنَ يَقتَادُ القَلْبَ بأَزِمَّتِهِ .

فَمَا رَاقَنِي مِنْ لاَقَنِي بَعْدَ بُعدِهِ
وَلاَ شاقَنِي مَنْ سَاقَنِي لِوِصالِهِ
وَلاَ لاَحَ لِي مُذْ نَدَّ نِدٌّ لِفَضْلِهِ
وَلاَ ذُو خِلاَلٍ حَازَ مِثْلَ خِلاَلِهِ

* * *

لبثنا : أقمنا . برهة : مدّة . ينشىء : يصنع ويبتدئ . والنزهة ، أصلها التّباعد عن الرّيب ، ثمّ كثرت حتى صارت الخروج للرياض للتفرّج ، ثم استعملت فى المعانى، فقيل: نَزُهَ فلان فى آدابه ،وكنى بهذا عمّا يستفيده من علمه. يدرأ: يدفع. شبهة : إشكال والتباس . جدَحَتْ: حركت ومزجت . والمِجدَح :

آلة يمزج بها المشروب الصعب الامتزاج . الإملاق: الفقر من المَلَقة وهي الصخرة الملساء ، فأملق ، كأنه صادف مَلَقة لاتنبت شيئاً ، ولم يصادف خصباً بعد أن كان في ترفهٍ وغنًى . أغراه : حرّضه .

والعُراق ، اختلفوا فيه ، فقال صاحب العين : العُراق : العظم بلا لحم ، فإن كان عليه لحم فهو عَرْق .

ابن قتيبة ، يقال للعظم الّذى عليه اللحم عُراق،وللخالى من اللحم عَرْق .

أبو عبيد ، العُراق : القطعةمن اللحم . أبوزيد ، قول العامة : ثريده العُراق خطأ ؛ إذْ كان العُراق العِظام ، وأنشد لرجل يطرد الطير عن زَرْعه في عام جدب :

عَجِبْتُ من نفسِي ومن إشفاقِها ومن طرادى الطَّيْر عن أرزاقِها
في سَنَةٍ قد كشفت عن ساقِها حَمْـراء تَبْرِى اللَّحمَ عن عُراقِها

ابن الأنبارىّ ، قول أبي عبيد هو الصواب ؛ لأن العرب تقول : أكلت العُراق ولا تقول : أكلت العَظْم ، وفي حديث أم إسحاق العَنَزِيّة[1] : فجعلت لاآكل العُراق ولا أضعه ، فقولها : « لا آكل» يدلّ على أن العُراق لحم مفرد أو لحم على عظم .

الأصمعى ، قيل لأعرابىّ : أىّ الطعام أطيب ؟ قال : ثريده دَكْـنَاء من الفلفل ، رَقْطاء من الحمص ، ذات حفافين من البَضع، لها جناحان من العُراق ، قيل: كيف أكلُك لها ؟ قال: أصدع بهاتين — يعنى السبابة والوسطى — وأسند بهذين ـ يعنى الإبهام والخنصر ـ وأجمع ما شذّ منها بهذه — يعنى البنصر — وأضرب فيها ضرب ولىّ السوء في مال اليتيم . فهذا يدل على أن العُراق قطع اللحم إذ كانت العرب لاتصف الثريد والأطعمة بكثرة العظام .

والعُراق في البيت : الأكل ، تقول : عرقت العظم عراقاً ، أكلت ما عليه من اللحم ، والعظم معروق ، وهو بمنزلة سكتّ سكاتاً .

(١) اللسان : « العنوية » .

العِراق : قال صاحب العين : هو شاطىء البحر ، وبه سُمِّيت العِراق ، لأنها على شاطىء دجلة . ابن الأعرابىّ ، سمى عِرَاقًا لأنه سَفُل عن نجد ، ودنا من البحر ، أُخِذ من عِراق القربة ، وهو الخرز فى أسفلها . قطرب ، سُمِّى عِراقًا لأنه دنا من البحر ، وبه يُنَاخ وينجد .

ويقال : استعرقت إبلهم ، إذا أتت ذلك الموضع . لَفَظَتْه ، أى رمته . ومعاوز : جمع مَعْوَز ، والمعوز هو العَوز نفسه ، والمِعْوز بالكسر : الثوب الخلَق وجمعه معاوز . الإرفاق : مصدر أرفقته ، إذا أوصلتَ إليه نفعًا يَرْتفِق به ، ورفقته بمعناه ، فأراد بمعاوز الإرفاق فَقْدَ ما يُرْتَفَقُ به . والمفاوز : جمع مفازة وهى الصحراء ، سمّيت مفازة على التفاؤل ، لأنّ الرجل إذا قطعها فاز ونجا . والآفاق : نواحى الأرض . نظمه : ضمّه وجمعه . سلْك : خيط . الرِّفاق : جمع رُفقة ، وعنى بسلْك الرفاق الطريق الذى ينتظمون فيه إذا أخذوا فى السير ، لأنهم يمشون فيه واحدًا بعد واحد ، فنظمهم الطريق ، وصار لهم كالسلك . خفوق : اضطراب ، وقد خفق خَفقًا وخُفوقًا ، والإخفاق : الخيبة ، ويقال : غدا فأخفق ، إذا خاب ، ومثله فى الصائد : صاد فأروق . شحذ : حدّ وسنّ ، وشحذ الرجل سيفه ، إذا ألحّ عليه بالتحديد ، ومنه قولهم للملحّ فى المسألة : شحاذ ، والعامة تصحّفه فتقول : شحات ، بالتاء . غِرَار : حدّ . وأراد أنه لما عزم على الارتحال حدّ عزمتَه ، أى عوّل على السفر بجدّ . والعزمة : مصدر عزم إذا جدّ ، وجعل لها حدًّا ، مبالغة فى تعجيل السفر . ظعن : ذهب وارتحل . أزمَّة : جمع زمام ، وهو حبل من جلود يشدّ به فى حلقة مجعولة فى وتد أنف البعير ، فجعل تعلُّق قلوب أصحابه به عند فراقه ، وحَنينَهم إليه ؛ كأنه قد ربطها بأزمَّة وقادها معه ، فمن روى « القلوب » عادت الهاء من « أزمّته » على السروجىّ ، ومن روى « القلب » عادت على القلب أو على السروجىّ ، والقلب لابن همام .

قوله : «راقنى» ، أى أعجبنى ، وقد راق الشىء يَرُوق رَوْقًا فهو رائق ، إذا أعجب . لاقنى : لصق بى وصحبنى .

شاقنى : شوّقنى . ساقنى لوصاله : دعانى لصحبته . لاح : ظهر . ندّ : فرّ وشرد. ندّ : مثل ، والجمع أنداد . خِلال : جمع خُلّة بالضم ؛ وهى الصداقة ، خِلاله : جمع خُلّة بالضم أيضاً ، وهى الخصلة. وهذا النّمط فى وصف الصديق وغيبته بارع. ولابن عمران فى ذلك :

يامَرْحباً بصديقٍ لستُ أبصرُهُ إلّا تجدّدَ لى أُنسٌ بمرْآهُ
وإن تغيّب عن عينى فلم أرَهُ فلى فؤاد بظَهْرِ الغيْبِ يرعَاهُ

* * *

وَاستَسَرَّ عَنِّى حيناً ، لاَ أَعْرِفُ لَهُ عَرِيناً ، وَلا أَجدُ عَنْهُ مُبِيناً . فَلَمَّا أُبْتُ مِنْ غُرْبَتِى ، إلى مَنْبِتِ شُعْبَتِى ، حَضَرْتُ دَارَ كُتُبِهَا الّتِى هِىَ مُنْتَدَى الْمُتأَدِّبِينَ ، وَمُلْتَقَى الْقَاطِنِينَ مِنْهُمْ وَالْمُتَغَرِّبِينَ ، فَدَخَلَ ذُو لِحْيَةٍ كَثَّةٍ ، وَهيْئَةٍ رَثَّةٍ ، فَسَلَّمَ على الْجُلاَّسِ ، وَجَلَسَ فى أُخْرَيَاتِ النَّاسِ .

* * *

استسرّ : غاب واختفى ، وأصله من سِرار الهلال فى آخر الشهر، وهو يستسرّ ليلة لا يظهر أو ليلتين . والعرين: بيت الأسد ومأواه . مبيناً : معلماً به يبيّن لى أين استقرّ . أُبْت : رجعت . منبِت شُعبتى ، أى بلدة قرابتى التى نبتُوا فيها، يريد البصرة. والشُّعبة: القرابة . دار كتبها :مدرسة العلم . منتدى : مجتمع . القاطنين : الساكنين ، وقَطَن بالمكان : أقام فيه . كثّة : كثيرة الأصول من غير طول .

[ مما قيل فى اللحى ]

ويقال للّحية إذاقصر شعرها وكثر: إنها لكَثّة،وقد كَثّتّ تكِثّ كثاثة وكُثوثة ، ورجل كثّ اللحية ، ولحية كُنْعُمة ، إذا كثُفت وقصرت وجَعُدت ،

ورجل كُثَّجُم اللحية . وإذا عظمت وكثر شعرها قيل : إنه لذو عُثْنون ، وإنه لَهلّوف ، فإذا كانت اللحية قليلة فى الذقن ولم تكن فى العارضين فذلك السِّنُوط والشِّنَاط ، ورجل سُناط : بيِّن السَّنَط ، فإذا لم يكن فى وجهه كثير شعر ، فذلك الثَّطط ورجل ثطّ ، ورجال ثِطاط . والسَّبَلة : مقدّم اللحية، ورجل مسبل ،وفلان خفيف العِذارين ، وهما ما اتصل من شعر اللحية بالصُّدغ ، وهما العارضان ، وهما مانبت فى الخدّين من الشَّعر على عوارض الأسنان ، قال رؤبة فى لحية حرب بن قَطَن :

هِلّوفةٌ كأنهـا جُـوَالِقُ نكْداء لا بارك فِيهَا الخَالِقُ

لهـا فضولٌ ولهـا بنائِقُ إذا الرياح العصفُ السَّوابِقُ

طيَّرْنَها طارتْ لهـا عقائِقُ إن الذى يحمِلُهـا لمـائِقُ

وأنشد أبو علىّ :

وأنت امرؤ قد كَثّأَتْ لك لحيـةٌ كأنك منها قاعد فى جُـوَالِقِ

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: «من سعادة المرء خفة لحيته» . وكانت عائشة رضى الله عنها تقسم فتقول : « لا والذى زيّن الرجال باللحى » ، تقول: إنه قَسَم الملائكة .

قال الأحدب الصوفىّ : سمعت مطيار بن أحمد يقول : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت: يا رسول الله ، أشتهى لحية كبيرة ، فقال لى: « لحيتك جيدة ، وأنت محتاج إلى عقل تامّ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اعتبر واعقل الرّجل فى ثلاث : فى طول لحيته، ونقش خاتمه ، وكنيته » .

أتى رجلٌ طويلُ اللحية معاوية فقال له : أمَّا اللحية فلا نسأل عنها ، فما نقش خاتمك ؟ فقال : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاأَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ ﴾(١) ، قال: فما كنيتك؟ فقال: أبو الكوكب الدرّىّ، قال: كَمَل الرجل.

(١) سورة النمل ٢٠ .

وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء .
وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحيته ، ويأخذ ما زاد منها على قبضته .

الحسن بن المثنى : إذا رأيت رجلًا له لحية طويلة ، ولم يتخذ لحية بين لحيتين، كان في عقله شيء .

وكان المأمون جالساً مع ندمائه ببغداد ، مشرفاً على دجلة وهم يتذاكرون أخبارَ الناس ، فقال المأمون : ماطالت لحية إنسان قط إلا ونقص من عقله بمقدار ماطال من لحيته ، وما رأيت عاقلا قطُّ طويلَ اللحية . فقال له بعض جلسائه، ولا يردّ على أمير المؤمنين: قد يكون في طول اللحى أيضاً عقل؛ فبينما هم يتذاكرون في هذا ، إذ أقبل رجل كبير اللحية ، حسن الهيئة ، فاخر الثياب ، فقال المأمون : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : رجل عاقل ، وقال آخر : يجب أن يكون هذا قاضياً ، فقال المأمون لبعض الخدم : عليَّ بالرجل ، فلم يلبث أن أُصْعِد إليه ووقف بين يديه، فسلَّم فأجاد السّلام ، فأجلسه المأمون، واستنطقه فأحسن النطق، فقال المأمون : ما اسمُك ؟ فقال : علّوية ، قال : فما الكنية ؟ قال: أبو حمدويه، فضحك المأمون ، وغمز جلساءه ثم قال : ما صنعتُك ؟ قال : فقيهٌ أجيد الشرع في المسائل ، فقال له : نسألك مسألة ! فقال الرجل : سل عما بدا لك ، فقال له المأمون : ما تقول في رجل اشترى شاة من رجل ، فلما تسلّمها المشترى ، وقضى الثمن ، ضرَطت ، فخرج من استها بعرة ففقأت عين رجل ؛ على مَنْ تجب دية العين ؟ قال : فنكت بإصبعه في الأرض طويلًا ، ثمّ قال: تجب على البائع دون المشترى ، فقال المأمون : وما العلّة التي أوجبت الدية عليه دون المشترى ؟ قال: إنه لمّا باعها لم يشترط أنّ في استها منجنيقاً، قال : فضحك المأمون حتى استلقَى على قفاه ، وضحك كلٌ من حضره مِنَ الندماء . وأنشد المأمون يقول:

ما أحدٌ طالت له لِحْيةٌ فزادت اللِّحيةُ في حِلْيَتِه

إلا وما ينقص مِنْ عقله أكثر مما زاد فى لحيتِهْ

وقال آخر :

إذا عظمتْ للفتى لِحْيــةٌ فطالت فَصَارَتْ إلى سرَّتِهْ

فنقصان عقل الفتى عندنا بمقدار ما زاد فى لِحْيَتِهْ

وأنشد أبو علىّ :

لا تفخــرنَّ بلحيــةٍ كَثُرَتْ منابتُهَا طويلهْ[1]

يَهوى تفــرُّقهَا الرِّيا ح كأنهــا ذَنَبُ الحسِيلهْ

قَدْ يدرِك الشَّرَفَ الفتى يوماً ، ولحيته قليـــلهْ

وقال : الحسيلة العجلة .

وأنشد أبو العباس رحمه الله :

كل امرئٍ ذى لحية عَثْوَلِيَّةٍ يقوم عليها ظَنَّ أنّه له فضلاَ

وماالفضلُ فى طول السِّبال وعَرْضِهِ إذا الله لم يجعل لصاحبه عقْلاَ

عَثْولِيّة : كبيرة .

نظر يزيد بن مزيد الشيبانىّ رحمه الله إلى رجل ذى لحية عظيمة ، وقــد تَلَفَّفَتْ على صدره ، وإذا هو خاضب ، فقال له : إنك من لحيتك فى مئونة ، فقال: أجل ، ولذلك أقول :

لَعَمْرُكَ لو يعطِى الأميرُ على اللِّحَى لأصبحتُ قد أيسرتُ منذ زمَانِ[2]

إذاً لشفتنِى لحيتى من عصــابةٍ لهم عنده ألفٌ ولى مائتــانِ

لها درهم للدُّهْنِ فى كلِّ جمعــةٍ وآخــر للحِنَّاء يبتــــدرَانِ

ولولا نوالٌ من يزيد بن مَزْيَدٍ لصوّت فى حافاتها الجَلَمَانِ

(١) الأبيات فى اللسان ( حسل ) من غير نسبة .

(٢) الكامل للمبرد ٢: ١٢٨

فأمر له بعشرة آلاف درهم . والجلمان : المقصّ ، ويسمى الجالم .

وقال إسحاق بن خلف يصف رجلاً بالقصر وطول اللحية :

ما سرّنى أننى فى طول داودِ وأننى علَم فى البأس والجودِ[1]
ماشيتُ داود فاستضحكتُ من عجبٍ كأننى والدٌ يمشى بمولودِ
ما طولُ داودَ إلّا طولُ لحيته يظلّ داودُ فيها غيرَ موجودِ
تسكُنه خصلة منها إذا نفحت ريح الشمال ، وجفّ الماء فى العودِ
أجدى وأغنى من الخزّ الصّفيق ومن بيض القطائف يوم القرّ والسُّودِ

وأشد إفراطاً منه قول ابن الرومىّ :

ولحيةٍ يحملها مائقٌ مثل الشّراعين إذا أُشرعَا
تقودُه الرّيح بها طائعاً قَوْداً عنيفاً يُتْعِب الأخدَعَا
وإن عدا والريح فى وَجْهِهِ لم ينبعثْ فى مشيه إصبعَا
لو غاص فى اليمّ بها غَوْصَةً صاد بها حيتانَهُ أجمعَا

وأشد إفراطا منه قول الآخر :

يا لحيَةَ الشَّيْخ الأزبّ تميمِ أهديت للأقوام عرف الثُّومِ
لو أنها دون السماء غمامةً ضاقتْ مسالكُ دعوة المظلُومِ
أو صبَّها فى الماء ثم سَمَا بِها قامتْ مقام العارضِ المرْكُومِ

ولابن سارة :

ولحيةٍ لست أدرى كيف أنعتها فضول أشعارها أوْدَتْ بأشعارى
كأنها ويمينُ الرّيح تنشرُها مِذَبَّةٌ وقعت فى عود بَيْطار

(١) الكامل للمبرد ٢ : ١٢٨

وقال آخر :

أبصرتُ شيخا ذاهباً جائيـــاً ذا لحيـــةٍ قدْ كبرُت فى اتِّسَاعْ
عرْضاً وطُولاً وهو من خَلْفِهَا كأنه ناشرُ ثوبٍ يُبَـــاعْ

وقال آخر :

لقد كانتْ مجالسُنـــا فِساحًا فضيَّقَهـــا بلحيتِـــهِ رَبَاحْ
مُقَلَّبة الأسافـــلِ والأعالِي لها فى كلّ زاوِية جَنَـــاحُ

وقال آخر :

يأيّها الناس خذوا حِذْرَكُمْ قدبَرَزَتْ لِحْيَـــةُ بُهْلُولِ
فطـــولُها الفرسخُ فى فرسخٍ وعرضها ميـــلٌ إلى ميلِ
لو ضمَّ ما يقطر من دُهنهـــا أسرج منه ألفُ قِنْديـــلِ
ولو سَهَا الحجَّـــام عن قَصِّها لخـــالطت ما فى السَّرَاوِيلِ

ذكر هنا أبو محمد لحية السرّوجىّ أنّها كثّة، وكل صفة يصف بها السَّروجىّ فى المقامات ، فتلك كانت صفة الحريرى . وذكر ابن جَهْور أنَّ الحريرىّ كان قليل اللّحية لا خلقةً ، وإنما كان مولعاً بنتفها ، كانت يده رحمه الله لا تفارق لحيتَه . وهذا على كثرته قليل فيما قيل فى اللحية .

قوله «رَثَّة» ، أى خَلَقَة بالية . أخريات : أطراف ، وهى جمع أخرى .

* * *

**ثمَّ أَخَذَ يُبْدِى مَا فِى وِطَابِهِ ، وَيُعْجِبُ الْحَاضِرِينَ بِفَصْلِ خِطَابِهِ ، فقالَ لِمَنْ يَلِيهِ : مَا الكِتَابُ الَّذِى تَنْظُرُ فيـه ؟ فقال : ديوانُ أَبى عبَادَة ، الْمَشْهُودِ لَهُ بالإجادَة .**

* * *

أتى طلحة رضى الله عنه مجلس قوم، فجعلوا ينادونه من كلّ جانب: هاهنا

يا صاحبَ رسول الله ! قال: فجلس فى أدْنَى المجلس ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ من التواضع لله الرضا بالدُّون من شرف المجلس » .

وِطابه : زِقَاق لَبِنِه ، أراد أنه يظهر ما عنده . يعجب : يجعلهم يتعجَّبون . بفصل خطابه : يريد بفصل كلامه وجودة بلاغته ، وقوله تعالى : ﴿ و فَصْلَ الخِطَابِ ﴾[1] هو قول الخطيب : « أما بعد » . يليه : يلصق به .

[ البحترىّ وبعض أخباره وشعره ]

أبى عبادة . قال البكرىّ : هو الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد ، من بنى بحتر بن عتود بن عُنين ابن سَلَامان بن ثُعَل بن عمرو بن الغَوْث بن جلهمة ، وهى طَيِّىء . شاعر مقدّم لا يُعدَل به أحد ، يفضَّل على حبيب ، والناس فى تفضيلهما على اختلاف .

قال أبو الفرج الأصبهانىُّ : كان البحترىّ شاعراً فصيحاً ، حسن المذهب نَقِىّ الكلام ، خُتِم به الشعراء المحدَثون ، وله تصرّف فى ضروب الشعر ، سوى الهجاء ، فإنّ بضاعته فيه نَزْرة .

قال البحترىّ : وكان أول أمرى أنِّى سرت إلى أبى عامر بحِمْص ، فعرضت عليه شعرى ـ والشعراء يعرضون عليه أشعَارهم ـ فترك مَنْ حضر وأقبل علىّ ، فقال لى حين تفرّقوا : أنت أشعَر مَنْ أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكوت خَلَّة ، فكتب إلى أهل معرّة النعمان ، وشهد لى بالحِذْقِ فى الشعر ، وشفع لى إليهم ، وقال : امتدحهم. فسرت إليهم ، فأكرمونى بكتابه ، ووظَّفوا لى أربعة آلاف درهم ، فكانت أوّل مالٍ أصبته[2] .

وحدّث أبو الفرج، قال: حدثنى أبو الغَوْث البحترىّ، عن أبيه ، قال: أوّل

(١) سورة ص ٢٠ .
(٢) الأغانى ١٨ : ١٦٧ ، ١٦٩ .

أمرِى أنِّى دخلت على أبىسعيد محمد بن يوسف الثغرىّ ، فأنشدته قصيدة أولها :

* أأفاق صبٌّ مِنْ هَوًى فأُفِيقَا *

فسُرَّ أبو يوسف بها ، وقال : أحسنت والله يا فتى وأجدت — وفى مجلسه رجل رفيع نبيل قريب المجلس منه ، فوق كل مَنْ حضر ، تكاد تمسّ ركبتُه ركبتَه ، فأقبل علىّ ، ثم قال : أما تستَحْيِى منى ! هذا شعرى تنتحله وتنشده بحضرتى ! فقال له أبو سعيد : أحقًّا ما تقول ؟ قال : نعم ، وإنما عَلِقه مِنّى وسبق به إليك ، وزاد فيه. ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة ، حتى شكّكنى — علم الله — فى نفسى ، وبقيت متحيّراً ، فقال لى أبو سعيد: يافتى ، قد كان لك فى قرابتك منِّى ما يغنيك عن هذا ! فجعلت أحلف بكل محَرِّجةٍ من الأيمان أن الشعر لى ، ماسمعته منه ، ولا انتحلتُه. فلم ينفع ذلك شيئاً ، وأطرق أبو سعيد ، وقطع بى حتى تمنَّيت أن يُساخ بى فى الأرض ، فقمت منكسِف[1] البالِ ، أجرّ رجلىّ ، فما بلغت باب الدار حتى ردَّنِى الغلام ، فأقبل علىَّ الرجل وقال : الشعر لك يابنىّ ، والله ماقلتُه قطّ ، ولا سمعتُه إلا منك ؛ ولكننى كنت ظننتُ أنّك تهاونتَ بموضعى ، فأقدمت على الإنشاد بحضرتى ، تريد مضاهاتى ، حتى عرّفنى الأمير نسبك ، ولوددت ألّا تلد طائيّة إلا مثلك ، ودعانى وضمّنى إليه ، وعانقنى ، وأبو سعيد يضحك ، فلزمتهُ بعد ذلك وأخذت عنه ، واحتذيت فنه[2] .

وعن أبى الغوث عن أبيه قال: ، قال لى أبو تمام : بلغنى أن بنى حُميد أعطَوْكَ مالاً جليلاً ، فبِمَ مدحتهم؟ فأنشِدْنى شيئاً منه ، فأنشدته ، فقال لى : كم أعطوكَ ؟ فقلت : كذا ، فقال لى : ظلموكَ ، والله ماوفّوْكَ حقَّك ، فلِمَ استكثرتَ ماأعطوْكَ ! والله لبَيْتٌ منْها خَيْرٌ مما أخذت . ثم أطرق قليلاً وقال : لعمْرِى لقد استكثرتَ ذلك لمّا مات الكرام ، وذهب الناس ، وغاضت المكارم ، وكسدت

(١) الأغانى : « منكسر » .
(٢) الأغانى ١٨ : ١٦٩

أسواق الأدب ، أنت والله يابنىّ أميرُ الشعراء غداً بعدى، فقمت فقبّلت رأسه ويديه ورجليه ، وقلت : والله لهذا القول أسَرُّ لِى مما وصل إلىّ منهم .

قال البحترىّ : أنشدت أبا تمام يوماً شيئاً من شعرى ، فأنشدنى بيت أَوْسٍ :

وإنْ مُقْرَمٌ منّا ذَرَا حدُّ نابِهِ    تخمَّط فينا نابُ آخرَ مُقْرَمِ [1]

ثم قال : يابنىّ ، نَعَيْتَ إلىَّ نفسى : فقلت : أعيذك بالله من هذا ! فقال لى : إن عمرى ليس يطول ، وقد نشأ مثلُك لطيِّئٍ ، أما علمت أن خالد بن صفوان المِنْقرِىّ رأى شبيب بن شبّة ، وهو من رهطه يتكلم ، فقال . يابنىّ ، نَعَى نفسى إلىّ إحسانُك فى كلامك ؛ لأنّا أهل بيت ، ما نشأ فينا قطّ خطيب إلا مات مَنْ قبله .

قال : فمات أبو تمام بعد سنة من قوله هذا ، ومات البحترى سنة ثلاث وثمانين ومائتين .

المبرّد : ذكرت للمتوكل المنازعة الّتى جَرَتْ بينى وبين أبى الفتح فى تأويلات ، [2] فبعث إلى عامله بالبصرة أن يحملنى إليه مكرهاً ، فوردتُ سرّ من رأى ، فأُدخِلْتُ على المتوكّل ، وفى المجلس البحترىّ وأبو العنبس الصيمرىّ ، فأنشده البحترىّ قصيدة أولها :

عنْ أىّ ثغرٍ تبتسمْ    وبأىّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ [3]
حَسَنٌ يَضَنّ بحُسْنِه    والحُسْنُ أشْبَهُ بالكَرَمْ

حتى بلغ :

قلْ للخليفةِ جعفرِ الْمُتَوَكِّلِ بنِ المعتصمْ

---

(١) وذرا حد نابه : انكسر ؛ كذا فسره صاحب اللسان ، واستشهد بالبيت .
(٢) ج : « تأويلاته » وهى ساقطة من المسعودى وإنباه الرواة .
(٣) ديوانه ١٩٩٨ .

المرتضَى ابنِ المجتَبى والمنعم ابن المنتقمْ
أمّا الرعيَّة فهى مِنْ أَمَنَاتِ عَدْلك فى حَرَمْ
يابانىَ المجـدِ الذى قد كان قُوِّضَ فانْهدَمْ
اسْلَمْ لدين محمّدٍ فإذا سلمتَ فقد سَلِمْ
نلنَا الهدى بعد العمَى بلْ والغنى بعد العَدَمْ(١)

ثم مشى القهقرى للانصراف ، فوثب أبو العنبس ، وقال : يا سيّدى ، تأمر بردّه ! فقد والله عارضتُه ، فأخذ ينشد فى ذلك :

فى أىّ سَلْحٍ تنْتظِمْ وبأىِّ كفٍّ تلتقِمْ
أدخلت رأس البحـترىّ أبى عُبادة فى الرَّحِمْ

ووصله بما يشبهه من الشعر . فضحك المتوكّل حتى استلقى ، وقال : يُدفع إلى أبى العنبس عشرة آلاف درهم ، فقال أبو الفتح : ياأميرالمؤمنين ، والبحترىّ الذى هُجِىَ وأُسْمِع المكروه ينصرف خائباً ؟ قال : ويُدْفَع إلى البحترىّ عشرة آلاف درهم ، قال: يا سيّدى ، وهذا البصرىّ الذى أشخصْنَاه من بلده ، ألا يشركهم فيما حصلوه ؟ قال: ويُدْفع له عشرة آلاف : قال . وانصرفنا كلّنا فى شفاعة الهذلىّ ، ولم ينفع البحترىَّ جِدُّه وحِذقه .(٢)

وأما أبو الفرج ، فقال : حدّثنى جحظة عن أبى العنبس الصيمرىّ ، قال : كنت عند المتوكل والبحترىّ ينشده :

* عن أىِّ ثغرٍ تَبْتَسِمْ *

وكان البحترىّ من أبغض الناس إنشاداً ، يتشادق ويتزاور فى مشيه مرّة جانباً ،ومرّة القهقرى ، ويهزّ رأسه مرة ومنكبيه أخرى ، ويشير بكفيه ، ويقف عند كل بيت ، ويقول: أحسنتُ والله ! ثم يقبل على المستمعين ، ويقول لهم : مالكم لاتقولون : أحسنت ! هذا والله ما لايحسِن أحدٌ أن يقول مثله ، فضجر

(١) الديوان : « بك والغنى » .
(٢) الخبر برواية المبرد فى مروج الذهب ٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣ وإنباه الرواة ٣ : ٤٤ .

المتوكل من ذلك ، وأقبل عليّ فقال : أما تسمح يا صيمريّ ما يقول ؟ فقلت : بلى ياسيدى ، فمر فيه بما أحببتَ ، فقال : بحياتى اهْجُه على هذا الرويّ ، فقلت على البديهة :

أدخلتَ رأسك فى الرَّحِمْ ... وعلمتَ أنكَ تنهزِمْ[1]
يا بحتريّ حذارِ ويْحَـ ... ـكَ من قضاقضةٍ ضُغُمْ
فلقد أسَلْت بواديْـ ... ـك من الهجاسَيْلَ العَرِمْ
فبأيّ عِرْضٍ تعتصِمْ ... وبهتكه جفّ القلمْ
واللهِ حِلْفةَ صادقٍ ... وبقبر أحْمَدَ والحرَمْ
وبحق جعفرٍ الإما ... م بن الإمام المعتصِمْ
لأصيِّرَنكَ شُهْرةً ... بين المسيل إلى العَلَمْ
يا بنَ الثّقيلة والثّقيـ ... ـل على قلوب ذوى النِّعَمْ
وعلى الصَّغير مع الكبـ ... ـير مِنَ الموالى والحَشَمْ

وبعد هذا ما يقبح ذكره ؛ فغضب البحتريّ ، وخرج يعدو ، وجعلت أصيح به :

أدخلْتَ رأسكَ فى الرَّحِمْ ... وعلمت أنك تنهزِمْ

والمتوكّل يضحك ، ويصفّق حتى غاب عنه .[1]

ومدح البحتريّ بعض الولاة ، فتوانى فى حقه، فأنشده :

إنّ الأميرَ أطال الله مدّتَهُ ... يُعْطى من العُرْفِ ما لم يُعْطِهِ أحَدُ[2]
ينسى الّذى كان مِنَ معروفه أبدا ... إلى العباد ، ولا ينسى الذى يَعِدُ

فأعطاه خمسين ألف درهم، وقال : البيتان خير من القصيدة .

وقال الهذلىّ : قيل للبحتريّ: أيما أشعر؟ أنت أو أبو تمام ؟ قال: جيّدُه خيرٌ من جيّدى ، ورديئى خير من رديئه . وصدق ، أبو تمّام لا يتعلّق به أحـد فى

(١) الأغانى ١٨ : ١٨٣، وأخبار البحترى للصولى ٨٧ .
(٢) ملحق ديوانه ٢٥٤٥ .

فى جيّده ، وربما اختلّ لفظه لامعناه، والبحترىّ لا يختلُّ لفظه .

وقيل له : قد عثرتَ باحتذائك أبا تمامٍ فى شعرك! فقال:أيُعاب علىّ أن أتبع أبا تمام ، وما عملت بيتاً قط حتى أُخْطِر شعره ببالى !

وذكروا معنًى تعاوره البحترىّ وأبو تمام، فقال المبرّد للبحترىّ: أنت فى هذا أشعر من أبى تمّام ، فقال : لا والله ، ذلك الرئيس الأستاذ ، والله ما أكلت الخبزَ إلا به .

وقال عبد الله بن الحسن: سألت المبرّد عن أبى تمام والبحترىّ أيهما أشعر ؟ فقال : لأبى تمّام استخراجات لطيفة ، ومعانٍ ظريفة ، وجيِّده أجــود من شعر البحترىّ ومَنْ تقدّمه من المحدثين، وشعر البحترىّ أحسن استواء من شعره، لأنّ البحترىّ يقول القصيدة كلّها، فتكون سليمة من طعن طاعن ، وأبو تمام يقول البيت النّادر والبارد ؛ وهذا المعنى كان أعجب إلى الأصمعىّ ، وما أشبِّهه إلا بغائص يُخرج الدرّة الْمَخْشَلبة ـ وهى زجاجة توضع مكان الدّرّة ـ ثم قال : لأبى تمام والبحترىّ من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجدوا فيه مثله ، ثم قال : والبحترىّ ختم الشعر،وله بيتان لو وضعا إلى شعر زُهير لجازا فيه؛ وهما :

فاسَفَهُ السَّفِيــه وإن تعــدّى ... بأنجــعَ فيك من حِلْمِ الحليمِ[(١)]

متى أحفْظتَ ذَا كــرمٍ تخطَّى ... إليك ببعض أفعـــال اللَّئيمِ

وذكر المبرّد فى هذا المجلس شعراً له ، وقدّمه على نظرائه :

وإذا ذكرتُ محاسنَ ابنىْ صاعدٍ ... أدّت إليك مخائلَ ابنى مُخْلَدِ[(٢)]

كالفَرْقدين إذا تأمّل ناظـــرٌ ... لم يعلُ موضعُ فرقدٍ عن فرقدِ

وقوله :

مَنْ شاكرٌ عنّى الخليفةَ لِلّذى ... أولاه من فضلٍ ومن إحسانِ[(٣)]

(١) ديوانه ٢٠٧٩ (٢) ديوانه ٥٤١

(٣) ديوانه ٢٢٥٥ .

حتَّى لقد أفضلتُ من إفضاله ورأيت نَهْجَ الجود حيثُ رآني

وبعدهما :

أغنت يداهُ يدى وشرّد جُودُه بُخْلِى ، فأفقرنى كما أغنانِى

وله أيضاً فى الفتح بن خاقان ، وقد نزل إلى الأسد فقتله :

حملت عليه السيف عطفك ما انثنى ولا يدُك ارتدَّت ولا حَدُّه نَبَا[1]

فأحجم لمّا لم يجد فيك مطمَعًا وصمّم لما لم يجدْ عنك مَهْرَبَا

وله فيه :

وما منع الفتحُ بن خاقان نيلَه ولكنها الأيام تُعطِى وتَحرِمُ[2]

سحابٌ خطانى جَوْدُه وهو مسبِلٌ وبحرٌ عدَانِى فيضُه وهو مفعَمُ

وبدرٌ أضاءَ الأرض شرقاً ومغرباً وموضعُ رجلى منه أسودُ مُظلِمُ

أأشكو نَدَاه بعد أن وَسِعَ الورَى ومَنْ ذا يذمّ الغيث إلا مذَمَّمُ !

وله أيضاً فى انتقاض صلح بين عشيرته :

إذا ما الجرحُ رمّ على فَسادٍ تبيَّنَ فيه تفريط الطَّبيبِ[3]

ولَلسَّهُم السَّديد أشد حُبًّا إلى الرامى من السهم المُصيبِ

ومن جيّد شعره :

ولما التقينا واللّوَى موعدٌ لنَا تبيَّن رائى الدرّ حسناً ولاقطُه[4]

فمن لؤلؤٍ تجلوه عند ابتسامِهَا ومن لؤلؤٍ عند الحديث تساقِطُه

والبحترىّ مكثر جدًّا ، وديوان شعره نسخ مختلفاً بالزيادة والنقص ؛ لأنّه شعره لا ينضبط لكثرته .

---

(١) ديوانه ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٢) ديوانه ١٩٨٠
(٣) ديوانه ١٩٠ .
(٤) ديوانه ١٢٣٠ .

[ وصيّة أبى تمام للبحترىّ ]

قال البحترىّ : كنت أروم الشعر فى حداثتى ، وكنت أرجع فيه إلى الطبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه ، حتى قصدت أبا تمّام ، وانقطعت فيه إليه ، واتّكلت فى تعريفه عليه ، فكان أوّل ماقال لى : يا أبا عُبادة ، تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليل الهموم ، صِفْرٌ من الغموم . واعلم أنّ العادة جرت فى الأوقات أن يقصدها الإنسان لتأليف الشىء ، أو حفظه فى وقت السَّحَر ، وذلك أن النفس تكون قد أخذت بحظها فى الراحة ، وقسطها من النوم ، فإن أردت التشبيب، فاجعل اللفظَ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه بيان الصَّبابة ، وتوجُّع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق؛ فإذا أخذتَ فى مدح سيّد [ذى أياد][1] ، فأشهِرْ مناقبَه ، وأظهِرْ مناسبَه ، وأبن معالمه ، وشرّف مقامه ، ونضّد المعانى ، واحذر المجتملَ[2] منها . وإيّاكَ أن تشين شعرَكَ بالألفاظ الهجينة[3] ، وكن كأنك خيّاط تقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضكَ الضَّجَر فأرح نفسَكَ، ولا تعمل شعراً إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتَكَ إلى قول الشعر الذَّريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة تجمع النفس[4] . وجملة الحال أن تعتبر شعركَ بما سبق من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ؛ ترشد إن شاء الله تعالى .

قال : فأعملت نفسى فيما قال ، فوقفت على السياسة[5] .

* * *

**فقَالَ : هَلْ عَثَرْتَ لَهُ فِيمَا لَمَحْتَهُ ، عَلَى بَدِيعٍ اسْتَمْلَحْتَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَوْلُهُ :**

---

(١) من زهر الآداب (٢) زهر الآداب : « المجهول » .

(٣) زهر الآداب : « الرديئة » . (٤) زهر الآداب : « نعم المعين » .

(٥) زهر الآداب ١١٠ ، ١١١ ، العمدة ٢ : ١١٤ .

كأنّما يبسِمُ عنْ لؤلؤٍ مُنَضَّدٍ أوْ بَرَدٍ أوْ أقاحْ

فإنَّهُ أبْدَعَ في التشبيهِ، المُودَعِ فيهِ.

* * *

قوله : «هل عثرت »،معناه اطّلعت . لحته : نظرته . بديع : معنى لم يسبق غيره إليه من تشبيه أو تجنيس وشبههما ممّا ذكر من صنع البديع فى [ المقامة ] الثالثة والعشرين. والبِدْع:إحداث الشيء قبل أن يكون أولا،والبدْعَة :ماابتدع من الدِّين ،والبديع:المحدث العجيب، وأبدع الرجل:أتى ببديع من قول أو فعل، وأبدع الله الأشياء وابتدعها : خلقها بلا مثال . استملحته : وجدته مليحا . يبسم : يبدى بعضَ أسنانه عند الضحك . لؤلؤ : جوهر شبّه به الأسنان . وهذا البيت من شعره ، وقبله :

باتَ نديمًا لىَ حتّى الصّباحْ أغْيَدُ مجدولُ مكانِ الوِشَاحْ[1]

فبتّ أفـــديه ولا أرعوى لنهيِ ناهٍ عنه أو لَحْيِ لاَحْ

أمزُجُ كأسِي بجَنَى رِيقِهِ وإنما أمزُجُ راحًا بِرَاحْ

كأنما يبسم . . . . البيت .

وبعده :

سِحْرُ الْعُيونِ النُّجْلِ مُسْتَهْلِكٌ لُبِّي ، وتوريد الخدُودِ المِلاَحْ

قل لأبى نوحٍ شقيق العـــلاَ ومَعدِنِ الجودِ ، وتِرْبِ السَّمَاحْ[2]

أعوذ بالفضْل الجميـــل الّذى عوّدتنى ، والنائلِ المُسْتَمَاحْ

منْ أن تَصُدّ الطّرف عنّى وأنْ أخيبَ فى جدواكَ بعد النَّجَاحْ

أشْمِتَ حُسَّـــادِى وأخرجتنِى عن سَيْبِك المُغْدَى علىّ المُرَاحْ

فهل لأُنسٍ بان من عودةٍ أمْ هل لحالٍ فَسَدَتْ مِنْ صَلاَحْ

(١) ديوانه ٤٣٥ .

(٢) هو أبو نوح عيسى بن موسى الممدوح .

لستُ على سخطك جَلْدَ القوى ... وَلاَ عَلَى هجرِكَ شاكِى السِّلاَحْ

قوله : « المودَع » : المضمّن ، وأودع الشيء : صيّره وديعةً .

* * *

فَقَالَ لَهُ : يَا لَلْعَجَب ، ولِضَيْعَةِ الْأَدَبِ ! لَقَدِ اُسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرمٍ ، وَنفَخْتَ فى غَيْرِ ضَرَمٍ ! أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْبَيْتِ النَّدْرِ ، الْجَامِعِ مُشْبِهَاتِ الثَّغْرِ ! وَأَنْشَدَ :

نَفْسِى الْفِدَاءُ لِثَغْرٍ رَقَّ مَبْسَمُهُ
وَزَانَهُ شَنَبٌ نَاهِيكَ مِنْ شَنَبِ
يَفْتَرُّ عَنْ لُؤْلُؤٍ رَطْبٍ وَعَنْ بَرَدٍ
وَعَنْ أَقَاحٍ وَعَنْ طَلْعٍ وَعَنْ حَبَبِ

* * *

استسمنت : حسبتَه سميناً وطلبت السمانة من هزيل . وَرَم : دُمّل ، والمعنى أنه يرميه بسوء الفهم ، وقد بيّن هذا أبو الطيّب المتنبى فقال :

أعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً ... أن تَحْسِبَ الشَّحْمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ[1]
وَمَا انْتِفَاعُ أخِى الدُّنيا بناظرِهِ ... إذا استوتْ عندَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ

ونفخت فى غير ضرم ، مثل لطلب الشيء فى غير موضعه ، ولفظ المثل[2] : « نفخت » أو « تنفخ » ، والضَّرم : النار . النّدْر ، والنادر : الغريب . الثغر : الأسنان ، مبسمه : موضع ابتسامه ، يعنى الفم .

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٢) لفظ المثل فى جمهرة الأمثال ٢ : ٣٠٥ : « نفخت لو تنفخ فى فحم » ، والفحم : الجمر الطافىء .

الشَّنَب : الماء القليل الجارى على الأسنان . الجرمىّ: سمعت الأصمعى يقول : الشَّنب بَرْد الأسنان والفم ، فقلت : أصحابنا يقولون : حدّتها حين تطلُع ، فيراد بذلك حَدَاثتها وطراءتها ، لأنّها إذا أتت عليها السنون تغيّرت ، فقال : ما هو إلا بَرْدها . ابن سيده : قال الأصمعىّ : سألت رؤبة عن الشَّنب ماهو ؟ فأخذ حبّة رمان فأومأ إلى بصيصها .

ناهيك : كافيك ، وتقول: ناهيك بفلان ! أى قد انتهى الأمرفيه إلى الغاية ونَهِىَ الرّجل من اللحم وأنْهى ، إذا شبع منه واكتفى ، والنِّهْى : الغدير لأنه ينتهى إليه ماء الوادى . يفترّ : يكشف ويبسِم . رطب ، أى طرىّ كما أخرِج من أصدافه ، وفى اللؤلؤ إذ ذاك رطوبة وسطوع بياض، فإذا أصابه الهوى ودام عليه صَلُب ، وإذا تداولته الأيدى باللمس وقدم تغيّر بياضه . الطّلع : أول حَمْل النخلة ، وهو الفرخ فإذا انشق فهو الضحْك ، وبه تشبّه الأسنان فى بياضه ، ثم الإغريض إذا افترق حبّه،وإنّما شبّه الأسنان بالطّلع ، وهو الفرخ ، لأنه إذا شقّ وجد ما فيه من حمل النخلة فى غاية البياض ، ويقال له : الوليع ، قال الشاعر :

وتبسِم عن لؤلؤٍ كالوليــعِ تشقّق عنه الرّقاة الجفوفا[١]

الجُفوف جمع جُفّ وهو قشر الفرخ ، ويقال له القيقاء والبابلة ، وهو طيّب الريح ، والرّقاة:الراقون إلى أعلى النخل .

والحَبَب:تنضّدالأسنانِ ، وقيل : طرائق تظهر فى الخمر عند مزجها بالماء ، فأمّا الفقاقيع الّتى تعلو الخمرعند المزْج فهى الحَباب، بزيادة الألف ، قال المتلمّس[١] :

عُقَارٌ أُعْتِقَتْ فى الدّنِّ حَتّى كأنَّ حَبابها حَدَقُ الجَرَادِ[٢]

---

(١) اللسان ـ ولع، جفف ، من غير نسبه .

(٢) شعراء النصرانية ٣٤٢ . والعقار : الخمر ؛ سميت عقارا لأنها عاقرت الدن ، والخمر العتيقة : القديمة .

وقال آخر :

حَمْراء قانيةٌ إذا ما شعشعَتْ ينزُو إلى وجهِ النَّدِيم حَبَابُهَا

* * *

فاسْتَجَادَهُ مَنْ حَضَرَ واسْتَحْلاَهُ ، واستَعَادَهُ مِنْهُ واسْتَمْلاَهُ ، وَسُئِلَ لِمَنْ هَذَا الْبَيْت ، وَهَلْ حَيٌّ قائِلُهُ أَوْ مَيْتٌ ؟ فقالَ : أَيمُ اللهِ ، لَلْحَقُّ أَحقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، وَلَلصِّدْقُ حَقِيقٌ بأَنْ يُسْتَمَعَ ؛ إنَّهُ ياقَوْمُ ، لَنَجِيُّكُمْ مُنْذُ الْيَوْمِ . قَالَ : فَكَأَنَّ الْجَمَاعَةَ ارْتَابَتْ بِعِزْوَتِهِ ، وَأَبَتْ تَصْدِيقَ دِعْوَتِهِ . فتوجَّسَ مَا هَجَسَ فى أفْكارِهِمْ ، وَفَطَنَ لِمَا بطَنَ من استنكارِهِمْ ، وَحَاذَرَ أَنْ يَفْرُطَ إلَيْهِ ذمٌّ ، أوْ يَلْحَقَهُ وَهْمٌ ، فقرأ ﴿ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ . ثمَّ قال : يا رُوَاةَ الْقَرِيضِ ، وَأُساةَ الْقَوْلِ الْمَرِيضِ ، إنَّ خُلَاصَةَ الْجَوْهَرِ تَظْهرُ بالسَّبْكِ ، وَيَدَ الْحَقِّ تَصْدَعُ رِدَاءَ الشَّكِّ ، وَقَدْ قِيلَ فِيمَا غَبَرَ مِنَ الزَّمَانِ : عِنْدَ الامْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ ، وها أنا قَدْ عَرَّضْتُ خَبِيَّتِى[1] للاخْتِبَارِ ، وَعَرَضْتُ حَقِيبَتِى على الاعْتِبَار .

* * *

قوله : «استعاده» ، أى قال: أعده علىَّ. استملاه :طلب أن يكتبه. ايمُ الله : يمين يحلف به . نجيُّكمُ : محدِّثُكمُ ـ يعنى نفسه. ارتابت: شكَّت والرَّيْب: الشكّ . بعزوته : بنسبته ، أى بنسبته إلى نفسه . دِعوته : ادعاؤه أنه من قوله . والدِّعوة بكسر الدّال فى النّسب ، وبفتحها فى الطعام . فتوجَّس : أى أحسَّ وسمع . هَجَس : وقع وخطر . فطَن : شعر . بطَن : خَفِىَ ، يريد أنه فهم منهم أنهم لم

(١) متن المقامات : « جنيتى » .

يصدّقوه فى أنّ الشعر له ، وأنكروا أن يقول مثله . حاذر : خائف . يفرُط : يسبق . القريض : الشعر . أساة : أطبّاء ، واحدهم آسٍ . القول المريض : الضعيف من قِبَل راويه . خُلاصة : ما خلص منه . وجواهر الأرض ، مثل الحديد والنحاس وغيرهما ، فإذ عرض الجوهر على النّار ، فما كان منه خالصاً زاد صفاءً وجوْدة ، ومالم يكن خالصاً فضحتْه النار وأظهرت عيبه . السّبْك : الاختبار بالنار . تصدع : تشق . غبَر : مضى هنا ، ويستعمل كثيرا بمعنى « بَقِيَ » وهو من الأضداد ؛ يقال: غبر الشيء غبوراً إذا بقي ، قال الله تعالى : ﴿إلاّ امْرأَتَهُ كانت مِنَ الغَابِرِينَ﴾[1] ، أى الباقين . الامتحان : الاختبار والبحث ، وهذا المثل من أمثال الفرس ، ولهذا أبعد مدّته حيث قال : غَبَر من الزمان . خبيّتى : مكتومى ، وما خبأته من على ، وأصل « خبيّتى » الهمز ، فقلبت همزته ياءً وأدغمت فيها الياء ، كما قلبت فى « خاسية » . وتقول : عرَضت الشيء على البيع وعرّضته للبيع ، إن أتيتَ بعلى خفّفت الراء ، وإن أتيتَ باللام شدّدتها . والحقيبة : وعاء يجعله الراكب خلفه ، والاعتبار والاختبار واحد .

* * *

فابْتَدَرَ أحَدُ مَنْ حَضَرَ ، وقال : أعْرِفُ بَيْتاً لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مِنْوَالِهِ ، وَلاَ سَمَحَتْ قَرِيحَةٌ بِمِثَالِهِ ، فإنْ آثَرْتَ اخْتِلاَبَ الْقُلُوبِ ، فانْظِمْ على هَذَا الأُسْلُوب :

فأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ
وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّابِ بِالْبَرَدِ

* * *

(١) سورة الأعراف ٨٣

قوله : «ابتدر» ، أى سبق بالكلام وبادر به . والمِنْوال : خشبة الحائك ؛ يريد أنّ البيت رفيع الصنعة فى الشّعر لم يُصنع بيت مثله ، لأنّ الثوب أنواع ، وصنعة الشعر تشبه نَسْج الثوب . سمحتْ : جادت . قريحة : ذهن . آثرت : فضّلت . اختلاب القلوب : إمالتها إليك بتصديقك وانخداعك بما تبديه ، وهو من الخِلْب وهو من غشاء القلب . وعن أبى عبيدة وغيره قال ثعلب : الخِلْب : الّذى بين الزيادة والكبد[١] ، يقال : خَلَبنى حبُّ فلان ، أى وصل حبّه إلى خِلْبى ، وفلان خِلْب نساء ، أى تخلبه النساء ، وخلَّاب : يخلب الناس ، أى يذهب بقلوبهم ، وخِلْب جمعه خلبة ، وكلّه من الخِلْب ، قال أعرابىّ :

مَنْ كانَ لم يدْرِ ما حُبٌّ جمعت له ... أو كان فى غفلة أو كان لم يَجِدِ
فالُحبُّ أوّله رَوْعٌ وآخره ... مثل الحرارة بين الخِلْبِ والكَبِدِ

[ انظم : قل شعرا منظوما . والأسلوب : الطريقة ] [٢] .

لولؤاً : درًّا . النرجس : نوّار أصفر فى نوْره انكسار وفتور لا يكاد يُرَى ، له ورقة قائمة ، تشبّه به العينان إذا كان فى نظرهما فتور .

[ ذكر النرجس وما قاله الشعراء فى تشبيه العيون به ]

وقد تمادى إنكار أدباء وقتنا تشبيه العين بهذا النوّار الأصفر المعروف عندنا بالنرجس ، فأكثرهم ينكر أن يكون يقع به تشبيه لأجل صفرته ، وإن ذكرتُه لأحد قال : وأىّ صفرة فى العين إلّا أن يكون بصاحبها علّة اليرقان ! ويستهجن موضع التشبيه جدًّا .

وقد سألت عنه بعض أشياخى فى صغرى ، وأنا أقرأ عليه كتاب «الجمل» وكان أديباً شاعراً ، فأنكر وقوع التشبيه بهذا النَّوْر الأصفر ، وقال لى : النَّرْجس عندهم

---

(١) من ج ٢ .
(٢) فى اللسان : الخلب ، بالكسر : حجاب الكبد ، وقيل : هو حجاب بين القلب والكبد

بالمشرق نَوْر يشبه نُوَّار الفول . وأكثر مَنْ لقيتُه يستبعدالتشبيه بهذا الأصفر ، لأجل لونه ، وذلك لقلّة تحصيلهم معرفة كلام العرب وتشبيهاتها ، والعرب توقع تشبيهاتها على الصورةدون المعنى ، وعلى المعنى دون الصورة ، وعليهما جميعاً؛وهو أكمل وجوه التشبيه . وانظر أقسام التشبيه فى الثالثة والعشرين تقع على علم هذا وغيره بإذن الله تعالى .

وتشبيه العيون بالسيوف والسِّهام ، إنّما المراد به المَضَاء والقطع ، ولا يُلتفت في ذلك إلى اللون ، وكذلك تشبيه العيون بالنَّرْجس الأصفر إذا قصد ما فيه من الفتور واقع متمكِّن فى التشبيه ، ألا ترى ابن المعتزّ التفت إلى الفتور وحده حين قال :

وَسْنَانُ قد خَدَعَ النُّعَاسُ جفونَهُ      فحكَى بمقلته ذبولَ النَّرْجسِ[1]

والنَّرجس الذى يشبِّه به أهل المشرق العيون ،هو نباتٌ له قضبان خضر فى رءوسها أقماع ، يخرج منها نَوْر ينبسط منه على الأقماع ورق أبيض ، فى وسط البياض دائرة قائمة من ورق صغير . هذه الصفة التى تقع فى أشعارهم إذا ذكروا النَّرْجس ، وبذلك وصفه كسرى أنوشروان ، فقال : النَّرْجس ياقوت أصفر ، بين دُرٍّ أبيض على زمرّد أخضر ، أخذه بعضهم فقال فيه :

وياقوتةٍ صفراء فى رأس دُرَّةٍ      مركَّبة فى قائم من زَبَرْجَدِ
كأنّ بهىّ الدرّ عِقْد نظامها      فريدٌ أنيقٌ قد أطافَ بعَسْجَدِ

وأنشد أبو عَوْن الكاتب فى كتاب التشبيه له ، فقال : من جيّد ما قيل فى النرجس ما أنشده المبرّد رحمه الله تعالى :

(١) ديوانه ١ : ٦٨ .

نَرجِسَةٌ لاحظني طرفُهـــا ... تشبهُ ديناراً على دِرْهَمِ[1]

وقال عبيد الله بن عبد الله فيه :

ترنو بأبصارها إليك كما ... تَرْنُو إذا خافت اليعَافِيرُ[2]

مثل اليواقيت قد نُظمنَ عَلَى ... زمرّد فوقهنّ كافــــورُ

كأنَّها والعيـــون ترمُقها ... دراهمٌ وَسْطَهَـا دَنَانِيرُ

وقال أبو نواس :

لَدَى نرجسٍ غضِّ القِطافِ كأنه ... إذا ما منحناه العيونَ عيونُ[3]

مخالفة فى شكلهنَّ وصفرةٌ ... مكانَ سوادٍ والبياض جفُونُ

أجاد التشبيه ، وكشف بذكر المخالفة قناع الشبهة ، وبيّن مواقع التشبيه غاية البيان .

وقال أبو عبد الملك بن فرج فى كتاب الحاسّ والمحسوس ، له : وأحسن بيتٍ أنشدنيه أبو جعفر البغداديّ رحمه الله :

مَدَاهِنُ درّ بين أوراق فِضَّةٍ ... على تِبر شبر أخضرٍ كالزَّبرْجَدِ

وقال أبو الفرج الببغاء :

ونرجس لم يَعْدُ مُبْيَضُّهُ الْـ ... ـكَأْسَ ولا أصفره الرَّاحَا[4]

تخال أحقاق لُجَيْنٍ حَوَتْ ... من أصفرِ العسْجَدِ أقدَاحَا

كأنما يُهــــدى المحيّى به ... لطفاً إلى الأرواح أرْوَاحَا

---

(١) كتابة التشبيه ١٩١ ، نهاية الأرب ١١ : ٢٣٥ .

(٢) كتاب التشبيه ١٩١ ، نهاية الأدب ١١ : ٢٣٥ ، واليعافير : جمع يعفور ، وهو الظبي بلون التراب

(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٣

(٤) يتيمة الدهر ١ : ٢٢٨

يغنى عن الوَرْد إذا مارنا ويخلف الوَرْد إذا فاحا

وقال ابن المعتزّ :

كأنّ عيونَ النَّرجس الغَضِّ بيننا مَداهنُ درٍّ بينهنّ عقيقُ[1]
إذا بلّهنّ القطر خلت دموعه بكاءَ عيون كحلهنّ خَلُوقُ

وقال النّاشئ :

أخصّ الصفــــات التى تناولهــــا مَنْ كَتَبْ
عيـــونٌ بلاَ أوْجُـــهٍ لهـــا حدَقٌ من ذَهَبْ

وقال ابن الرومىّ :

يانرجسَ الدّنيـــا ترى أبداً للإفتراج ودائم النّخب
ذهبُ العيون إذا مَثَلْنَ لنا درّ الجفون زَبَرْجَد القصَب

وهذه الصفة التى أثبتها أهل المشرق للنَّرجس، هى التى يصف بها أهل المغرب البهار ، قال ابنُ أبى عامر فى جارية اسمها بهار :

حَدَقُ الحسان تقرّ لى وتَغـارُ وتظلّ فى صفـة البهار تَحَارُ
طلعتْ على قضبى عيون كمائمى مثل العيون تحفّها الأشفارُ
وأخصّ شىء بى إذا شبّهتنى درّ تَمنْطَقَ سلـكَهُ دينارُ[2]
أهدَى لنا قُضُبَ الزَّبَرْجَد ساقُهُ وحَباهُ أنفسَ عطرِه العطّارُ
أنا نرجسٌ حقًّا بهرت عقولهمْ ببديع تركيبى فقيـل بهـارُ

بَيَّن أن البهار عندنا ، هو الذى تسميه أهل المشرق نَرْجسًا .

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٤ .
(٢) كذا فى ج ، وفى ط : « سلكه ويسار » .

وقال أبو جعفر بن برد :

تأمّل فقد شقّ البهار مغالسًا كمائمه عن نوره الخضِل النَّدِى[١]
مداهنُ تبرٍ فى أناملِ فِضّـةٍ على أذرعٍ مخروطةٍ من زَبَرْجَد

وقال القسطلى[٢] :

بهارٌ يروقُ بمسكٍ ذَكِىٍّ وصنعٍ بديعٍ وخَلْقٍ عَجَبْ
غصون الزَّبَرْجَدِ قد أوْرقَتْ بها فضة نوّرَت بالذَّهَبْ

وقال القاضى أبو الحسن بن لبال :

وبَهارٍ يحكى كئوسَ لُجَيْنٍ حملتْها أناملٌ من زَبَرْجَدْ
سامرتْها الكواكب الزُّهرحتى سمّرتْ وسطَها كواكبُ عَسْجَدْ

وأنشدنى بعض أشياخنا :

انظُرْ إلى حُسْنِ البَهَارِ وغُنْجِهِ يرنُو إليكَ بمُقلَتَىْ وَسْنَانِ
فكأنّما هى راحةٌ من فِضَّةٍ قد ضُمِّنَتْ كأسا من العِقْيَانِ
وكأنَّ نشْرَ نسيمه غبَّ النَّدَى يأتيكَ بالأنفاسِ مِنْ بَغْدَانِ

والّذى تسميه أهل المغرب نرجسًا يسمّيه أهل المشرق بهاراً ، ولذلك قال الحريرىّ فى العاشرة : « وورْدنى بالبهار » ، دعا فيها على الغلام بالحمّى ، وأن ينعكس حمرة خدّه صفرة ، وقال حبيب فى ذلك :

إنَّ وجْهَ الحمّى لوجهٌ صفيقٌ حين تسطو به نَهـاراً جِهَاراً[٣]
لم تَشِنْ وَرْدَ وَجْنَتَيْه ولكنْ صيَّرتَ وَرْدَ وجنتيه بَهَارَا[٤]

---

(١) الذخيرة ٢ : ٤٩
(٢) هو ابن دراج ، ديوانه ٣٨ .
(٣) ديوانه ٤٤١
(٤) الديوان : « لم تشن وجهه المليح » .

وبلون النرجس يشبّه أهل الأندلس المريض .

وقال أبو بكر الأبيض :

| | |
|---|---|
| ياشاكيا صدّنى عن مسّه ألمى | طال اشتياقى به ليلاً فلم أنم |
| تضاءل الدّهرُ إشفاقا على قمرٍ | رقيبه فى سماء المجدِ والكرمِ |
| لم أرضَ قلبى مكانا إذ حللت به | حتى خلطتك فى سَوْادَئه بدَمِى |
| أنتَ البَهَار ولا أدرى متى خَلَعَتْ | عليك أيدِى اللّيالى نَرْجِسَ السّقمِ |

ولابن الزقّاق :

| | |
|---|---|
| وغزالٍ ذى اعتدالٍ شَفَّهُ | بعد ما شقّ هَوَاه الأنفُسَا(١) |
| جارت الحمّى على وجنتِهِ | فاستحال الوردُ منه نَرْجِسَا |

فثبت بما قدمناه، أنّ نرجسهم بَهارُنا ، وأن بَهارَهم نرجسنا . وآكدُ ما يدلّ على صحته اشتراكُ البيت الذى أنشده أبو الفرج على النّرجس مع بيت ابن بُرْد فى لفظٍ واحدٍ ، أخذ ابن بردٍ منه صفة النرجس ، فقلبه لاسمِ البَهَار حين نظمه .

واعْلَمْ أن تشبيه العين بنرجسهم أبْين لتعلّقهم بالصورة ، وأن تشبيهها بنرجسنا أدون لتعلّقه بالمعنى،وهو معذلك متمكّنٌ فى باب التشبيه ، وأنّ اسم النرجس لابد فيه من صفرة .

وقدقال شاعر من المشرق ،وهو أحمد بن يونس الكاتب فى مناقضة ابن الرومىّ فى تفضيله النرجس على الورد :

---

(١) ديوانه ٢٩٣ .

إن كُنْتَ تنكِرُ ماذَ كَرْنَا بعد مَا قامتْ عليه دلائلٌ وشواهدُ[(١)]
فانظر إلى المصفرّ لوناً منهمَا وافطِنْ فما يصفرُّ إلا الحاسِدُ

فلولا ما ذكرنا من أشعارهم ، لحكمنا بهذا البيت ، على أن نرجسهم هو نرجسنا ، ومذهب ابن الرومى[(١)] تفضيله على الورد ، وهو القائل :

وأحسن ما فى الوجوهِ العيو نُ وأشبه شيء بها النَّرْجِسُ

والنفوس تتشوّق إلى رؤية نَرْجسهم ، لأنّا لم نعلم نرجسنا غير هذا الأصفر ، حتى نعلم بما ذكرناه أنّه هو النوّار المعروف ، وهم أيضا يتشوّقون لمنظر نرجسنا .

ويدلّ على ذلك حكاية القاضى الفقيه أبى الحسن بن **لبّال** ، قال : خرجت عشيّةً لخارج إشبيليّة أيام حداثتى وقراءتى بها ، فجلست فى وسط واديها ، وبيدى كتاب أنظر فيه ، وإذا رجلٌ يُحملق حوالىّ ، فإذا نظرتُ فى الكتاب يأخذ وينشد للأشعار التى بين أيدينا نظائر من بديع الشعر ، فذاكرته فوجدته بحرَ أدبٍ ، فسألته عن محفوظه ، فقال : أحفظ خمسة عشر ألف بيت من الشعر ، فسألته : هل تنظم شيئاً؟ فأنشدَنِى فى وصف فرس ، وزعم أنه القائل :

---

(١) أورد النويرى فى نهاية الأرب ١١ : ٢٣٤ من شعر ابن الرومى أبياتا منها :

خجلتْ خدودُ الوردِ مِنْ تفضيلِهِ خجلاً تورُّدُها عليهِ شاهِدُ
لم يخجل الوردُ المورّدُ لونه إلا وناحِلهُ الفضيلَةَ عاند
للنّرجسِ الفضلُ المبينُ وإن أبى آبٍ ، وحادَ عن الطريقةِ حائدُ
فضْل القضيةِ أن هذا قائدٌ زَهْرَ الربيع ، وأن هذا طاردُ
شتان بين اثنين : هذا موعِدٌ بتسلُّبِ الدُّنيا ، وهذا واعِدُ

منع الحوافر أن تَطين به الثَّرى ... فكأنه فى جريه متعلِّقُ
وكأنّ أربعة توافق طرفَه ... فتكاد تسبقه إلى ما يرمُقُ

فاستعدت بيته ،وراجعته في قوله : « تَطين» ، فقلت له : إنما هو «تطأن» ،فلم يعرف اللفظ ، وإنما تكلّم بلا همز على لحن عامته ، فجرّبته فى غيره ، فوجدت شعرَه من جهة الطبع وكثرة الحفظ ،لامن جهة العلم ، فسألته عن بلاده ، فقال : أنا من العراق ، فقلت له : فما السبّب الذى جاء بك إلى الأندلس ؟ فقال لى : لأرى النَّرجس الأصفر المذكور فى أشعاركم عياناً . ودعانى إلى الإطالة فى ذكر النّرجس رغبةً أن أرفع عن غيرى حَيْرة الشبهة التى أقمت فيها زماناً طويلا ، لا أجد من يرفعها عنى .

[ ذكر الوأواء الدّمشقى وبعض شعره ]

والبيت الذى اقتضى النَّظم على أسلوبه هو لأبى الفرج الغسّانى الدّمشقىّ ، المعروف بالوأواء ، ذكره أبومنصور الثعالبي فى يتيمته[1] ، فقال :أبو الفرج من حسان الدهر ، وصاغة الكلام[2] .

ومن عجائب أمره أنه كان منادياً بدار البِطّيخ بدمشق ينادى على الفواكه ، وما زال يشعر حتى جاد شعره ، ووقع له مايروق ، ويشوق ويفوق ، حتى تعلّق بالعيّوق[3] .

وقال الفتح بن خاقان : إنى انصرفت البارحة من مجلس أمير المؤمنين ، فلما

(١) يتيمة الدهر : ٢٣٦ وما بعدها .
(٢) اليتيمة : « من حسنات الشام ، وصاغة الكلام » .
(٣) اليتيمة : « حتى يعلو العيوق » ، والعيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن لو الثريا لا يتقدمها .

دخلت مجلسى لقيت خلافة[1] جاريتى ، فلم أتمالك أن ، قبّلتها ، فوجدت ما بين شفتيها هواء، لو رقد المحموم فيه لأفاق . وهذا مستظرَف من كلام الفتح ، فقال أبو أواء ملمًّا به[2] :

سَقَى الله ليلاً طاب إذ زار طيفُه ... فأفنيتُه حتى الصَّبَاحِ عِنَاقَا[3]
بطيب نسيمٍ منه يُستجلب الكَرَى ... فلو رقد المحموم فيه أَفَاقَا[4]

وله أيضاً :

بالله ربَّكما عُوجاً على سَكَنِى ... وعاتباه ، لعلّ العَتْبَ يَعْطِفُهُ[5]
وعرّضَا بِى وقولاَ فى حديثكما ... ما بالُ عبدِكَ بالهِجْرانِ تُتْلِفُهُ !
فإن تبسَّم قولاَ فى ملاطفةٍ[6] ... ما ضرَّ لو بوصالٍ منكَ تُسْعِفُهُ !
وإن بدا لكما من سَيِّدِى غضبٌ ... فغالطاه ، وقولا : ليس نعرفُهُ

وله فى النحول :

وما أبقَى الهوى والشوقُ منِّى ... سِوَى رُوحٍ تَرَدَّدُ فى خَيالِ[7]
خفيتُ عن العواذل أن ترانِى[8] ... كأنَّ الرُّوحَ منِّى فى مُحالِ

---

(١) اليتيمة : « استقبلتنى فلانة — يعنى جارية له — فلم أتمالك أن قبلتها » .
(٢) اليتيمة : « فكان هذا مما يستحسن ويستظرف من كلام الفتح » .
(٣) ديوانه ١٦٤
(٤) الديوان : « ولو رقد المخمور » ، وبعده هناك :

تَمَلَّكَنِى لمَّا تَمَلَّكَ مُهْجَتِى ... وَفَارَقَنِى لمَّا أَمِنْتُ فِرَاقَا

(٥) ديوانه ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٦) الديوان : « فى ملاطفة » .
(٧) ديوانه ١٨٩ .
(٨) الديوان : « عن النوائب » .

وله في الزّرقة :

يامَنْ هُو الماء في تكوين خِلْقَتِهِ ... وَمَنَ هُوَ الحرّ في أفعال مُقْلَتِهِ (١)

ومَنَ بزُرْقَةِ سيف اللحظ طَلّ دَمِي ... والسيف ، ما فَخْرُهُ إلا بزُرْقَتِهِ

علّمتَ إنسان عيني أن يعوم فَقَدْ ... جادت سِبَاحته في بحر دمعتِهِ

وله أيضاً :

تملّكْتَ يامهجَتِي مهجَتِي ... وأسهرت يا ناظرى ناظرى (٢)

وما كان ذا أملي يا ملولُ (٣) ... ولا هجَسَ الهجرُ في خاطرى (٤)

فجُدْ بالوصالِ فدتْكَ النفوسُ ... فلستُ على الهجرِ بالقادر

وفيك تعلّمتُ نظْمَ القَريضِ ... فلقّبني الناسُ بالشاعرِ

وله من قصيدة :

يُقمْنَ لنا بَرْقَ الثُّغور أدلّةً ... إذا ماضَلِلْنَا في ظلام الذّوائبِ (٥)

قال : ومن بديع تشبيهاته قوله :

فأمْطَرَت لؤلؤاً من نَرْجِسٍ ... البيت (٦) .

---

(١) ديوانه ٦٥ ، وبعده :

وَمَنْ خلعتُ عِذَارِي في هوايَ لَهُ ... وَمَنْ تهتّك سِتْري في مَحَبَّتِهِ

(٢) ديواله ٩٩ ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات .

(٣) الديوان : « يا ظلوم »

(٤) الديوان : « ولا خطر الهجر » .

(٥) من قصيدة مدح بها سيف الدولة ، وأولها :

قِفوا ماعليكم مِنْ وقوفِ الركائِب ... لنبذل مَذْخُور الدُّمُوع السواكبِ

(٦) ديوانه ٨٤ .

ثم قال : هذا البيت ضمّنه خمسة تشبيهات بغير أداة التشبيه ، وذكر المتنبي منها أربعة فأجاد ، وهي ما ضمنها قوله رحمه الله :

بَدَتْ قمراً ، ومالَتْ خُوطَ بانٍ ، وفاحتْ عنبراً، ورنت غَزَالاَ[1]

وللفقيه أبي محمد بن حزم خمسة تشبيهات في بيت واحد ، ولا يقدر أحد على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العَروض ولا أبنية الأسماء أكثر من ذلك ، قال :

خلوتُ بها والكأس ثالثةٌ لنا وجُنْحُ ظَلام اللَّيلِ قد مدّ واتَّجْ[2]

فتاةٌ عدِمْتُ العيشَ إلّا بقربها وهل في ابتغاء العيش وَيْحَكَ من حَرَجْ!

كأنّي وهي والكأس والخمر والدُّجَى ثرًى وَحَيًا والدّرّ والتِّبْر والسَّبَجْ

وقبل بيت الوأواء :

إنسيّةٌ لو بدتْ للشمس ما طَلعتْ للنَّاظرين ولم تغربْ على أحدِ

قالت وقد فتكتْ فينا لواحظُها : ما إن أرى لقتيل الحبِّ من قَوَدِ[3]

فأمطرتْ لؤلؤاً من نرجسٍ وسقتْ ورْداً وعضَّت على العُنَّابِ بالبرَدِ

ثم استمرتْ وقالت وهي ضاحكةٌ :

قومُوا انظُروا كيف فِعْلُ الظَّبْيِ بالأسَدِ ![4]

وأول القصيدة :

لمّا وضعتُ على صدرِي يدًا لِيَدِ وصحْتُ في اللَّيلة الظلماءِ وا كبدِي![5]

---

(١) ديوانه ٣:٢٢٤ . (٢) طوق الحمامة ١٥ .

(٣) الديوان : « كم ذا أما » .

(٤) سقط هذا البيت من رواية الديوان ، وموضعه هناك :

كأنما بين غابات الجفونِ لهَا أُسْدُ الحمامِ مقيماتٍ على الرَّصَدِ

(٥) لم يرد هذا البيت في الديوان .

وقال أيضاً :

أتاني زائراً مَنْ كانَ يُبْدِي ... لِيَ الهجرَ الطَّويل ولا يزورُ[(١)]
فقالَ النَّـــاسُ لمَّا أبصروه ... لِيَهْنِكَ زارَكَ القمـــرُ المنيرُ
فقُلْتُ لهم ودمعُ العين يجـرِى ... على خَــــدِّى له دُرٌّ نثيرُ
ولو نَصَبُوا رحًا بإزاء عيـــنِى ... لكانت من مدامعها تدورُ[(٢)]

* * *

فَلَمْ يَكُنْ إلاَّ كلَمْحِ الْبَصَرِ أوْ هُوَ أقْرَبُ ، حَتَّى أنْشَد فأغْرَب :

سَأَلْتُهَا حِينَ زَارَتْ نَضْوَ بُرْقُعِهَا الْـ
قَانِي وإيدَاعَ سَمْعِي أطْيَبَ الْخَبَرِ
فَزَحْزَحَتْ شَفَقًا غَشَّى سَنَا قَمَرٍ
وَسَاقَطَتْ لُؤلؤاً مِنْ خَاتَمٍ عَطِرِ

* * *

قوله: «لمح البصر» ، يعنى نظر العين إلى الشيء بسرعة ثم تغيب عنه بسرعة، وأصل البصر الإدراك بالعين . أغرب : أتى بغريب . نَضو : كشف . القانى : الأحمر . إيداع سمعى : إعطاء أذنى، كأنه جعله وديعة عنده. زحزحت : أزالت . الشفق : حمرة الشمس بعد الغروب . غشّى : غطّى. سنا : ضوء . عطِر : فوّاح طيّب التنفس . وبيت الحريرىّ فى صنعة البديع فائق ، وإن لم يأت بعدد تشبيهات بيت أبى الفرج ، وبيانه أن أبا الفرج يصف امرأة باكية ، فيقول : إنها نثرت دموعها عَلَى مَنْ قتلت من عشاقها ، فسقطت على خدّها فبلّته ، وعضّت

(١) ديوانه ١١٠ . (٢) الديوان : « من تحدره » .

على أصابعها المصبوغة بالحِنَّاء بأسنانها، فجعل البيت كُلَّه استعارة ، فقال : « فأمطرت لؤلؤاً »، وهو يريد : بكَتْ دمعاً ، وذكر نرجساً ووردا ً،وهو يريد عيناً وخدًّا ، وذكر عُنَّاباً وبَرَداً ، وهو يريد أنامل وأسنانا ، فضمَّن تحت ألفاظه هذه المعانى، وزاد فائدة التشبيه ؛ وهذا يفعله أهلُ القدرة على الشعر ، فقابل الحريريّ هذا بقوله : « نزحزحت شفقاً » ، وهو يرى نقاباً أحمر ، وذكر « سنا قمر » وهو يريد ضوء وجهها ، وذكر لؤلؤاً من خاتم ، وهو يريد كلاما من فم . والبيت الثانى فى مقابلة بيت أبى الفرج ، والأول توطئة له ، وهو يصف امرأة زارتْه متنقّبة فسألها ، أن تكشف عن وجهها وتحدّثه ، فأزالت نقابها ، وأسمعتْه كلاما حسناً من فم عطر .

[ مما ورد من تشبيه الأشياء باللؤلؤ ]

واللؤلؤ تشبّه به الأسنان فى مثل قوله :

* كأنما يبسم عن لؤلؤ رطب *

وقوله :

* يفتر عن لؤلؤ رطب وعن بَرِدٍ *

ويشبَّه به الكلام فى مثل قول البحتريّ :

* ومن لُؤْلُؤٍ عند الحديثِ تساقطُه[1] *

وقول الحريريّ :

* وساقطت لؤلؤاً من خاتَمٍ عطِرٍ *

ويشبّه به الدمع ، كقول الوأواء : « فأمطرتْ لؤلؤا » ، وهو كثير .

ومن أحسنه قول الشاعر :

ولمّا وقفْنا للوداعِ ودَمْعُها ودَمْعِى يُثيرَانِ الصَّبَابَةَ والوجْدَا
بكت لؤلؤا رطْباً ففاضت مدَامِعِى عَقِيقاً ، وصار الكلّ فى نحرها عِقْدَا

وقال ابن عبد ربه :

وكأنما غاص الأسى بجفــــونها حتى أتاك بلؤلؤ منثـــورِ

(١) ديوانه ١٢٣٠ ، وصدره :

* فمِنْ لُؤْلُؤٍ تجْلُوه عِنْد ابْتِسامِهَا *

فأخذه الرمادى فحسّنه فقال :

ولم أرَ أحْلَى مِنْ تبسّم أعْيُنٍ غداة اللّوى عن لؤلؤ كان كامِنَا

قال : فوقعت استعارة التبسّم للعين موقعاً لطيفاً ، وإنما هو للثغر بسبب توسط اللؤلؤ . والحذّاق يتحيّلون فى أخذ المعانى بترك القافية والوزن ، كقول ابن شُهيد :

وَلمّا فشَا من دمعنا بعض سِرِّنا إلى كاشحينا والقلوب كواتمُ
أَمَــرْنَا بإمساك الدُّموع جُفُونَنَا ليشجى بما يطوِى عذولٌ ولائمُ
أَبَى دمعُنا يجــرى مخافةَ شامتٍ نفظَّمَهُ بين المحاجـــر ناظِمُ
وراقَ الهوَى مناً عيونٌ كريمة تلمّحن حتى ما تروق المَبَاسِمُ

[ من قولهم فى الامتحان ]

وقال ابن شُهيد فى الامتحان فأحسن :

ونُبِّئْتُ أقواماً تجيشُ صــدورهم علَيَّ وأنِّى منهمْ فارغُ الصَّدْرِ
أصاخُوا إلى قَوْلِى فأسمعتُ صُمَّهم وغاصوا على سِرّى فأعياهُمُ أمْرِى
فقال فريق: ليس ذا الشعرُ شِعْرَهُ وقال فريق لَيْمنُ الله ما نَدْرِى
فَمَنْ شاء فليَخبرْ فإنِّى لحاضرٌ ولاشىء أجْلَى للشّكوكِ من الخُبْرِ

وينظر فى هذا الامتحان ونسبة شعره فيه إلى الانتحال ، إلى قصة أبى بكر ابن بَقِى[1] حين استهدى بعضَ إخوانه أقلاما ، فبعث إليه بثلاث من القصب ، وكتب معها :

خُذْها إليك أبا بكرٍ العلاَ قَصَباً كأنّما صاغها الصَّوّاغ من وَرِقِهْ
يُزْهى بها الطّرس حسناً ماثرت به مسكَ المداد على الكافور من وَرَقِهْ

(١) هو أبوبكر بن بقى ، ذكره أبو الفتح بن خاقان فى القلائد ٣٢٢ ضمن من ذكرهم من الأدباء .

فأجابه أبو بكر بن بَقِيّ فقال :

أرسلت نحوى ثلاثاً من قَنَا سلبٍ ميّادة تطعن القِرْطاسَ فى وَرَقِهْ
فالخطُّ ينكرها والخطّ يعرفها والرقّ يخدمها بالرق فى عُنُقِهْ

فحسده عليها بعض مَنْ سمعها ، ونسبه إلى الانتحال ، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأوّل :

وجاهلٍ نسبَ الدَّعْوَى إلى كَلِمِى لمَّا رماه بمثل النَّبْلِ فى حَدَقِهْ
فقلت مِنْ حَنَقِى لمّا تعرّضَ لِى : مَنْ ذا الّذى أخْرَجَ اليَرْبُوعَ من نَفَقِهْ !
ما ذمّ شعرى وَايْمُ الله لى قسمٌ إلا امرؤ ليست الأشعارُ من طُرُقِهْ
الشِّعر يشهد أنّى فى كواكبه بل الصّباح الذى ينشقّ فى أُفُقِهْ

[ بديهة السَّلامىّ ]

وخرج السَّلامىّ(١) إلى الموصل وهو صبىّ حين راهقَ البلوغ ، فوجد بها أبا عثمان الخالدىّ وأبا الفرج الببّغاء وأبا الحسن التّلّعفرىّ وشيوخ الشعراء ، فلما رأوْه عجبوا منه ، واتّهموه فى شعره ، فقال الخالدىّ : أنا أكفيكم أمرَه . فاتخذ دعوة ، وجمع الشعراء والسّلامىّ معهم ، فلما توسَّطوا الشراب ، أخذ فى التفتيش عن قَدْرِ بضاعته ، ثمّ لم يلبثوا أن جاء مطرٌ شديد وثلج وبَرَدٌ عَمَّ الأرض كثرة ، فألقى أبو عثمان الخالدىّ نارنجاً بين أيديهمْ على ذلك البَرَد ، وقال : يا أصحابنا ، هل لكم فى أن نصف ذلك ؟ فقال السّلامىّ ارتجالا :

لله درّ الخالدىّ الأوْحدِ النَّدْبِ الخطيرِ
أهدى الماءِ المُزْنِ عند جمودِه نارَ السَّعيرِ
حتى إذا صَدَرَ العتابُ إليه من حَنَقِ الصُّدُورِ(٢)

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد السلامى ، نسبة إلى مدينة السلام ، أشعر أهل العراق فى عصره ، وممن ترجم لهم الثعالبى فى اليتيمة ٢ : ٣٦٤ — ٣٩٨ ، والخبر فى ترجمته فى ابن خلكان ١ : ٥٢٤ .

(٢) ابن خلكان : « من حر الصدور » .

بعثتْ إليــــه بعــــذره ... من خاطرى أوفى الشُّرورِ
لا تعــذُلوه فإنّمــــا ... أهدى الخدود إلى الثُّغُورِ

فأمسكوا عنه عندذلك ، واعترفوا له بالفضل ، إلاّ التّلعفريّ ، فإنه أقام على قوله فيه ، حتى قال السّلاميّ فيه:

يا شاعراً بشعوره لم يَشعُــرِ ... ما كنتَ أوّلَ طالبٍ لم يَظفَرِ
لو كنت تعرفُ والدًا تسمُو بِهِ ... لم تنتسبْ صفةً إلى تلعــفَرِ
تاه ابنُ فاتّقةِ الفُسوق على الوَرَى ... بقذال صَفْعَانٍ ونكهةِ أبخَرِ
وبلادةٍ فى الشِّعر تعـــلم أنه ... تيسٌ ولو نُصرتْ بطبع البُحترى

وقال فيه :

سما التلعفرىّ إلى وصـــالِى ... ونفس الكلبِ تكبُر عن وصالهْ
ينافى خُلقـــه خُلقِى وتأبَى ... فعالى أنْ تضاف إلى نعـــالهْ
فصنعتىَ اللطيفـــة فى لسانى ... وصنعتهُ الخسيسة فى قَـــذَالهْ
فإن أشعُرْ فما هو مِن رجالى ... وإنْ يُصفَعْ فما أنا من رِجالهْ

[ من نوادر صاعد بن الحسن الربعىّ ]

وكان المنصور بن أبى عامر قد أثبت عنده الحسَدة ، أنَّ صاعداً[1] اللغوى متّهم فى كل ما يورده من حديث أو شعر ، فأدخلتْ عليه يوماً با كورةُ وَرْد لم تفتح أكامها ، فقال فيها صاعد ارتجالاً :

أتتــك أبا عامرٍ وردةٌ ... يذكّرك المسكُ أنفاسَها
كعَذراء أبصرها مبصرٌ ... فغطّتْ بأكمامها رأسَهــا

فسرّ بذلك المنصور . وكان ابن العريف حاضراً فحسده وقال : إن هذين

(١) هو صاعد بن الحسن بن عيسى الربعى ، وفد على المنصور بن أبى عامر بغداد ، وله معه أخبار ونوادر مشهورة فى الأدب واللغة ، ابن خلكان ١ : ٢٢٩ .

البيتين لغيره ، [ وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندى على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : أرنيه . فخرج ابن العريف ، وركب وجعل يحث، حتى ][1] أتى مجلس ابن برد - وكان أحسن أهل وقته بديهة - فوصف له ما جرى فقال :

عشوتُ إلى قصر عبَّاسةٍ وقد صرّع النّومُ حرَّاسَها[2]

أبياتاً ضمّن فيها البيتين ، فكتبها ابن العريف بخط بصرىّ [3]، وصار بها إلى المنصور . فاشتدّ غيظه ، وقال : غداً أمتحنه ، فإن فضحه الامتحان لم يبق فى موضع لى فيه سلطان. [4] ثم أخذ طبقاً فيه ضروب من الأنوار ، وعليه جوارٍ ياسمين [4] على بركة ماء حصباؤها الدّر والجوهر . ودعاه فى مجلس حافل ، وقال له : هذا طبق فيه شىء ما توهمت أنه قدّم بين يدى مَلِك قبلى ، فصفه فقال على البديهة :

أباعامرٍ هل غيرك جدواك واكفُ وأعجب ما يلقاه عندك واصفُ[5]!

---

(١) من الذخيرة .

(٢) بعده كما فى الذخيرة :

فألفيتُها وهى فى خدرها وقد صرّع السّكر أنَاسَها
فقالت : أسارٍ على هَجْعةٍ ؟ فقلت : بَلَى ، فرمَتْ كأسَها
ومدّتْ يديها إلى وردَةٍ يحاكى لك الطيبُ أنفاسها
كعذراءَ أبصَرها مبصرٌ فغطّت بأكمامها رأسَها
وقالت : خف الله لا تفضحنّ فى ابنة عمّكَ عباسها
فولّيتُ عنها على عِفّةٍ وما خفتُ ناسى ولا ناسَها

(٣) الذخيرة . « مصرى » .

(٤-٤) الذخيرة : « وقد أعد طبقاً فيه سقائف من ضروب النواوير، ووضع على السقائف جوارى ياسمين » .

(٥) الذخيرة :

* وهل غير مَن عَادَاك فى الأرض خائفُ *

وبعده :

يسوق إليك الدّهرُ كلّ عجيبةٍ وأعجب ما يلقاه عندك واصفُ

وشائعُ نَوْرٍ صاغها هامرُ الحيا حُلِيًّا فمنها عَبْقَــرٌ ورفارفُ
ولمّا تناهَى الحسن فيها تقابلَتْ عليها بأنواع الملاهى الوصائفُ
كمثل الظباء المستكِنَّة كُنَّسًا تظلّلهـا بالياسمين السّقائفُ
فلم تَرعينى فى البـلاد حديقـةً تنقّلها فى الراحتين المناصِفُ(١)

والحكاية بطولها فى القسم الرابع من الذخيرة .(٢)

وخرج معه إلى أرض الزاهرة(٣)، فمد يده إلى شئ من الترنجان يعبث به، ورمى به إلى صاعد معرّضاً بأن يصفه، فقال :

---

(١) بعده فى الذخيرة :

وأعجب منها أنهن نواظِــرٌ إلى بركةٍ ضُمَّتْ إليها الطرائفُ
حصاها اللآلى ، سابحٌ فى عُبابِهَا من الرُّقش مسموم اللعابَيْن راجِفُ
ترى ما تشاء العينُ فى جنباتِهـا من الوحش حتّى بَيْنَهُنَّ السلاحِفُ

قال فى الذخيرة بعد هذا البيت :

فاستغربت له يومئذ تلك البديهة ، وكتبها المنصور بخطه ، وكان إلى ناحية سقيفة فيها جارية تجذف بمجذاف ذهب، لم يرها صاعد، فقال له المنصور: أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية، فقال :

وأعجبُ منهـا غادة فى سفينةٍ مكلّلة تصبو إليهـا المهـايِفُ
إذا راعها موجٌ من الماء تتّقِى بسكّانها ما أنذرته العواصفُ
متى كانت الحسناء ربّان مركب تصرّف فى يمنى يديها المجاذفُ
فلم تر عينى فى البلاد حـديقةً تنقّلهـا فى الراحتين المناصِفُ

إلى آخر الأبيات .

(٢) الذخيرة ٤ : ٨ — ١١ .

(٣) الذخيرة : « إلى رياض زاهرة » .

لم أدرِ قبل ترنجان عبثت به أنّ الزُّمرد قضبان وأوراقُ[١]
من طيبه سَرَقَ الأُترجّ نكهتَهُ ياقوم حَتىّ منَ الأشجار سُرّاقُ!
كأنما الحاجب المنصور علّمه فعلَ الجميل فطابت منه أخلاقُ
مَنْ ليس يقعده عن سُؤدد كرمٌ ولا يقوم له فى سوءة سَاقُ

وله أيضاً :

بعثت إليك من خِيرىّ دارِى محزّمة كألوانِ العقيقِ[٢]
تُوكّلُ بالعكوف على التّصابِى[٣] وتصطاد الخليع من الطريقِ

* * *

فحار الحاضرون لِبَدَاهَتِهِ ، واعترفوا بِنَزَاهَتِهِ . فلمَّا آنَسَ استئناسَهُمْ بكلامِهِ ، وانصبَابُهُمْ إلى شِعْبِ إكْرَامِهِ ، أطْرَقَ كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ ، ثم قال : ودُونَكمُ بيتَيْنِ آخَرَيْنِ ، وأنشد :

وأقبَلَتْ يَوْمَ جَدَّ البَيْنُ فى حُلَلٍ
سُودٍ تَعَضُّ بنانَ النَّادِمِ الحَصِرِ
فَلاحَ لَيْلٌ عَلَى صُبْحٍ أقلّهُمَا
غُصْنٌ وضرّستِ البِلّوْرَ بالدُّرَرِ

فحينئذٍ استَسْنَى الْقَوْمُ قِيمَتَهُ ، واستغزَرُوا دِيمَتَهُ ، وأجْمَلُوا عِشْرَته ، وجَمَّلُوا قِشْرَته .

* * *

(١) الذخيرة ٤ : ١٢ . (٢) الذخيرة ٤ : ٤٨ .
(٣) الذخيرة : «بالعزوف عن التصابى » .

قوله: «لبداهته» ، أى لارتجاله وإنشاده من غير فكرة ، ويقال: بدهه بَدْهاً وبديهة وبَدَاهة ، إذا فجأهُ . وبده فى كلامه : إذا لم يتفكّر فيه ، وفلان حسن البَديهة والبَدَاهة ، أى الارتجال .

[ مما قيل فى البديهة الحاضرة ]

والقول من غير تفكّر وهو عندهم مما يمدح به ، وإن كانت الإصابة غالباً فى الرويّة وإطالة الفكرة ، كما قال عبدالله بن وهب الراسبيّ للخوارج حين عقدوا له : دَعُوا الرأى حتى يختمِر ، فلا خير فى الرأى الفطير ، والقول القصير .

وقال المنصور لكاتبه : لا تبرم أمراً حتى تفكّر، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسَنه من قبيحه .

وقال أيضاً : الحكمةُ نور الفكرة ، والصواب فرع الرويّة ، والتدبير فرع الهمة .

قال ابن الروميّ :

نارُ الرويّةِ نارٌ جدّ منضِجةٍ     وللبديهة نارٌ ذاتُ تلويحِ[1]
وقد يفضّلها قوم لعاجلها     لكنّه عاجل يمضى مع الريحِ

وقال أشجع فى جعفر بن يحيى :

يريدُ الملوكُ مدى جعفرٍ     ولا يصنعون كما يصنعُ[2]
وليس بأوسعِهم فى الغنى     ولكنّ معروفه أوسَعُ
بداهته مثل تفكيره     متى تلقه فهو مستجمَعُ[3]

وقال فيه :

بديهتُه وفكْرتُه سواء     إذا التبسَتْ على النَّاسِ الأمورُ

(١) بدائم البدائه ٦
(٢) من قصيدة له فى الأغانى ١٧ : ٣٧ .
(٣) الأغانى : « بديهته .... متى رمته » .

وقال إبراهيم بن العبّاس الصوليّ فى الفضل بن سهل :

يقضى الأمورَ على بديهته وتريه فكرتَهُ عــواقِبُهُ
فيظلّ يُورِدها ويُصدِرها فلَنِعْمَ حاضره وغائبُـهُ

ودخل المأمون يوماً بعض دواوينه،فرأى غلاماً جميل الصورة،على أذنه قلم؛ فقال:من أنت يا غلام؟فقال : أنا يا أمير المؤمنين الناشىء فى دولتك، والمتقلب فى نعمتك ، والمؤمّل بخدمتك ؛ الحسن بن رجاء خادمك . فقال المأمون : أحسنتَ يا غلام ، وبالإحسان فى البديهة تفاضلت العقول. ثم أمر أن تُرْفَع مرتبته فى الديوان.

* * *

قوله : «بنزاهته» أى برفعته وبعده من التّهمة بسرقة الشعر . آنس : أبصر . استئناسهم : أُنسهم وتركهم الإنكار . طرفة : نظرة ، قد طَرُف يطرف طَرْفاً ، إذا حرّك جفنيه بعد النظر. دونكم : إغراء ، ومعناه خذوا حذركم واسمعوا . جدّ : تحقّق . البين : الفراق . بنان : أصابع . الحَصِر : المنقطع عن الكلام عِيًّا . ليل : أراد به نقاباً أسود . صبح : وجه . أقلّهما : رفعهما . غصن : قدّ . ضرّست البلّور : الأصابع . الدرر : الأسنان .

[ نقد شعر الحريرىّ ]

والظاهر من سياق هذين البيتين أنه قصد أن يزيدهم استئناساً بأنه غير مدّع فى الشعر ، ودلّ على هذا ظاهر الكلام قبل البيتين وبعدهما ، وهو قد أدرج معنى زائدا فى البيت ولم يصرح به لما عليه فى ذلك من التقصير عن درجة غيره،وذلك أنه لمّا لم يستوفِ مقابلة بيت أبى الفرج مرّةً ببيتيه المتقدمين، استوفاها فى هذا البيت الثانى ، لأنه قابل «أمطرت» بساقطت ، واللؤلؤ باللؤلؤ،والنرجس بالخاتم ، وهما العين والفم ، وحمرة الخد بسنا القمر ، وبقى عليه زائد من قول أبى الفرج: «وعضت على العنّاب بالبرد»، فقابله فى هذا البيت بقوله : «وضرّست

البلور بالدرر ، وجعلها تعضّ على أصابعها وهى بيض ، لانه يصف امرأة شعرت بفراق أحبابها ، فتركت الزينة واستعمال الحِنَّاء ،فلمّا حان وقت فراقهم ، لبست ثياب الحزن ، وأقبلت تودّعهم تأسفاً وتندُّماً على فراقهم ، ووصف الأصابع باللِّين والصبغ ، وذلك مذكور فى العاشرة ، وجعلها لابسة السواد ، لأنّ أهل المشرق يلبسونه لحزنهم ، وأهل الأندلس يلبسون البياض لحزنهم ، قال الشاعر :

ألا يا أهْـلَ أندلسٍ فطنتمْ بلطفكم إلى أمرٍ عجيبِ
لبستمْ فى مآتمكم بياضًا وجئتم منه فى زىّ غريبِ
صدقتم فالبياضُ لباسُ حزنٍ ولاحزنٌ أشدّ من المشيبِ

وأنشد أبو عثمان الأشناندانىّ فى أبيات المعانى له :

أرعتْ مراتع مدراها على عجلٍ صنوين إن أفردا لم يرعَيَا أبدَا
واستبدلتْ من رياض الحزن موثقةً ثوْبَ الأمير الذى فى مُلْكه قَعدَا

عنى بمراتع مدراها شَعْرَها ، وبصنوين مقصًّا حلقتْه به ، وبرياض الحزن ثياباً ملوّنة ، وبثوب الأمير ثوباً أسود ، لأن ملوك بنى العباس لباسهم السواد .

وعارض ابن لبّال[1] الحريرىَّ فى أبياته فقال :

ودّعتُها ومـــدامعى تنهلّ بالدّمْع الطَّليقِ
فبكتْ فأذرتْ أدمعاً فى صفحة الخدِّ الأنيقِ
ومضتْ تعضّ بنانَها بين التلهّف والشهيقِ
ورأيت مبيضَّ اللّجيْن يَعضّ محمرَّ العقيقِ

وكما عارض بيتَ الحريرى عارض قولَ البحترىّ المتقدم :

(١) ابن لبال ، واسمه على ابن أحمد بن على، من قضاة الأندلس وشعرائها وأدبائها ؛ وله كتاب فى شرح المقامات . المغرب ١ : ٣٠٣

يا بأبى ظبىٌ إذا مارنا ... أثخن قلبى وفؤادى جراحْ
يفترّ عن طلعٍ وعن جوهرٍ ... وفضّة أو حَبَبٍ أو أُقاحْ

فزاد عليه بوصفين .

## من أقوالهم فى الفراق

ومما يناظر ما تقدّم من البكاء عند الفراق قول محمد بن يوسف :

وكأنّما أثر الدموع بخدّها ... طلٌّ تساقط فوقَ وَرْدٍ يانعِ
عَذُبَ الفراقُ لنا قبيلَ وَداعِنا ... ثم اجترعناه كَسُمٍّ ناقعِ

وقال ابن الرومىّ :

لو كنتَ يومَ الوداع شاهدَنا ... وهنَّ يُطفئن غلّةَ الوجْدِ
لم تَرَ إلّا دموعَ باكيةٍ ... تسفح من مُقْلةٍ على خَدّ
كأنّ تلك الدموع قطرُ ندًى ... يقطر من نرجسٍ على وَرْدِ

وقال النّاشى :

بكيتُ الفِراقَ وقد رَاعنِى ... بكاء الحبيب لبعد الديارْ
كأنَّ الدموع على خَدِّها ... بقيّة طَلٍّ على جُلّنَارْ

وقال أبو نواس :

تقولُ غداة البين إحدى نسائهمْ ... لِىَ الكبدُ الحرَّى فسِرْ ولكَ الصّبْرُ(١)
وقد غَلَبَتْها عَبرةٌ فدموعُها ... على خدّها جَمْرٌ وفى نحرها صفرُ

(١) ديوانه ٨ .

يقول: لون خدها أحمر، فتشكلت الدمعة به جمراً، ولون نحرها أصفر عاجيّ كما قال ذو الرمة :

كأنّها فِضّـــةٌ قد مسّها ذهبٌ     فصارَ فيها للون الدمع صُفْرَتُهُ

وقيل للعباس بن محمد : ما لونُ الماء ؟ فقال : لون إنائه .

ولمّا ذكر الحريريّ الحلل السود على الجارية ، تذكّرت ما قال أبو عثمان الناجم[1] في جارية رأى عليها ثوباً أزرق :

ما تعدّت قبولُ حينَ جلتْ زِيًّـــا     شبيهاً بوجهها ذِي الضّيَاءِ

لبست أزرقاً فجاءتْ بوجـــهٍ     يشبه البَدْرَ فى أديمِ السَّماءِ

ولأبى حفص بن برد فى غلام بدا له فى ثوب لازورديّ ، فقال :

لمّـا بدا فى لازور     دىّ الحرير وقد بَهَرْ[2]

كبَّرت من فرط الجمـا     لِ وقلتُ ما هذا بَشَرْ

فأجابنى لا تنـكرنْ     ثوبَ السماءِ على القمـرْ

وقال ابن المعتزّ فى غلام عليه ديباج بنفسجيّ :

وبنفسجيّ الثوب قتـ     ـل محبّه مِنْ حالِهْ[3]

الآن صرتَ البدرَ إذ     أُلبِسْتَ ثَوبَ جَمالِهْ

قوله : «استسنى»، أى استعظم، وقد سَنُوَ الرجل، وسنا: شرف وعظم. ديمته : كلامه بالشعر وهو دائم غير منقطع ، أو يريد بها فِطْنته التى تمدُّه بما شاء من

(١) هو سعد بن الحسن بن شداد المعروف بالناجم الشاعر الأديب ، صاحب ابن الرومى وراوية شعره . معجم الأدباء ١١ : ١٩ .

(٢) الذخيرة ٢ : ٣٧

(٣) يرد البيتان فى ديوان المطبوع ، وهما فى الذخيرة ٢ : ٣٧ ، مع رواية مخالفة

الشعر، وأصل الديمة المطر الدائم . واستغزروها : استكثروها ووجدوها غزيرة . أجملوا عشرته، أي أحسنوا صحبته وعاشروه بالجميل. جمّلوا قشرته ، أي حسّنوها ، من لفظ الجمال ، أو يكون معناه: جمّلوا من جمّلت الحساب وأجملته ، أي جمعته، فكأنهم جمعوا له شيئاً وكسوه . وقشرته: ثوبه ، لأنه قدّم أنّ هيئته كانت رثّة ، فاحتاجوا أن يكسوه .

* * *

قال المخبرُ بهذه الحكايةِ : فلمَّا رأيتُ تلهُّبَ جذوتِهِ ، وتألُّقَ جلوتِهِ ، أمعنتُ النظرَ في توسُّمِهِ ، وسرَّحتُ الطَّرْفَ في ميسَمِهِ ، فإذا هُوَ شيخُنا السَّرُوجيّ ، وقدْ أقمرَ ليلُهُ الدَّجُوجيّ ، فهنَّأتُ نفسي بورْدِهِ ، وابتدرتُ استلامَ يدِهِ ، وقلتُ لَهُ : ما الَّذي أحالَ صفتَكَ، حتَّى جهلتُ معرفتَكَ ، وأيُّ شيءٍ شيَّبَ لحيتَكَ ، حتَّى أنكرتُ حليتَكَ ؟ فأنشأ يقول :

وقعُ الشَّوائبِ شيَّبْ ... والدَّهرُ بالنَّاسِ قُلَّبْ
إنْ دانَ يوْمًا لِشخْصٍ ... ففِي غدٍ يتغلَّبْ
فلا تثقْ بومِيضٍ ... مِنْ برْقِهِ فهْوَ خلَّبْ
واصبِرْ إذا هو أضرَى ... بكَ الْخُطوبَ وألَّبْ
فما على التِّبرِ عارٌ ... فِي النَّارِ حينَ يُقلَّبْ

ثمَّ نهضَ مُفارقًا موْضِعَهُ ، ومُستصْحِبًا القُلُوبَ معَهُ .

* * *

تلهّب جذوته : اشتعال جمرته واتّقادها ؛ وأراد حدّة ذهنه، والجذوة : النار في طَرَف العودِ . تألق : لمان . جَلْوته : ما جلاه وكشفه من وجهه ، وتقول : جلوت العروس جَلْوة، إذا أزلْتَ نقابها ، وأظهرت وجهها ، والجِلْوة بالكسر : هيئة جلوّه حين يجلَى ، وأراد بتألّق جلوته بريقَ وجهه . أمعنت : بالغت وأدمْت النظر ، وأصله من أمعن في الأرض إذا أبعد الذهاب فيها . توسمه : نظر سماته ، وهي علامته التي يُعرف بها ، ويريد أنه أدام النظر في نعوته . سرّحت الطّرْف: أرسلتُ العين بالنظر ، وأصل الطرف تحرّك العين عند النَّظَر ، تقول : طرفت العين طرفاً . والعين: الجارحة ، والبَصَر : ما تدركه بنظرها، ثم سُمِّيت العين طرفا لذلك . وميسمه : علامته . أقمر : ابيضّ ، فصار مثل لون القمر . الدَّجوجيّ : الشديد السواد ، وأراد نبات شعره الأسود .

قوله: «بموردِه» ، أي بقدومه وإتيانه ، تقول : وَرَدَ علينا فلان ، إذا قدم عليك من بلد آخر ، والمورد : مصدر ورَدَ ، وهو بمعنى الورود ، لأنه قدّم أنه غاب عنه مدّة لا يَعرف له موضعاً ، ولا يجد عنه مخبراً ؛ حيث قال : « واستتر عَنّي حيناً » ، فلما رآه ببلده بالبصرة فرح بقدومه وهنّأ نفسه على ذلك .

استلام : تقبيل اليد . ابن الأنباريّ : استلم الحجر ، معناه أخذه ومسّه بيده ، واستلم ، افتعل ، من المسالمة . يريد أخذ الحجر وضمّه إليه ، أو يكون استفعل ، من اللأْمة وهي السلاح ، يريد أنه حصَّن نفسه بمسّ الحجر من العذاب ، لأن السلاح إنما يلبس ليُمتنع به ويتحصّن . أحال : غيّر . حلْيتك : صفتك ، ولذلك احتاج أن يمعن النظر لمّا تغيرت صفاته التي كان يعرفه بها من الفتوّة والشبيبة ، فلما رآه قد شاب شعره ، وتغيّرت صفاته لم يعرفه إلاّ بعد طول تأمّل. وقال الحلواني القيروانيّ :

ولربّ باكيةٍ رأت في لِمّتي وَخْزَ المشيب تألّقتْ ضَحِكاتُهُ

قالت : أغصناً قد علاه فلا أرى　　زهْر الرّياض وبوّرت ورقاتُهْ
فأجبتها: قارعتُ فى جَنْبِ الهوَى　　صرف الزّمان، وهذه نكباتُهْ

ولابن الجدّ :

نَكَرَت نُحُولى وهو من فَرْط الأسَى　　لفراقِ إخوان علىّ كرامِ
وتعجَّبتْ للشَّيب لا تتعجَّبِى　　هذا غبار وقائع الأيَّامِ

قوله : «فأنشأ يقول» أى ابتدأ ، وأنشدوا :

أنشأت تطلب ما تَغَيّـ　　ـرَ قد تناشبت الأظافرْ

أى ابتدأت تطلب . الشوائب ، أصله ما يقع فى الماء الصافى من الأقذاء فيكدّره ، فأراد أن أنكاد الدهر شيّبتْه . وقُلّب : كثير التقلّب ، فيحوّل من حال إلى حال . دان : طاع وانقاد . يتقلّب : يتحوّل عن الطاعة . وميض : لمع خفىّ . خُلّب : خدّاع ، لا ماء فيه ، وأراد : لا تثق بالدّهر ، إذا ما كسبت فيه شيئاً من المال فإنه يحوّل عنك ولا يترك لك منه شيئاً . أضرَى : أغرى وألصقها بك ، وأصل «أضرى» من ضراوة الكلب ، تقول ضَرِىَ الكلب بالصيد ؛ إذا تعلّم الصيد ، وأضريته أنا بمعنى عرّضته للصيد . والخطوب : الأمور الشداد . وألّب : حشد ، أى اصبر للشدائد إذا أضراها الدهر بك وحشدها ، فما عليك فى ذلك عيب ، كما أن الذهب يُسبَك بالنار وهو مع ذلك عزيز القدر . والتّبر : الذهب قبل سبكه ، وانظر هذا المعنى عند قوله فى السابعة والأربعين :

وطَالَمَا أُصْلِىَ الياقوت جمرَ غضىً　　ثم انطفا الجمرُ والياقوتُ ياقوتُ

وزاد الآخر فى المعنى فقال :

إنى أنا الذَّهبُ المُحمَى ومخبرُه    يزيد فى السَّبْك للدينارِ دينارا

وأنشدوا :

اصْبرْ على نُوبَ الزَّما    ن فهكَذَا مضت الدُّهورْ
فَرَحٌ وحُزْنٌ تارةً    لا الحزن دامَ ولا السُّرورْ

# المقامة الثالثة وهى الدينارية

رَوَى الحارثُ بن هَمّامٍ قال : نَظَمَنِي وأخدانًا لى نادٍ ، لَمْ يَخِبْ فِيهِ منادٍ ، ولا كبَا قَدْحُ زنادٍ ، وَلاَ ذَكَتْ نارُ عِنادٍ ؛ فَبَيْنَا نَحْنُ نتجاذَبُ أطْرَافَ الأناشِيدِ ، ونتوارَدُ طُرَف الأسانيدِ ، إذ وقف بنا شَخْصٌ عَلَيْهِ سَمَلٌ ، وفِي مِشْيَتِهِ قَزَلٌ .

* * *

نظَمنى ، أى جمعنى . أخدانا ؛ أى أصحابا . نادٍ : مجلس . منادٍ : متكلّم. كبا : شحّ ولم يبد ناراً . قَدْح : ضرب . زناد : حديدة النار ، وزناد العرب من خشب ، وأكثر ما يكون من المَرْخ والعَفار ؛ وإنما هو أن يُؤخذ عود قدر شبر ، فيُثقب فى وسطه ثقب لاينفذ ، ويؤخذ عود آخر قدْر ذراع ، فيحدّ طرفه ، ويُجعل ذلك فى الثّقب ، وقد وضعه رجُلٌ بين رجليه، فيُديره ويفتلُه ، فيبدى النار ، فالأعلى زَنْد والسفلى زَنْدَة، والزّناد جمع زند . قوله : «ذَكَتْ» ، أى اشتعلت . عناد : خلاف ، يريد أنّ هؤلاء الأصحاب لحسن أدبهم ومناظرتهم ليس بينهم خلاف، وهم علماء لايسقط من كلامهم شىء ، وليس فيهم جاهل ، فيكون كلامه قليلَ الإصابة . والأناشيد : ما يتناشدونه من الأشعار بينهم ، كأنّ واحدها أنشودة . وتجاذب أطرافها ، يريد المشاركة فى إنشادها ، أى إذا أنشد أحدُهم شعراً ليُغْرب به شاركوه فى إنشاده لحفظهم الأشعار ، فكأنهم تجاذبوه كما يُتجاذب بأطراف الثوب. والأسانيد: الأخبار المسندَة إلى أهلها. وأصل التوارد ، مزاحمة الإبل على شرب الماء ، فجعل مشاركتهم فى ضبط غرائب الأخبار

كتوارد الإبل على الماء ، والطُّرَف: الغرائب ، والطُّرفة : الشيء العجيب من كل شيء ، الذي لا يوجد له نظير . سَمَل : ثوب خلَق ، وأكثر ما تقول العرب : ثوب أسمال وأخلاق ، فيوصف بالجمع لأنه قِطَعٌ متفرّقة . وسَمَل : قليل ، وفي تبذّل اللباس روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب المتبذّل الذي لا يبالى بما لبس» . قَزَل: عرج .

* * *

فقال: يا أخايرَ الذّخائرِ ، وبشائرَ العشائرِ ، عِموا صباحاً ، وَأَنْعِمُوا اصْطِباحاً ، وَانظرُوا إلى مَنْ كَانَ ذا ندىّ وَنَدَى ، وَجِدَةٍ وَجَداً ، وَعَقَارٍ وَقُرًى ، وَمَقارٍ وَقِرًى ، فَمَا زالَ به قُطُوبُ الْخُطُوبِ ، وَحُرُوبُ الكُرُوبِ ، وَشَرَرُ شرّ الْحَسُودِ ، وانتياب النُّوَبِ السُّودِ ، حتّى صَفِرَتِ الرَّاحةُ ، وَقَرِعت السَّاحَةُ ، وغارَ المنبعُ ، وَنَبَا الْمَرْبعُ ، وَأَقْوَى الْمَجْمَعُ ، وَأَقَضَّ الْمَضْجَعُ ، وَاسْتَحَالَتِ الْحَالُ ، وَأَعْوَلَ الْعِيالُ ، وَخَلَتِ الْمَرَابِطُ ، وَرَحِمَ الْغَابِطُ ، وَأودَى النّاطِقُ وَالصَّامِتُ ، وَرَثَى لَنَا الحَاسدُ وَالشَّامِتُ .

* * *

قوله : «يا أخاير الذخائر» ، الأخاير : جمع أخير ، كما يقال : أكبر وأكابر ، والمستعمل خير وشر ، ولا يقال : أخيرَ ولا أشرّ إلا شاذاً ، وإن كان هو الأصل ، لكنه رفض استعماله وجاء الجمع على الأصل ، لأنه يردّ الشيء إلى أصله . وقال رؤبة :

* بلال خيرُ النّاسِ وابْنُ الأخْيَرِ *

فنطق بالمستعمل لشهرته ، وبأصله وهو قليل ، فإذا تعجّبوا من ذلك قالوا : ما أخيَرَ فلاناً ،وما أشرّ فلاناً . والذخائر: جمع ذخيرة؛ وهى الشىء النفيس الغالى يصونه الإنسان ويعتدُّه لزمانه . البشائر . جمع بِشارة ، وقد بشرّت الرجل بشارة إذا أدخلت عليه السرور. والعشائر: جمع عشيرة ، وهى قرابة الرجل من قبيلته، يقول: أنتم أرفع الذخائر ، وخيرها ، وأنتم يستبشر من لقيكم برؤيتكم ، ويتيامن بلقائكم ، ويعلم أنكم تَصِلُونه وتكرمونه ؛ ليستعطفهم بهذا الكلام . عموا صباحا : دعاء لهم بالنّعمة فى الصباح ، أى جعلكم الله تنعمون فى صباحكم . وعِمُوا: أمرٌ من وَعَمَ يَعِم ، وهى فى معنى نَعِمَ يَنْعَمُ. وأنعِموا اصطباحا، أى طاب شربكم فى الصَّباح وتنعمّم به، والاصطباح : أن يُصبِحوا وهم يشربون. ندىّ : مجلس اجتماع ، أى هو شريف يُقعدو يجتمع عنده. ندى : كرم . جدًى : عطيّة . العَقار : المال الذى لا ينتقل كالنخل والدّور والأرَضين . قرًى : جمع قرية . مقار : جفان يُقرَى فيها الأضياف ، أى يطعمون فيها . والقِرى : طعام الضيف. قطُوب . عبُوس . الخطوب : الشدائد . الحروب : القتال . الكروب : الهموم، قال النبى صلى الله عليه وسلم: «مما أعلم أنّه لا يقوله مكروب إلاّ فرّج اللهعنه ، كلمة أخى يونس : ﴿ فَنَادَى فى الظلُمَاتِ أنْ لا إِلٰه إلاّ أَنْتَ ... ﴾ الآية » .

ومن كلام ابن المعتز :الحوادث المحضة مكسبة لحظوظ جزيلة ، وثواب مدخر، وتطهير من ذنب،وتنبيه من غَفْلَة، وتعريف بقدْر النعمة ، ومرور على مقارعة الدهر ، وإذا استرجع الله مواهب الدنيا كانت مواهبَ الآخرة .

غيره : لولا حوادث الأيام ، لم يعرف صبر الكرام ، ولا جزع اللئام .

وقال أبو تمّام :

والحادثاتُ وإن أصَابَكَ بُؤسُها فهو الذى أنْبَاكَ كيفَ نعيمُهَا(١)

الحسود : المتمنّى إهلاكَ مالك ، وإذا رأى لك خيراً تمنّى إزالته ، يريد أن الحسود اتّبع ماله بالعين حتى أهلكه ، وقلّما يُوجد الذى يرمِى بالعين إلا حسودا. انتياب: نزول وقصود . النُّوَب: النوازل. قوله، «صفرت»، أى خلت من الدراهم الراحة : باطن الكف . قرعت : خلت من المال وصارت قرعاء . والساحة : فناء الدار ، والساحة عند العرب: الرّحَبة التى تُحلَّق بها البيوت ، وأراد أنّها خلت من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك . غار المنبع : جفّ الماء النابع ، والمنبع: موضع النّبْع . المربع: المنزل فى الربيع . ونبا : بأهله : وجد نَبْوة ، أى ارتفاعا غير وطىء فلم تمكن الإقامة فيه . أقوى : خلا . الجمع: موضع الاجتماع . أقضّ : خَشُن وصار فيه القَضَض ، وهى الحجارة . والمضجع : موضع رقاده ، وأخذه من قول أبى ذؤيب :

أمْ ما لجنبكَ لا يلائِمُ مَضْجَعاً إلاَّ أقضَّ عليهِ ذَاكَ المضجعُ(٢)

وكنى بهذه الألفاظ عن تغيّر الأحوال وذهاب المال .

وساق الكلام مساق حكايات الأعراب ؛ منها أنّ أعرابياً وقف بقوم، فقال : أشكو إليكم أيّها الملأ زماناً أناخ علىّ بكلكله بعد نعمة من البال ، وثروة من المال، وغبطة من الحال ، أضْمَانِى جَديداه بنَبل مصائبه، عن قِسِىّ نوائبه ، فما ترك لى راغية أجتدى ضَرْعَها ، ولا ثاغية أرْتَجِى نفعها ، فهل فيكم من معين على صرفه، أو مُعْذِ على حتفه !

(١) ديوانه ٣١٠

(٢) ديوان الهذليين ٢ .

وقد ذكرنا منها جملة فى الثالثة والثلاثين . وحكى أبو علىّ فى نوادره حكاية عن أبى زيد اللغوىّ على لسان أعرابىّ يشبه كلام الحريرىّ هنا فى سياقه وكثير من الألفاظ ، فيقول : إنّ المنبع الذى كنا نعيش به نحن وأموالنا قد ذهب ، فهلكنا بذهابه . والمربع :وهو موضع الخِصْب، صار نبوة لاينبت شيئاً ، فلم تجد الإبل ما ترعاه فهلكت ، وإذا هلك المال هلك صاحبه ، والمجالس الّتى كنا نجتمع فيها ،هلك أهلها فخَلَت، ومضجعنا الذى كان موطّأً بالفُرش أقضّ فامتنع من الإضجاع عليه .

قوله : «استحالت ، تغيّرت» . وحالُ الرجلِ : ماهو عليه من خير أو شرّ أو غِنىً أو فقر ،والحال أيضا: المال . أعول : بكى، وعيال الرّجل:من يفتقر إليه فى مؤنته ونفقته ، واحدهم عيّل. المرابط : المواضع التى تربطفيها الخيل وتُحْبَس. الغابط : الذى يتمنّى مثل مالك ولا ينقص منه شىء . أودى : هلك . الناطق : المال من الحيوان مثل الإبل والبقر والغنم ، وكلّ ما يُتملّك من ذى روح ؛ سميت بذلك لأصواتها ، والناطق كل حيوان له صوت . والصامت : الذهب والفضة والمتاع. رثى : بكى. وأشفق الشامت : الذى يُسرّ بمصيبتك ،ومنه تشميت العاطس ، وهو إدخال السرور عليه بالدعاء ، وقد شمت به شماتاً وشماتة ، فهو شامت إذا سرّ ببلاء ينزل به . والحاسد ، هو الحسود .

* * *

[ فصل فى الحسد وما قيل فيه ]

والحسد أوّل ذنب عُصِىَ الله به فى السماء والأرض ، أما فى السماء فحسد إبليس آدم ، وأما فى الأرض فحسد قابيل هابيل .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى :﴿ربَّنا أَرِنَا اللَّذيْن أضلاَّنا من الجنّ والإنْسِ﴾[1] : إنهما قابيل وإبليس ، فالحسد حمَل إبليس على الكفر ، وحمَل قابيل على قتل أخيه .

وقال عليٌّ رضى الله عنه : لا راحة لحسود ، ولا أخ لملول ، ولا محبٌ لِسَيِّيء الخلق.

وقال رجل لخالدبن صفوان : إنى أحبُّك ، قال : وما يمنعُك ، ولستُ لك بجارٍ ولا أخٍ ولا ابن عمٍّ ! يريد أن الحسد موكّل بالأدْنَيْنَ .

الحسن البصرىّ : ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلومٍ من حاسد بنفَسٍ دائم ، وحزن لازم ، وغَيْرة لا تنفد .

معاوية : كلّ الناس أقدر على أن أرضِيَهم إلاّ حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها .

المبرّد:حدثنا الزيادىّ ، قال: يقال :ستة لا تخطئهم الكآبة : فقيرحديث عهد بِغِنًى ، ومُكْثِرٌ يخاف على ماله التلف ، والحسود ، والحقود ، وطالب مرتبة فوق قدره ، وخليط أهل الأدب وليس منهم .

قال الأصمعىّ:اجتمع ثلاثة حسّاد ، فقال أحدهم لصاحبه : ما بلغ من حسدك ؟ قال: مااشتهيت أن يُفعل بمسلم خيرٌ قطّ ، فقال الثانى: أنت رجل صالح ، ولكنى مااشتهيت أن يُفعل بى خير قطّ ،فقال الثالث : ما فى الأرض خيرمنكما ، ولكنى ما اشتهيت أن يَفعل أحد بأحد خيراً قطّ .

قال : وأنشد الشاعر :

كلّ العداوةِ قد تُرْجَى مودَّتُها    إلاّ عداوة مَنْ عاداك مِنْ حَسَدِ

(١) سورة فصلت ٢٩

وقال حبيب :

وإذا أرادَ الله نشر فَضِيــــلةٍ طُوِيتْ أتاحَ لها لسَانَ حَسُودِ[1]
لولا اشتعالُ النّارِ فيما جاورتْ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقال القاضى ابن عمر :

نَهَانِيَ حِلْمِي فَمَا أَظْلِمُ وَعَزَّ مَكَانِي فَمَا أُظْلَمُ
ولا بدّ من حاسدٍ قلبُهُ بنور مآ ثِرنا مُظلِمُ
رحمت حَسُودى على أنه يعذَّب بى ثم لا يُرْحَمُ
أتانا الحسود ولسنا كما يقول ولكنْ كمَا يعلَمُ

وقال اليمانىّ :

إنِّى لَأَرحم حاسدِىّ لفرْطَ ما ضمّتْ صدورهمُ من الأوْغَارِ
نَظَرُوا صنيعَ الله بِى فعيونهمْ فى جنَّــة وقلوبهم فى نارِ
لا ذنب لى قد رُمْتُ كتْمَ فواضِلِى فكأنّما برقعتُهـا بنهَارِ

قوله:«رثى لنا الحاسد والشامت» : قال النبيصلى الله عليه وسلم : « ارحموا ثلاثاً :غنيّ قوم افتقر ، وعزيز قوم ذلّ ، وفقيهاً يلعب به الجهّال » .

قال الشافعيّ: خمسة مرحومون:عزيز ذل،وغنيّ فلّ ، وحبيبملّ ، وفصيح كلّ ، وفقيه ضلّ .

وقال الشافعى : ومن حديث واثلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تظهر الشماتة بأخيك ،فيعافيَه الله ويبتليك» ،وأخذه الحريرىّ من قول الآخر :

لم يبقَ إلاّ نَفَسٌ خافتُ ومُقْـلة إنسانها باهِتُ
ومغرم تُوقَدُ أحشاؤه بالنَّار إلا أنه ساكِتُ
رقّ فما فى جسمه مفصلٌ إلاّ وفيهِ سَقَمٌ ثابِتُ

(١) ديوانه ٨٥ .

يرثِي له الشَّامِتُ مِمَّا بِهِ     ياويْحَ مَنْ يرثِي له الشامِتُ !

* * *

وآلَ بنا الدَّهْرُ المُوقِعُ ، وَالْفَقْرُ المُدْقِعُ ، إلى أنِ احْتَذَيْنا الوَجَى ، وَاغْتَذَيْنا الشَّجَا ، وَاسْتَبْطَنَّا الجَوَى ، وَطَوَيْنا الأَحْشاءَ عَلَى الطَّوَى ، وَاكْتَحَلْنا السُّهَادَ ، وَاسْتَوْطَنَّا الوِهَادَ ، وَاستوطأْنا القَتَادَ ، وَتَنَاسَيْنا الأَقْتَادَ ، وَاسْتَطَبْنا الحَيْنَ المُجتَاحَ ، وَاسْتَبْطأْنا اليومَ المُتَاحَ ، فَهَلْ مِنْ حُرٍّ آسٍ ، أَوْ سَمْحٍ مواسٍ ! فوالذى اسْتَخْرَجَنِى مِنْ قَيْلَةَ ، لَقَدْ أَمْسَيْتُ أَخا عَيْلَةٍ ، لا أَمْلِكُ بيتَ لَيْلَةٍ .

قال الحارث بن هَمَّامٍ : فَأَوَيْتُ لِمفاقِرِهِ ، وَلَوَيْتُ إلى استنباطِ فِقَرِه ، فَأَبْرَزْتُ ديناراً ، وَقُلْتُ له اختباراً : إن مَدَحْتَهُ نَظْماً ، فَهُوَ لَكَ حَتْماً ، فانبرى يُنْشِدُ فى الحَالِ ، مِنْ غَيْرِ انْتِحَالٍ .

* * *

قوله : « آل بنا » أى رجع بنا ، وقد آل يئيل ويئول ، أى رجع . المُوقع : المُهلك ، من أوقع به ، ويحتمل أن يريد بالموقع الذى يحمله على الوقوع ، ورجل مُوقع إذا اشتكى ألم رجليه . المدقع : الملصق بالدقعاء ، أى التراب ، أى لم يترك للإنسان شيئاً يبسطه غير التراب. احتذينا : انتعلنا . الوجى : توجّع باطن القدمين من الحفا ، يريد أنه لبس مكان النعال الحفا حتى توجّعت قدماه . الشجى : ما يعرض فى الحلق ، وكنى بهذا عن سوء الحال ، لأن الشجى ليس بغذاء إنما هو مشقة وتعب. ولكن بالغ فى وصف سوء حاله ، فقال : إنه يَنتعل مالا يُنتعل ، ويغتذى ما ليس.

بغذاء ، أى ليس ثَمَّ انتعال ولا غذاء . استبطنَّا ، أى جعلناه فى بطوننا . الجوَى : فساد الجوف . والأحشاء : مافى الجوف وماحشى به . الطَّوَى : الجوع ، وقد طوِىَ يَطْوَى ؛ لأن الأحشاء إذا امتلأت من الطعام انتشرت ، وإذ فرغت منه انطوى بعضُها على بعض . والسُّهاد : امتناع النوم ، من قول الشاعر :

ما لعينى كُحِلَتْ بالسُّهَادِ وجنبى نابِيًا عَنْ وِسَادِى

استوطنَّا : سكنَّاواتخذناه وطنًا . الوِهاد : ما انخفض من الأرض . استوطأناه : وجدناه وطيئاً . القتاد : شجر له شوك شديد يسمّى عندنا حمْض الأمير . الأقتاد : خشب الرِّحال ، يريد أنهم نسوا ركوب المطايا لبعد عهدهم بها ورجعوا الآن يمشون على الشوك فيجدونه وطيئاً . الحَيْن : الموت . المجتاح : من لفظ الجوائح ، يريد به المستأصل للأموال . استبطأنا : وجدناه بطىء المجىء . المتاح . المقدَّر ، يريد أن يوم موتهم تمنَّوه لشدة ما قاسَوْا ، وأبطأ عليهم . آسٍ : طبيب يطبّ علة الفقر والجمع الأساة . سمح : كريم . والمواسى : المعين . وذكر عاصم فى شرح قوله : « يواسى فى كريهته أخاه » ، أن معناه ، جعله أسوة نفسه ، فمواسٍ من الأسوة ، كأنه يؤ... فى ماله . ويقال : آسيته ، والأصل الهمز .

المفضّل : معنى فلان يواسى فلانا ، يشاركه ، والمواساة المشاركة ، وآساه : شاركه فيما هو فيه .

مؤرِّج : ما يواسيه ، أى ما يصيبه بخيرٍ أصلا .

غيره : معناه يعوّضه من مودّته وقرابته شيئاً ، من الأوس وهو العِوَض . قال الشاعر :

فلأُرْمِيَنَّك مِشْقَصًا أَوْسًا أُوَيْسُ من الهَبَالَهْ[1]

---

(١) اللسان — هبل ، ونسبه إلى أسماء بن خارجة ؛ وفيه أن الهبالة اسم ناقة أسماء بن خارجة . ورواية اللسان : « لأحشأنك » .

والهبالة: اسم ناقة ، أى أرميك بسهم يكون عِوَضًا عن الناقة . وكأنّ أصله يؤاوسه، فقدموا السين وهى لام الفعل،وأخّروا الواو وهى عينه ، فصار «يؤاسوه» فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، فهو من المقلوب ، وإن جعلتَه من أسوتُ الجرح ، إذا أصلحته فلا قَلْب فيه .

قوله: «ذو الذى استخرجنى من قيلة» ، قيْلة هى أمّ الأوس والخزرج ، وهى بنت الأرقم الغسّانية ، وانتسابه لها كانتسابه قبل إلى أقيال غسّان . أخا عَيْلة: صاحب فقر ،قال تعالى: ﴿وإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾[1] ، أى فقراً ،وقال صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيْلة والمسكنة» . بيت ليلة : قوت يبيت عليه ليلة .

أويت : أشفقت وحننت . مفاقره : جمع فقر على غير قياس ـ ومثله مذا كير الرجل جمع ذَكَر : محاسنه ومساويه . لوَيت : انعطفت . استنباط : استخراج . الفِقَر فى النثر: فواصله ، وهى مثل القوافى فى النظم، والفِقَر: ماتقدّم فى المقامة من الكلام المقفّى . أبرزت : أظهرت . حتماً : واجباً ، يريد أنه قصد إلى أن يحقّق ما تقدّم من الفصاحة فى فقره إن كانت له أو انتحلها ، فقال ليختبره : امتدح هذا الدينار بشعر . فانبرى ، أى اعترض وتقدّم . انتحال : ادّعاء منه فى شعر غيره ، يقال: انتحل كذا ، أى ألزمه نفسه ، وجعله كالملك ، من النِّحلة ، وهى الهِبَة والعطية .

* * *

أَكْرِمْ بِهِ أَصْفَرَ رَاقَتْ صُفْرَتُهْ ... جَوَّابَ آفَاقٍ تَرَامَتْ سَفْرَتُهْ

مَأْثُورَةً سُمْعَتُهْ وَشُهْرَتُهْ ... قَدْ أُودِعَتْ سِرَّ الْغِنَى أَسِرَّتُهْ

وَقَارَنَتْ نُجْحَ المساعِي خَطْرَتُهْ ... وَحُبِّبَتْ إِلَى الأَنَامِ غُرَّتُهْ

كَأَنَّما مِنَ الْقُلُوبِ نُقْرَتُهْ ... بِهِ يَصُولُ مَنْ حَوَتْهُ صُرَّتُهْ

(١) سورة التوبة ٢٨ .

وَإنْ تفاَنَتْ أو تَوَانَتْ عِتْرَتُهْ　　يا حَبَّـذَا نُضارُه وَنُقْرَتُهْ
وَحَبَّـذا مَغْنـاَتُهُ وَنُصْرَتُهْ　　كَمْ آمرٍ بهِ اسْتَتَبَّتْ إِمْرَتُهْ
وَمُتْرَفٍ لَوْلاهُ دَامَتْ حَسْرَتُهْ　　وَجَيْشِ هَمٍّ هَزَمَتْهُ كَرَّتُهْ
وَبَدْرِ تِمٍّ أنزلتْـهُ بَدْرتُهْ　　وَمُسْتَشِيطٍ تَتَلَظَّى جَمْرتُهْ
أَسَرَّ نَجْوَاهُ فَلانَتْ شِرَّتُهْ　　وَكَمْ أسِيرٍ أَسْلَمَتْهُ أُسْرَتُهْ
أَنقَذَه حَتَّى صَفَتْ مَسَرَّتُهْ　　وَحَقِّ مولًى أَبْدَعَتْهُ فِطْرَتُهْ
* لَوْلاَ التُّقَى لَقُلْتُ جَلَّتْ قُدْرَتُهْ *

* * *

قوله: « اكْرِم به »، معناه ماأكرمه . راقت . أعجبت . جوّاب آفاق : قطّاع بلاد . ترامت سفرته : بَعُدَت غيبته، وسمّى السَّفر سفراً ، لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال ، أى يكشفها ويوضّحها ، أخذ من قولهم : سَفَرَت المرأة عن وجهها ، إذا كشفته وأظهرته ، ويقال للمكنسة : مِسْفَرة ،لأنها تُسفِر التراب عن الموضع ، وسفر بيتَه ، كنسه . مأثورة : محدّث بها . سمعته: ذكرهالمسموع. أودعت : ضُمِّنتْ. أسِرّته : خطوط وجهه ، أراد نقشه ، وأنّ بين أسطاره سرّ الغنى ،فمن ملكه ملكالغنى . قارنت : ساوت : النجح : ضد الخيبة . المساعى : المشى فى طلب الحوائج . الأنام: الخلق. غُرَّتُه : وجهه ؛ قيل لأبى الزناد : مالك تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا !قال : إنها وإن أدنتْنى من الدنيا ، فقد صانتنىعنها . والنّقرة : القطعة المسبوكة من الذهب والفضة ، قبل أن يطبع منها الدراهم والدنانير ، وأراد: كأنما قطعت نقرته من قلوب الناس لشدّة حبهم فيه . والنّقرة ، إنما تستعمل من الفضة ، واستعملها فى الذهب لقرب ما بينهما، وأخذه من قول البحترىّ :

فكلّ قلبٍ إليه منصرفٌ كأنّه من جميعها خُلِقا[1]

أو من قول ابن الرومىّ :

به أمست الأهواء يجمعها هوًى كأنّ نفوسَ النّاس فى حبّه نَفْسُ

أو من قول المتنبى :

فى خَطِّه من كلّ قلبٍ شهوةٌ حتّى كأنّ مداده الأهواء[2]

يصول : يقهر ويغلب ، وصال الشجاع على قِرْنه ، والفحل على إبله، والحمار على أُتُنه صَوْلاً ، إذا قهر وعلا وصاح بها . الصّرّة: الخرقة تصرُّ فيها الدراهم. حوته: ضمّته، يريد أنَّ مَنْ مَلك الدينار صال به على زمانه . تفانت : هلكت. توانت: أبطأت وضعفت عن نصرته . عِترته : قرابته الأدنوْن. نضاره : ذهبه . نضرته : حسنه . مغناته: منابه ، يقال فلان يغنى مغناتك، أى ينوب منابك، ويقوم مقامك، يريد أنه ينوب عن الإنسان فى المضايق وينصره . استتبَّت : تمّت واستقامت ، والمستتبّ : الطريق البين ، قال الشاعر :

* على مستتبّ كالمجرّة تعمل *

إمرته : ولايته. مُترف : منعَّم. حسرته: تفجّعه ،وحزنه . كَرّته : رجعته ، وبدر تِمّ : القمر ليلة الكمال ؛ ويريد به شخصاً يشبه البدر فى حسنه ورفعته، فإذا جعثت فى طلبه الدينار أنزلته عن مرتبته وتملكته ، والبَدْرة: عشرة آلاف درهم. مستشيط : غضبان : تتلظّى : تتاهب. جمرته :شدّة غيظه . أسرّ : أخفى . نجواه: حديثه سراً . شِرّته : حدّته وغضبه ، يقول : كم من غضبانْ شديد الغيظ ، مثل

(١) فلحق ديوانه ٢٦١٥ .
(٢) ديوانه ١ : ٢٠ ، والأهواء : جمع هوى ، مقصور ، وهو المحبة .

حاكم يَصول بصاحب جناية ويهدّده ، فإذا رُشِيَ بالدينار وبُعث إليه سرًّا أزال غضبه ، وسكنتْ حِدّته . أسلمته ، تركته . أسرته : قومه . مسرّته : فرحه . أبدعته: أوجدته قبل أن يكون. فطرته : خلقته . التقى : الخوف. جلّت: عظمت.

* * *

ثمَّ بَسَطَ يَدَهُ ، بَعْدَ مَا أَنْشَدَهُ ، وَقالَ : أَنْجَزَ حُرٌّ مَا وَعَدَ ، وَسَحَّ خَالٌ إذا رَعَدَ. فَنَبَذْتُ الدِّينَارَ إِلَيْهِ ، وقُلْتُ : خُذْهُ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ ، فوَضَعَهُ فِي فِيهِ ، وَقال : بَارِكِ اللَّهُمَّ فِيهِ ، ثم شَمَّرَ لِلانْثِنَاءِ ، بَعْدَ تَوْفِيَةِ الثَّنَاءِ .

* * *

[ قصة المثل : أنجز حرٌّ ما وعد ]

قوله : «أنجز حرٌّ ما وعد» ، هذا مثل ، قاله الحارث آكل المرار ـ وهو جدّ امرئ القيس ـ لصخر بن نهشل بن دارم ؛ وذلك أن الحارث قال: ياصخر، هل أدلّك على غنيمةٍ على أنَّ لى خمسَها؟ قال نعم ، فدلّه على قوم من العرب، فأغار عليهم صخر بقومه فظفروا وغنموا، فحملهم صخر على أن يعطوا الحارث الخمس، فأبوا ؛ وكان طريقهم على شِجْعات ـ وهى ثنيّة متضايقة ـ فلما دنوا منها صار إليهم صخر حتى قعد على رأسها ، ومنعهم الجواز أو يعطوا الحارث الخمس ، فقال حمزة اليربوعيّ: والله لا نعطيه من غنيمتنا شيئاً ؛ ومضى فى الثنيّة ، فحمل عليه صخر فقتله . فلما رأى ذلك الجيش أعطوه الخمس ، ففي ذلك يقول نهشل بن حرّيّ بن منجز ابن نهشل بن دارم :

ونحن منعنا الجيش أن يتأوّبوا  على شجعاتٍ والجياد بنا تجرى
حبسناهُمُ حتَّى أقرّوا لحكْمِنَا  وأُدِّىَ أنفال الخميس إلى صخرِ

فمعنى «أنجزحرٌّ ماوعد»[1] أحضر وهيَّأ. وقد نجز الشيء إذا حضر، ولفظه لفظ الخبر، ومعناه الأمر، أراد لينجزْ حُرٌّ ماوعد.

* * *

سحَّ: صبّ وأمطر. خالٌ: سحاب يخيِّل لك أنّ المطر فيه. رَعَد: صوَّت؛ يقول لابن همام: إنَّ السحاب إذا سمع الرعد سحَّ بالمطر، وأنت قد أسمعتني ذكر الدينار، ووعدتَني به، فأنْجِزْ لى وعدى.

نبذتُ: رميتُ. مأسوف: محزون. بارِك: أى ضع البركة فيه، وقولهم: تبارك الله، أى تقدَّس وتطهّر، وقيل: هو «تفاعل» من البركة، أى البركة تنال بذكر اسمك. الانثناء: الرجوع. توفية الثناء: كمال الشكر والمدح.

[ مما قيل فى وصف الدينار ]

وممّا قيل فى وصف الدينار ومدحه:

ومُقَسّم الوجنات ِ يبرُق وجهُه ... بادٍ على وجَنَاتِه عَبَّادُ
جُبِل الأنامُ عَلَى محبَّة حسنِه ... فكأنَّه ربّ وهُمْ عُبَّادُ

وفى مقامات البديع فى وصفه.

ياحسنَها فاقعةً صفراءْ ... مشرقة منقوشة قَوْراءْ[2]
يكادُ أن يقطرَ منها الماءْ ... قد أثمرتْها همَّة عَلْياءْ
ياذَا الَّذِى بغيته الثَّناءْ ... ما ينقضِى بقدرِكَ الإطراءْ

* امض عَلَى الله لك الجزاءْ *

* * *

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٣٠، فصل المقال ٧٩، الفاخر ٦١.
(٢) مقامات البديع ٩٢، وفيها: «ممشوقة» بدل «معرقة».

[ فصل فى الوعد ومذاهب الناس فيه ]

وإذ قد فرغت من شرح ألفاظه فى إنجاز الوعد فى المثل ، وما اتّصل به ، فلنذكر مذاهبَهم فى ذلك .

فأكثرهم على إنجاز الوعد ، وقد ذكر فيما هو مستقبل :

* وبِع آجلاً منك بالعاجلِ *

وقال : وإذا خُيِّرتَ بين ذَرّة منقودة ، ودُرّة موعودة فَمِلْ إلى النقد .

وقال جرير :

إنِّى لأرجُو منكَ خيراً عاجلاً والنَّفسُ مولَعةٌ بحبِّ العاجلِ (١)

قال آخر :

ولا شكَّ أنَّ الخيرَ منك سجيّةٌ ولـكنّ خير الخير عندى المعجَّلُ

وقال آخر :

أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لى: أُجِلُّكَ عن تعذيب قَلْبِكَ بالوعْدِ

وبعضهم يرى أن يكون بين الوعد والإنجاز مهلة ؛ ومنه أنّ منصور بن زياد كلَّم يحيى بن خالد فى حاجة رجل ، فقال له: عِدْه عنّى قضاءها ، فقال منصور بن زياد : وما يدعوكَ إلى العِدةَ مع القدرة ! فقـال : هذا قول مَنْ لا يعرف موقع الصنائع من القلوب ، إنّ الحاجة إذا لم يتقدَّمها وعْد يُنتظَر به نجحُها ، لم تتحدّث النفس بسرورها ؛ إنّ الوعد مطعَم والإنجاز طَعام ، وليس من فاجأه طعام كمن وجد رائحته وتطعّمه ثم طعِمه ، فدع الحاجة تختمر بالوعد ، ليـكون لها عند المصطَنع حسْن موقع ولطف محلّ .

---

(١) ديوانه ٤٩٥ ، من قصيدة له فى مدح عمر بن عبد العزيز .

قال ابن الكلبيّ لهشام بن عبد الملك : يا أميرَ المؤمنين ، لا تصنع إلىّ معروفاً حتى تعدَنى به ، فإنه لم يأتنى منك سيْبٌ على غير وعد إلّا هان علىّ قدره ، وقلّ منّى شكره ، فقال له : لِمَ قلت ذلك ، وقد قال سيّد قومك أبو مسلم الخولانىّ : إنّ أنجح المعروف فى القلوب ، وأبرده على الأكباد معروفٌ غيرُ منتظَر بوعدٍ لا يكدّره مَطْل .

ووعد المهدىّ(١) عيسى بن دأب جارية ثم وهبها له ، فأنشده عبد الله بن مصعب الزّبيرىّ [ قول مضرّس الأسدىّ ](٢) :

ولا تيأسنْ من صالحٍ أنْ تنالَهُ　　　وإن كان قِدْمًا بين أيدٍ تبادرُه

فقال : يُدفع لعبد الله جارية أخرى ، فقال الزّبيرىّ :

وأنجزُ خيرِ الناس مَنْ قبل وعده　　　أراحك من مَطْلٍ ومن طول كدِّهِ

فقال له عيسى بن دأب : ما صنعت شيئاً ! هلّا قلت :

حلاوة الفضل بوعدٍ ينجــزُ　　　لا خير فى العرف كنهب يُنْهَزُ

فقال المهدىّ :

الوعــدُ أحسنُ ما يكو　　　ن إذا تقدّمــه ضمانُ

وقال بعض البلغاء : دع الوعد يركض ثلاثاً ، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل ، وجليله حقير .

وقال يحيى بن خالد : من لم يبت مسروراً بوعد ، لم يجد للصنيعة مطعما وفيه يقول أبو قابوس النّصرانىّ :

رأيتُ يحيى أتمّ الله نعمتَــه　　　عليه يأتى الذى لم يأتهِ أحــدُ

ينسَى الّذى كان من معروفه أبداً　　　إلى الرجال ولا ينسى الذى يعِدُ

(١) ط : « المستهدى » تحريف .　　　(٢) من معجم الأدباء

(٣) الخبر فى معجم الأدباء ١٦ : ١٥٤

وقال الحارثيّ :

وما رَوْضَةٌ داريّةٌ أسديّةٌ ... منمنمةٌ زهراءُ ذات ثرى صَعْدِ
بأحسنَ من حُرٍّ تضمّن حاجةً ... لحرٍّ ، فأوْفَى بالنَّجاح مع الوعْدِ

وقال ابن رشيق :

أحسنتَ فى تأخيرها مِنَّةً ... لو لم تؤخَّرْ لم تكن كامِلَهْ[1]
وكيف لا يحسنُ تأخيرها ... بعد يقينى أنها حاصِلَهْ!
وجَنَّة الفردوس يدعَى بها ... آجلة للمرء ، لا عاجِلَهْ

وقال رجل لأبى عمرو بن العلاء: وعدتَنى بأمر فلم تنجزه ! فقال أبو عمرو : من أولَى منّا بالعتب ؟ أنا وإلا أنت ! قال : أنا ؛ قال أبو عمرو : لا والله بل أنا ، قال : وكيف ؟ قال : لأنى وعدتك وعداً فأنت تفرح بالوعد ، فبِتَّ ليْلتَكَ جذلانَ مسروراً وبتُّ أنا بهمّ الإنجاز ، فبتُّ ليلتى مفكراً مغموماً بما عاق الدّهر من بلوغ الإرادة فيه ، فلقيتَنى مدِلاً ولقيتك مستحيياً.

واعتذر بعضُ الرؤساء لأبى علىّ البصرىّ من تأخّر وعد ، فقال : فى شكر ما تقدَّمَ من إحسانك شاغل عن استبطاءِ ما تأخّر منه .

* * *

فنَشَأَتْ لِي مِنْ فُكاهَتِهِ نَشْوَةُ غَرَامٍ ، سَهَّلَتْ عَلَيَّ ائتناف اغْتِرَامٍ ، فَجَرَّدْتُ دِينَارًا آخَرَ وَقُلْتُ له : هَلْ لَكَ فِي أَنْ تَذمَّهُ ، ثُمّ تَضُمَّهُ ؟ فأنشدَ مُرْتجِلاً ، وَشدَا عجِلاً :

° ° °

(١) العمدة ٢ : ١٢٨ ، ١٢٩ .

قوله : «فنشأت»، أى ظهرت وبدت. فكاهة: مزاح. نشوة غرام: سكرة شوق ، والغرام : الحبّ المعذِّب للقلب . ائتناف : استقبال . اغترام : غرْم . ثم ذكر أن يذمه ثم يضمّه ، وقد نظمهما الزاهد بن عمران فى قوله :

إنّ المـؤنة والحسابَ كلاهما قرنا بهذا الدّرهم المذمـوم
كَلِفَ الأنام بذمّه وبضمّـه فتعجّبوا لمذمّمٍ مضمـوم

وقال ابن شرف فى الدينار والدرهم :

ألاَ رُبَّ شىء فيه من أحرف اسمِه نواهٍ لنا عنه وزجـرٌ وإنذارُ
فُتِنَّا بدينارٍ وهِمْنَـا بدرهمٍ وآخِر ذا همٌّ ، وآخِـر ذا نارُ

وقال ابن رشيق :

صحّفتُ دالين من دينـ ـارٍ يلوح ودرهمْ
فقال لى ذلكم «ذى نار» وذا قال: «ذَرْهم»

وابن رشيق وابن شَرَف أديبَا القَيْرَوان ، يجْمَعهما البلَد والزّمان ، وكان مرّة يتصاحبان ، ومرّة يتباغضان .

وقال ابن رشيق فى مدح الدينار والدرهم :

صديقُ المرء كالدينارِ طبعـاً وكيف يفارق المرء الطباعَا !
تراه إذا أقام يقـيمُ جاهاً وإن فارقتَـه أَجْدى انتفاعَا

أخذه من قول كُشاجم :

ومريدٍ مَن أباه ومهينٍ من أجَلَّه[1]
فهو كالدّينار لا يُكـ ـرِمُ إلا من أذلّهْ

(١) ديوانه ١٥٣

وقال آخر :

النارُ آخــــر دينارٍ نطقتَ به ... والهمّ آخر هذا الدِّرهمِ الجـارِى
والمرء ما لم يفد من غيره ورعًا ... مقسّم القلب بين الهمِّ والنّـارِ

قوله : «مرتجلا» ، أى من غير تفكر . شدا : ابتدأ الغناء وطرّب بنشيده

* * *

تبًّا لَهُ مِنْ خادعٍ مُماذقِ ... أَصْفَرَ ذِى وَجْهَيْنِ كَالْمُنَافِقِ
يبدو بِوَصْفَيْنِ لِعَيْنِ الرَّامِقِ ... زينةِ مَعْشُوقٍ وَلَوْنِ عَاشِقِ
وَحُبُّهُ عِنْدَ ذَوِى الحقائقِ ... يَدْعُو إِلَى ارْتكابِ سُخْطِ الخالقِ
لَوْلَاهُ لَمْ تُقْطعْ يمينُ سارقِ ... وَلاَ بَدَتْ مَظْلَمَةٌ مِنْ فَاسِقِ
وَلا اشمأزَّ باخِلٌ من طارقِ ... وَلا شكا المطول مَطْلَ العائقِ
وَلا اسْتُعِيذَ مِن حسودٍ رَاشِقِ ... وَشَرُّ مَا فِيـهِ مِنَ الْخَلاَئقِ
أَنْ لَيْسَ يُغْنِى عَنْكَ فى المَضايِقِ ... إِلَّا إِذا فَرَّ فِرَارَ الآبقِ
واهًا لِمَنْ يَقْـذِفُهُ من حَالقِ ... وَمَنْ إِذَا نَاجَاهُ نَجْوَى الْوَامِقِ
قَالَ لَهُ قَوْلَ المحقِّ الصَّادِقِ : ... لاَ رأى فى وَصلِكَ لِى ففَارِقِ

* * *

تبًّا : أى خسراً . مماذق : لا يصفو ودّه لصاحبه ، وقد مذَقَ وُدّه ، إذا لم يخلصه ، ومذق اللبن : خلطه بالماء ، والمذيق : المخلوط . أصفر ذى وجهين ، قال

أبو هُريرة رضى الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شرّ النّاسِ ذو الوجهين ،يأتى هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجهٍ».

ووقع هذا فى نثر البديع ، قال فى مخاطبة أبى الفتح عيسى[١]: أظعناً تريد؟ قلت: إى والله ، قال: أخْصَبَ رائدُك، ولاضلّ قائدك ، فمتى عزمت؟ قلت: غداةَ غدٍ ، فقال:

صباحُ الله لا صبحُ انطلاقِ  وطيرُ الوصل لا طيرُ الفِراقِ
وقال السّعد لا يعدوكَ دأباً  يصاحبكم إلى يوم التّلاقِ[٢]

فأين تريد؟ قلت: الوطنَ ، قال: بُلِّغْتَ الوطن ، وقضيتَ الوطر ، فمتى العود؟ قلت: القابِل ، فقال: طويتَ الرّيط[٣]، وثنيت الخيط ، فأين أنت من الكرَم؟ قلت: بحيث أردتَ ، فقال: إذا رجعك الله سالماً من هذا الطريق؛ فاستصحب لى عدوّا فى ثياب صديق ، من تجار الصُّفْر ، يدعو إلى الكفر ، ويرقص على الظُّفْر ، كدارة العين ، يحطّ ثِقَلَ الدّيْن، وينافق بوجهين . فعلمت أنه يلتمس ديناراً ، فقلت: ذلك لك نقداً ، ومثله وعداً ، فأنشأ يقول:

رأيك ممّا خطبتُ أعْلَى  لا زلتَ للمكرُمات أهلا
صَلُبْتَ عوداً ،ودمتَ فرداً[٤]  وطبت فرعاً وطبت أصلا
يا واحدَ الدهرِ والمعالى  لا لَقِيَ الدّهر منك ثُكْلا

قوله: «عدوًّا فى ثياب صديق» من قول أبى نواس:

إذا امتحنَ الدّنيا لبيبٌ تكشّفتْ  لَهُ عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ[٥]

قوله: «الرامق» أى الناظر ،ورمقت الشىء رمقاً أتبعت النظر إليه . وزينة

(١) عيسى بن هشام صاحب البديع الهمذانى فى المقامات ص ٢٢ ، ٢٣
(٢) هذا البيت ساقط من المقامات
(٣) الريط: جمع ريطة ، وهى الملاءة .
(٤) المقامات: «جودا»
(٥) ديوانه ١٩٢ .

المشوق التى فى الدينار : نقشه وتزيينه ، ولون العاشق: صفرته، فالناظر فى الدينار يرى فى الظاهر زينَته فيهواه ، فيقع على ما وقع عليه باطن العاشق من العذاب والغرام ، ويدلّ على ذلك صفرته الظّاهرة عليه . وقال ابن ظفر : زينة المعشوق غرور مدعاة إلى التهوّر فى الغرام ، ولون العاشق وهو الأصفر دليل على ما أسرّ من شاغف الكلف ، فالغافل ينظر من الدينار مثل زينة المشوق مجرّدة عن عاقبتها ، فيصيده الهوى ، والعاقل ينظر منه إلى لون العاشق ، فيستدلّ على باطن الجوى . ذوى الحقائق ، يعنى أهل الرشد والعلم ، والذين ينظرون إلى ما فى الدنيا بعين الحقيقة .

ثم لولا حبّ الدنيا ما سرق السارق ، فيستوجب قطع يدهِ ، أو بعض أعضائه ، واليد يجب قطعها بربع دينار ذهب . ومن مُلَح السّرقة أنّ الجاحظ حكى أن رجلين كان أحدهما أيمنَ ، والآخر أعسر ، فكان الأيمن يفخر على الأعسر ، فأخذا فى سرقة ، فقطِعت أيمانهما ، فكان الأعسر يعمل بيساره أعمالَه كلها ، والأيمن لا يستطيع أن يعمل بيساره شيئاً ، ففخر الأعسرُ عليه بذلك ، فقال له الأيمن : ما علمت أنّ للأعسر فضيلة إلا أن يَسْرِق فيؤخذ فتقطع يمينه .

الفاسق : الخارج عن الطاعة إلى ركوب المعصية أو عن الإيمان إلى الكفر ، أُخِذَ من نَسَقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرها . وقال قوم : الفاسق الجائر ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ إلا إبليسَ كان من الجِنّ ففسَقَ عن أمر ربه ﴾[1] ، أى جار ، عنه قال رؤبة :

يَهْوِين فى نجدٍ وغَوْرٍ غائرا فواسقاً عن قَصْدِها جوائرَا[2]

---

(١) سورة الكهف ٥٠

(٢) الفائق ، اللسان ــ فسق

اشمأزّ : انقبض . باخل : شحيح ، وبخيل أكثر من باخل . طارق : قاصد بليل . المَطْل : تأخير الحق الواجب ، وأصله من مَطل القينُ الحديدَ فى النار، إذا مدَّه وطوّله . العائق : الحابس ، وقدعاقهعن الشىء إذا حبسه . راشق : عائن، وأصله الرامى ، لجعله للذى يصيب الناس بعينه . واستُعيذ: قرئ عليه المعوّذتان، وهما: «قل أعوذبرب الفلق» ، و«قل أعوذ برب الناس». الخلائق: الطبائع،واحدتها خليقة . الآبق : الهارب ، وأبقَ العبد يأبِق إباقاً : زال عن مولاه . وفى معنى فراق الدينار قول الأخطل :

ومعشوق يرقص كلَّ يوم ترى فى وجهه أبداً كلاماَ[1]
إذا فارقته أجداكَ خيراً ولا يجدى عليك إذا أقاماَ

وهذا من قولِ الحسن البصرىّ ، وقد رأى رجلاً يقلّب درهماً ، فقال له : أتحبّ درهمك هذا ؟ قال : نعم ، قال : فإنه ليس لك حتى يخرج من يدك .

واهاً : تعجّب ، معناه ما أعجب مَنْ يقذفه . حالق : جبل أملس مُنيف . ناجاه: حدّثه سرًّا . الوامق: المحبّ ، وقد ومق يَمِقَ مِقَةً . المحقّ : القائل الحق .

* * *

فَقُلْتَ لَهُ : ما أَغْزَرَ وَبْلَكَ ! فَقَالَ : وَالشَّرْطُ أَمْلَكُ ، فَنَفَحْتُه بالدِّينَارِ الثَّانِى ، وقُلْتُ لهُ : عَوِّذْهُمَا بالمَثَانِى ، فَأَلْقاهُ فِى فمهِ ، وَقَرَنَهُ بِتَوْءمِهِ ، وَانْكَفَأَ يَحْمَدُ مَغْدَاه ، وَيَمْدَحُ النَّادِىَ وَنَدَاهُ .

* * *

قوله :«ما أغزر وَبْلك»،أى ما أكثر بلاغتك . وأملك : ألزم وأحقّ ، يريد أن شرطك الذى شرطت من إعطائى ديناراً آخر إن ذممته ، قد لزمك

(١) لم أجدهما فى ديوانه .

يذمّى له. والشرط أملك مثل[1] ، وأول من قاله الأفعى الجرهمىّ ، وكان حكيماً للعرب ، فتحاكم إليه خصمان، فاشترط أحدهما وأراد ألّا يلتزمه ، فقال الأفعى : الشرط أملك ، وتقديره الشرط أملك لأمرك منك .

نفحته: رميته . عوّذهما : رقاهما . والمثانى : أمّ القرآن ، سميت بذلك لأنها تثنى فى الصلاة ، واحتصّها لأنه أشار عليه أن يحمد الله على أخذ الدينار ، فكأنه قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين ، شكراً لله عليهما وتعويذاً لهما .

وهذا كما قال ابن رشيق فى غلام جميل :

معتدل القامــة والقدِّ مورّد الوجنة والخــدِّ
لو وضع الوردُ على خدّه ما عرف الخدّ من الوردِ
قل للّذى يعجب من حُسْنه اقرأ عليه سورة الحمدِ

وله فى مثله :

شكوت بالحبّ إلى ظالمى فقال لى مستهزئاً : ما هو !
قلت : غرام ثابت ، قال لى: اقرأ عليه « قل هو الله »

وقال أبو عبيد : المثانى فى كتاب الله ثلاثة أشياء : القرآن ، سمّاه الله المثانى فى قوله تعالى: ﴿كتاباً مُتَشَابِهاً مثانى﴾ ، وسمّى الفاتحة «مثانى» فى قوله: ﴿سَبْعاً من المثانى﴾ وروى عثمان وابن عباس وابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلم. « إن المثانىَ من السور ما دون المئين»، كأنها جعلت مبادىء والتى تليها مثانى .

قوله : «بتوءمه» ، أى بأخيه ، يعنى الدّينار الأول . انكفأ : انقلب وولّى ، معناه بكوره وسيره فى الغدوّ . النادى ونداه : المجلس وكرم أهله .

(١) الميدانى ١ : ٣٦٧

[ فصل فى مدح الشئ وذمّه ]

ونريد أن نأتىَ بفصل فى مدح الشىء وذمِّه على حكم ما مدح الحريرىّ الدّينار وذمّه ، ونبيّن مذهب العرب وأهل الأدب فى ذلك ، فقد ألّف ابن رشيق فيه كتاباً جلبت فى هذا الكتاب عيونه .

قال أبو عثمان الجاحظ: العربىّ يعاف الشىء ويهجو به غيره ، فإن ابتلِىَ بِهِ فخر به ، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ماهجا به غيرَه ، فافهم هذا ؛ فإنّ الناس يغلطون على العرب ، ويزعمون أنّهم يمدحون بالشىء الذى يهجون به ، وهذا باطل ؛ ليس شىء إلا وله وجهان ، فإذا مدحوا ذكروا أحسنَ الوجهين ، وإذا ذمّوا ذكروا أقبح الوجهين .

قال ابن رشيق : وأكثر ما تجرى هذه المادح والمذامّ على جهة المنافقة ، لا على جهة المناصفة ، ومن باب المسامحة لا من باب المشاححة ، وإلاّ فالشىء لا يوافق ضده ، فيكون الحسن قبيحاً فى حالة واحدة ، والمدح ذمًّا لمعنى واحد ، لكن لكلّ شىء - كما ذكر الجاحظ - مساوىء ومحاسن ؛ كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استشهده الزِّبرقان بن بدر على ما ادّعاه من الشرف فى قومه ، قال عمرو : أجل يارسول الله ، إنه مانعٌ حوْزته ، مطاع فى أنديته ، شديد العارضة . فقال الزبرقان : أما والله لقد علم أكثر مما قال ؛ ولكن حسدنى شرفى ، فقال عمرو : أما وقد قال ما قال ، فو الله ماعلمتهُ إلا ضيِّق الطَعَن زمِرَ المروءة[1] ، لئيم الخال ، حديث الغنى . فرأى الكراهة فى عين رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا اختلف قوله ، فقال : يا رسولَ الله ، رضيتُ فقلت أحسنَ ماعلمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ؛ وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية ، فقال رسول الله صلى عليه وسلم: إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة[2] .

وكتب يزيد بن معاوية فى صدر كتابه إلى عبيد الله بن زياد - وقد ولاّه محاربةَ الحسين بن علىّ رضى الله عنهما - وكان قبل ذلك يسىء الرأى فيه : أمّا

(١) زمر المروءة: قليلها ، وفى ط: «زمن» تحريف. (٢) جمهرة الأمثال ١ : ١٣ .

بعد ، فإن المسبوب يوما ممدوح ، وإن الممدوح يوما مسبوب .

ويروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يَعِبْ شيئاً قط ، فمرّ يوماً بكلب ميّت ، فقال أصحابه : ما أنتنَ ريحه ! فقال عيسى عليه الصلاة والسلام : ما أحسن بياضَ أسنانه !

وقالت للحضين بن منذر امرأة : كيف سدتَ وأنت دميم بخيل ! فقال : لأنى سديد الرأى ، شديد الإقدام .

وقال مسلمة بن عبد الملك لأخيه هشام : كيف تطمع فى الخلافة وأنت بخيل ، وأنت جبان ! فقال : لأنى حليم ، وأنا عفيف ؛ فسلّم لعائبه ما ادّعاه من من مساوئه ، وذكَر من محاسنه مالم ينازَعْ فيه .

صعد خالد بن عبد الله القسرىّ منبر مكة يوم الجمعة ، وهو أمير للوليد بن عبد الملك بن مروان ، فأثنى على الحجّاج خيراً ، فلما كانت الجمعة الثانية وقد مات الوليد ، ورد عليه كتاب سليمان يأمره بشتْم الحجّاج وذكْر عيوبه ، وإظهار البراءة منه ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ إبليس كان يُظهر من طاعة الله عزّ وجلّ ما كانت الملائكة ترى له به عليهم فضلاً ، وكان الله قد علم من غشِّه ما خَفِيَ عن الملائكة ، فلما أراد الله فضيحته ابتلاه بالسُّجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه منهم ، فلعنوه . وإنّ الحجّاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غِلّه وغشِّه على ما خفىَ عنّا ؛ فلما أراد فضيحته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين . فالعنوه لعنه الله . ثم نزل .

ومرّ غيلان بن خرَشة الضَّبّى مع عبد الله بن عامر بنهر أم عبد الله الذى يشقّ البصرة ، فقال عبد الله : ما أصلحَ هذا النّهر لأهل هذا المصر ! فقال غيلان : أجل والله أيّها الأمير ؛ يتعلّم العَوْمَ فيه صبيانُهم ، ويكون لسقائهم ولسيل مياههم ، ويأتيهم بميرتهم ؛ ثم عاد ابن عامر فساير زيادا عليه ، فقال زياد : ما أضرّ هذا

النهر لأهل هذا المصر ! فقال : أجلْ والله أيّها الأمير ، تنزّ منه دورهم ، ويغرق فيه صبيانهم ، ويكثر لأجله بَعوضهم .

ومدح الجاحظ العَروض ، فقال: هو ميزان الشِّعر ومعيارُه، به يعرَفُ الصحيح من السقيم، والعليل من السليم ، وعليه مدار القريض والشعر ، وبه يُسلَم من الأَوَد والكسر . ثم ذمّه فقال : هو عِلْم مولّد ، وأدب مستبرَد ، ومذهب مرفوض ، تستنكره العقول ، مستفعلن فعول ، من غير فائدة ولا محصول .

وكان العباس بن علي عمّ المنصور يأخذ الكأس بيده ، ثم يقول : أمّا النفس فتسمحين ، وأما الهمّ فتطردين ، أفتراك منّي تُفْلتين ! ثم يشربها .

وشكا أبو العيناء حاله إلى عبد الله بن سليمان ، فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبّر ! قال : كتبتَ إلى رجل قد حَصَر من همّته طول الفقر ، وذلّ الأسر ، ومعاناة مِحَن الدهر ، فأخفقت في طلبتي . قال : أنت اخترته ، قال : وما عليّ أعزّ الله الأمير في ذلك ! قد اختار موسى قومه سبعين رجلاً وما كان منهم رشيد ، واختار رسول صلى الله عليه وسلم ابنَ أبي سرْح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتدًّا ، واختار عليّ رضي الله عنه أبا موسى حَكَماً ، فحكم عليه .

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بن هَمَّامٍ : فنَاجانِي قَلْبِي بأَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ ، وَأَنَّ تَعَارُجَه لِكَيْد . فاستدعتُه وَقُلْتُ لَهُ : قَدْ عُرفتَ بوَشْيِكَ ، فاسْتَقِمْ فِي مَشْيِكَ . فقال: إن كُنْتَ ابنَ هَمَّامٍ ، فحُيِّيتَ بإِكْرَامٍ ، وَحَيِيتَ بَيْنَ كِرَامٍ . فقلت : أنا الْحَارث ، فكيفَ حَالُكَ وَالْحَوادِث ؟ فقال : أَتَقَلَّبُ فِي الْحَالَيْنِ : بُؤْسٍ وَرَخَاءٍ ، وَأَنْقَلِبُ مَعَ الرِّيحَيْنِ : زَعْزَعٍ وَرُخَاءٍ . فقلتُ : كَيْفَ ادَّعَيْتَ الْقَزَلَ ، وَمَامِثْلُكَ مَنْ هَزَلَ ! فاسْتَسَرَّ بِشْرُهُ الَّذِي كَانَ تَجَلَّى ، ثمَّ أَنشدَ حِينَ وَلَّى :

تَمَارَجْتُ لاَ رَغْبَةً فِي الْعَرَجْ وَلَـكِنْ لأَقْرَعَ بَابَ الْفَرَجْ
وَأُلْقِيَ حَبْلِي عَلَى غَارِبِي وَأَسْلُكَ مَسْلَكَ مَنْ قَدْ مَرَجْ
فإنْ لاَ مَنِي الْقَوْمُ قُلتُ اعْذِرُوا فَلَيْسَ عَلَى أَعْرجٍ مِنْ حَرَجْ

⁂

قوله: «فاستعدته»، أى قلت له أعد عليّ. عرفتَ بو شيك، أى عرفت بحسن كلامك وتزيينه. استقم: استعْدِل وأزِلْ عوجك. حُيِّيت: طال بقاؤك، والتحية البقاء: حَييت: عشت. والحوادث: مايحدث من الخير والشر. بؤس: شدّة العيش. رخاء: لينه وسعته. زعزع: ريح شديدة تحرّك الشجر وتقلعه. والزعزعة: تحريك الشيء إذا أردت قلعه. رخاء: ريح ليِّنة سريعة، من الإرخاء فى السَّير، وهو عَدْوٌ فوق التقريب، وناقة مِرْخاء: سريعة. القزَل: أسوأ العَرج، وقد قزل قَزَلاً.

وهَزل هَزْلا: ترك الجِدّ فى قول أو فعل، يقول: كيف تحيّلت بالعرَج ومثلك لا يهزِل ولا يقع فى هذه النقيصة! فهو يهزأ به، فغضب عند ذلك. استسرّ بشرُه: زال عنه سماحُه وطلاقة وجهه. تجلّى: ظهر. ولّى: ذهب.

قوله: «أقرع»، أى أضرب. الفرج: كشف الهمّ. ألقى حبلى على غاربى: أى أسرح وأمشى حيث أحببت، والعرب تطلق هذا اللفظ، فتقول للمرأة: حبلُك على غاربك، أى أنت مسيَّبة فتوجَّهى حيث شئت لامانع لك ولا حابس، والغارب: ما انحدر من السَّنام، والحبل هو الذى يُعقل به البعير، فإذا سرَّحوه حلّوا عقالَه وألقوه على غاربه، قال ابنُ الأنبارىّ: أصله أن يلقى على حبل الناقة على غاربها فتفزع، ولا ترعَى إذا لم تره على الأرض.

أسلك مسلك، أى أدخل مدخل، والمسلك: الطريق. مرَج: خلط الجدّ بالهزل. حرج: إثم والله تعالى أعلم

# المقامة الرابعة وهي الدّمياطيّة

أَخْبَرَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قال: ظَعَنْتُ إلى دِمْياط، عَامَ هياطٍ ومِياطٍ؛ وَأَنا يوْمَئِذٍ مَرْمُوقُ الرَّخاء، مَوْمُوقُ الإخَاء، أَسْحَبُ مطَارِفَ الثَّرَاء، وَأَجْتَلِي مَعَارِفَ السَّرّاء. فَرافَقْتُ صَحْباً قَدْ شَقُّوا عَصَا الشِّقَاقِ، وَارْتَضَعُوا أَفاوِيقَ الْوِفاقِ؛ حَتَّى لاَحُوا كأَسْنَانِ الْمُشْطِ فى الاستواء، وَكالنَّفْسِ الواحدة فى الْتِئامِ الأَهْوَاء. وَكُنَّا معَ ذَلِكَ نَسِيرُ النَّجاء، وَلاَ نَرْحَلُ إِلَّا كلَّ هَوْجَاء، وَإِذَا نَزَلْنَا منْزِلاً، أَوْ وَرَدْنَا مَنْهلاً، اخْتَلَسْنَا اللَّبْثَ، وَلَمْ نُطِلِ الْمُكْثَ. فعَنَّ لنَا إعمال الرِّكاب، فِى لَيْلَةٍ فتِيَّةِ الشَّبَابِ، غُدَافيَّةِ الإهابِ. فَأَسْرَينا إِلَى أَنْ نَضا اللَّيْلُ شبَابَهُ، وَسَلَتَ الصُّبْحُ خِضَابَهُ.

* * *

قوله: «ظعنت»، أى رحلت، والظعن ضدّ الإقامة.

دمياط: بلد بينه وبين مصر ثلاثون فرسخاً، وهى على ساحل البحر الملح، وإلى دمياط ينتهى ماء النيل، فيفترق منها فيخرج بعضه إلى بحيرة تنّيس، وهى بحيرة تجرى فيها السفن والمراكب العظام، ويخرج بعضه إلى البحر، وبها تعمل الشروب، وقد ذكرنا ذلك عند تِنِّيس.

قوله: «هياط»: صياح، وتهايط القومُ: اجتمعوا ودبَّروا أمْرَهم. مِياط: دفاع، أى كان عام هَرْج وخِلاف. مرموق: منظور إليه. الرخاء: سعة المال. موموق: محبوب. أسحب: أجرُّ. مطارف: ثياب لها أعلام فى أطرافها.

أجتلى : أنظر . معارف: وجوه. السرّاء : الغنى والسرور . رافقت : صحبت فى السفر . والصَّحْب : الأصحاب . الشّقاق: الخلاف، ومعنى شقُّوا عصاه ، أزالوه وطرحوه ، والعرب تقول : شقّ فلان العصا ، إذا ترك الطاعة وخرج مباينًا،قال أبو عبيد : العصا تُضرب مثلا للاجتماع ، وانشقاقها يُضرب مثلا للافتراق الّذى لا اجتماع بعده . أفاويق : جمع أفواق ، وأفْواق جمع فُواق ،وهو ما بين الحلْبتين . والوِفاق : ترك الخلاف ، وقد وافقته موافقةً ووِفاقًا .

قوله :« لاحوا »،أى ظهروا .والعرب تضرب المثل بأسنان المُشط ، وهو يقع على كلّ استواء فى أىّ حال كان ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الناس كأسنان المُشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية » ، فإن أرادوا الاستواء فى الشرّ قالوا : سواسية كأسنان الحمار ، وقال كثيّر يهجو بنى ضمرة :

فسائل بقومى كل أجْرَدَ سابحٍ وسلْ عنما رُبَّى بضمْرةَ أو سَخَلاَ[1]

سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذى كِبْرَةٍ منهم على ناشىءٍ فَضْلاَ

التئام : اجتماع واتّفاق . الأهواء : جمع هوى ، وهو ما تحبُّه وتميل إليه النفس ، فأراد أنّ أغراضهم متّفقة . النَّجاء : السير السريع . نرحل : نشدّ عليها الرَّحْل ونشخص بها . هوجاء: ناقة سريعة ، كأنّ بها هَوَجًا وهو الحمق، لسرعة مشيها . وردنا منهلاً : أتينا ماء ننزل عليه، والنَّهَل : المشرب الأوّل ، والعَلَل الثانى ؛ وذلك أنّ الإبل تَرِدُ الماءفتشرب منه ، ثم تخرج ترعى ساعة وتستريح ، وتسمّى تلك الاستراحةفى الرّعى التَّمرئة ، ثم ترد مرّة أخرى تشرب الماء ، فالشرب الأولَ نَهَل ، والثانى عَلَل . والمَنْهل : موضع النّهل . والورود: قصد الماء .

اختلسنا : استرقنا . اللبث : الإقامة . ومثله المُكْث ، أى لا يستقرّون بموضع ينزلون فيه إلاقليلاً. والرِّكاب: الإبل؛وإعمالها: استعمالها. فتيَّة الشباب: صغيرة السن ، وأراد أنها طويلة سوداء لا قمر فيها ، لأن شعر الشباب أسود ،

(١) ديوانه ٢ : ١٩ ، عن الشريشى : و «رُبَّى» لغة فى: «رُبِّىَ» .

ويريد أنها أول الشهر ، فهى كالفتيّة ، والليلة أوّل الشهر سوداء . غُدافيّة : منسوبة إلى الغُداف ، وهو الغراب لسواده ، والإهاب : الجلد ، وأراد لونها . أسْرينا : مشينا بالليل ، ويقال : سرى وأسرى . نَضَا الليل شبابه ، أى أزال ظلامه ، ونضا ثوبه : جرَّده عنه ، ومثله : سَلَت خضابه ، وأراد أن الصبح بيَّض الظلام بضوئه ، وسلَت الشيء سَلْتاً ؛ أزاله عمَّا علق به ، والمرأة خضابها كذلك ، وسيأتى ذكر الصبح آخر المقامة .

[ مما قيل فى سواد الليل ]

وينظر فى سراه مع صحبه فى سواد الليل إلى قول ابن شهاب :

وفُتوٍّ أسرَوْا وقد عكف اللَّيْـــــل وأَقْعى مُغْـــدَوْدِفَ الأطْناب
وكأنَّ النجــــوم لمَّا هدتهُم أشرقتْ كالعيون من أهْدَاب
يتفرّون جَوْز كلٍّ فـــلاةٍ جُنْح ليلٍ جَوْزَاؤُه من رِكَاب
عن ذكرى لمدحهم فتناهَوْا من حديثى فى عرض أمر حِجَاب
همَّـــــةٌ فى السَّماء تسحب ذيلاً من ذيول العُلا وجدَّ الرِّكَاب

ومما جاء فى سُرى الليل قول عبد الصَّمد بن المعذّل ، وهو من حسَن الاستعارة :

أقولُ وجُنح الدُّجى مُلْبَدُ وللّيل فى كلّ فَجٍّ يدُ(١)
ونحن ضجيعان فى مسجدٍ فللّه ما ضمن المسجدُ !
فيا ليلة الوصل لاتبعَدى(٢) كما ليلة الهجر لا تبعـــدُ(٣)
ويا غد إن كنت لى راحماً فلا تدنُ من ليلتى يا غَدُ

(١) ديوان المعانى ٤٣ ،ونسبها إلى ابن أبى فنن .
(٢) ديوان المعانى : « لاتنفدى » (٣) ديوان المعانى : «لاتنفد»

وقال ابن المعتز :

يا ربّ ليل حالك الجلبـــاب ملتحف خافيتَىْ غراب

وما أحسن قول ابن شُهيد فى وصف الليل :

وبتنا نراعى الليل لم نطو بُرْدَهُ ولم يجن شيبُ الصبح من فَرْعِه وَخْطا
تراه كملك الزنج من فرط كبره إذا رام شيئاً فى تأخره أبطا
مطلاً على الآفاق والبدرُ تاجُه وقد علّق الجوزاء فى أذنه قُرْطا

وقال حبيب :

إليك هتكنا جُنْحَ ليلٍ كأنّه قد اكتحلت منه البلاد بإثمد[1]

وقال ذو الرّمة :

ودوِّيَّة مثل السماء اعتسفتُها وقد صبغ الليلُ الحصى بسوادِ[2]

وقال أيضاً :

وليل كجلباب العَروس ادّرعتُه بأربعةٍ والشخصُ فى العين واحدُ[3]
أحمّ عُلافىٌّ ، وأبيض صارمٌ وأعيسُ مَهرىٌّ ، وأرْوَعُ ماجدُ[4]

---

(١) ديوانه ١٠٣ .

(٢) ديوانه ١٣٩ ، واعتسفتها : سرت فيها على غير هداية .

(٣) ديوانه ١٢٩ ، وروايته: « دليل كأثناء الرويزى جبته » . والرويزى : طيلسان، شبه الليل فى سواده به. وجبته : قطعته .

(٤) هذا البيت تفسير للأربعة فى البيت السابق : أحمّ : أسود ، ومثله غداف . وفى الديوان : « علافى » ، منسوب إلى علاف، حى من العرب يعملون الرحال . والأبيض: سيف صارم قاطع ، والأعيس : الأبيض، يعنى بعيره ، وأشعث ، يعنى نفسه . والمهرى من الإبل : منسوب إلى مهرة ، حى من عرب اليمن .

وقال البحتريّ :

يا خليليّ بالهواجر من مَعْـــنِ بن عوفٍ وبُحتر بن عَتُودِ (١)
اطلبَا ثالثـــا سواىَ ، فإنّى رابعُ العِيس والدُّجى والبِيدِ

وقال السّلاميّ :

إليكَ طَوَى عَرْضَ البسيطةَ عاجلاً قطارُ المطايا أن يلوح لها القصْرُ ، (٢)
وكنت وعزمى فى الظّلام وصارمى ثلاثةَ أشباح كما اجتمع النّسْرُ
وبشّرْت آمالى بملْكٍ هو الورَى ، ودارٍ هى الدُّنيا ، ويومٍ هو الدّهْرُ

فالبيت الأوّل والثانى نحو بيت البحتريّ ، والبيت الثالث نحو بيت ذى الرّمة فى التقسيم ، وبمثل هذا الكلام يتمدّح الملوك وإلّا فلا . ولمّا مدح عضدَ الدولة بلّغه به من المكانة الغاية القصوى ، وفُتن بشعره ، حتى كان يقول : إذا رأيتُ السّلاميّ فى مجلسى ، ظننت أنّ عطارداً نزل من السماء . وسنذكر من شعره ما يحسن .

* * *

فحين مَلِلْنَا السُّرَى ، وَمِلْنَا إلى الْكَرَى ، صَادَفْنَا أَرضاً مُخضلَّةَ الرُّبَا ، مُعْتَـلَّةَ الصَّبَـا ، فتخيَّرْناهَا مُنَاخاً للعِيسِ ، وَمَحَطًّا للتَّعْرِيسِ ، فَلَمَّا حَلَّهَا الْخَلِيطُ ، وَهَدَأَ بِهَا الأَطِيطُ وَالْغَطِيطُ ، سَمِعْتُ صَيِّتاً منَ الرِّجَالِ ، يَقُولُ لِسَمِيرِهِ فى الرِّحَالِ : كَيْفَ حُكْمُ سِيرَتِكَ ، مَعَ جِيلِكَ وَجِيرَتِكَ ؟

* * *

(١) ديوانه ٦٣٣ ، وفيه «يانديمى بالسواجير من ودّ بن معن» والسواجير : نهر من أعمال منبج بسوريا

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٠

قوله: «السرى» ، أي السير بالليل . الكرى: النوم . مخضلّة: مبتلّة بالنّدى . الرُّبا : الكُدى ، واحدها ربوةً . معتلّة الصّبا ، أى ليّنة الريح . مناخاً : منزلاً . العيس : الإبل يخالط بياضها حمرة . محطًّا : منزلا تحطُّ به الأحمال . التعريس : النزول بالليل فى آخره،وهذا التخيُّر الذى ذكر لهذه الأرض ، منتزَعٌ من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كانت أرض مخصبة فتقصّدوا فى السير وأعطُوا الركاب حقها ، فإن الله رفيق يحبّ الرفق ، وإذا كانت مجدبةً فألحُّوا عليها ، وعليكم بالدّلجة ، فإنّ الأرض تُطوى بالليل ، وإياكم والتّعريس على ظهر الطريق ، فإنه مأوى الحيّات ومدارج السباع ».

الخليط : الأصحاب . هَدَأ : سكن . الأطيط : أصوات الإبل ، والغطيط: أصوات الناس النّيام . صيّتاً : جهير الصوت . سميره : رفيقه الذى يسمُر معه بالحديث . الرّحال : منازل المسافرين ، سمّيت رحالاً باسم الرّحال التى توضع فيها، والرَّحْل : اسم لما يحمله البعير من حمله وقَتَبه ومايوطّأ به تحت الحمل . سيرتك : عادتك . جيلك : أهل عصرك . جيرتك : جيرانك .

* * *

فقال : أرْعَى الجَارَ ، وَلَوْ جارَ ، وَأَبذُلُ الوصَالَ ، لِمَنْ صالَ ، وأحتمِلُ الخَلِيطَ ، وَلَوْ أَبْدَى التَّخلِيطَ ، وَأَوَدُّ الحَمِيمَ ، وَلَوْ جَرَّعَنِي الحَمِيمَ ، وَأُفَضِّلُ الشَّفِيقَ ، عَلَى الشَّقِيقِ ، وأَفِي لِلْعَشِيرِ ، وَإِنْ لَمْ يُكافِئْ بالْعَشِيرِ ، وَأَسْتَقِلُّ الجَزِيلَ ، للنَّزِيلِ ، وَأَغْمُرُ الزَّمِيلَ ، بالجَمِيلِ . أُنزِّلُ سَمِيرِي ، مَنْزِلَةَ أَمِيرِي ، وَأُحِلُّ أَنِيسِي ، مَحَلَّ رَئِيسِي، وَأُودِعُ مَعَارِفِي ، عَوَارِفِي ، وَأُولِي مُرَافِقِي ، مَرَافِقِي ، وَأُلِينُ مَقَالِي ، لِلقَالِي ، وَأُدِيمُ تَسْآلِي ، عَنِ السَّالِي ، وَأَرْضَى مِن الْوَفاءِ ، بِاللَّفاءِ ، وَأَقْنَعُ

(١) الكدى : جمع كدية ؛ وهى الأرض الغليظة .

مِن الْجَزاءِ ، بأَقَلِّ الأَجْزاء ، وَلاَ أَتظَلَّمُ ، حِينَ أُظْلَمُ ، وَلاَ أَنْقِمُ ، وَلَوْ لَدَغَنِي الأَرْقَمُ .

* * *

قوله : « أرعى » ، أى أحفظ . جار : تعدّى ومال عن الحق ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يُوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » . أبذل : أعطي . صال : صاح مخوّفا . الخليط : الصاحب ، ويقع على الواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد ، وسُمِّي بذلك لاختلاط الأمر بين الصاحبيْن . الحميم الأوّل : الصديق المخلص ، والثانى : الماء الحارّ . الشفيق : المحبّ . الشقيق : الأخ من الأب ، كأنه شقّ معك ظهر أبيك ومن الأم كأنه شقّ معك بطن أمك . أُفي العشير : أعامل الصاحب بالوفاء . يكافىء العشير : يجازى بالعُشر من فعلى ، والمكافأة المواساة . أستقلّ ، أراد قليلا . الجزيل : الكثير . النزيل : الضيف ، والنُّزُل ما يعدّ للضيف من طعام وغيره . أغمر : أعطى . الزّميل : الرديف . الجميل : الأفعال الجميلة . أميرى : الحاكم علىّ . الأنيس : الذى يؤنس بحديثه ، وفلان رئيس قومه : أفضلهم وأعزّهم . أودع : أعطى وديعة . معارفى : من يعرفنى . عورا فى : هِباتى ؛ واحدها عارفة ، وهى اليد من النعمة . أولِى مُرافقى : أعطى مصاحبى فى السفر ، ومنه الرفقة لاتفاق بعضهم ببعض ، جمع مَرْفقة وهى المعونة وما يُرْتفق به . القالى : المبغض ، وقليت الرجل قِلًى ، أبغضته . تسآلى : كثرة سؤالِى . السالى : الناسى للمودّة والتارك لها ، وسلوت عن الشىء أسلو سلوّاً وسلوة ، إذا تركته . اللَّفاء : النقصان . وقال أبو علىّ فى الإيضاح : اللّفاء ما دُون الحق ، قال أبو زيد الطائىّ واسمه حَرْملة رحمه الله :

فما أنا بالضّعيف فتظلمـــوه ولاحظِّى اللَّفاءُ ولا الخسيس[(١)]

---

(١) اللسان ــ لفأ . وروايته : «فما أنا بالضعيف فتزدرينى» .

أقنع : أرضى، والقناعة الرضا باليسير . والجزاء: المكافأة ، وجازيته بما صنع مثل كافأته ، والأجزاء : الأنصباء تقسم على جماعة ، واحدها جزء ، وأقلها أنقصها. أتظلم : أشتكى من الظلم . لا أنقم : لا أنتقم . تقول : نقمت منه نقمة ، أى عاقبته ، فمعناه : لا أعاقب صاحبى ، ولو بلغ فى الإضرار منى الغاية ، وتقول أيضاً : نقمت الشىء وأنقمه نقما ونقومًا : إذا أنكرته ، فمعناه على هذا : لا أنكر على صاحبى ولو بالغ فى الأذى ، ويقال فى الإنكار أيضا ، نقم ينقم .

* * *

فَقَالَ لَهُ صاحِبُه : وَيْكَ يَا بُنَيَّ ! إنَّمَا يُضَنُّ بالضَّنِينِ ، وَيُنَافَسُ فى الثَّمِينِ ؛ لَكِنْ أنَا لاَ آتِى ، غَيْرَ الْمُوَاتِى، وَلاَ أسِمُ الْمَاتِى ، بِمَرَاعَاتِى، وَلاَ أُصَافِى ، مَنْ يأبَى إنْصَافِى ، ولاَ أُواخِى ، مَنْ يُلْغِى الأَوَاخِى ، ولاَ أُمَالِى ، مَنْ يُخَيِّبُ آمَالِى ، ولاَ أُبالِى ، بِمَنْ صَرَم حِبَالِى ، ولاَ أُدَارِى ، مَنْ جَهِلَ مِقْدَارِى ، ولاَ أُعْطِى زِمَامِى ، مَنْ يُخْفِرُ ذِمامِى، وَلاَ أَبْذُلُ وِدَادِى ، لِأَضْدَادِى ، ولاَ أَدَعُ إِيعَادِى ، لِلْمُعَادِى ، وَلاَ أَغْرِسُ الأَيادِى ، فى أَرْضِ الأَعَادِى ، وَلاَ أَسْمَحُ بِمُوَاساتِى ، لِمَنْ يَفْرَحُ بِمَسَاآتِى ، ولاَ أَرَى الْتِفَاتِى ، إلَى مَنْ يَشْمَتُ بِوَفاتِى ، ولاَ أَخُصُّ بِحِبَائِى ، إلاَّ أحِبَّائِى ، ولاَ أَسْتَطِبُّ لِدَائِى ، غَيْرَ أَوِدَّائِى، ولاَ أُمَلِّكُ خُلَّتِى ، مَنْ لاَ يَسُدَّ خَلَّتِى ، ولاَ أُصْفِى نِيَّتِى ، لِمَن يَتَمَنَّى مَنِيَّتِى ، ولاَ أُخْلِصُ دُعَائِى ، لِمَنْ لاَ يُفْعِمُ وِعَائِى ، ولاَ أُفْرِغُ ثَنَائِى، عَلَى مَنْ يُفَرِّغُ إنَائِى .

* * *

قوله :«ويك» معناه التعجّب، كأنه قال: ما أعجبك! أو عجباً لك . وقيل : أراد«ويلك»، فحذف اللام. إنما يضنّ بالضَّنين[1]،هذا مَثَل؟،أوّل مَنْ قاله الأغلب العجليّ ،وفسره أبو عبيد[2] فقال:معناه: تمسَّك بإخاء من تمسَّكْ بإخائك ، وبيانه أن الضّنين البخيل، ويضنّ: يبخل ، فيقول : إنما أتمسَّكُ وأتعلَّق بصاحب تمسَّكَ بى وعرف حقى ، فأنا أبخل به على غيرى أن يشركنى فى صحبته كما يبخل بى هو على غيره ، وقيل :الضّنين فى المَثَل هو الشىء المضنون به لنفاسته ، فمعناه إنما يُبخَل بالشىء النفيس الرفيع . المواتى : المساعد الموافق . العاتى المتكبّر الصعب الخَلق . والمراعاة: المحافظة للودّ .أسِم: اجعلها سِمة ، أى علامة . أصافى : أخلص له ودّى .يأبَى: يمنع . إنصافى ، أى إعطائى الحق من نفسه . أواخى : أصير له أخا وأتخذه صديقاً . يلغى : يترك ويطرح . الأواخى : أسباب الود ، واحدها أَخيَّة، وأصل الأخيَّة عُرْوة من حبل تشدّ فى وتدٍ أو على حجر تحت الأرض ، وتبقى العروة على الأرض فيربط فيها حبل الدابه فيمسكها . أُمالى : أعاون ، وأصلها الهمزة ، تقول : مالأتُه على الأمر أمالئه، إذا عاونتَه وساعدته، ومنه :والله ما قتلت عثمان ولا مالأت فى قتله ، نخفف الهمزة ليوافق آمالى ، وهو جمع أمل ، وهو الرجاء . صرم حبالى: قطع أسباب وِصالى،وهم يكنون بالحبل عن الودّ،لأن الودّ يربط القلوب ويؤلّفها كالحبل فيما يربط . قوله :«أدارى» ،أسوس وأحسن صحبته .والزمام : حبل من جلود يربط فى حلقةٍ فى أنف البعير . يخفر ذمامى : ينقض عهدى ،أى لا أقادلن لاعهدله. ودادى :حُبِّى، وهو من وادّه وهو الذى لا يكون إلا من اثنين فوضعه موضع ودّى ، ويقال أيضاً :فى الحب حُباب ، مثل وداد ، قال الشاعر :

* أداء عرانِى من حُبابك أم سحرُ *

---

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٤٩

(٢) اللسان ، ونسبه إلى أبى عطاء وصدره :

* فوالله ما أدْرى وإنّى لصَادقٌ *

أضدادى : أعدائى المناقضين لأفعالى . إيعادى : تهديدى وتخويفى . الأيادى : النعم ، وواسيته : مواساةً : جعلته أسوة نفسى فى مالى فقاسمته فيه . مساآتى : أحزانى وما يسوءنى . التفاتى : نظرى وانعطافى إلى جهته . يشمت : يسر . وناتى : موتى . أخص : أفرد . حِبائى : عطائى . أحبّائى : جمع حبيب. أستطِبّ : أطلب طِبّه . خَلّتى : صداقتى . يسدّ خَلّتى : يصلح فقرى . أخلص : أجعله خالصاً . يُنعم : يملأ . أفرغ ثنائى : أصبّ مدحى وأكسوه ، أو يكون أفرغه ، أبلغ آخره .

* * *

وَمَنْ حَكَمَ بأَنْ أَبْذُلَ وَتَخزُنَ ، وَأَلِينَ وَتَخْشُنَ ، وَأَذُوبَ وَتَجْمُدَ ، وَأَذْكُوَ وَتَخْمُدَ ! لا وَاللهِ ، بَلْ نَتَوَازَنُ فى المَقَالِ ، وَزْنَ المِثْقَالِ ، وَنَتَحاذَى فِي الفَعَالِ ، حَذْوَ النِّعَالِ ، حَتَّى نأمَنَ التَّغَابُنَ ، وَنُكْفَى التَّضَاغُنَ ؛ وَإلاَّ فَلِمَ أُعِلُّكَ وَتُعِلُّنِى ، وَأُقِلُّكَ وَتَسْتَقِلُّنِى ، وَأَجْتَرِحُ لكَ وَتجْرحُنِى ، وَأَسْرَحُ إليْكَ وَتُسَرِّحُنِى . وَكَيْفَ يُجْتَلبُ إنْصَافٌ بِضَيْمٍ ، وَأَنَّى تُشْرِقُ نَفسٌ مَعَ غَيْمٍ ! وَمَتَى أُصْحِبَ وُدٌّ بِعَسْفٍ ، وَأَىُّ حُرٍّ رَضِىَ بِخُطَّةِ خَسْفٍ ! وَللهِ أبُوكَ حَيْثُ يقولُ :

° ° °

قوله : «تخزن» ، أى تحبس . أذكو : أضىء ، يقال : خمدت النار ، إذا سكن لهبها ، وذكت : اتقدت . والمثقال : الصنجة التى يوزن بها ، سميت بذلك لأنها تثقل ما يوزن بها فى الكفة الثانية . نتحاذى : نتشابه . والفَعال : بفتح الفاء : اسم للفعل الحسن أو القبيح ، ولا يقال بكسرها إلا فى مصدر فاعَل ، قال ابن الأعرابى : الفَعال : فعل الواحد من الخير والشر ، والفِعال بالكسر : الفعل بين الاثنين . حذو : متشابهة ، والعرب تقول فى الشيئين يشتبهان : هما حذو النعل

بالنعل،أى كل واحد من النّعلين تُقطع على قالب أختها ، ومنه قول الهذلى:

وتأمَّل السِّبْتَ الذى أحْــذُوكُمُ    فانظُرْ بمثل حذائه فاحذونى(١)

التّغابن : الغبن . نــكِفَى : نمنع . التضاغن : العداوة ، وتضاغن الرجلان : اعتقد كلٌ واحد منهما لصاحبه ضِغْناً وهو الحِقْد . أعُلّك : أسقيك عَلَلاً ، أى مرَّة بعد أخرى . تعلّنى : تمرضنى . أقِلُّك : أرفعك . تستقلّنى : تحقرنى . أجترح : اكتسب . أسْرَح : أرعى عليك ، وأجلب عليك الرزق بالغداة والعشىّ . تسرّحِنى : تهملنى . ضيم : ذلّ . أنَّى : كيف . تشرق : تُضىء ، من أشرقت ، وتشرُق تطلع ، من شرقت . غيم : سحاب . أصحب : أنقاد . بعسف : بجوْر ، وأصل العَسْف ركوب الأمر بغير تدبير . والخطة : المنزلة والمرتبة ، والخسف : الإذلال والنقصان ، ومنه خسف الأرض ، والخاسف: المهزول ، ويقال: باتوا على الخسف ، أى جياعاً ليس لهم شىء يتقوّتون به والخسف للدابة : أن تبيت بغير علفٍ .

* * *

جَزَيْتُ مَنْ أَعْلَقَ بِي وُدَّهُ    جَزَاءَ مَنْ يَبْنِي عَلَى أُسِّهِ

وَكِلْتُ لِلْخِلّ كَمَا كَالَ لِي    عَلَى وَفَاءِ الْـكَيلِ أَوْ بَخْسِهِ

وَلَمْ أُخَسِّرْهُ وَشَرُّ الْوَرَى    مَنْ يَوْمُهُ أَخْسَرُ مِنْ أَمْسِهِ

وَكُلُّ مَنْ يَطْلُبُ عِنْدِي جَنًى    فَمَا لَهُ إِلاَّ جَنَى غَرْسِهِ

لا أَبْتَغِي الْغَبْنَ ، وَلا أَنْثَنِي    بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ فِي حِسِّهِ

وَلَسْتُ بِالْمُوجِبِ حَقًّا لِمَنْ    لايُوجِبُ الْحَقَّ عَلَى نَفْسِهِ

وَرُبَّ مَذَّاقِ الهوى خَالَنِي    أَصْدُقُهُ الْوُدَّ عَلَى لَبْسِهِ

(١) لبدر بن عامر ، ديوان الهذليين ٣ : ٣٦٠

وَمَا دَرَى مِنْ جَهْلِهِ أَنَّنِي أَقضِي غَرِيمِي الدَّيْنَ مِنْ جِنْسِهِ
فَاهْجُرْ مَنِ اسْتَغْبَاكَ هَجْرَ الْقِلَى وَهَبْهُ كَالْمَلْحُودِ فِي رَمْسِهِ
وَالْبَسْ لِمَنْ فِي وَصْلِهِ لُبْسَةٌ لِبَاسَ مَنْ يُرْغَبُ عَنْ أُنْسِهِ
وَلا تُرَجِّ الْوُدَّ مِمَّنْ يَرَى أَنَّكَ مُحْتَاجٌ إِلَى فَلْسِهِ

* * *

قوله: «أعلَق» ، بمعنى علَّق،أى ألصق. أسّه : أصل بنائه؛ يقول: من عَلّق بقلبي ودّه، جعلت ذلك الودّ أسًّا بقلبي ، وبنيتُ عليه ودى، فإن أسس فى قلبى ودًّا سليما بنيت له عليه مثله ، وإن غَشَّنى فى ودٍّ غششته، والهاء فى «أسّه» ترجع إلى «مَنْ» أى مَنْ نصحنى فى صحبته نصحته . والخِلّ : الصاحب . بخسه : نقصه . أخسر : أنقص . الورى : الخلق من الناس . الجَنَى : ما يجنى من الثمرة . أبتغى الغبن : أطلب الخداع : أنثنى : أرجع ، وصفقة المغبون : بيعة المخدوع . حسّه : نهمه ، والحس: صوت حركة الحىّ . والصفقة : فى الأصل مصدر ، يقال: صَفَق صفقًا إذا ضرب بإحداهما على الأخرى ، وكانت صفقة البيع عند العرب أن يضرب المشترى بيده على يد البائع ، فإن رضى البيع قبض على يد المشترى وانعقد البيع ، وإن لم يرض أرسل يده ، ثم صاروا يقولون ، رضى الصفقة ، إذا رضىَ البيع ، ثم سُمِّى عقد البيع صَفْقة . مذاق : خلّاط غير مخلص . الهوى : الحبّ . وخالَنى : حسبنى . لَبْسه : تخليطه وتلبيسه . غريمى : صاحب دَيْنى. من جنسه : من نوع ما أعطانى . استغباك : استجهلك . القِلى : البغض . هبه : احسبه . الملحود : المدفون . رمسه : قبره ، ويسير إلى بيته قول ابن الرومىّ :

مَنْ تصدّى لأخيه بالغنى فهو أخوهُ

فإن احتاج إليه راءَ منه ما يَسُوءُهْ
يُكرَم المثرى فإن أمْلَقَ أقصاه بَنُوهُ
أنت ما استغنيتَ عن صا حبك الدَّهرَ أَخُوهُ
فإن احتجت إليه ساعةً مجَّكَ فُوهُ

ووُجد على حجر مكتوباً :

كلّ من أحوجك الدهر إليهِ وتعرَّضت له هُنْتَ عَلَيْه

وهذان المذهبان اللَّذان ذكرهما الحريريّ مبنيان على آيتين ، من كتاب الله تعالى ؛ قوله تعالى : ﴿وإنْ عاقَبْتُم فعَاقِبُوا بِمثْلِ ما عُوقِبْتم بِهِ ولئِنْ صَبرتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابرين﴾ ، والثانية قوله تعالى : ﴿وَلَمَنِ انْتَصَر بعد ظلمِه فأولئكَ ما عَلَيْهم مِنْ سَبِيل﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «لاخير في صحبة مَنْ لا يرى لك من الحق ، مثل الذى ترى له » .

[ مذاهب الشعراء فى العفو أو الانتصاف ]

وللشعراء القدماء والمحدثين فى المذهبين شعر كثير ، قال المقنّع الكنديّ فى المذهب الأول :

وإنَّ الَّذِى بينى وبينَ بنى أبِى وَبَيْنَ بنى عمِّى لمختلفٌ جدًّا[1]
أراهم إلى نصرى بِطاءً وإن هُمُ دعوْنى إلى نصْرٍ أتيتهمُ شدًّا
وإن أكلُوا لحمِى وفرْتُ لحومَهُمْ وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

(١) حماسة أبى تمام ٣ : ١٧١ ـ بشرح التبريزى

وإن ضَيَّعُوا غَيبي حفظتُ غيوبَهُمْ ... وإن هُمْ هَوُوا غَيّي هويتُ لهمْ رُشْدَا
وإنْ زجَرُوا طَيراً بنحسٍ تمرُّ بِي ... زجرتُ لهمْ طيراً تمرُّ بهم سَعْدَا
لهمْ جلَّ مالى إن تتابع لى غنًى ... وإن قلَّ مالى لم أكلفهمُ رِفْدَا
ولا أحملُ الحِقْدَ القديم عليهمُ ... وليس يسودُ القومَ من يحمِلُ الحقْدَا

وقال معن بن أوْسٍ المُزَنيّ فى المذهب الثانى :

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاك وجدتَه ... على طرف الهِجران إن كان يعقِلُ[1]
ويركبُ حدَّ السيفِ مِنْ أن تَضيمَهُ ... إذا لم يكن عن شَفْرةِ السيفِ مَزْحَلُ
وكنتُ إذا ماصاحبٌ رامَ ظِنَّتِى ... وبدَّل سوءاً بالذى كُنْتُ أفعلُ
قلبت له ظهر المِجَنِّ فلم أدمْ ... على ذاك إلاّ ريثما أتحوّلُ

وقال إبراهيم بن العباس الصولىّ :

أميل مع الذّمام إلى ابن عمِّى ... وآخذ للصديق من الشقيقِ[2]
وإن ألفيتَنِى حُرًّا مُطاعاً ... فإنك واجدِى عِنْدَ الصديقِ
أفرِّق بين معروفِى وبينى ... وأجمع بين مالِى والحقوقِ
وكنت إذا الصديقُ أراد غيظى ... وأشرقنِى على شَرَقٍ بِرِيقِى
غفرتُ ذنوبه ، وصفحت عنه ... مخافة أن أعيش بلا صديقِ

وكلّف إبراهيم بن العباس بعض إخوانه مقاطعة صديق فقال له :

إلى متى أحمل بحقدك لا أضُرُّ به سِوَاكا[3]

---

(١) حماسة أبى تمام – بشرح التبريزى ٣ : ١٣٢
(٢) ديوانه ١٥٤
(٣) ديوانه ١٤٦

ومتى أطعتُك فى أخيـك أطعتُ فيك غـداً أخَاكَا
حـــتَّى أرَى مستقسمًا يومى لِذَا ، وغداً لذَاكَا

وقال أبو الفتح البُستىّ فى المذهب الثانى:

فــإن تزرْنى أَزُرْ وإمَّا تَقِفْ ببابى أقف ببـابكْ
والله لا كنتَ فى حسابى إلاَّ إذا كنتُ فى حسابكْ

أين هذا من قول البستىّ أيضاً وقد خالفه فيه خلافاً شديداً ، ولا نازعه أحد فيه ، ولا سبقه إليه إذ يقول :

وإنّى لأختصُّ بعضَ الرجال وإن كان فَدْماً ثقيلاً عَبَامَا[1]
فإنـــَّ الجُبَيْن على أنه وخيمٌ ثقيلٌ يشهِّـى الطَّعَامَا

ولابن شرف :

بِعْ مَنْ جفاك ولا تبخـل بسلعَتِه واطلب به بَدَلاً إن راه تَبْدِيلاَ

وهو كثير ، وبما ذكرت يستدلّ على الباب .

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا وَعَيْتُ مَادَارَ بينهما ، تُقْتُ إلَى أَنْ أَعْرِفَ عينهما ، فَلَمَّا لاحَ ابْنُ ذُكاء ، وَأَلْحفَ الْجَوَّ الضِّيَاء ، غدَوْتُ قَبْلَ اسْتِقْلاَلِ الرِّكَابِ ، وَلاَ اغْتِدَاءِ الْغُرَابِ ، وَجَعَلْتُ أَسْتَقْرِىْ صَوْبَ الصَّوْتِ اللَّيْلِيِّ ، وَأَتوَسَّمُ الْوُجُـوهَ بالنَّظَرِ الجَـلِيِّ ، إلَى أَنْ

(١) العبام : الغليظ الجافى

لَمَحْتُ أبا زَيْدٍ وابنَهُ يَتَحَادَثَانِ ، وَعَلَيْهِما بُرْدَانِ رَثَّانِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُمَا نَجِيَّا لَيْلَتِي ، وَصَاحِبَا رِوَايَتِي .

* * *

قوله : «وعيت» ، أى حفظت . تقت ، أى اشتقت . عينهما : شخصهما . لاح : ظهر . ابن ذُكاء : هو الصبح ، وذكاء هى الشمس ، ويقال للصبح : ابن ذكاء لأنه من ضوئها . ألحف : غطّى . الجوّ : الهواء بين السماء والأرض ، أراد أن الصبح غطّى نواحى السماء بضوئه .

[ما ورد فى الصبح من الشعر]

ومن حسن التشبيه فى ضوء الصبح قول ذى الرمّة :

وقد لاح للسّارى الذى كمّل السّرى ... على أخريات اللّيل فتْقٌ مشهّرُ[1]
كلون الحصان الأبيض البطن قائماً ... تمايل عنه الجُلّ واللون أشقرُ

شبه اختلاط الضوء بالظلمة بالفرس الأشقر الأبيض البطن .

وقال ابن المعتزّ :

وساقٍ يجعل المنديلَ منْهُ ... مكان حمائل السيف الطّوالِ
غدا والصبحُ تحت الليل بادٍ ... كطِرْفٍ أشقرٍ ملقِى الجِلاَلِ

وقال **يوسف الرمادى** :

وليلة أنس قد غمرْنا ظلامها ... بأوجــهِ راحٍ تستنير فترشفُ
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنّما ... تحمّل لقمانٌ ، وأقبـل يوسفُ

قوله: «غدت» ، أى بكرت . استقلال: ارتفاع وقيام . والركاب : الإبل

(١) ديوانه ٢٢٧

واحدتها ، راحلة . ولا اغتداء الغراب ، أى ولا مثل اغتدائه ؛ فحذف « مثل» المنصوبة بلا ، وأقام «اغتداء »مقامها لأن« لا » لا تنصب المعارف ، وأراد أن اغتدائى كان قبل أن يغتدِىَ الغراب ، والغراب أكثر الطير بكوراً ، وهذا وما شابهه فى هذا الكتاب مثل قوله : «ولا كيد فرعون موسى» ، «ولا انهلال السحب » ، «ولا عمرو بن عبيد» ، إذا طابت حقيقة معناه صار المشبّه أقوى من المشبه به ، ولم يأت هذا إلا عن العرب، تقول العرب : «فتى ولا كالك»، فيريدون مالكاً أفضل من الفتى ، ومثله «مرعًى ولا كالسَّعدان » أى أن المرعى فاضل فى طيبه ، ولكن السعدان أفضل منه ، ومثله : « ماء ولا كصدّاء » ، فصدّاء أفضل من ذلك الماء على طيبه ، فهذا مذهب العرب فى ذكر «لا» بين المشبّهين.

وأما قول الحريرى:«غدوت ولا اغتداء الغراب» ، فيريد أن غدوّى أبكر من اغتداء الغراب ، وكذلك « ولا انهلال السّحب » ، وهو يريد أنّ جودهم فوق جود السحاب ، لأن كلام العرب : فلان أبكرُ من الغراب ، وأجود من السحاب ، ولا يقولون السحاب أجود من فلان ، ولا الغراب أبكر من فلان، ولا فائدة فى ذلك، فإذا حققت لفظة «ولا» فى تشبيه الحريرىّ على ما يجب لها فى كلام العرب انقلب المعنى ، وإنما اللفظ من كلام عامّة العراق ، فاستعملها لأنها عندهم متعارفة وليست بعربية ، ومثل هذا قد جوّزه المولدون فى أشعارهم ، وجاء منه فى مقامات البديع كثير . ويستعمل أهل فاس فى مغربنا لفظة « ولا» فى تشبيهاتهم كثيراً جدًّ اعلى حدّ استعمال الحريرىّ لها ، ولا يستعملها أهل الأندلس .

وقال الفنجديهىّ : الرفع فى قوله :«ولا اغتداء الغراب » ، أكثر مبالغةً فى التشبيه من النصب .

قوله:«أستقرىْ»، أى أتتبع . صوب :جهة وناحية. الليلىّ : الذى سُمع بالليل. أتوسّم . أتعرّف وأنظر سمتها . الجلىّ : البيّن. لمحت : رأيت . بُرْدان رثّان :

وبان خَلَقان . نجيًّا لياتى ، أى المتحدّثان فيها ، وجعلهما متحدثين مع الليلة مجازاً لما أوقعا الحديث فيها ، كقوله تعالى : ﴿بل مكْرُ الليل والنهار﴾(١) ولا يمكران إنما يُمْكَر فيهما ، فنسب ذلك المكر إليهما. صاحبا روايتى . أى اللذان أروى عنهما هذه القصة .

* * *

فَقَصَدْتُهمَا قَصْدَ كلف بِدَمَاثَتِهِمَا ، رَاثٍ لِرَثَاثَتِهِمَا ، وَأَبَحْتُهُمَا التَّحوُّلَ إِلَى رَحْلِي ، وَالتَّحَكمَ فِي كُثْرِي وَقُلِّي ، وَطَفِقْتُ أُسَيِّرُ بَيْنَ السَّيَّارَةِ فَضْلَهُمَا ، وَأَهُـزُّ الأَعْوَادَ الْمُثْمِرَةَ لَهُمَا ، إِلَى أَنْ غُمِـرَا بِالنُّحْلَانِ ، وَاتُّخِذَا مِنَ الْخُلاَّنِ . وَكُنَّا بِمُعَرَّسٍ نَتَبَيَّنُ مِنْهُ بُنْيَانَ الْقُرَى ، وَنَتَنَوَّرُ نِيرَانَ الْقِرَى .

فَلَمَّا رَأَى أَبُو زَيدٍ امْتِلاَءَ كِيسِهِ ، وَانْجِلاَءَ بُوسِهِ ، قال لى : إِنَّ بَدَنِي قَدْ اتَّسَـخَ ، وَدَرَنِي قَدْ رَسَخَ ، أَفَتَأْذَنُ لِي فِي قَصْـدِ قَرْيَةٍ لأَسْتَحِمَّ ؛ وَأَقْضِيَ هَـذَا المهِمَّ ؟ فَقُلْتُ : إِذَا شِئْتَ فَالسُّرْعَةَ السُّرْعَةَ ، وَالرَّجْعَةَ الرَّجْعَةَ ، فقَالَ : سَتَجِدُ مَطْلَعِي عَلَيْكَ ، أَسْرَعَ مِنَ ارْتِدَادِ طَرْفِكَ إِليك .

* * *

كَلِف : محبّ . دَماثتهما : سهولتهما ، والدّماثة سهولة الأرض ، وكل ما وطئته وسهّلته وأذللته بيدك فهو دَمِث . راثٍ : باكٍ مشفق . ورثاثتهما : سوء

(١) سورة سبأ ٣٣ .

حالها . أبحته : جعلته له مباحاً . كُثْرِى و قُلِّى : أى كثير مالى وقليله . طفقت : أخذت . أسيّر : أمشى . السيارة : القوم الذين يسيرون فى الأسفار . أهزّ الأعواد ، استعارة ، وأراد أنه يستعطف لها أصحاب الأموال فيواسونهم ، فكنى عنهم بالأعواد ، وقد كرّر هذا المعنى نظماً حين قال :

قصدته والشيخ يبغى جَنَى عُودٍ له ما زال مهزُوزَا[1]

وقال الشاعر فى مثله :

إلاّ يَكُنْ ورقٍ غضًّا أراح به للمعتفين فإنى ليّن العــــودِ

أراد إنْ لا أكن كثير المال فإنى كريم . والورِق : المال غير الصامت ، وأراح به : أهتزّ به من الأريحيّة . وراح الشجر : أتى بورق فى آخر الصيف لاأصل له ، ويقال لها الخلفة . قوله : « غمَرا » ، أى أعطيا . النّحلان : العطايا . الخِلاّن : الأصحاب . وقوله : « وكنا بمعرّس » ، المعرّس موضع النزول آخر الليل . نتنوَّر : ننظر النيران . القِرى : طعام الضيف . كيسه : وعاء دراهمه ، والكِيس : خريطة تسع خمسمائة درهم والبَدْرة تسع عشرة آلاف درهمٍ ، قال حبيب :

من بعد ما صارتْ هنيدة صِرمةً والبَدْرة النَّجلاء صارت كيسا[2]

قوله : « انجلاء بوسه » ، انكشاف فقره . دَرَنِى : وسخى . ورسخ الشىء فى الأرض رسوخاً : غاب فيها ، ورسخ العالمِ فى العلم : دخل فيه . أستحمّ : أدخل الحمام ، واستحمّ الرجلُ : اغتسل بالحميم ؛ وهو الماء الحارّ . أقضى : أقطع وأزيل ، وقضيت الشىء : صنعته . المهمّ : أراد به فَرْض الصّلاة ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنّ أهم أموركم عندى الصّلاة ، فمن ضيَّعها فهو لما سواها أضْيَع . وقيل :

---

(١) فى المقامة الأربعين صفحة ٤٤٨ (طبعة الحسينية) .

(٢) ديوانه ١٧٧ ، والهنيدة : اسم المائة من الإبل . والصرمة : ما بين العشرة إلى بضعة عشر . والنجلاء : الواسعة .

للمهمّ:الوسخ لأنّ الأمر المهمّ ، هو الذى فى القلب منه همّ وشغل ، وقد ذكر أن الذى أوجب عليه قصد الحمام هو ما عليه من الوسَخ ، فيكون قوله : « وأقضِى هذا المهمّ »من قوله تعالى:﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾(١) ، وقد أهمّنى الشىء فهو مهِمّ ، وهذا القول أوفق بمراده .

[ نبذ ممّا قيل فى الحمّام شعرا ونثرا ]

وللزاهد بن عمران رحمه الله وقد استبطأ فى دخول الحمّام :

يا صاح عهدىَ بالحمّام قد بَعُدَا ... فلا تلمنِىَ فيه إن طلبتُ مَدَى
قارعتُ فيه العِدا فى معرَكٍ لجِبٍ ... دَحْضٍ تزلّ به الأقدام قد بَعُدا
عِداً أثرن برأسى حين ثُرْن به ... توقّدا وأعادت جلدَه جَـلِدَا
فظلْت مستأصِلاً بالقتل أجمعُها ... فلم أدَعْ والداً منها ولا وَلَدَا
ثم انثنيتُ معافًى ناعماً جَذِلاً ... مظفّراً أستزيد الواحد الصَّمَدَا

ورأى نفسه ممتدّاً بين يدى الحكّاك ، فقال :

أأغترّ إن مُدّ فى العُمْرِ لى ... وأُرجِى المتابَ إلى قابِـلِ
وأغفلُ والموت لِى طالبٌ ... حثيثٌ كذئب الغضَى القاتلِ
كأنّىَ بى هكذا ميتاً(١) ... تَحَكَّمُ فىّ يَدُ الغاسِـلِ

وله أيضاً :

شكرت للدهر حسنَ ما صنَعَا ... طريدَ مجـدٍ تحيّتى رفعا
يا حُسْنَ حمّامنا وقدغَرُبَتْ ... شمس الضحى فيه بعد ما مَتَعَا
أيقن َ أنَّ الهلال راكبُه ... فضاء للحاضرين واتّسعا
فأنعمْ أبا عامر بنعمتِـه ... واعجبْ لأمرين فيه قد جُمِعَا

(١) الحج ٢٩ : ١١٢ (٢) ا : « كأنى بى »

نيرانه من زِنادِكُمْ قُدِحت  وماؤه من بَنانكم نبعا

ولبعضهم فى حمّام كانت مضاوئه من زجاج أحمر ، وفى سمائه حمرة وبياض:

تحيّرتُ من طيبِ حمّامِنا  فخُيِّل لى أن فيه الفلقْ

فمن حمرةٍ فوقنا وابيضاض  لخدّ الحبيب إذا ماعَرِقْ

رأى الدهر ماسدّ من حُسْنِه  فسدّ كُوَى سقفه بالشّفقْ

ودخل الحمّام أبو جعفر التُّطيليّ وأبو بكر بن بقيّ رحمهما الله تعالى ، فقال أبو جعفر :

يا حُسْنَ حمّامنا وبهجته  مرأًى من السّحر كله حَسَنُ

ماءٌ ونارٌ حواهما كنفٌ  كالقلب فيه السّرور والحزَنُ

ونظر فيه إلى غلام وسيم ، فقال :

هل استمالك ميّال القوام وقَدْ  سالت عليه من الحمّام أنداءُ

كالغصن باشَرَ حرّ النار من كَثَب  فظلّ يقطر من أعطافه الماءُ

وقال آخر :

حمّامنا فيه فصل القيظ محتدمٌ  وفيه للبرد سرٌّ غير ذى ضررِ

ضدّان ينعم جسم المرء بينهما  كالغصن ينعم بين الشمس والمطرِ

وقال ابن رشيق : ومما قلته على عقب وداع :

ولم أدخلِ الحمام ساعةَ بينهمْ  لأجل نعيم ،قد رضيت ببُوسى[1]

ولكن لتجرى عَبْرتى مطمئنةً  فأبكى ، ولا يدرى بذاك جليسى

---

(١) طراز المجالس ١٢٢ .

وقال آخر :

وحَمّامٍ كأنَّ النار فيـــه ... مسعّرةٌ بنيرانِ الجحيمِ
دخلت أنا ومَنْ أهواه فيه ... فلاح لنا كجنّات النعيمِ

وقال آخر فى ذم حمّام :

وحمّامِ سُوءٍ وَخِيم الهوا ... قليل المياه كثير الزِّحامْ
فمـا للقيام به من قعودٍ ... ولا للقعود به من قِيامْ
حنيّاته عطفـــات القِسيِّ ... وقطراته صائبات السِّهامْ

وقال آخر فى تعجيل الخروج منه :

خذ من الحمّام واخرجْ ... قبل أن يأخذ مِنْــكَا
حَدِّثَنْ عنه وإلا ... حدّثَ الحمّام عنْــكَا

وقال ابن رشيق :

ومُرْتَهنٍ لَدَى الحمّام أضحى ... وحالاَه لأصحـــاب السَّعِيرِ
إذا سئموا العذاب أو استغاثوا ... أغاثُوهم بباب الزَّمهـــــرِيرِ
كذلك حاله حَـــرّاً وبرداً ... ببيت الحوْض أو بيت الطّهورِ
وطال به انتظارُ مُـــواعديه ... فقـــد زاد الشقيّ على النَّظِيرِ

وله أيضاً :

سأشكر للحمّام بدءاً وعودةً ... أيادىَ بِيضًا ما لهن ثَمينُ
جلاك على عينىَّ عُريانَ حاسرا ... فرحتَ بتطليــقٍ وأنت قَمِين(١)
وطهّر قلبى من هـــواك ببـاردٍ ... وسُخْنٍ نقرَّ الجفن وهـــو سَخينُ

(١) ط : « ثمين » . وما أثبته من ا ، ب .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الحمّام يذكّرُ جهنم ، وينقّى الدَّرَن .

وقال علىّ رضى الله عنه : بئس البيت الحمّامُ! تُكشَف فيه العورات ، وترتفع فيه الأصوات ، ولا يُقرأ فيه آية من كتاب الله تعالى .

ودخله بعضُ الأمراء مع الرقاشى فقال له : امدحْه ، فقال : يُذْهب القَشافة ، ويعقب النظافة ، ويفُشّ (١) التُّخمة ، ويطيّب النّعمة ، فقال : ذمّه ، فقال : يهتك الأستار ، ويؤلّف الأقذار ، ويذهب بالوقار .

* * *

قوله : « إذا شئت فالسرعة السرعة » ، يقول : إذا شئت أن تقصد الحمّام فالزم السرعة ، وعجل الرجعة ، وكرّرها تأكيداً ، والفعل الناصب لهما يلزم إضماره مع التكرير ، فإذا أفردت جاز إظهار الفعل ، ونظيرهما قول العرب : الطريق ، الطريق ، والأسد الأسد وقال الشاعر :

* خلّ الطريق لمن يُبنى المنارُ لَهُ *

فلما سقط التكرير ساغ له إظهار الفعل . مطْلَعى : مصدر بمعنى طلوعى . أهل الحجاز يفتحون لامه فى المصدر وغيرهم يكسرها . ارتداد طرفك ، أى رجوع نظرك .

* * *

ثمَّ اسْتَنَّ اسْتِنَانَ الْجَوَادِ فِي المضْمارِ ، وَقَالَ لابْنِهِ : بَدَارِ بَدَارِ ! وَلَمْ نَخَلْ أَنَّهُ غَرَّ ، وَطَلَبَ الْمَفَرَّ . فَلَبِثْنَا نَرْقُبُهُ رِقْبَةَ الأَعْيَادِ ، وَنَسْتَطْلِعُهُ بالطَّلاَئِعِ وَالرُّوَّادِ ، إِلَى أَنْ هَرِمَ النَّهَار ، وكادَ جُرُفُ النَّهَارِ يَنهَارُ . فَلَمَّا طَالَ أَمَدُ الانْتِظَارِ ، وَلاَحَتِ الشَّمْسُ فِي الأَطْمَارِ ، قُلْتُ لأصْحَابِي : قَدْ تَنَاهَيْنَا فِي الْمُهْلَةِ ، وَتَمَادَيْنَا فِي

(١) يقال: فش الوطب ، أى أخرج مافيه من الريح

بالرِّحْلَةِ ، إلَى أنْ أضَعْنَا الزَّمَانَ ، وَبَانَ أنَّ الرَّجُلَ قَدْ مَانَ ، فَتَأهَّبُوا لِلظَّعَنِ ، وَلاَ تَلْوُوا عَلَى خَضْرَاءِ الدِّمَنِ .

* * *

استنَّ استنانَ الجواد : جرى كما يجرى الفرس ، وإنما يقال : استنَّ فى كلامه إذا جرى فى غير طريق بتحريف ، ومنه قولهم : استنَّت الفِصال حتى القرعى[(١)] ، يريدون جرت الفصال وهى تلعب ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « فاستنَّت شرَفاً أو شرَفين » . وقال الشاعر يذكر طعنة خرج دمها فى جهة :

بمستنَّةٍ كاستنانِ الخرو ... فِ وقد قطَع الحبلَ بالمِرْوَد[(٢)]

أراد المهر ، ويقال له : خروف وفلوّ ، وقد فسر «استنّت الفصال » بأن معناه أحسن رعيتها ، حتى كأنه صقلها . والجواد : الفرس الكريم . المضمار : الطَّلَق تجرى فيه الخيل ، سمّىَ مِضْماراً لأن الخيل تضمَّر فيه ، وذلك أنَّ العرب كانت تسمّن الخيل فتستخرجها إلى المِضْمار ، فتجريها طَلَقاً قدر ما تحتمل ، ثم تزيدها يوماً آخر فى الجرْى على ذلك ، ثم لا تزال تزيدها فى الطَّلَق كل يوم ، حتى تجرى بها الأميال ، فيسيل عَرَق الخيل بذلك الجرْى ، ويشتدّ لحمها بذلك التضمير قال زهير :

تُضَمَّر بالأصائل كلَّ يومٍ ... تُسنّ على سنابكها القرونُ[(٣)]

القرون : دُفَع العَرق ، واحدها قَرْن .

وقوله : « بدار بدار » ، أى سبقاً سبْقاً ، وهو معدول عن بدر ، فيقول لابنه :

---

(١) مثل ، يضرب للرجل يفعل ماليس له بأهل . جمهرة الأمثال ١ : ١٠٨
(٢) اللسان ــ خرف ، ونسبه إلى رجل من بنى الحارث .
(٣) ديوانه ١٨٧

أبدر بالجرى ، واسبق إلى الحمّام. لم تخَل : لم تحسب. غرّ : خدع . نرقبه ، أى ننظر من أين يجىء ويروى : « نرقبه رقبة أهلّة الأعياد » .

وما أحسن قولَ ابن الزقّاق فى هذه الرّقبة :

وشهرٍ أدرنا لارتقاب هـلاله ... جفوناً إلى نحو السماء موائلاَ[1]
إلى أنْ بدا أحوَى المدامع أحورٌ ... يجرّ لأذيال الشّباب غـلائلاَ
فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... بمن قد حوى طيب الشّمول شمائلاَ
أتطلبك الأبصار فى الجوّ ناقصاً ... وأنت كذا تمشى على الأرض كاملا

وله فى معناه :

لله شهرٌ مانظـرتُ هلالَهُ ... إلاّ كنونٍ أو كعطفة لام ِ[2]
حتى تبدّى لى أغنُّ مهفهفٌ ... بضيائه ينجَابُ كلُّ ظلاَم ِ
فطفقت أهتف بالأنام ضللتمُ ... وغلطتمُ فى عـدّة الأيام ِ
ما جاءنا شهرٌ لأول ليلة ... مذ كانت الدنيا ببدر تمام

نستطلعه ، أى نلتمس طلوعه . الطلائع : الباحثون عليه . والروّاد : الطالبون له ، وأصل الطلائع الباحثون عن أخبار العدوّ ، والراصدون فى الطرقات ، الواحد طليعة ، وأصل الروّاد الطالبون للمرعى . هَرِم : شاخ ، ومعناه قارب أن يتمّ . ينهار : ينهدم . والجُرُف : ما يأكله الوادى ، استعاره للنهار . لاحت : ظهرت. والأطمار : الثياب الخلَقة ، أراد أن ثوب الشمس وهو ضوءها قد تغيّر وبلى عند الغروب ، وبعضهم يستعمل هذه الاستعارات فى الشتاء وغروب الشمس .

ومما يستغرب من ذلك قول العلوىّ الأصبهانىّ :

ومجلسِ شربٍ جئتُـه متطرّباً ... عشيّاً وعينُ الشّمس فى الأفق تنعَسُ

(١) ديوانه ٢٣٨
(٢) ديوانه ٢٥٨ .

وقال ابن الرّومىّ :

كأنّ جنوح الشّمس ثم غروبها ... وقد جعلت فى مجنح الليل تَمرَضُ[١]

تخاوصُ عَينٍ بيْنَ أجفانها الكرى ... يرنّق منها النّوم وهى تغمّضُ

وقال أيضاً :

إذا رنّقتْ شمسُ الأصيل ونفّضتْ ... على الأُفقِ الغربىّ وَرْساً مُذَعزَعا[٢]

وودّعت الدّنيا لتقضىَ نحبَهــا ... وشوّل باقى عمرها فتَشَعْشَعَا[٣]

ولاحظت الأنوار وهى مريضةٌ ... وقد وضعت خدّاً على الأرض أضرَعَا

كما لاحظت عوّادَه عينَ مدنفٍ ... توجَّع من أوصابه ما توجّعا

أخبرنى ابن منصور ، قال :خرجتُ بخارج فاس عشيةمع فتى ورّاق ، فنظر إلى صفرة الشمس واستنشق برد النسيم ، وأنشدنى مرتجلاً :

انظر إلى الشمس فى الأصيلِ ... كأنّها وَجْنَتَا عليــلِ

ورقّ هــذا النسيمُ حتّى ... كأنمــا يشتكى نحولِى

وقال ابن الزّقاق :

وعشيةٍ لبستْ مِــلاء شقيق ... تُزهَى بلونٍ للخدود أنيقِ[٤]

أبقتْ بها الشّمسُ المنيرةُ مثلَ ما ... أبقى الحياء بوجنتىْ معشوقِ

لو أستطيع شربتُها كلفاً بها ... وعدلت فيها عن كئوسِ رحيقِ

وقال ابن سراج :

والشمس تنفض زعفرانا بالرّبا ... وتبثّ مسكتها على الغيطان

---

(١) ديوان المعانى ١ : ٣٦١

(٢) ديوان المعانى ١ : ٣٦١ ، ومذعذعاً : مفرقا .

(٣) شول باقى عمرها ، أى لم يبق منه إلا القليل .

(٤) ديوانه ٣٠٦ وفيه : « لبست رداء شقيق »

وما أحسن قول الرّصافى فى معناه :

وعشىّ أنسٍ للسرور وقد بَدَا من دون قُرْص الشّمس مايتوقّع[١]
سقطت ولم تملك يمينُك ردّها فوددت يا موسى لَوَ أنّكَ يُوشَعُ

وقال ابن الرومىّ فى طلوع الشمس من خلل السحاب وذكر امرأة :

تريك بياض غُرّتهـا ووجهـاً كقرن الشّمس أغسق ثم زَالاَ
أصاب خصاصةً فبدا كليلاً كلاَ وانفلّ ســـائره انفلالا

قوله : « بدا كليلا » إشارة إلى أنه عندما بدا غاب بسرعة ، وأذكر « كَلاَ » فى المقامة التاسعة والثلاثين .

وقال ابنُ المعتزّ فى نحوه :

تظـــلّ الشمسُ ترمقنا بلحظ مريضٍ مدنَفٍ من خَلْف سِتْرِ[٢]
تحاول فتْقَ غيم وهــو يأبَى[٣] كعِنِّينٍ يريدُ نــكاح بِـكْرِ

قوله : «تناهينا» ، أى بلغنا النهاية . والمهلة : التراخى ، يقول: قدتراخينا فى انتظاره حتى بلغنا الغاية فى ذلك . «تمادينافى الرحلة»، هذا على حذف مضاف للعلم به ، تقديره :تمادينا فى ترك الرحلة وانتظارها ، ومثل هذا الحذف جائز فى النظم والنثر وأنشد أبو على :

أنا النذيرُ لـكمْ منىّ مجاهرةً كى لا أُلامَ على نهيى وإنذارِى

أى على تركى النهى والإنذار ، وقال آخر :

وأهلك مهرَ أبيك الدّوا ءُ ليس له من طعامٍ نصيبِ

(١) ديوانه ١٠٤ ، مع اختلاف فى الرواية .
(٢) ديوان المعانى ١ : ٣٦٠ ، وفيه : « بلحظ خفى » .
(٣) ط : «فتح غيم» ، وماأثبته من ديوان المعانى .

أى فقد الدواء ، وجاء فى القرآن ﴿ وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾[1] أى أهل القرية ، و﴿ هى أشدُّ قُوَّةً من قريتك ﴾[2] ، أى من أهل قريتك ، ومثل هذا كثير فى القرآن والكلام الفصيح ، بمَّا لا يتمّ المعنى إلا بتقديره ؛ فالذى غلَّط الحريرىّ فقال : لو تمادتْ بهم الرحلة لكانوا فى سير متّصل، قد جهل الكلام الفصيح فأراد : طالتْ بنا هذه السفرة . وتمادى الشىء فهو متمادٍ ، إذا طال فيه المدى ، وهو الغاية البعيدة . يقول : تأخَّرنا عن السفر اليوم لتمادينا فى انتظاره ، فطالت علينا السفرة لمطلة السفر ، حتى أضعنا اليوم الذى انتظرناه فيه حيث لم نسافر وبه . والزمان : اليوم . بان : تبيَّن . مان : كذب ؛ يقال منه : مان يمين مَيْناً ، وأما مَانَهُ يَمُونه مَوْناً ، فقام بمؤنته . قوله : « فتأهّبوا » ، استعدوا . الظعن : الرحيل . ولا تلوُوا: تعرِّجوا. خضراء الدمَن : عشب المزابل، هى حسنة المنظر سيِّئة المخبر ، وإذا يبست لم ينتفع بعُودها لخوره وضعفه ، فشبّه بها أبا زيد لحسن ظاهره فيما أبدى لهم من فصاحته ، وسوء باطنه فى كذبه وإخلاف وعده ، حتى عطَّلهم عن سفرهم نهاراً فى انتظاره ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : إياكم وخضراءَ الدِّمَن ، فقيل له : وما خضراء الدمن ؟ فقال : « الجارية الحسناء فى المنبت السوء » .

* * *

وَنَهَضْتُ لِأُخْدِجَ رَاحِلَتِي ، وَأَتَحَمَّلَ لِرِحْلَتِي ، فَوَجَدْتُ أَبَا زَيْدٍ قَدْ كَتَبَ ، عَلَى القَتَبِ :

يَا مَنْ غَدَا لِي سَاعِدًا  وَمُسَاعِدًا دُونَ البَشَرْ
لَا تَحْسَبَنْ أَنِّي نَأَيْتُ  كَ عَنْ مَلَالٍ أَوْ أَشَرْ
لَكِنَّنِي مُذْ لَمْ أَزَلْ  مِمَّنْ إِذَا طَعِمَ انْتَشَرْ

---

(١) سورة يوسف ٨٢ .  (٢) سورة محمد ١٣

قالَ : فأَقْرَأْتُ الجماعَةَ القَتَبَ ، لِيَعْذِرَهُ مَنْ كانَ عَتَبَ فأُعْجِبُوا بخُرَافَتِهِ ، وَتَعَوَّذُوا مِنْ آفَتِهِ .
ثمّ إنا ظَعَنَّا ، وَلَمْ نَدْرِ مَنِ اعْتَاضَ عَنَّا .

* * *

قوله : «أحدج » : أى اجعل عليها الحدَج ، وهو مركب من مراكب النساء ، وأراد أرحل الناقة . وراحلته : ناقته . أتحمّل لرحلتى ، أو قرِ حملى للرحيل ، يقال : تحمّل القوم ، إذا عبّوا أحمالهم وارتحلوا . والقَتَب : خشب الرّحْل . قوله : «ساعدا » ، أى ذراعا يستعين به . مساعدا : موافقا . نأيتك : بعدت عنك . أشَر : بطر وعدم شكْرٍ ، يقال : أشَر الرّجل يأشِر أشَراً ، إذا بطر ، قال الأخطل يذكر بنى أمية :

أعطاكُم الله جَدًّا تُنْصَرونَ بِهِ ... لا جَدّ إلاصغيرٌ بَعْدُ مُحتَقَرُ[(١)]
لم يأشَرُوا فيه إذ كانُوا مَوَالِيَه ... ولو يكون لقومٍ غيرِهم أشِرُوا

قوله : «مذ لم أزل » ، أى مذ بنْت ووجدت . انتشر : ذهب . عتب : لام وسخط فعله . خُرافته : حديثه الملهى .

[ حديث خرافة ]

وحديث خُرافة[(٢)] مثَلٌ سائر على ألسنة الناس فى القديم والحديث ، يضرَب لكلّ حديث لا حقيقة له . ووقع فى أمثال المفضّل بسند يصل إلى عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : حدّثنى حديث خُرافة ، فقال : رحم الله خرافة ، كان رجلاً صالحاً ، فأخبرنى أنه خرج ذات ليلة فلقىَ ثلاثة نفر من الجنّ

(١) ديوانه ١٠٤ ، وفيه : « أعطاهم الله » .
(٢) انظر الميدانى ١ : ١٣١ ، الفاخر ١٦٨ ، اللسان ١٠ : ٢١٤ .

فسبّوه ، فقال أحدهم : نعفو عنه ، وقال آخر نقتله ، وقال آخر : نستعبده ، فبينما هم يتشاورون فى أمره ، إذ ورد عليهم رجل ، فقال : السلام عليكم . فقالوا : وعليك السلام ، قال : وما أنتم ؟ قالوا : نفر من الجنّ ، أسَرْنا هذا فنحن نأتمر فى أمره ، فقال : إن حدّثتكم حديثاً عجيباً ، أتشركوننى فيه ؟ قالوا : نعم ، قال : إنى كنتُ ذا نعمةٍ فزالت ، وركِبَنى دَيْن ، فخرجت هارباً ، فأصابنى عطش شديد ، فسرت إلى بئر فنزلت لأشرب ، فصاح بى صائح من البئر : مه ! فخرجت منها ولم أشرب ، فغلبنى العطش ، فعدت ، فصاح بى ، ثم عدت الثالثة فشربت ، ولم ألتفت إليه . فقال : اللهم إن كان رجلا فحوّله امرأة ، وإن كان امرأة فحوّلها رجلاً ، فإذا أنا امرأة ، فأتيت مدينة فتزوّجنى رجل ، فولدت منه ولدين ، ثم عدتُ إلى بلدى ، فمررت بالبئر التى شربت منها ، فنزلت فصاح بى كما صاح فى الأول ، فشربت ولم ألتفت له ، فدعا كالأول ، فعدتُ رجلاً كما كنت . فأتيت بلدى ، فتزوّجت امرأة ، فولدت منها ولدين ، فلى ابنان منْ ظهرى وابنان من بطنى . فقالوا : إن هذا لعجيب ، أنت شريكنا ، فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم ثوْر يطير فلما جاوزهم ، إذا رجل بيده خشبة ، وهو يحضر فى إثره ، فوقف عليهم فسلّم ، فردّوا ، وسألهم ، فردّوا عليه مثل ردهم على صاحبيهم ؛ فقال : إن حدّثتكم بحديث أعجب من هذا أتشركوننى فيه ؟ قالوا : نعم ، قال : كان لى عمّ ، وكان موسراً ، وكانت له ابنة جميلة ، وكنّا سبعةَ إخوة ، وكان لعمّى عجلٌ يربّيه ، فانفلت ، فقال : أيّكم يردّه فابنتى له ؛ فأخذت خشبتى هذه ، واتّزرت ، ثم حضرت فى إثره وأنا غلام ، وقد شبْت ، فلا أنا ألحقه ولاهو يكلّ ؛ فقالوا : إن هذا لعجب ، اقعد فأنت شريكنا . فبينما هم يتشاورون ، إذ ورد عليهم رجل على فرس أنثى . وخلفه غلام على فرس ذكر ، فسلّم كما سلّم صاحباه فردّوا عليه كردّهم على صاحبيه . فسألهم فأخبروه الخبر ، فقال لهم : إن حدّثتكم بحديث أغرب من هذا ، أتشركوننى فيه ؟ فقالوا نعم ، قال : كانت لى أمّ خبيثة ـ ثم قال للفرس الأنثى الذى تحته : أكذلك هو

فقالت : برأسها نعم — قال : وكنتُ أتَّهِمُها بهذا العبد — وأشار إلى الفرس ، الذى تحت غلامه: أهكذا ؟ فقال برأسه : نعم — فوجَّهت بغلامى هذا الراكب ذات يوم فى بعض حاجاتى ، فحبسته عندها فأغفى ، فرأى فى منامه كأنها صاحت صيحة ، فإذا هى بجُرَذٍ قد خرج ، فقالت : اسجد ، فسجد ، ثم قالت : اكرب فكرب(١) ، ثم قالت : ادرس فدرس ، ثم دعت برَحاً فطحنت قدَح سَويقٍ ، فأتت به الغلام ، فقالت له : ائت به مولاك ، فأتانى به ، فاحتلت عليهما حتى سقيتهما القدح ، فإذا هى فرس أنثى ، وإذا هو فرس ذكر ، قال: أكذلك ؟ قالت الفرس الأنثى برأسها : نعم ، وقال الفرس الذكر برأسه : نعم ، فقالوا إن هذا أعجب شىء سمعناه ، أنت شريكنا . فأجمع رأيهم فأعتقوا خُرافة فأتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بهذا الحديث ، فما جاء من الأحاديث المحالَة نُسِب إلى خرافة صاحب الحديث .

* * *

قوله : « آفته » أى ضرره . ظعنَّا : رحلنا . اعتاض : استبدل .

---

(١) الفاخر : « احصد فحصد » .

# المقامة الخامسة وهى الكوفية

حكى الحارثُ بن همّام قالَ : سَمَرْتُ بالكوفةِ في ليلةٍ أديمُها ذو لونين ، وقَمَرُها كتعويذٍ من لُجَيْن ، مع رُفْقةٍ غُذُوا بلِبانِ البيان ، وسَحَبُوا على سَحْبانَ ذيلَ النِّسيان ، ما فيهمْ إلا مَنْ يُحفظُ عنهُ ولا يُتحفَّظُ منهُ ، ويَميلُ الرَّفيقُ إليهِ ، ولا يَميلُ عنهُ ، فاستهوانا السَّمَرُ ، إلى أنْ غَرَبَ القمرُ ، وغَلَبَ السَّهَرُ . فلمّا روَّقَ الليلُ البهيمُ ، ولم يَبقَ إلا التَّهويمُ ، سَمِعنا من الباب نَبْأةَ مُستنْبِحٍ ، ثُمَّ تلَتْها صَكَّةُ مُستفتِحٍ ، فقلنا : مَنِ المُلِمُّ ، في الليلِ المُدْلَهِمِّ ؟ فقال :

* * *

[ الكوفة ]

سَمَرْتُ بالكوفة . الكوفة بلد بالعراق مشهور بينه وبين بغداد ثلاثون فرسخاً ، وسميتْ كوفة لاستدارتها ، أخذت من الكوفان ، وهى الرملة الشديدة البياض ، وقيل : سمِّيت كوفة لاجتماع الناس فيها ، من قولهم : تكوَّف الرمل تكوُّفاً ، إذا ركب بعضُه بعضاً ، وقيل : سمِّيت كوفة ، لأنها قُطعت من البلاد ، من قولهم : أعطيت فلاناً كُيْفة ، أى قطعة ، وكفت أ كيف كَيْفا : قطعت . والكوفة « فُعلة » منه ، قُلبت الياء واواً للضمّة التى قبلها .

وهى مدينة العراق الكبرى ، والمِصْر الأعظم وقُبَّة الإسلام ، ودار هجرة المسلمين ، وأوّل مدينة اختطّها المسلمون بالعراق .

وذكر شيخنا أبو الحسن بن جُبير[1] في رحلته حاجًّا، أنه دخل الكوفة في أوّل محرَّم سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، فقال : هي مدينة كبير ، قد استولَى الخراب على أكثرها ، فالعامر منها أقلّ من الخراب ، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها ، وهي لا تزال تضرّبها ، وكفاك بتعاقب الأيّام والليالي ما حقاً ومنفياً ! وبناؤها بالآجرّ خاصّة ، ولا سورَ لها . والجامع العتيق آخرها مماَّ يلي شرق البلد ، ولا عمارة تتَّصل به من جهة الشرق . وهو جامع كبير ، في الجانب القبليّ منه خمس أبلطَة ، وفي سائر الجوانب بلاطتان متَّسعتان ، وهي على أعمدة من السَّوارِي المصنوعة من صَمِيم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة ، مُفْرَغة بالرّصاص ، ولا قسيّ عليها ، وهي في نهاية من الطول متّصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها، فما رئيَ في الأرض مسجد أعْلَى سقفاً منه ، ولا أطول أعمدة ، ولهذا الجامع آثار كثيرة منها بيت بإزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة ، يقال إنه كان مُصَلَّى الخليل إبراهيم عليه السلام ، وعليه ستر أسود صونًاله ، ومنه يخرج الخطيب لابساً ثياب السواد للخطبة ، والناس يزدحمون على هذا البيت للصلاة فيه ، وبتقربة هذا البيت عن يمين القبلة محراب محلق عليه بأعواد الساج ، كأنه مسجد صغير مرتفع عن صحن البلاط ، هو محراب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفيه ضربه الشقيّ عبدالرحمن بن مُلْجَم ، فالناس يصلّون فيه باكين داعين ، وفي الزّاوية من البلاط القبلي المتّصل بآخر البلاط الغربيّ شبه مسجد صغير محلّق عليه أيضا بأعواد الساج ، وهو مَفارُ التَّنُّور الذي كان آيَةَ نوح عليه السلام ، ويتصل بالجدار القبليّ فضاء ، يقال إنه كان منشأ السفينة .

ومع هذا الفضاء دار عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ـ تلقينا هذه الآثار

(١) هو محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي البلنسي الرحالة ، قام برحلته الأولى إلى المشرق من غرناطة سنة ٥٧٨ ، وعاد إلى وطنه سنة ٥٨١ ، ووصف مشاهدته في كتابه المعروف برحلة ابن جبير .

حن أشياخ البلد وفى الجهة الشرقيَّة بيت قبر مَسلمة بن عَقيل ، وفى جوف الجامع سقاية كبيرة فيها ثلاثة أحواض كبار ، وفى غربيّ المدينة على مقدار فرسخ المشهد الشهير المنسوب لعلى بن أبى طالب حيث بركتْ ناقته ، وهو محمول عليها ميّتاً ، وفيه قبره ، والله تعالى أعلم بصحة ذلك . والفُرات فى الجانب الشرقىّ على قدر نصف فرسخ ، والجانب الشرقى كله حدائق نخل ماتفّة يمتد سوادها امتداد البصر(١) .

* * *

قوله : « سمرت » أى ذهب نومى . الأديم : الجِلد ، وأراد أنّ لون الليلة فيه سواد وبياض ، لأن قمرها ناقص ، ولذلك جعله . كتعويذ من لُجينٍ ؛ وهو خرز فضة ، يُستعمل مستديراً استدارة القمر ، وبعض الدائرة ، فارغ فيربط فى الدائرة خيط ، فيعلّق فى أعناق الصبيان .

[ مما ورد فى الهلال من الشعر ]

وقال فيه السكرادى :

قُمْ سَلِّ هَمِّى بالمدا ... م فعيه همّ قد أمضَّهْ
أوَ ما ترى قمر السّما ... ء كأنه تعويذ فِضَّهْ
فـإذا ألمَّ به المحـا ... ق تخالُه فى الخدِّ عَضَّهْ

وعلى معنى البيت الآخر ، قال إسماعيل القاضى يصف الهلال :

اسقنِى قبل صاحبى ... واخش صَرْفِ النوائبِ
فالهلال الذى يـلو ... حُ خلال الغَيَاهِبِ

(١) رحلة ابن جبير ١٨٩ ، ١٩٠ .

مثل فخ اللجين صيـ ـغ لصيد الكواكب

وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب :

لمّا رأيت الهلال مُنطوياً في غرّة الفجر قارن الزُّهَرَهْ
شبَّهته والعيانُ يشهد لي بصولجانٍ أوفى لضربِ كُرَهْ

وقال القاضي أبو الحسن بن لبّال :

انظر إلى الهلال إذْ لاح بهيّ المنظر
كزورقٍ من فضةٍ وسط لُجَينٍ أخضَرِ

أخذه من قول ابن المعتزّ :

أهلاً بفِطْرٍ قد أنار هلالُهُ فالآن فاغْدُ إلى المُدام وبَكِّرِ (١)
وانظرْ إليه كزورقٍ من فضَّةٍ قد أثقلته حمولة من عنبَرِ

وله أيضاً :

أهلاً وسهلاً بالنّاي والعود وشُربِ كأسٍ بكفِّ مَقْدُودِ
قد انقضت دولةُ الصيام وقدَ بشَّر مرأى الهلال بالعيدِ
يتلُو الثريّاً كفاغرٍ شَرِهٍ يفتح فاه لأَكْلِ عنقُودِ

وقد شبَّهه ابنُ المعتزّ بقُلامة الظفر ، فأحسن حيث يقول :

وجاءني في قميص اللّيل مستتراً يستعجل الخطوَ من خَوْفٍ ومن حَذَرِ
ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحه مثلُ القُلامةِ قد قُدَّت من الظُّفُرِ

---

(١) ديوانه ١١٦ . ديوان المعاني ١ : ٣٤٠

وأخذه من قول الأعرابيّ :

كأنَّ ابن مُزنتها جانحاً فَسِيط لدى الأفق من خِنْصَرِ (١)

ابن مزنتها : الهلال . الفسيط : قُلامة الظفر .

قوله: «غذوا» : أى ربّوابه وجُعل غذاءهم ؛ واللِّبان للآدميات ، واللبن الآدميات وغيرهنّ. سَحبوا: جرّوا. سحبان : فصيح العرب ، وانظره فى السادسة عشرة . ذيل النسان :طرَفه ،يريد أنهم بفصاحتهم أنْسَوْا ذكر سَحبان، فكأنهم جرّوا عليه ثوب النسيان حتى غطّوْه ، فلم يذكره أحدمن هؤلاء ، وأصل ذلك أن يُسحب ذيل الثوب على أثر ليخفى ، كقول امرىء القيس :

* تُعَفّى بذيل الدّرع إن جئتُ موئلى *

وكقوله :

خرجْتُ بها تمشى تَجرُّ وراءنَا على أثَرَيْنَا ذيلُ مِرْطٍ مُرحّلِ (٢)

قوله :«يُحفظ عنه» ، أى هم علماء يروون العلم فيحفظ عنهم. يُتحفَّظ ، يُتحذَّر ، وأخذ هذا من قول سليمان بن عبد الملك : قد أكلتُ الطَّيب ، ولبست اللّين ، وركبت الفارِهَ ، وتبطّنت العذراء ، فلم يبق لى من لذّتى إلا صديق أطرح فيما بينى وبينه مؤنة التحفّظ. فهذا الذى طلبه سليمان وجده الحريرىّ فى أصحابه، وأصل التحفّظ الاجتهاد فى حفظ الشىء وقلة الغفلة فى الأمور ، كأنه على حذر ، وأنشد ثعلب :

إنّى لأبغض عاشقاً متحفّظاً لم تتهمه أعْيُنٌ وقلُوبُ

(١) اللسان ــ فسط ، ونسبه إلى عمرو بن قميئة وهو أيضا فى ديوان المعانى ١ : ٣٣٩

(٢) ديوانه ١٤

قوله: «يميل الرفيق إليه» ، تقول : مِلْتُ إلى فلان، إذا أحببتَه وتقرّبتَ منه ، ومِلْتُ عنه، إذا كرهتَه وبَعُدت عنه. والرفيق: الصاحب يُرتفق به في السفر. قوله : «استهوانا »، هوَى بنا وشغلنا . والسَّمَر : الحديث يُسمر عليه . وذكر الحريريّ أن أصل السَّمر ظل القمر ، والسَّمَر : الحديث ، ومنه أخذ السمير ، وغالب أحوال السّمار أنهم يتحدثون في ظل القمر - وذكر هذا في تفسير الرابعة والأربعين - وهو الأصل ، ثم اتسع فيه فصار الجلوس بالليل للحديث يسمى سَمَراً ، على أيّ حال اتفق . روّق : ضرب رِواقه ، والرواق. الثوب يُستظلّ به من الشمس ، يريد أنّ الليل ضرب عليهم من ظلامه رواقاً فاحتجب عنهم به القمر . والبهيم : الخالص السواد ، والبهيم الخالص من كلّ لون . والتهويم : النوم بالليل ، والتغوير : النوم في القائلة ، وقد هَوّم الرجل، إذا أسقط النُّعاس رأسَه فانتبه بسقوطه فرفعه، فحقيقته سجود الرأس من النعاس ، قال ذو الرُّمّة في ذلك :

وأشعثَ مثل السَّيف قد لاحَ جسمَه ... وجيفُ المهارَى والهموم الأَباعِدُ[(١)]
سقاه النُّعاس كأسَ سكر فرأسُه[(٢)] ... لدين الكرَى في آخر اللّيل ساجِدُ

ويقال : خفق رأسه فهو خافق ، قال ذو الرّمة :

وخافِق الرأس فوق الرَّحْلِ قلت له ... زُعْ بالزّمام وجوزُ الليل مَرْكُومُ[(٣)]

وقال الرصافيّ[(٤)] فأحسن :

ومجدِّين للسُّرَى قَدْ تعاطَوْا ... غفواتِ الكرَى بغير كئوسِ
جَنَحُوا وانْحنَوْا على العيسِ حتّى ... خِلْتُهم يلثمونَ أيدى العِيسِ
نبذوا الغُمض وهو حلْوٌ إلى أن ... وجدوه سُلافَةً في الرءوس

(١) ديوانه ١٣٠ .
(٢) الديوان : « سقاه الكرى كأس النعاس وما درى » .
(٣) ديوانه ٥٧٩ . وزع بالزمام ، أي اعطف الناقة بالزمام .
(٤) هو أبو عبدالله محمد بن غالب الرصافي ، والأبيات في ديوانه ١٠٢ .

قوله : « نبأة » ، أى صوت . مُستنبح : يحكى نُباح الكلاب ، وكان الرجل إذا تلف بالليل بالصحراء ولم يدر أين يتوجَّه ، حاكى بصوته نُباح الكلب ، فإن كان قريباً من العمران نبَحتْ لُنباحه كلاب الحىّ ، فسمع أصواتها، فقصد الحىّ. تسمّى العرب مَنْ يفعل هذا المستنبِح . وأنشد أبو علىّ فى نوادره :

ومستنبحٍ بات الصدى يستتيهُهُ فتاةَ وجَوْزُ الليل مضطربُ الكِسْرِ (١)
رفعتُ له ناراً ثقوباً زنادُها تُليحُ إلى السارى:هلُمَّ إلى قِدْرِى

وقال حسان بن مائل :

ومستنبحٍ فى جُنح ليلٍ دعوتُه بمشبوبة فى رأس صَمْدٍ مقابل
فقلت له أقبل ، فإنَّك راشِدٌ وإنَّ على النار النّدى وابنُ مائلِ

وقد أنشد أبو تمام فى حماسته فى باب الأضياف فى المستنبح ما فيه كفاية ؛ فلينظر هنالك .

قوله : «تلثها» ، أى تميتها . صكّة : دفعة . مستفتِح : طالب فتح الباب . الملمّ : الزائر : المدلهمّ : الشديد السواد ، من الدّهمة ، ولامه زائدة .

* * *

يا أَهْلَ ذَا الْمَغْنَى وُقِيتُمْ شَرَّا وَلاَ لَقِيتُمْ مَا بَقِيتُمْ ضُرَّا
قَدْ دَفعَ اللَّيْلُ الَّذِى اكْفَهَرَّا إِلى ذَرَاكُمْ شَعِثاً مُغْبَرَّا
أَخَا سِفارٍ طالَ وَاسْبَطَرَّا حَتَّى انْثَنَى مُحْقَوْقِفًا مُصْفَرَّا
مِثْلَ هِلاَلِ الأُفقِ حِينَ افْتَرَّا وَقَدْ عَرا فِناَءكُم مُعْتَرَّا
وَأَمَّكُمْ دُونَ الأَنَامِ طُرَّا يَبْغِى قِرًى مِنْكُمْ وَمُسْتَقَرَّا

---

(١) أمالى القالى ١ : ٢١٠ ، ونسب أبو عبيد البكرى فى اللآلى هذا الشعر إلى رجل من بنى الحارث بن كعب . وجوز الليل: وسطه ، وكسر البيت: جانبه .

فَدُونَكُمْ ضَيْفًا قَنُوعًا حُرَّا يَرْضَى بِمَا احْلَوْلَى وَمَا أَمَرَّا
وَيَنْثَنِي عَنْكُمْ يَنُثّ الْبِرَّا

* * *

المَغْنَى : المنزل . وُقيتم : كُفيتم ، وإنما دعا لهم بهذا ، لأن فى حديث أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يوشك قلوبُ الناس أن تملأ شرًّا حتى يجرى الشرّ فضلاً بين الناس فلا يجد قلباً يدخله » .

اكفهرّ : تراكم ظلامه وكثر . ذَرَاكم : منزلكم وكنفكم ، وكلُّ ما استترت به من ريح أو مطر أو شمس فهو ذَرًا . شَعِثًا : متغيّر الشعر ، والشعث : ترك غسل الرأس حتى يتغيّر . مغبرًّا : عليه الغبار ، وفى الحديث عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً وسخت ثيابه ، فقال : «أمَا وجد هذا ما ينقى به ثيابه !» . ورأى رجلاً شَعِث الرأس ، فقال : «أما وجد هذا ما يسكّن به شَعره !» . أخَا سِفار : صاحب أسفار ، أى ملازم لها . اسبطرّ : امتدّ وطال سفره . انثنى : رجع وعاد . محقوقفاً : منحنياً . الأفق : ناحية السماء . افترّ : انفتحت أطرافه ولم يتقارب ، كأنه فرّ هذا من هذا ، ومنه فررت الدابة ، وافترّ : ضحك ، وشبّه انحناؤه من السفر بدائرة القمر الناقص ، وأكثر ما يوقعون هذا التشبيه على الانحناء من الكِبَر ، قال الشاعر :

تقوّس بعد مَرّ العُمر ظهرى وداستنى الليالى أىَّ دَوْسِ
فأمشى والعصا تَهْوِى أمامِى كأنّ قوامَها وترٌ لقوسِى

وقال ابن لبّال :

قوّس ظهرى المشيب والكِبَرُ والدّهر ياعمرُو كُلُّهُ عِبَرُ
كأننى والعصا تدبّ معى قوسٌها وهى فى يدى وَتَرُ

قوله : « عَرَا » : قصد . فناءكم : منزلكم ، وفناء الدار : ما أحاط بها من الأرض لخمته . معترًّا : قاصدًا لطلب معروفكم ، أَمّكم : قصدكم . طُرًّا : أجمع . يبغي قِرًى : يطلب طعاماً . احلولى : اشتدّت حلاوته . ينُثّ : يفشي وينشر . البرّ : الإحسان .

* * *

قال الحارثُ بن همّام : فلما خَلَبَنَا بِعُذُوبَةِ نُطْقِهِ ، وَعَلِمْنَا مَا وَرَاءَ بَرْقِه ، ابْتَدَرْنَا فَتْحَ الْبَابِ ، وَتَلَقَّيْنَاهُ بِالتَّرْحَابِ ، وَقُلْنَا لِلْغُلَامِ : هَيَّا هَيَّا ، وَهَلُمَّ مَا تَهَيَّا .

فقال الضَّيف : وَالَّذِي أَحَلَّنِي ذَارَكُمْ ، لاتَلَمَّظْتُ بِقِرَاكُمْ ، أَوْ تَضْمَنُوا لِي أَلاَّ تَتَّخِذُونِي كَلاًّ ! وَلاَ تَجَشَّمُوا لأَجْلِي أَكْلاً : فَرُبَّ أَكْلَةٍ هَاضَتِ الآكِلَ ، وَحَرَمَتْهُ مَآكِلَ ، وَشَرُّ الأَضْيَافِ مَنْ سَامَ التَّكْلِيف ، وَآذَى الْمُضِيفَ ، خُصُوصاً أَذًى يَعْتَلِقُ بِالأَجْسَامِ ، وَيُفْضِي إِلَى الأَسْقَامِ ، وَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ الذي سَارَ سَائِرُهُ : « خَيْرُ الْعَشَاءِ سَوَافِرُهُ » ، إِلاَّ لِيُعَجَّلَ التَّعَشِّي ، وَيُجْتَنَبَ أَكْلُ اللَّيْلِ الَّذِي يُعْشِي ، اللَّهُمَّ إِلاَّ أَن تَقِدَ نَارُ الْجُوعِ ، وَتَحُولَ دُونَ الْهُجُوعِ .

* * *

قوله : « خلبنا » ، أي خدعنا . علمنا ماوراء برقه ، يريد أن ما أبدى لهم من الكلام الفصيح دلّهم على ما عنده من العلم ، كما أن البرق إذا ظهر ولمع عُلِم ماوراءه من المطر . ابتدرنا : استبقنا ، التّرحاب : من قولهم . مرحبا مرحباً . هيّا هيّا ، أي سق سق . هلم ما تهيّا ، أي أحضِرْ ما تيسر . لاتلمَّظت بقراكم : لا تذوّقت بطعامكم ،

وأصل التلمّظ تتبع اللسان ما بقى من الطعام فى الفم بعد الأكل . كَلا : ثقيلاً ، وفلان كَلٌّ على أهله ، إذا لم يكفهم مؤونة نفسه ، والكلّ : الإعياء ، وجمعه كلول ، وعلى فلان كلٌّ كثير ، قال النابغة الجَعْدِىّ :

رأيتم بنى سعدٍ كلولاً كثيرةً شهيدٌ بذاك ابنا حُمادِ بن أحمرا[١]

تجشّموا : تكلفوا . أكلا : طعاما ، والأكلة : الغداء والعَشاء ، والأصل فى هذا أنَّ الأكل بالفتح، مصدر أكل ، وبالضمّ ما أُكِل ، والأكلة بالفتح : المرّة الواحدة ، وبالضم اللقمة ، وبالكسر هيئة الأكل . هاضت : أضعفت ، وأدخلت عليه هيضةً ، وهى القيء والإسهال ، وأصل المثل : رب أكلة تمنع أكلات ؛ وقال ابن هرمة :

ورُبَّتَ أكلةٍ منعت أخاها بلذّة ساعةٍ أَكَلاتِ دَهْرِ
وكمْ من طالب يُشْقَى بشيء وفيه هلاكه لو كان يَدْرِى

والمآكل : جمع مأكلة أو مأكل ، وهى الأُكُل ، وهى أيضاً مايؤكل . سامَ التكليف ، أى عرّض مضيفه إلى تكلّف مايشقّ عليه . والأذى : الضرر ، والمضيف : صاحب المنزل . يفضِى : يئول . سار سائره : انتشر التحدّث به ومشى فى الناس . خير العشاء سوافره ؛ بواكره ، أى ماأكل منه بضوء النهار ، واحدها سافرة ، والسافرة : المرأة التى سَفَرت نقابها عن وجهها ، أى كشفته ؛ فكأن اللقمة إذا أبصرتها عند أكلها قد سَفَرت الظلام عن نفسها ، وتُجمع على سوافر على هذا المعنى ، حكى أبو بكر بن شعبان النحوىّ ، قال : دخلت على محمد اليزيدىّ وهو يتغدّى ، فقال : يا أبا بكر ، خيْر الغداء بواكره ، فخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدرى ، فقال : دخلت على حسين بن الخادم ، وهو يتغدّى فقال :

(١) ديوانه : ٥٦

يا أبا سليمان ، خير الغداء بواكره ، فخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدرى ، فقال : كنت بحضرة الرشيد وهو يتغدّى ، فدخل الأصمعىّ ، فقال : يا أصمعىّ ، خير الغداء بواكره ، فخير العشاء ماذا ؟ فقال: بواصرُه ، يعنى مايُبصَر من الطعام قبل الظلام . وحكى أبو يعقوب فى الغداء التأخير. فقال : قال الحكيم ـ وقيل هو لعلىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه ـ من سرّه البقاء ولا بقاء . فليبكر الغداء ، وليباكر العشاء ، وليخفف الرّداء ـ يريد ثقل الدَّين .

التعشّى : أكل العشاء ، وهو ما يؤكل بالعشىّ . يعشِى : يورث العَشَا ، وهو سواد البصر ليلا ، قال ابن دُرَيد :

وأرى العَشَا فى العين أكثر ما يكون من العَشاء[1]

أراد من تأخير العشاء ، لأن أكل الطعام بالليل يحدث ضعف البصر أكثر من غيره ، وقال كشاجم :

وَنَديمٍ مخالفٍ لا يشاء الّذى أشا[2]
هو فى الصّحْوِ لى أخ وعدوّ إذا انْتَشَى
اقترحت العَشَاء يو ماً عليه فأدْهَشَا
ساعةً ثم قالى لى : العَشا يورث العَشَا

كأن هذا التطبّب أخذه كشاجم من قول [ضيف] الصاحب بن عباد ، قال الصاحب : ما أفحمنى أحد كأبى الحسن البديهىّ ، فإنه كان عندى، فقدّمت إليه فاكهة، فأمعن فى المشمش ،فقلت : المشمش يلطّخ المعدة ، فقال : لا يعجبنى المضيف

(١) ديوانه ٣٠ . والعشا المقصور داء فى العين ، والممدود الأكل عشيا .
(٢) ديوانه ١٠٦ .

إذا تطبّب ، فوددت أنى لم أقلها .

وورد النهى عن ترك العشاء فى حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تدعوا العَشاء ، ولو بكفٍّ من حَشَفٍ[(١)] ، وإنّ تركه مَهْرَمَة » .

وقوله : «تحول دون الهجوع» ، أى تمنع من النوم ، وجاء فى الحديث النّهى عن التكلف ، قال سفيان : ذهبت أنا وصاحبٌ لى إلى سلمان ، فقال : لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن التكلّف لتكلّفت لكم ، ثم جاء بخبز وملح ، فقال صاحبى : لو كان فى ملحنا صَعْتَر ! فبعث سلمان مِطْهرته[(٢)] ، فأرهنها[(٣)] ، فجاء بصعتر ، فلما أكلْنا قال صاحبى : الحمد لله الذى أقنعنا بما رزقنا ، فقال سلمان : لو قنعت لم تكن مطهرتى مرهونة ! وجاء فى حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نعم الإدام الخلّ » ، وكفى بالمرء إثماً أن يسخط ما قُرّب إليه . الهجوع ، أى النوم .

* * *

قال : فَكَأَنَّهُ اطَّلَع عَلَى إِرَادَتِنَا ، فَرَمَى عَنْ قَوْسِ عَقِيدَتِنَا ، لاَ جَرَمَ أَنَّا آنَسْنَاهُ بِالْتِزَامِ الشَّرْطِ ، وأثنَينا عَلَى خُلُقِهِ السَّبْطِ . وَلَمَّا أَحْضَرَ الْغُلاَمُ مَا رَاجَ ، وَأَذْكَى بَيْننا السِّرَاجَ ، تَأَمَّلْتُهُ فإذا هُوَ أَبُو زيدٍ ، فقُلْتُ لِصَحْبِي : لِيَهْنِئْكم الضَّيْفُ الوارِدُ ، بل الْمَغْنَمُ البارِدُ ! فإن يَكُنْ أَفَلَ قَمَرُ الشِّعْرَى فقَدْ طَلَعَ قَمَرُ الشِّعْر ، أو استتَرَ بَدْرُ النَّثْرَةِ فقَدْ تَبَلَّجَ بَدْرُ النَّثْر . فَسَرَتْ حُمَيَّا المسرَّة فيهِمْ ، وَطَارَتْ السِّنَةُ عَنْ مَآقِيهِمْ ، وَرَفَضُوا الدَّعَةَ الَّتِي كَانُوا نَوَوْهَا ،

(١) الحشف : ردىء التمر . (٢) المطهرة : إناء يتطهر به .
(٣) أرهنها : جعلها رهناً .

وثابُوا إِلَى نشْرِ الْفُكَاهَةِ بَعْدَ مَا طَوَوْهَا ؛ وَأَبو زيد مُكبٌّ عَلَى إِعمَالِ يَدَيْهِ ، حَتَّى إِذَا اسْتَرْفَعَ مَا لَدَيهِ ، قُلْتُ لَه : أَطرِفْنَا بِغَرِيبَةٍ مِنْ غَرَائِبِ أَسْمَارِكَ ، أَوْ عَجِيبَةٍ مِنْ عَجَائِبِ أَسْفَارِكَ . .

* * *

قوله : «عقيدتنا» ؛أى ما انعقدت عليه نيّاتنا،ويقال : رميت عن القَوس ، ولا يقال : رميت بها ،إلاّ أن ترميَها من يدك . لا جرم ، بمعنى حقا .ولا بدّ ولا محالة . السَّبط : السهل . راج : تيسر . أذكى : أوقد . السِّراج : المصباح . تأملتُه : نظرته.ليهنئكم ، أى ليسرّكم . الوارد : القاصد . المغنم البارد : الهنىء الذى يُغنَم دون قتال ولا تعب . أفل : غاب . الشِّعرى : كوكب معروف ، وهما شعريان : العَبور والغُمَيصاء ، سَمَّوْها عبوراً لأنهم يزعمون أنها عبرت المجرّة ، وسموا الأخرى الغُميصاء لأنها بكت على أختها حتى غمصت عينها . أى خفيت . استسرّ : غاب وخفى . الثّرة : ثلاثة أنجم مجتمعة . تبلّج : ظهر وأضاء . النثر : ضد النظم ، يقول : إن غاب قمر السماء الذى يتحدّث بضوئه ، فهذا أبو زيد قمر الفصاحة قد طلع ، فجدّدوا حديثكم ودعوا النوم .

سَرتْ: مشت. حميّا المسرّة: شدة السرور ،والحميّا : حدّة الخمر وتسمّى الخمر الحميّا . السِّنَة : أخفّ من النوم . مآقيهم : عيونهم ، والمأق: طرَف العين من جهة الأنف . رفضوا : تركوا. الفكاهة:الحديث المظرّف ، وأصلها المزاح ،ومنه قولهم: لا تمازحنّ صبيًّا ولا تفاكهنّ أَمَة ، قال ابن الأنبارىّ : المعنى:لا تمازحنّ ،إلا أنه استسمج إعادة اللفظ فأتى بلفظ فى مثل معناه ، مخالف للفظه .وتفاكهنّ ، مشتق من الفكاهة ،وهى المُزاح ،وقال طرَفة :

وإنّ امرأً لم يعفُ يوماً فكاهةً لمنْ لم يُرِدْ سوءًا بها لجَهولُ[1]

(١) ديوانه ١٢٠ .

ووصف أبو العيناء ابن أبي دواد ، فقال: له هزل يؤثم به، وجَدّ يتقدم الجدّ، وبين ذلك فكاهة تستملَح ، ودعابه تُستظرف . ومزح ، مصادره ثلاثة : مَزْح ومُزَاح وممازحة. اليزيديّ: المِزاح ، بالكسر لا غير. أبو عمرو: ما ذكره اليزيديّ مصدر ما زحت مِزاحاً وممازحة .

قوله : «مكبّ» ، أي مائل الرأس . إعمال يديه: استعمالها بالأكل .واسترفع: أمر برفعه ، ويروى «استفرغ» ، أي أتمّ. أطرفنا، أي حدّثنا بطُرفة ، وهي الحديث المُستملَح، والطرْفة عند العرب : الشيء المحدَث الذي لم يكن عرف ، وجاء فلان بطرْفة وشيء طريف. وهو مشتقّ من الطريف والطارف ، وهما المال المستحدَث الذي جمعه الرجل واكتسبه. والتالد : ما ورثه عن الآباء ، قال الشاعر :

وأصبح مالي من طريفٍ وتالدٍ   لغيري وكان المال بالأمس ماليا

أسمارك : جمع سمر ، وهو الحديث يُسْمَر عليه .

* * *

فقال : لَقَدْ بَلَوْتُ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا لَمْ يَرَهُ الرَّاءونَ ، وَلاَ رَوَاهُ الرَّاوُون ؛ وَإِنَّ مِنْ أَعْجَبِهَا مَا عَايَنْتُهُ اللَّيْلَة قُبَيْلَ انْتِيَابِكُمْ ، وَمَصِيري إِلَى بابِكُمْ ؛ فاسْتَخْبَرْنَاهُ عَنْ طُرْفَةِ مَرْآه ، فِي مَسْرَحِ مَسْرَاه ، فقال : إِنَّ مَرَامِي الْغُرْبَةِ ، لَفَظَتْنِي إِلَى هَذِهِ التُّرْبَةِ ، وَأَنا ذُو مَجَاعَةٍ وَبُوسَى ، وجِرَاب كفُؤادِ أُمِّ مُوسَى . فَنَهَضْتُ حِينَ سَجَا الدُّجَى ، عَلَى ما بِي من الوَجَى ، لأَرْتَادَ مُضِيفاً ، أَو أَقْتَادَ رَغِيفاً ، فَسَاقَنِي حادِي السَّغَبِ ، وَالقَضاءُ المُكَنَّى أَبا العَجَبِ ، إلى أن وَقَفْتُ على باب دارٍ ، فَقُلْتُ على بدارٍ :

ه ه ه

قوله: «ما لم يره الراءون»، أي الناظرون إليه، وقوله: «ولا رواه الراوون» أي حفظه الحافظون. عاينته: شاهدته ورأيته بعيني. انتيابكم: قصدكم. مصيري: رجوعي. مرآه: رؤيته. مسرح: حيث يسرح ويمشي. مسراه: سيره بالليل. مرامي: قواذف. التربة: البلدة. مجاعة: جوع. بؤسى: ضرر. جراب: وعاء الزاد. كفؤاد أم موسى، أي فارغًا لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾[1].

[ قصة موسى عليه السلام قبل مبعثه ]

وسُمِّيَ موسى لأنهم وجدوه بين ماء وشجر، ومو بالقبطية هو الماء، وشا الشجر، فعرّبت فجعلت الشين سينًا. وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ولم تزل بنو إسرائيل من عهد يوسف عليه السلام تحت أيدى الفراعنة، وهم على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام المشروع له ولإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، حتى كان فرعون الذى بعث موسى عليه السلام إليه، ولم يكن منهم فرعون أعتى على الله منه ولا أطول عمرا. وكان شديد الغلظة سيئ الملكة. واسمه الوليد بن مصعب، وكان اتخذ بنى إسرائيل خَوَلاً، فصِنْفٌ منهم يبنون، وصِنْفٌ يحرثون، ومن لا عمل له وظّف عليه الجزية، فرأى فى منامه أن نارًا أقبلت من المقدس، فأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل، فسأل عن رؤياه، فقيل له: يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يديه هلاك مصر، فأمر بقتل كلّ مولود يولد فى بنى إسرائيل. فجمع القوابل وعهد إليهن بذلك، فذبح الولدان وعذّب الحبالى، حتى يطرحن ما فى بطونهن، حتى كاد يفنيهم، فقيل له: إنما هم خَوَلُك، وإنك إن تفنهم ينقطع النسل. فأمر بقتل الغلمان عامًا ويُستحيون عامًا، فولد هارون فى السنة التى يستحيون فيها. وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها.

فلما وضعته أمه حزنت لشأنه، فأوحى الله إليها: أن أرضعيه، فإذا خفت

(١) سورة القصص ١٠

عليه فألقيه فى اليمّ ـ وهو النيل ـ ولا تخافى ولا تحزنى. فعملت تابوتا وجعلته فيه ، وألقته فى اليمّ ، وقالت لأخته: قصّيه ، أى اقتفى أثَره ، فحمله الماء حتى أدخله بين أشجار تحت قصر فرعون ، فخرج جوارى فرعون يغتسلن ، فوجدن التابوت ، فأدخلنه إلى آسية امرأة فرعون ، وهى بنت مزاحم ، إسرائيليّة ، فكشفت عنه التابوت ، فرأته .فرحمته وأخذته، وأخبرت به فرعون ، فأراد أن يذبحه ، وخَشِىَ أن يكون المولودَ الذى حُذِّرَ منه ، فلم تزل به آسية حتى تركه لها ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فالْتَقَطه آلُ فِرْعَوْن لِيَكونَ لهم عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾(١) ، فاللام من ﴿ ليكون ﴾ للعاقبة ، ولم يكن لفرعون ولد ، فاتّخذه له ولدا ، فارتادوا له المرضعات ، فلم يقبل ثدْىَ واحدة منهن ، ولما غاب أمرُه عن أمه ، كاد قلبها يطير وَجْداً عليه ، فبعثت أخته كأنّها تلتمس رضاعه ، فلما رأت أسفهم عليه حيث لا يُقبل على مرضعة ـ وذلك قوله تعالى . ﴿ وحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ـ قالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ؟ فقالوا لها : دلّينا على ذلك ، فذهبت فجاءت بأمه .

فلما رأته كادت لشدّة حبّها فيه ، وفرحها به أن تقول: هو ابنى ، وتفتضح، فعصمها الله من ذلك ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارغا إنْ كادَتْ لتُبْدِى به لولا أن رَبَطْنا على قلبها﴾، فأعطته ثديها ، فأخذ يرضعه. فربّته فى قصر فرعون، فلما تحرّك عرضته آسية على فِرْعون ، فلما أخذه مدّ موسى يده إلى لحيته فنتفها ، فقال فرعون: علىَّ بالذبّاحين، فإنما هو هذا ! فقالت آسية : قُرَّة عينٍ لى ولك ، لا تقتلوه فإنه صبىّ لا يعقل ، ودعت له بجمر وياقوت لتختبره ، فطرح جبريل عليه السلام يده فى النار وأخذ قطعة منها ، فوضعها موسى عليه السلام فى فمه، فأحرقته . فتركه فرعون ، فكبر فى حجره . فلمّا ترعرع تبنّاه ، فكان يركب مراكبه ويلبس ملابسه ، ويُدعى ابن فرعون .

(١) سورة القصص ٨ . (٢) سورة القصص ١٢ .

(٣) سورة القصص ١٠ .

ثم إن موسى عليه السلام أخبر أن فرعون قد ركب ، فركب أثره،فأدركه ببلد منف ، فدخلها وقد أُخْلِيَتْ لفرعون وليس فى طرقها أحد ، فرأى إسرائيليا مع قبطىّ يقتتلان ، فاستغاثه الإسرائيلىّ ، فوكز القبطىّ فقضى عليه ، فكان من قصته معهما ماقص الله تعالى فى كتابه ، حتى خرج خائفا يترقب إلى مدين .

وأما رجوعه منها إلى فرعون بأنه رسول الله إلى أن غرق فرعون فى البحر وجنوده ، فمذكور فى الثامنة عشرة .

° ° °

قوله : « نهضت » ، أى مشيت . سجا الدجى: سكن بالظلام وغطّى كل شىء. الوجى : الحفا . أرتاد : أطلب . مضيفاً : منزلاً ، وأضافه: أنزله. وضافه : نزل به فهو ضيفُه ، أى النازل به . أقتاد : أقود . حادى السغب : سائق الجوع .

* * *

حُيِّيتُمُ يَا أَهْلَ هَذَا الْمَنْزِلِ ... وَعِشْتُمُ فى خَفْضِ عَيْشٍ خَضِلِ

مَا عِنْدَكُمْ لابْنِ سَبِيلٍ مُرْمِلِ ... نِضْوِ سُرًى خابطِ لَيْلٍ أَلْيَلِ

جوِى الْحَشَى على الطَّوَى مُشْتَمِلِ ... مَاذَاقَ مُذْ يَوْمَانِ طَعْمَ الْمأكَلِ

وَلا لَهُ فى أَرْضِكُمْ مِنْ مَوْئِلِ ... وقَدْ دَجَا جُنْحُ الظَّلَامِ المسْبِلِ

وَهْوَ مِنَ الْحَيْرَةِ فى تَمَلْمُلِ ... فَهَلْ بِهَذَا الرَّبْعِ عَذْبُ الْمَنْهَلِ

يَقولُ لى : أَلْقِ عَصَاكَ وادْخُلِ ... وَأَبْشِرْ بِبِشْرٍ وَقِرًى مُعَجَّلِ !

° ° °

حُيِّيتم : طابت حياتُكم ،والتحيّة البقاء . خفض : لين وخفض عيشُه خفضاً ، إذا أخصب. خضل : ناعم، وخضِل: الشىء يخضل خضلاً : ابتلّ. ابن سبيل : خاطر طريق ، وهو الغريب، وسُمّى الغريب ابنَ السَّبيل ،لأنه إذا ظهر على قوم لايعرفونه لم يُعرف له نسب إلا السبيل الذى جاء منه . ومرمِل : لا زاد له، وأرمل القوم :فنى زادهم

ومن أبيات اللغز فى ابن السبيل :

ونحن ابن من لا ينكر الناس فضله ... وليس له فى الناس من طالب وترا
فإن تحفظوا فينا أبانا فحقنا ... رعيتم وإلا أوقدت ناركم شرا

أى سميتم فى كل مكان، كما قال الآخر :

وأنت الذى شيبتنى قبل شيبتى ... وأوقدت لى ناراً بكل مكان

ومنها أيضاً :

وأحيانا يكون كبير سن ... وأحياناً يكون من الشباب
ومنسوب إلى من لم يلده ... كذاك الله أنزل فى الكتاب

قوله: «نضو سرى»، أى هزيل من مشى الليل فى الأسفار. وخابط ليل : الذى يمشى فيه على غير هداية . أليل : شديد السواد . جوى الحشى : فاسد الجوف من الجوع ، وهو الطوى . مشتمل : منضم ، أى قد انضم جوفه على الجوع ، فسدت أحشاؤه. موئل : ملجأ ، من وألت إلى كذا، أى لجأت . دجا: ألبس . جنح : سواد : السبيل . الألبق. تململ : تقلب وتوجع . والربع : المنزل، والمنهل : موضع الماء .

ويقال : ألقى عصاه، إذا ترك السير وأقام ، وروى الأصمعى عن بعض البصريين أنه قال: سميت العصاعصاً لأن اليد والأصابع تشتمل عليها ، وهو من قول العرب: عصوت القوم إذا جمعتهم على خير أو شر ، ويقال : عصى بالسيف يعصى إذا ضرب به كما يضرب بالعصا . بشر : طلاقة وجه .

***

قَالَ : فَبَرَزَ إِلَيَّ جَوْذَر ، عَلَيْهِ شوذَر ، وقال :

وَحُرْمَةِ الشَّيْخِ الَّذِي سَنَّ الْقِرَى   وأَسَّسَ المحجوجَ فِي أُمِّ الْقُرَى

مَا عِنْدَنَا لِطَارِقٍ إِذَا عَرَى   سِوَى الْحَدِيثِ والْمُنَاخِ فِي الذَّرَا

* فَمَا تَرَى فِيمَا ذَكَرْتُ مَا تَرَى *

* * *

برز : خرج . جؤذر : ظبي ، وأصله ولد الغزالة . الشوذر : ثوب قصير .

[ إبراهيم عليه السلام ]

والشيخ الذى سنّ القِرى ، هو إبراهيم عليه السلام ، واختصّه بلقب الشيخ لأنه أوّل مَنْ شاب ، ولما رأى الشيب ،قال : يارب ، ما هذا ؟ فأوحى الله إليه ، يا إبراهيم ، هذا وقار ، فقال : يارب زدنى وقاراً . وشاب وهو ابن مائة وخمسين سنة ، وذلك أنه لما ولدت سارة إسحاق ، قال الكنعانيون : ألا تعجبون لهذا الشيخ والعجوز وجدا غلاماً ،فتبنّياه! فصوّر الله إسحاق على صورة إبراهيم عليهما السلام ، فلم يفصِلْ بينهما ، فوسَم الله إبراهيم بالشيب .

قوله : «سنّ» : ابتدأ ، وجعَله سُنَّة ، وهو أول مَنْ ضَيَّف الضيف ، وأطعم المساكين ، وقصّ شاربه ، وقلّم أظافره واستحدّ واستاك ،وفرَق شعره ،ومضمض واستنثر ، واستنجى بالماء . وأسَّسَ المحجوج ، أى بنى أساس البيت الحرام .

وأمّ القرى: مكّة. والطارق: الآتى بالليل. والمناخ: موضع البروك . يقرى : يضيف . الكرى: النوم يرى أعظمه ، أى أزال اللحم عنها . انبرى : اعترض .

[ مما قيل فى القِرى والأضياف ]

وقال حبيب فى أنّ أوّل من قرى الضيف إبراهيم عليه السلام :

للجودِ سهمٌ فى المكارم والتقى   لا ربّه المكدى ولا المسهوم[(١)]

(١) ديوانه ٣٠٠ ، والمكدى : الفقير ، والمسهوم : الضامر .

وبيان ذلك أن أوّل من قرى وحبـــا خليلُ الله إبراهيمُ

وقال أبو بحر صفوان بن إدريس فى فتى اسمه إبراهيم ، وأبدع ما شاء حيث قال :

أسَمِىَّ من سنّ القِرى رفقاً بمن يَفنى عليك صبابة وغَرَامَـــا
أنا ضيف حسنِك فاصْطَنِعْنِى إنه ضيفُ الهوى يستوجب الإكْرَامَا
لمّا نظرت نجوم خِيلانــ بَدَتْ فى صحن وجْنتِك استفدْت مُقَامَا
أفنيتَ جسم الصبِّ شوقاً مثلما أفْنَى سَمِيُّـك قبلك الأصْنَامَا
يا زهرةً سـكنتْ فؤادى غَضَّـةً إنِّى تبـــوَّأت اللَّهيب كمَامَا
حتى كأنّ الحبّ قال لأضلُعِى : يا نَارُ كُونِى برداً له وسَلاَمَا

وقال أبو بكر بن ميمون فيما يتعلق بهذه النار :

أبَا قاسم والهوى جَنّـبة وإنىَ من حرِّها لم أُفِقْ
تقَحَّمْتُ جاحِمَ نارِ الحشَى وخضتُ بحار سواد الحَدَقْ
أكُنتَ الخليلَ وكنتَ الكليم أمنتُ الجوى وأمنتُ الغَرَقْ!

انظر إلى الأضياف الرابعة والأربعين .

* * *

**فَقُلْتُ : مَا أَصْنَعُ بِمَنْزِلِ قَفْرٍ ، وَمَنْزِلِ حِلْفِ فَقْرٍ ! وَلَـكِنْ يَافتى ، ما اسْمُكَ ، فَقَدْ فَتَنَنِي فَهْمُكَ ؟ فقالَ : اسْمِي زيْد ، وَمَنْشِيءُ فَيْد ، ووردت هَذِهِ الْمَدَرَةَ أَمْسِ ، مَعَ أَخْوَالِي مِنْ بَنِي عَبْسٍ .**

* * *

قوله :« بمنزل قفر »؛ كأن هذا المنزل هو الذى وصفه الآخر حيث يقول :

ليس إغلاقى لبابى أنّ لِى  فيه ما أخشى عليه السَّرَقَا
إنما أغلقته كى لا يرى  سُوءَ حالىِ من يمرّ الطُّرُقَا
منزلٌ أُوطِنُهُ الفقرُ فلو  يدخل السارق فيه سُرِقَا

[ نبذ وحكايات فى البؤس والحرمان ]

إنما أخذ الحريرى هذا المعنى من قصة يزيد المدنى ، وكان من أهل المَلَح ، فاستضافه أعرابىّ ، فقال : ماعندنا إلا الأسودان ، فقال الأعرابىّ : خير كثير ، فقال : لعلك تظنّهما التمر والماء ! والله ما هما إلا الليل والحرّة ،فلم يكن ليزيد دارٌ إلا الحرّة ـ وهى أرض سوداء فيها حجارةسود ، وهى مقبرة المدينة ـ والقبور المجَصّصة تكون بالليل موحشة ، فما ظنك بقبور سود فى أرض سوداء فى ظلمة الليل ! كيف حال من يكون هذا قِراه !فبهذا البلاء أعرض يزيد عن ضيافة الأعرابىّ .

ونحو هذا من أقوال المازحين قول أبى الشمقمق ـ ويروى عن وهب عابد قرطبة :

برزتُ من المنازل والقِباب  فلم يعسُرْ على أحدٍ حجابِى
فمنزلىَ الفضاء وسقفُ بيتى  سماء الله أو قِطَعُ السحابِ
وإنّى لم أجد مصراع بيتٍ  يكون من السّحاب إلى التراب
ولا انشقّ الثرى عن عود تختٍ  أؤمّل أن أشدّ به ثيابى
ولا خِفْت الإباقَ على عبيدى  ولا خفتُ الهلاكَ على دَوابِى
وفى ذا راحةٌ وفراغ بالٍ  فدأب الدهر ذا أبداً ودابى

وقال آخر :

ولمّا التمستُ الرزق فانجذّ حبلُه فلم يَصْفُ لى من بحره العذب مَشْرَب
خطبتُ إلى الإعدام إحدى بناته[1] فزوّجنيها الفقر إذ جئت أخطبُ
فأولدتُها الحُرْفَ الشّقىّ فماله على الأرض غيرى والدٌ حين يُنْسَبُ
فلو تُهت فى البيداء والليل مسبلٌ علىّ جناحيه لما لاح كوكبُ
ولو خفت شرًّا فاستترت بظلّه[2] لأقبل ضوء الشمس من حيث تغربُ
ولو جادَ إنسانٌ علىّ بدرهم لرحت إلى رحلى وفى الكف عقربُ
ولو يُمطر الناسُ الدنانيرَ لم يكنْ بشىء سوى الحصباء رأسى تخضّبُ
وإن يقترف ذنباً ببرقة مذنبٌ فإنّ برأسى ذلكَ الذنب يُعْصَبُ
وإن أر خيراً فى الأنام فنازحٌ وإن أر شرًّا فهو منّى مقرّبُ
أمامى من الحِرْمَان جيش عَرَمْرَمٌ ومنه ورائى جحفل حين أركبُ

وقال آخر :

لو ركبتُ البحار صارت أجاجا لا ترى فى متونها أمواجا
ولوَ أنّى وضعت ياقوتة حمـ ـراء فى راحتى لصارتْ زُجَاجا
ولو أنّى وردت عَذْبًا فُراتا عادَ لا شكّ فيه ملحاً أجاجا

وقال آخر :

لو وردتُ البحار أطلب ماء جفّ قبل الوُرود ماء البحار
أو مَسِسْتُ العود النّضير بكفّى لذوى بعد بهجة واخضرار
أو رمى باسمى النجوم الدّرارى لا تزوى ضوؤها عن الأبصار
ولو أنّى بعت القناديل يومًا أدغم الليل فى ضياء النهار

(١) ط : «من الإعدام» ، وما أثبته من ا ، ب .
(٢) ط : «بظلمة» .

وقال شواش :

كسدت شَواشينا وقَلَّ معاشُنا ... فسعودُنا مقرونة بنحـــوسِ
فـكأنما قُطِعت رءوس الناس أَوْ ... خُلِـقوا لشقوتنا بغير رءوسِ

قيل لأبى الشمقمق : أبْشِرْ فإنا روينا فى الحديث : « العارون فى الدنيا هم الـكاسون يوم القيامة » ، فأنشأ يقول :

أنا فى حالٍ تعالى الله ربى أىّ حـــالِ
ليس لى شىء إذا قِـــيلَ لِمَنْ ذا ؟ قلت ذَا لى
فأراضِى الله فرشِى ... والسّمٰوات ظلالَى
ولقد أفلستُ حتّى ... حلّ أكلى لعيالى
من رأى شيئاً محالا ... فأنا عين المحَالِ
لو بَقِى فى الناس حُرٌّ ... لم أكن فى مثل حَالى

قوله :«منزل» ، أى مضيف . حلف : صاحب . منشئى : موضعى الذى نشأت فيه .

[ ذكر مدينة فيد ]

و فَيْد بلد مشهور ، فى نصف المسافة التى بين مكة وبغداد ، وفيها عين ماء ، وينزلها عمّال طريق مكة وأهلها من طيّىء ، وهم فى سَفْح جبلهم المعروف بسلمى ، وقد ذكرها زهير فى قوله :

ثم استمرُّوا وقالوا إنّ مشربَكُمْ ... ماء بشرقىّ سلمى فَيْدُ أو رَكَكُ (١)

قال الزجاجىّ : سمِّيت بفيد بن حام ، وهو أوّل مَنْ نزلها ، قال : ويقول أهل العراق : هى من قولهم : فاد الرجل يفيد فَيْداً إذا مات ، أو من قولهم : استفاد فائدة ، وقلما يقولون : أفاد فائدة .والفيد أيضاً نور الزّعفران .قال شيخنا ابن جبير (٢)

(١) ديوانه ١٦٧ ، وركك : اسم ماء بعينه ، وفى ط : « ركل » تحريف.
(٢) ط : « جرير » ، تصحيف.

رضى الله عنه : إنه خرج من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بضحْوة يوم السبت الثامن من المحرم سنة سبع وتسعين مع أمير الحاج ، وصبّحوا فيداً يوم الأحد فى اليوم الرابع عشر من خروجهم . ثم وصفها فقال : هى مِصْرٌ كبير ، منفرج فى بسيط من الأرض ، يمتدّ حوله رَبَضٌ ، يطيف به سور عتيق . وهو معمور بسكان من الأعراب يتعيشون[1] من الحجّاج فى التّجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق ، وفيها يترك الحجاج بعض أزوادهم إعداداً للإرمال[2] من الزاد عند انصرافهم يتركونها عند معارفهم بها ، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ، ووهبوا لمن أودعوها عندهم شيئا من ذلك .

وهى نصف الطريق من بغداد إلى مكّة أو أقلّ يسيرًا ، ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يوما فى طريق سهلة . ودخلها أمير الحاجّ على تعبية وأهبة إرهابا للمجتمعين بها من الأعراب لئلاّ يداخلهم الطمع فى الحاجّ ، لكنّهم لا يجدون إليهم سبيلا والحمد لله . والمياه كثيرة فى آبارها ، تمدّها عيون تحت الأرض ، وامتلأت أيدى الحجاج القادمين من أغنام العرب بالمبايعة ، فلم يبق خَيْمة ولا ظلالة إلا وإلى جانبها كَبْش أو كبشان ، بحسب الوجد ، فعمّ جميع المحلّة الغنم واللبن والسمن والعسل ، فأكلوا واحتملوا ، وكان ذلك اليوم عيداً للركب .

قال : وبهذه المحلّة العراقية ، وما انضاف إليها من الُخراسانية والموصليّة وسائر جهات الآفاق ينزل من صحبة أمير الحاج جمعٌ لا يحصِى عددَهم إلا الله تعالى ، يغصّ بهم البَسيط الأفيح ، ويضيق بهم المهمه الضحضح ، فترى الأرض تميد بهم مَيْداً ، وتموج بجمعهم موجًا ، فتصير بهم بحراً طامِىَ العُباب ، ماؤه السراب ، وسفينه الركاب ، وشراعه الظّلال المرفوعة والقباب ، ويسير سير السحاب ، متداخلا بعضها على بعض ، فتعاين تزاحما فى البراح المنفسح يهولُ ويُروع ، واصطكاكا

(١) رحلة ابن جبير : « يلتمشون » .
(٢) أرمل القوم : نفد زادهم .

لمبيع التجارات فيه ، فبعضها ببعض مترووع ؛ فمن لم يشاهد هذا السفر العراقي لم يشاهدْ عجباً يتحدّث به ، ويتحف السامع بغرائبه ، والقدرة والقوّة لله وحده . وحسبُك أنَّ النازل في منزل من هذه المحلَّة متى خرج لبعض حاجاته ، ولم يكن له دلالة على موضعه ضلّ وتلِفَ ، وعاد منشوداً بجملة الضوالّ ، وربما اضطر به الحال إلى الوصول لمضرب الأمير ورفع المسألة إليه ، فيأمر أحد المنشدين بما أعدّ لذلك ، فيردفه خَلْفه على جمل ، ويطوف به المحلَّة مناديا باسم جماله وبلده ، إلى أن يؤدِّيه إلى رفقته .

وعجائب هذه المحـلّة كثيرة ، ولأهلها من اليَسار ما يغنيهم على ماهم بسبيله .(١)

وما ذكرنا أمر هذه المحلّة إلا ليستدلّ على أن فيها بلداً في غاية القوّة والعمارة، حيث أُمِدّ هذا الجمع الـكثير والجم الغفير بما تقدم من أنواع الأرزاق ، وإن قبائل طيء متوفرة بحيث تطلع إلى الغارة على مثل هذه المحلّة . والملك لله وحده مذل الجميع بعد كمال العدّة .

قوله :«وردت» ، أي أتيت . المَدَرة : البلد . عبْس: قبيلة .

* * *

فَقُلْتُ لَهُ : زِدْنِي إِيضاحًا ، عِشْتَ وَنُعِشْتَ ، فقالَ : أَخْبَرَتْني أُمِّي بَرَّةُ ، وَهِيَ كَاسْمِهَا بَرَّةٌ ؛ أَنَّهَا نَـكَحَتْ عَامَ الْغَارَةِ بماوَانَ ، رَجُلاً مِنْ سَرَاةِ سَرُوجَ وَغَسَّانَ ، فَلَمَّا آنَسَ مِنْهَا الإِثْقَالَ ـ وَكَانَ بَاقِعَةً فِيما يُقَالَ ـ ظَعَنَ عَنْهَا سِرًّا ، وَهَلُمَّ جَرًّا ، فَمَا يُعْرَفُ : أَحَيٌّ هُوَ فَيُتَوَقَّعُ ، أَمْ أُودِعَ اللَّحْدَ الْبَلْقَعَ .

قال أبو زيد : فَعَلِمْتُ بِصِحَّةِ الْعَلَامَاتِ أَنَّهُ وَلَدِي ، وَصَدَفَنِي

(١) انظر رحلة ابن جبير ١٨٣ ، ١٨٤ .

عَنِ التَّعَرُّفِ إِلَيْهِ صَفْرُ يَدِي، فَفَصَلْتُ عَنْهُ بِكَبِدٍ مَرْضُوضَةٍ، وَدُمُوعٍ مُفْضُوضَةٍ. فَهَلْ سَمِعْتُمْ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ، بِأَعْجَبَ مِنْ هَذَا الْعُجَابِ! فَقُلْنَا: لاَ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ، فقال: أَثْبِتُوهَا فِي عَجَائِبِ الاتِّفَاقِ، وَخَلِّدُوهَا بُطُونَ الأَوْرَاقِ، فَمَا سُيِّرَ مِثْلُهَا فِي الآفَاقِ. فَأَحْضَرْنَا الدَّوَاةَ وَأَسَاوِدَهَا، وَرَقَشْنَا الْحِكَايَةَ عَلَى مَا سَرَدَهَا.

* ° °

إيضاحاً: بياناً. نعشت: جُبرت. وبَرّة الأول اسمها والثاني صفتها، يريد أنها مكرّمة كثيرة البرّ. نكحت: تزوّجت. عام الغارة، أي عام أغار عليهم عدوّهم. ماوان: بلدة. سراة: سادة. آنس: أبصر. والإتآم: الامتلاء بالولد. باقعة: داهية، ويقال: إنه الذى جال بقاع الأرض وعرف خيرها وشرها.

قال ابن الأنبارىّ رحمه الله: فلان باقعة، أى داهية حذر محتال حاذق، والباقعة عند العرب: الطائر الحذر المحتال الذى يشرب الماء من المَباقع[1]، ولا يرِدُ المشارع والمياه المحصورة خوفاً من أن يُحتال عليه فيُصطاد، ثم شبّه به كل حذرٍ محتال. هلم جرًّا، معناه إلى الآن. وقال ابن الأنبارىّ: هلمّ جرًّا، سيروا على هَيْنتكم، أى تثبّتوا على سيركم، ولا تجهدوا أنفسكم ولا تشقّوا عليها، أخذ من الجرّ فى السوق، وهو أن تترك الغنم والبقر ترعى فى السير، وينتصب «جرًّا» فى قول الكوفيين على المصدر، لأن فى «هلمّ» معنى «جرّ»، وفى قول البصريين: هو مصدر فى موضع الحال تقديره «هلمّ جارّين» أى مستثبتين، قياساً على: جاء عبدالله مشيا، وأقبل ركضا، وجاء وأقبل عند الكوفيين بمعنى مشى وركض. وقال بعضهم: ينصب على التمييز. يتوقّع: ينتظر. أودع: أدخل. اللّخن البلقع:

(١) المباقع: الأمكنة يستقى منها الماء.

اللحد الخالي . صدفني : أمالني . التعرّف : أن يعرّفه أنه أبوه . صفر يدى : فراغها من الدراهم . فصلت : زلت . مرضوضة : مدقوقة مكسورة . مفضوضة : مفترقة . أولى الألباب : أهل العقول . العُجاب : مبالغة في العجب

خلدوها ، أى أثبتوها . الآفاق : البلدان وجهات الأرض جميعها . أساودها : أقلامها . رقشنا : كتبنا . على ما سردها ، أى كما حكاها وتكلم بها .

* *

ثم استَبطَنّاه عَنْ مُرتآه ، فى استضمام فتاهُ ، فقال : إذا ثقلَ رُدْنِى ، خفَّ عَلىَّ أن أكفُلَ ابنِى ؛ فقلنا : إنْ كان يكفيك نصابٌ منَ المالِ ، ألْفَنَاهُ لكَ فى الحالِ ؛ فقالَ : وكيفَ لا يُقنِعُنى نصابٌ ، وهلْ يحتقِرُ قدرَهُ إلاّ مُصابٌ !

قال الراوى : فالتزمَ منهُ كلٌّ منّا قِسطاً ، وكتبَ لهُ بهِ قِطاً ، فشكرَ عِند ذَلِكَ الصُّنعَ ، واستنفدَ فى الثناء الوُسْعَ ، حتى إنّنا استطلْنَا القولَ ، واستثقلْنا الطَّوْلَ . ثمّ إنّه نَشَرَ مِنْ وَشْيِ السَّمَرِ ، مَا أزرَى بالحِبَرِ ، إلى أنْ أظلّ التنويرُ ، وَجَشَرَ الصُّبْحُ المُنيرُ ، فقضيناهَا ليلةً غابتْ شوائبُها ، إلى أن شابت ذوائبُها ، وكَمَلَ سُعُودُهَا ، إلى أنِ انفطرَ عُودُهَا .

○ ○ ○

استبطنّاه : سألناه وطلبنا منه معرفة باطنه . مُرْتآه : رأيه وغرضه . رُدْنى : كمّى . أكفل : أضمّ . نصاب : عشرون دينارا . ألّفناه : جمعناه . يقنعنى : يكفينى . مصاب : مجنون . قوله : «قسطا» ، أى نصيبا . قِطًّا : كتابا . الصنع : الفعل الجميل . استنفد : استتمّ . الوسع : الطاقة ، ووُسْع الرجل قدر ما يجد من مال أو كلام أو غير ذلك ، وهو من السعة ، أى أثنى غاية ما يمكنه من الثناء . استطلنا : استكثرنا ووجدناه كثيراً طويلا ، والطَّوْل : الإنعام والفضل ، أى رأينا ما أنعمنا به عليه قليلا . والوَشْى : ثياب مرقومة بألوان شتّى من الحرير . والحِبَر : ثياب فيها خطوط ورقوم مختلفة ، والحِبَر تصنع باليمن ، فشبّه حسن حديثه بالوشى ، وخصّ الحِبَر لحسن فنونه . وقال ابن الزقّاق ـ وكأنه وصف الليلة والعجاب الذى سامرهم به أبو زيد ، وزاد عليه الشجاعة :

لله ليلتُنَا الّتى استجدى بهـا فَلَقُ الصّباح لِسُدْفَةِ الإظلامِ (١)
طرأت علىّ مع النجوم بأنجم من فتيةٍ بيضِ الوجوه كِرَام
إن حوربوا فزِعوا إلى بيض الظُّبَا أو خوطبوا فزِعُوا إلى الأقلامِ
فترى البلاغة إن نظرت إليْهِمُ والبأس بين يراعةٍ وحُسَامِ

جشر : طلع . قضيناها : أتممناها . شوائبها : ما ينكدها ويكدرها . الذوائب : الشعر الطويل الأسود ، وأراد به ظلام الليل ، وجعل فيه بياض الصبح بمنزلة الشيب فى سواد الشعر ، قال ابن دريد :

إمّا تَرَىْ رأسِيَ حاكَى لونُه طُرّةَ صبحٍ تحت أذيال الدُّجَى (٢)

---

(١) ديوانه ٢٩٨ .

(٢) من المقصورة ص ١١٧

انفطر : انشقّ وطلع . عودها : بياض صبحها ، ويقال : انفطر القضيب ، إذا بدا نبات ورقه ، وقال امرؤ القيس :

* كخُرعوبة البانة المنفطر[1] *

* * *

ولمّا ذرّ قَرْنُ الغَزالَةِ ، طَمَرَ طُمورَ الغَزالَةِ ، وقالَ : انْهَضْ بنا لنَقْبِضَ الصِّلاتِ ، ونَسْتَنِضَّ الإحالاتِ ، فقدِ اسْتَطارَتْ صُدُوعُ كبِدي ، مِنَ الحَنينِ إلى وَلَدي . فوَصَلْتُ جَناحَهُ ، حتّى سَنَّيْتُ نجاحَهُ ؛ فَحينَ أحْرَزَ العَيْنَ في صُرَّتِه ، بَرَقَتْ أساريرُ مَسَرَّتِهِ ، وقالَ لي : جُزيتَ خيْراً عَنْ خُطا قَدَمَيْكَ ، واللهُ خَليفَتي عَلَيْكَ ! فقُلتُ : أُريدُ أنْ أتْبَعَكَ لأُشاهِدَ وَلَدَكَ النَّجيبَ ، وأنافِثَه لكي يُجيب .

* ٥ *

قرن الغزالة : شعاعها وحاجبها ، والغزالة من أسماء الشمس ، وأسماؤها كثيرة ؛ ذكرها يعقوب وغيره ، وذكر منها عشرة خمسة بالهاء ، وهي : الغزالة ، والجارية ، والجوْنة ، ومَهاة ، والإلاهة . وخمسة بغير الهاء وهي : الشمس ، والسّراج ، والضِّحّ ، وذُكاء ، وبوح[2] .

طمر : وثب . الغزالة : الظبية . انهض أي قم . الصِّلات : العطايا . نستنضّ : نستحضر . والنّاضّ : المال الحاضر . والإحالات : الديون التي وعدوه بها . استطارت : توسعت وانتشرت . صُدوع : شقوق . والحنين : الشوق والرحمة . وصلتُ جناحه ، أي مشيت معه ويدي في يده ، وجناح الرجل : يده . سنّيت :

(١) ديوانه ٥٧ ، وصدره :

* بَرَهْرَهَةٌ رُودَةٌ رَخْصَةٌ *

(٢) مبادئ اللغة العربية ٣ ، وذكر من أسمائها أيضا براح والشرق .

يسَّرت . نجاحه : قضاء حاجته . أحرز العين : حصَّل المال . وصرّته : خرقة دراهمه . برقت : لمعت . أسارير : طرق الوجه ، ومنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نخرج تبرق أسارير وجهه » ، ويقال لها الأسرّة ؛ ويقال لخطوط الكف : الأسرّة ، وقد جمعهما التهامى فى لفظ واحد فى قوله :

يُبدى أسرَّة وجهه ويمينه   فى ساعة الإعسار والإيسار

مسرّته : سروره ، أوله : انطلق وجهه سروراً بالمال . خطا : مشى . والنجيب : الجيد العقل الكريم الأصل . قوله : «أنا أنّه» ، أى أ كله .

* * *

فنظرَ إلىَّ نظرَةَ الخادِعِ إلى المَخْدُوعِ وَضَحِكَ حَتَّى تغرْغرتْ مُقْلَتَاهُ بالدُّمُوعِ ، وَأَنْشَدَ :

يَا مَنْ تَظَنَّى السَّرَابَ مَاءً   لَمَّا رَوَيتُ الَّذِى رَوَيتُ
مَا خِلْتُ أن يَستَسِرَّ مَكْرِى   وَأَنْ يُخِيلَ الَّذِى عَنَيْتُ
وَاللهِ مَا بَرَّةٌ بِعرْسِى   وَلاَ لِيَ ابنٌ به اكتنيتُ
وَإنَّمَا لِي فنُونُ سِحْرٍ   أَبْدَعْتُ فِيهَا وَمَا اقتَدَيتُ
لَمْ يَحْكِهَا الأصْمَعِيّ فيمَا   حَكَى ، وَلاَ حَاكَهَا الكُمَيْتُ
تَخِذْتُهَا وُصْلَةً إلى مَا   تَجْنِيهِ كَفِّى مَتَى اشْتَهَيتُ
وَلَوْ تَعَافَيْتُهَا لَحَالَتْ   حَالِى ، وَلَمْ أَحْوِ مَا حَوَيتُ

فَمَهِّدِ الْعُذْرَ أَوْ فَسَامِحْ إِنْ كُنتُ أَجْرَمْتُ أَوْ جَنَيْتُهُ

ثمَّ إنَّه وَدَّعَنِي وَمَضَى ، وَأَوْدَعَ قَلْبِي جَمْرَ الْغَضَى.

* * *

تغرغرت : امتلأت . تظنى : حسب . حلت : حسبت . يستسر : يخفى . مكرى : خداعى . يخيل : يلبس ويشبه . عرسى : زوجتى . فنون : أنواع . أبدعت فيها : أحدثتها ولم أقتد بغيرى فيها . يحكها : يحدث بها . حاكها : نسجها وقال مثلها . الأصمعى مذكور فى المقامة الأربعين .

[ ذكر الكميت وبعض أخباره وشعره ]

وأما الكميت الشاعر ، فهو ابن زيد الأسدى ، وهو شاعر مجيد مكثر جدًا ، وديوان شعره مستعمل مشهور ، ولما قال قصائده الهاشميات قصد البصرة فأتى الفرزدق فقال : يا أبا فراس ، أنا ابن أخيك ، فقال : ومن أنت ؟ فانتسب له قال : صدقت ، وما حاجتك ؟ قال : أنت شيخ مضر وشاعرها ، وأحببت أن أعرض عليك ما قلت ، فإن كان حسنًا أمرتنى بإذاعته ، وإن كان غير ذلك أمرتنى بستره ، قال : يابن أخي ، أحسب شعرك على قدر عقلك ، فقل راشدًا ، فأنشده :

طربتُ وماشوقًا إلى البيضِ أطربُ ولا لعبًا منّى وذو الشَّيْب يلعبُ !

قال : بلى ، فالعب ، فأنشده :

ولم يُلهِنى دارٌ ولا رسمُ مَنزلٍ ولم يتطرَّبْنِي بَنانٌ مُخَضَّبُ

قال : مايتطرّبك إذًا ؟ فقال :

لا أنا ممّن يزجرُ الطير همّهُ أصاح غرابٌ أم تعرّض ثعلبُ

قال : أنت ممّن ؟ويحك ! وإلى من تسمو ؟ قال :

ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيّةً　　　أمرّ صحيح القرْن أمْ مَرّ أعْضَبُ

قال : أمّا هذا فقد أحسنت فيه ، قال :

ولكنْ إلى أهلِ الفضائل والنُّهَى　　　وخير بنى حوّاء والخير يُطلب

قال : فمَنْ هم ويحك ! فقال :

إلى النّفرِ البيض الّذين بحبّهمْ　　　إلى الله فيما نابنى أتقرّبُ

فقال : أرِحْنى ويحك ! مَن هؤلاءِ ؟ فقال :

بنى هاشمٍ رهطِ النّبيّ فإنّنى　　　بهمْ ولهمْ أرضَى مراراً وأَغْضَبُ

فقال : لله درّكَ يا بنىّ ! فقد أصبتَ وأحسنتَ ، إذ عدَلْتَ عن الزّعانفِ والأوباش ، إذًا لا يُصرِد (1) سهمُك ، ولا يثلب قولك . ثم مَرّ فيها ، فقال : أظهر وأشهر ، فأنت أشعر من مضى ، وأشعر مَنْ بقى (2) .

فحينئذ قدم المدينة ، فأتى عبدَالله بن الحسين ، فأنشده ، فقال : يا أبا المستهلّ ، إنّ لى ضيعةً أعطيتُ فيها أربعة آلاف دينار وهذا كتابُها ، وقد أشهدت لك بها شهوداً ، فقال : بأبى أنت وأمى ! كنت أقول الشعر لغيركم أريد به الدنيا والمال ، ولا والله ما قلتُ فيكم شيئاً إلا لله ، وما كنت لآخذ فى شىء جعلته لله ثمناً . فلما أبى عليه أخذ مئزره ، فدفعه إلى أربعة غلمان ، فجعل يدور به دورَ بنى هاشم ، ويقول : هذا الكميت ، قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم ، وعرّض دمه لبنى أمّية ، فأثيبوه بما قدرتُمْ . فاجتمع له من حَلْى النساء ومن الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم ، فجاء بها إلى الكميت ، وقال : يا أبا المستهلّ

---

(1) أصرد السهم : أخطأ .　　(2) انظر الاغانى ٥ : ١٢٠ ، ١٢١

أتيناك بجهد المقلّ ، ونحن فى دولة عدوّنا ، فاستعن بهذا على دهرك ، فقال : بأبى أنت وأمى ، قد أكثرتم وأطنبتم ، وما أردت بمدحى إياكم إلا الله ، فاردده إلى أهله . فجهد به بكل حيلة ، فأبى،فقال : أما إذا أبيت أن تقبل ، فإن رأيت أن تقول شعرًا تغضب به بين النزاريّة واليمنيّة لعل فتنةً تحدث ، فنخرج بين أضغانها ، فقال قصيدته التى أولها :

ألا حُيِّيتِ عَنَّا يا مَدِينا     وهل بأسٌ بقولِ مسلّمينا ![1]

فعرّض فيها ، وصاح باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم؛ مثل قوله :

لنا قمر السماء وكلّ نجمٍ     تُشير إليه أيدى المهتدِينا[2]

وماضربتْ هجانَ بنى نزارٍ     هوائجُ من فحول الأعجمينا

وماحملوا الحمير على عتاقٍ     مضمّرةٍ فيُلفَوا مُنْلغِينا

ومشت فى العرب ، فافتخرت نزار على اليمن واليمن على نزار ، وثارت العصبية فى البادية والحاضرة ،وتحزّب الناس ، فتعصّب مروان بن محمد لقومه من نزار على اليمن ، فانحرفت عنه إلى الدعوة العباسية وكان الكميت سبب ذلك .

وكان لامتداحه بنى هاشم وتعريضه ببنى أمية ، يطلبه خلفاء بنى أميّة ، فهرب منهم عشرين سنة ، فجدّ هشام بن عبدالملك فى طلبه ولم يجده ، ولم يستقرّ للكميت قرار من خوفه . وكان لمسلمة بن عبد الملك حاجة عند هشام يقضيها له ، لا يردّه فيها ، فخرج مَسْلمة لبعض صيوده ، فأتاه الناس يسلّمون عليه ، وأتاه الكميت ـ ومَسْلمة لا يعرفه ـ فقال : السّلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قِفْ بالدّيارِ وقوف زائرْ     وتأىّ إنك غير صاغــــرْ[3]

---

(١) ورد الشطر الثانى محرفاً فى الأصول والصواب ما أثبته مر الفاخر ٣

(٢) والخزانة ١ : ٨٦ .

(٣) ط : « وتأن » ، وصوابه من اللسان ـ أبى

حتى انتهى إلى قوله :

يا مسلمَ بنَ أبي الوليـ ـدِ لميّتٍ إنْ شئتَ ناشرْ
علقتْ حبالي من حبا لكَ ذمّةَ الجارِ المجاوِرْ
فالآنَ صرتُ إلى أميّـ ـةَ والأمورُ لها مصايرْ
والآن كنتُ به المصيـ ـبَ كمهتدٍ بالأمسِ حائرْ

فقال مسلمة: سبحان الله! مَنْ هذا الذي أقبل من أخريات الناس؟[1] ثم بدأنا بالسلام، ثم قال: أما بعدُ ثم الشعر؟ قيل: الكميت، فأعجب بفصاحته، فسأله عمّا كان فيه من طول غيبته، فذكر له سخط هشام عليه، فضمن له أمانه وتوجّه به حتى أدخله على هشام، وهشام لا يعرفه، فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال هشام: نعم الحمد لله، من هذا؟ قال الكميت: مبتدىء الحمد ومبتدعه، الذي خصّ بالحمد نفسَه، وأمر به ملائكتَه، وجعله فاتحة كتابه، ومنتهى شكره، وكلامَ أهل جنّته. أحمدَه حمد من علم يقيناً، وأبصر مستبيناً، وأشهد بما شهد به لنفسه، قائماً بالقسط وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده العربيّ ورسوله النبيّ الأميّ، الذي أرسله والناس في هبَوات[2] حيرة ومُدْلهمّات ظلمة، عند استمرار أُبّهة الضلالة. فبلّغ عن الله ما أمره به، حتى أتاه اليقينُ صلى الله عليه وسلم. ثم إنيْ يا أميرَ المؤمنينَ تِهتُ في حَيْرة، وحِرْتُ في سكرة، أهاب بي داعيها، فأجابهُ غاويها، فاقطوطيتُ[3] في الضلالة حائداً عن الحق قائلاً بغير الصدق، فهذا مقام العائذ بك، ومنطق التائب، ومبصر الهدى بعد طول العمى. يا أميرَ المؤمنين، كم من عاثرٍ أقلتمْ عثرتَه، ومجترم عفوتم عن جرمه! فقال هشام — وقد علم أنه الكميت: مَنْ سنّ[4] لك هذه الغواية، وأهاب بك

(١) في العقد: «من هذا الهِنْدكي الجلحاب، الذي أقبل...» والهندكي: الرجل من الهند والجلحاب: الشيخ الكبير.
(٢) الهبوات: الغبرات.
(٣) اقطوطى: قارب في مشيه إسراعاً.
(٤) ب: «من أين».

في العماية ؟ قال : الذى أخرج آدم من الجنة فنسىَ ولم يجد له عزماً ، وأنت يا أمير المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الداجية بعد العموس فيها فبصرتنا ، وحقن بك دماء قوم أشرب خوفك قلوبهم ؛ فهم يبكون لما يعلمون من حزمك وعزمك وبصيرتك ، وعز بأسك . وثبات جأشك . وأنت مستغن برأيك عن رأى ذوى الألباب ؛ برأى أريب ، وحلم مصيب . فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، وأتم عليه النعماء ، ودفع به الأعداء .

فرضى عنه وأمر له بمال كثير(١) .

فهذه منزلة الكميت من الشعر والخطابة خلافاً لمن يقول : القافية جلبته فى المقامات ؛ وغيره من الشعراء كان أولى بموضعه .

* * *

قوله : «حاكها» ، أى نسجها ، يريد أن الكميت ممن يصنع الشعر ولا يقوله على طبعه ، فلذلك قال : «حاكها» . وسأل بعض الخلفاء جريراً عن النابغة وزهير ، فقال : ينيّران الشعرَ ويُسدّيانه ، والعلماء بالشعر يسمون صنّاع الشعر عبيدَ الشعر ، مثل زُهير وابنه كعب والحُطيئة وعدىّ بن الرقّاع والكميت .

قوله : «تخذتها» ، أى اتخذتها ، يقال : تخذ يتخذ بمنزلة اتّخذ يتّخذ ، وخُفّف عنه ، حذفوا ألف الوصل من اتخذ ، والتاء الأولى الساكنة ، التى هى فاء الفعل ، فبقى تخذ ، ومثله تقى يتقى واتّقى يتّقى ، حذفت ألفه وتاؤه الأولى ، وليس يطّرد هذا التخفيف ، وإنما جاء فى اتّخذ واتّقى واتّجه واتّسع ، فقالوا : تقى وتخذ وتجه وتسع وصلة أى موصّلة . تعافيتها : تكارهتها ، وهى تفاعلت من عفت الشىء أعافه عيافا ، أى كرهته . حالت : تغيّرت . أحو : أجمع . مهّد : اقبل وسهّل . أجرمت : أذنبت لنفسى ، جنيت : أذنبت لغيرى ، أراد : إن كان عذرى بيّناً فاقبله ، ولئن كنت ظالماً فتجاوز واسمح . أودع : ضمّن وجعل فيه . الغضى : شجر جمره يثبت فى النار .

(١) العقد ٢ : ١٨٣ – ١٨٥ ، مع تصرف وحذف

# المقامة السادسة وهي المراغية

وتعرف بالخيفاء

روى الحارثُ بن همّام قال: حَضَرْتُ دِيوان النَّظر بالمَرَاغَةِ، وقَدْ جَرَى بِهِ ذِكْرُ البَلاَغَةِ؛ فَأَجْمَعَ مَنْ حضَرَ من فُرْسَانِ اليَرَاعَةِ، وأَرباب البَرَاعَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يبْقَ مَنْ يُنَقِّحُ الإنشاءَ، وَيتَصَرَّفُ فِيهِ كيف شاء، وَلاَ خَلَفَ، بعد السَّلَفِ، مَن يبْتَدعُ طَرِيقَةَ غَرَّاءَ، أَوْ يَفْتَرِعُ رِسالَةً عَذْرَاء، وأَنَّ الْمُفْلِقَ مِنْ كُتَّابِ هَذَا الأَوَانِ، الْمتمكِّنَ مِن أَزِمَّةِ الْبيَانِ، كالْعِيالِ عَلَى الأَوائِلِ، وَلَوْ ملكَ فَصَاحَةَ سَحْبانِ وَائل.

* * *

ديوان النظر، أي مجلس المناظرة. المراغة: بلدة من كُور أذربيجان. اليراعة: القلم قبل أن يبرى ويسوّى، فإذا بُرِيَ وسُوِّيَ قيل له قلم، وبقى عليه الاسم الأوّل وهو اليراعة، واليراع: القصب. أرباب البراعة: أصحاب أصالة الرأى. والبارع: الأصيل الجيّد الرأى، ويقال: بَرَع يبرع بروعاً وبراعة، إذا فاق في السؤدد. وينقّح: يحسن ويخلّص. الإنشاء. الكتابة. خلَف: بَقِيَ. السلف: المتقدمون، وسلفوا: ذهبوا وتقدّموا. يبتدع: يحدث. طريقة: حالة موصوفة، وطريقة فلان كذا، أى حالته التى هو عليها. غرّاء: واضحة مشهورة لم يقل أحد مثلها. وغرّة الشيء: أوّله. يفترع: يفتضّ. عذراء: بكر، سمّيت عذراء لصعوبة جماعها، وتعذّر الشيء: تصعّب، وافتراع البِكْر: إدماؤها وإزالة ما تصعّب منها، وكلّ ما أدميته فقد فرعته وافترعته، فمعنى يفترع رسالة عذراء

أى يأتى برسالة قد تصعّب طريقها على غيره ، فاقتدر هو على سلوك طريقها والإتيان بها . المفلق: الفصيح المعرب الذى يأتى بالفلق ؛ وهو الشىء العجيب . الأوان : الوقت . العيال : مَنْ يتّكل فى مؤنته على غيره ولا يقوم بنفسه ، وعال الرجل عِيلةً إذا افتقر ، وعُلْتُه عَوْلاً : قمت بمؤنته ، فيريد أن كتّاب هذا الزمان عيال على من تقدّمهم حيث افتقروا إلى الأخذ من كلامهم .

وقد وعدنا أن نذكر سحبان فيما يأتى إن شاء الله تعالى .

* * *

وكان بالمجلسِ كهلٌ جالسٌ فى الحاشيَةِ ، عِندَ مواقفِ الحاشية ، فكان كلّما شَطَّ القَومُ فى شَوْطِهِمْ ، وَنَثَرُوا العَجْوَةَ والنَّجْوةَ مِن نَوْطِهِمْ ، ينْبِئُ تَخَازُرُ طَرْفِه ، وَتَشامُخُ أنفِهِ ، أنَّهُ مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاعَ ، وَمُجْرَمِّزٌ سَيَمُدّ الْباع ، ونابضٌ يبرى النبالَ ، وَرَابضٌ يَبْغِى النِّضَالَ . فلمَّا نُثِلَتِ الكَنائِنُ ، وفاءت السَّكائِن ، وَرَكدَتِ الزَّعازِعُ ، وَكَفَّ المُنازِعُ ، وَسَكَنَتِ الزَّماجِر ، وَسَكَتَ المَزْجُورُ والزاجر ، أَقْبَلَ عَلَى الجماعة ، وقال :

◦ ◦ ◦

الكهل : التامّ الخلْق ، بين الشابّ والشيخ . الحاشية : طرف المجلس . والحاشية الثانى . الأتباع وخدمة القوم ، وأصلها رُذال المال وصغاره ، قال يعقوب : الحاشية والحواشى والحشو : صغار الإبل ، وأنشد :

* جلّتها والأُخَر الحوَاشيا *

شطّ : جرى . شوطهم : طَلَقهم . نثروا : ألقوا عليها . المجوة : التمــرة

الطيبة . والنجوة : الرديئة ، هكذا كان يسّرها شيخنا أبو بكر بن أزهر عن ابن جَمْهور ، وما وجدت فى كتاب لغة أن النّجوة اسم للتّمرة الرديئة ، وقد بحث عنها بعض أصحابنا غاية البحث فى كل كتاب فيه ذكر النخل والتّمر ، فأخبرنى أنه ما وجد لها ذكراً ، وأظنها لغة بصرية متعارفة بينهم فى التمر الردىء ، لا أنها لغة عربية ، فاستعملها كما استعمل غيرها من لغة بلده ، لأن البصرة أكثر بلاد الله نخلاً ، فيسمون كل نوع من التمر باسم ، والتمر تكثر أنواعه عندهم. ورأيت أكثر أهل سِجِلْماسة لا يكادون يحصون أنواعه لكثرتها ، ورأيت بها نوعاً من التمر زعموا أنه لا يطيب أبداً ، وإنما حاله أن ينكمش على نواه ، فلا تجد إلا جلداً يابساً على النواة ، فيعلفونه المَعِز ، فيحتمل أن يكون مثل هذا فى نخل البصرة يسمّى نجوة ، وقابَلَ بالعجوة التى هى أشرف التمر وأطيبه . وأما من فسر النّجوة هنا بالمرتفع من الأرض ، فلا معنى له . الفنجديهى: النّجوة ، قيل : إنها لُفاظة التمر إذا سقطت لا يبالَى بها ، فإن صحّت روايتها فكأنها سمّيت بالنجوة التي هى العَذِرة . نوطهم : وعاء تمرهم ، قال أبو حنيفة : النّوطة : الجلّة الصغيرة من جلال التمر ، والجلّة : الوعاء الذى يكنز فيه التمر ، وكلّ وعاء له علاقة فهو نوطة ، والجمع نُوط ، وقد ناطه ينوطه ، إذا علقه ، فأراد : ألقَوا الكلمة الجيدة والرديئة من كلامهم. ينبىء : يخبر. تخازُر طرفه : كسر عينيه بالنّظر ، وتخازَر : نظر بمؤخَر عينيه ، وهو نظر المنكر للشيء . تشامخ: ارتفاع، وهو فعل المستحقر للشيء . مخرنبق : متهيّئ . ليَنْبَاع : لينهض ، وفسره أبو عبيد فى الأمثال . قال : المخرنبق : المطرق الساكت ، لينباع . ليثِبُ إذا أصاب فرصة ، قال : ومعناه أنه سكت لداهية يريدها ، وقيل : المخرنبق : الساكت على السّوء. لينباع : ليظهر الذى فى ظنه من الشرّ . مجرمّز : منقبض ، وهو كقول النابغة :

وقلت يا قوم إنّ الليث منقبضٌ    على براثِنِه للوثبة الضارِى (١)

---

(١) ديوانه ٤٢ والضارى من وصف الليث ، ويروى : « لوثبة الضارى » .

فأخذه ابن الرومي فقال :

سكنٌ سكوناً كان رهناً بوثبة ... عماس كذاك الليث للوثبة يلبدُ(١)

نابض : رام ، ويقال : أنبض القوس ، إذا جذب وترها ثم أطلقه ليختبر شدتها . ونبض العرق : تحرك ، فيكون : « نابض » على النسب ، أو على حذف الزائد . التنجديهي : أورد أبو الحسين بن فارس اللغوي في كتابه المجمل أنّ نبض لغة في أنبض ، وهما بمعنى واحد ، قال الشاعر :

نأين أباها مقسمٌ بيمينه ... لئن نبضت كفي فإني لنابضُ

فصحّ بهذا قوله . رابض : لاطئ بالأرض ، وربضت الشاة : اضطجعت . يبغي النّضال ، أي يطلب المراماة ، وأراد أنه يريد أن يلقي عليهم المسائل ليجاذبوه . قوله : « نُثلت » ، أي نفضت وصبّ ما فيها . الكنائن : الجعاب ، وهي أوعية السهام . فاءت : رجعت . السكائن : جمع سكينة ، وهي الوقار ، يريد : أتمّ أهل المجلس كلامهم فسكتوا . ركدت : سكنت . الزعازع : الرياح الشديدة المزلزلة ، واحدها زعزع . كفّ المنازع : أمسك المخالف ، يريد انقطع كلامه .

* * *

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ، وَجُزْتُمْ عن الْقَصْدِ جِدّاً ، وَعَظَّمْتُمُ الْعِظَامَ الرُّفَاتَ ، وافْتَتُّمْ فِي الْمَيْلِ إِلَى مَنْ فَاتَ ، وَغَمَصْتُمْ جِيلَكُمُ الَّذِينَ فِيهِمْ لَكُمُ اللِّدَاتُ ، وَمَعَهُمُ انْعَقَدَتِ الْمَوَدَّاتُ . أَنَسِيتُمْ يا جَهَابِذَةَ النَّقْدِ ، وَمَوَابِذَةَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، مَا أَبْرَزَتْهُ

(١) يلبد : أي يجثم على الأرض .

طَوَارِفُ الْقَرَائِحِ ، وَبَرَّزَ فِيهِ الْجَذَعُ عَلَى الْقَارِحِ ، مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمُهَذَّبَةِ ، وَالاسْتِعَارَاتِ الْمُسْتَعْذَبَةِ ، وَالرسَائِلِ الموَشَّحَةِ ، وَالأَسَاجِيعِ الْمُسْتَمْلَحَةِ ! وهلْ لِلْقُدَمَاءِ إِذَا أَنْعَمَ النَّظَرَ ، مَنْ حَضَرَ ، غيرُ المَعَانى المطروقةِ المَوَارِدِ ، المَقُولَةِ الشَّوَارِدِ ، المأْثُورَةِ عَنْهُم لِتَقَادُمِ المَوالِدِ ، لا لتقدُّمِ الصَّادِرِ على الْوَارِدِ ! وإِنِى لأَعْرِفُ الآن من إِذَا أَنشَا ، وَشَّى ، وَإِذَا عَبَّرَ ، حَبَّرَ ، وإن أَسْهَبَ ، أَذْهَبَ ، وَإِذا أَوْجَزَ ، أَعْجَزَ ، وَإِنْ بَدَهَ ، شَدَهَ ، وَمتَى اخترعَ ، خَرَعَ .

* * *

إِدًّا : أمراً فظيعا منكراً . جُرتم عن القصد : خرجتم عن الاستقامة . جدًّا : كثيراً . الرفات : البالية . افتتم : فعلتم مالا يجب وتجاوزتم فيه ، ويقال : افتتات الرجل « افتعل » من الفوات ، وفات : ذهب وعدم . غمصتم : حقرتم وغطيتم . جيلكم : أهل عصركم . اللّدات : جمع لِدَة ، وهو الذى ولد معك . جهابذة : حذّاق : الواحد جِهْبِذ . النقْد : معرفة الكلام ، نقده : ميّزه ، وأصله من ميز الدراهم الجيدة من الرديئة . موابذة : حكام ، والموبذ : الكثير الجاه من الفُرْس ، مثل الوزير والقائد . أبرزته : أظهرته . طوارف ، جديدات وغريبات . القرائح : الأذهان . برز : غلب . الجَذَع من الخيل ابن سنتين . القارح : ابن خمس ، أى غلب فيه الحديث العصرَ القديم . عبارات : جمع عبارة وهى التفسير ، وعبّرت عن فلان : تكلّمت عنه وكنت لسانه . المهذّبة : المخلصة من العيب . الاستعارة : أن تعير اللفظ ما يستحقه غيره ، وهى من العاريّة . الموشّحة : المزيّنة . الأساجيع : جمع أسجوعة ، وهى الكلام المربوط بقافية . أنعم : بالغ . المطروقة :

التى تزل عليها . المعقولة : المربوطة . الشوارد : الفارّة، يقول : ليس للقدماء إلا المعانى التى قصدها المتأخّرون ، كاقصدها المتقدّمون ، وقيّدها المتأخرون بالكتاب كما قيّدها المتقدّمون ، فكان تقييدها سبباً لأن مشت فى الأقطار فعرفت وحفظت . المأثورة : المحدّث بها . الصادر : الخارج عن الماء ، والوارد : الداخل إليه ، وذكر هنا أنّ الصادر يتقدّم الوارد ، وذلك أنا إذا فرضنا موضع ماء لا يمكن وروده إلا واحداً بعد واحد ، فالصادر يسبق الوارد على ما ذكره فى المقامة . قال الحريرى فى درة الغواص : إنّ[1] الخواصّ يقولون :هذا أمر يعرفه الصادر والوارد ، ووجه الكلام أن يقال : الوارد والصادر ، لأنه مأخوذ من الوِرْد والصدر ، ولما كان الوِرْد يقدُم الصّدر ، وجب أن يقدّم لفظ «الوارد» على الصادر ، وهذا كما ترى،الورد يقدم الصدر فى حق واحد ، يقال:وَرَد الماء ثم صدر عنه ، وأما فى حق اثنين كما قدّمنا وكما ذكر هو فى هذه المقامة ، فالصادر يتقدّم الوارد . وقول الناس : هذا أمر يعرفه الصادر والوارد فى حق اثنين ،فهم فيه على صواب ، ومحال أن يكون المَثل فى حق واحد ، لأنّ الشىء لا يعطَف على نفسه ، ولو كان الوارد على زعمه يتقدّم الصادر لجاز تقديم الصادر عليه ،لأنّ الواو لا تعطى رتبة ،يقول : لا نتحدّث بكلامهم ونظمهم ونثرهم لفضلهم علينا ، لكن لسبقهم لنا .

أنشأ : كتب . وشّى : زيّن ورَقّم . عبّر : تكلم أو فسّر . حبّر : حسّن . أوجز : اختصر . أعجز ،أى عجز عن فعله غيره . أسهب:أطال الكلام . أذهب : جاء بالذهب ، وأصل أسهب ، حفر بئرا بعيدة القعر ، وأذهب : صادف معدن الذهب فى حفير . بدَه : ارتجل ولم يتفكّر . شدَه : حيّر من يتعاطى منزلته . اخترع : قال ما لم يُسبق إليه . خرع : شقّق المعانى .

* * *

**فقَالَ لهُ ناظُورَةُ الدِّيوانِ ، وَعيْنُ أُولئِكَ الأَعْيَانِ : مَنْ قارِعُ هَذِى الصَّفاةِ ، وَقرِيعُ هَذِهِ الصِّفَاتِ ؟ فقال : إِنَّهُ قِرْنُ**

(١) درة الغواص ص ٧١ .

مَجالِكَ، وقَرِينُ جدالِكَ؛ وَإِذَا شئتَ ذاكَ فرُضْ نجيبًا، وادْعُ مُجيبًا، لِتَرَى عجيبًا. فقال له: يا هذَا، إنَّ البُغاثَ بأرضِنا لا يَستنسِرُ، والتَّمييزَ بَيْنَ الفِضةِ والقِضَّةِ مُتيسِّرٌ، وقلَّ مَن استَهْدَفَ للنِّضالِ، فخَلَصَ مِنَ الدَّاءِ العُضالِ، أو استَثَارَ نَقْعَ الامْتِحانِ، فلَمْ يُقذَ بالامْتِهانِ، فلا تعرِّضْ عِرْضَكَ للمَفاضِحِ، ولا تُعْرِضْ عَنْ نصاحَةِ النَّاصِحِ. فقال: كلُّ امْرِئٍ أعرَفُ بِوَسْمِ قِدْحِهِ، وسَيَتفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ. فتناجَتِ الجماعةُ فيما يُسْبَرُ به قَليبُهُ، ويُعْتَمَدُ فيه تقليبُهُ؛ فقال أحدهم: ذروه في حِصَّتِي؛ لأرْمِيَهُ بحَجَرِ قِصَّتِي، فإنها عُضْلَةُ العُقَدِ، ومَحَكُّ المُنتَقِدِ. فقلَّدوه في هذا الأمر الزَّعامَةَ، تقليدَ الخوارجِ أبا نعامَةَ.

٭ ٭ ٭

قوله: «ناظورة»، أي كبير القوم ومقدّمهم الذي ينظرون إليه. الديوان: دار الكتّاب وموضع اجتماعهم. والديوان، الزمام يكون فيه أسماء الجند وأرزاقهم، وأصله «دوّان» فقلبت واوه الأولى ياء لانكسار ماقبلها، ودلّ عليه دواوين في جمعه، وهو اسم أعجمي عرّب، والأصل في تسميته أن كسرى أمر الكتّاب أن يجتمعوا له في دار، ويعملوا حساب السواد في ثلاثة أيام، وأعجلهم فيه، فأخذوا في ذلك، واطّلع عليهم لينظر مايصنعون، فنظر إليهم يحسبون بأسرع مايمكن، وينسخون كذلك، فعجب من كثرة حركتهم، فقال: أرى «ديوان» ومعناه شياطين، ثم سمّي موضعهم ديوانًا، ثم استعملته العرب، وجعل كل محصّل

من كلام أو شعر ديوانا(١). قارع : ضارب وكاسر . الصّفاة : الصخرة الملساء ، استعارها للصعب من الكلام . قريع : سيّد . الصّفات : النعوت التى تقدّم أنه يُعرَف بفعلها . وقرْن مجالك : صاحب كلامك الذى تجول فيه — يعنى نفسه . قرين جدالك : صاحب مجادلتك ، والقِرْن بالكسر : الذى يماثلك فى شدّة أو خصام أو علم ، وإن لم يكن بينكما معرفة ، وقرينك : صاحبك الذى لا يفارقك كأنه قُرِن معك . والمجال : الموضع الذى تُراض فيه الخيل . رُض : سسْ وليّن . النجيب : الفحل الكريم من الإبل ، وعنى نفسه . ادع مجيباً ، يقول : سَلْنى ثم ادعنى أستجب لك . ترى عجيباً ، فى حسن جوابى . البُغاث : صغار الطير . يستنسر : يصير نسراً ، يقول : نحن أهل علم ومعارف ، فلا تجوز علينا المخاوف ، والعرب تقول فى أمثالها : «إن البغاث فى أرضنا يستنسر» ، أى يرجع الضعيف قويا لعزنا وحمايتنا له ممن يريده ، وقيل فى البغاث : إنه ذكر الرّخم ، وقيل : البغاث كلّ ما يُصاد من الطير ، والجوارح : كلّ ما يصيد ، والرّهام : ما لا يصيد ولا يصاد ، كالخطّاف وغيره . القِضّة : الحصى البيض الصغار . ويقال : جاء بالقضّ والقضيض بالقاف والضاد ، ومعناه جاء بالكبير والصغير . والقضيض : صغار الحصى وما تكسّر منه . وقالوا : جاءوا قضّهم بقضيضهم ، أى كلهم . استهدف : صار هدفاً ، وهو الغرض للسهم . التّنضال : المراماة . المُضَلّل : الذى لا يُبرأ منه . استثار : حرّك نقع غبار . الامتحان : الاختبار . يَقذَى : يقع فى عينه القَذَى ، وهو ما يسقط فى العين ؛ ويقول : من صار غرضاً للألسنة قلّ أن يسلم ، ومن صار طالباً لمناظرة أهل المعارف أهين وأخجل . الفاضح : المخزيات واشتهار العيوب . وَسْم : علامة . قِدْحه : سهمه ، يريد قداح الميسر ، وكان كلّ رجل يعمل فى قدحه علامة يعرف بها ، قال دريد بن الصّمة :

وأصفرَ من قِداحِ النَّبعِ فرعٍ ... بهِ عَلَمانِ من عَقَبٍ وضَرْسِ(٢)

(١) المعرب للجواليقى ١٥٤ ، وفى شفاء الغليل ٩٤ عن المرزوقى فى شرح الفصيح ، قال : هو عربى ، من دونت الكلمة إذا ضبطتها .

(٢) اللسان — ضرس

الضَّرس : العضّ بالضِّرس ، وسنذكر فى الثالثة والأربعين قِداح العرب : سيتفرّى : سيتكشَّف. قوله: «تناجت» ، أى تحدّثت سرًّا. يُسبَر : يقاس. قليبه : بئره . يعمَد : يقْصَد . تقليبه: تجريبه . ذرُوه : اتركوه . حِصّتى : نصيبى. قصتى : خبرى ، وجعل لمسألته حجراً يرميه به مجازاً . عُضْلة : صعبة . العقد : جمع عقدة ، يريد أن عقدها صعب الحلّ . محك المنتقَد : وهوحجر يقاس ، جيِّد الفضة والذهب من الردىء ؛ أراد أن مسألته نهاية فى الصعوبة ، والعُضْلة : كل مسألة شديدة لايُهتدى لمثلها ، ولا يوقف على جوابها ، من قولهم : داء عضال ومعضل ، إذا كان شديداً لايُهتدى لدوائه ، ولا يوقف على علاجه ، وعضّلت المرأة تعضيلا، نشب ولدها فى بطنها ، وعضّلت الدجاجة ببيضها كذلك ، وفلان عُضْلة من العضل ، أى داهية لا يُهتدى لمكره . قوله : « الزعامة » ، أى الرياسة .

[ ذكر قَطَرىّ بن الفجاءة ]

وأبو نعامة هو قَطَرىّ بنالفجاءة التميمىّ الخارجىّ . وكان له فرس يكَنى بها فى الحرب ، ويكنى فى السلم أبا محمد . وقَطَرىّ : منسوب إلى قَطَر ، موضع قريب من عُقَير .

وكان فارساً شجاعاً شاعراً مجيداً ، وكان رئيسَ الخوارج ، وسلّموا عليه بأمير المؤمنين عشرين سنة ،وكان خطيباً فصيحاً . وله خطبة فى ذمّ الدنيا انتهى فيها من البلاغة إلى الغاية . وأوّلها :

أمابعد فإنّى أحذّركم الدنيا فإنها حلوة خضرة ، حُفّت بالشهوات ، وراقَتْ بالقليل ، وتحبّبت بالعاجل ، وتحلّت بالأمانىّ ، وتزيّنت بالغرور ، لاتدوم زهرتها ، ولا تُؤمن فجعتها ، غرّارة ضرارة ، حائلة زائلة ، نافدة بائدة ،

لا تعدو إذا هى تناهت إلى أمنيّة الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال تعالى : ﴿ كماءٍ أنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ فأصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكانَ اللهُ عَلَى كلِّ شيءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ .

ومنها :

كم واثقٍ بها قد فجعَتْه ، وذى طمأنينة إليها قد صرعتْه ، وذى احتيالٍ فيها قد خَدَعتْه . وكم من ذى أُهْبة فيها قدصيَّرته حقيراً ، وذى نَخْوة قد ردَّته ذليلاً ، وذى تاج قد كَبَّتْه لليدين والفم ؛ سلطانها دوَل ، وعيشها رَنْق ، وعذبها أُجاج ، وحلوُها صبِر ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجامعها محروب ؛ مع أنّ وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدى الحكَم العدل ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ .

ومن جيّد شعره فى وقعة دُولاب :

لعمركَ إنى فى الحياة لزاهــدٌ ... وفى العيش ما لم ألقَ أمّ حكيمِ (١)

من الخفِرات البيض لم يُرَ مثلُها ... شفــاءٌ لدى بثٍّ ولا لسقيمِ (٢)

لعمرُكَ إنى يوم ألطِم وجهَها ... على نائبات الدهر جِدُّ لئيمِ

ولو شهدتنى يوم دُولاب أبصرَتْ ... طعان فتًى فى الحرب غير ذَميمِ (٣)

غداة طفَت علْماءِ بكر بن وائل ... وَعُجْنا صدورَ الخيل نحو تميمِ (٤)

(١) الأغانى ٦ : ١٤٨ ، الكامل للمبرد ٣ : ٢٩٨ .

(٢) الأغانى : « لم أرمثلها » .

(٣) دولاب ، قال فى الأغانى : « هى قرية من عمل الأهواز ، بينها وبين الأهواز نحو من أربعة فراسخ ، كانت بها حرب الأزارقة ومسلم بن عبيس بن كريز ، خليفة عبد الله ابن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب ، وذلك فى أيام ابن الزبير » .

(٤) علماء ، يريد على الماء ، وبعده فى رواية المبرّد :

وكان لِعَبْدِ القَيْسِ أوّلُ جَدِّها ... وأحلافِها من يَحْصُبٍ وسَليمِ

وظلّتْ شيوخُ الأزْدِ فى حَوْمَةِ الوغى ... تعــومُ وظَلْنَا فى الجلاء نعومُ

وفى البيت الثانى إقواء .

فلم أرَ يوماً كان أكثر مقعصاً[1] ... يمجّ دماً من فائظٍ وكليمِ[2]
وضاربة خدًّا كريماً على فتًى ... أغرّ نجيب الأمهات كريمِ
أصيب بدولاب ولم تكُ موطناً ... له أرض دولابٍ ودير حميمِ[3]
فلو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتًى في الحرب غير لئيمِ
رأت فتيةً باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيمِ

وأمّ حكيم التي شبّب بها، كانت معه في عسكر الإباضيّة، وكانت من أشجع الناس، وأجملهم وجها، وأحسنهم بدينه متمسّكا. وكان قطريّ يحبّها ويجلها، وأخبر من شاهدها في تلك الحروب أنها كانت ترتجز فتقول:

أحمل رأسا قد سئمتُ حمْلَهْ ... وقد مللتُ دهْنَهُ وغَسْلَهْ

* ألاَ فتًى يحمل عنّي ثِقْلَه *

والخوارج يفدّونها بالآباء والأمهات، وخطبها جماعة من أشراف الخوارج فردّتهم، وقالت:

ألا إنّ وجها حسّن الله خلْقَهُ ... لأجدر أن يُلْقَى به الحسن جامعاَ
وأكرم هذا الجِرْمَ عن أن يناله ... تورّكَ فَحْلٍ همّه أن يجامعا

أين هذه من أمّ خارجة، واسمها عمرة بنت سعد؛ كان يقال لها: خِطْب، فتقول: نِكْح، وضرب بها المثل فقيل: أسرعُ من نِكاح أمّ خارجة[4].

---

(١) الأغانى والكامل: «مقعصا» وهو الطعن بالرماح.
(٢) ط: «فائض» تحريف؛ صوابه من ل، ب؛ والفائظ، من قولهم: «فاظ الرجل، إذا مات».
(٣) دير حميم: موضع بالأهواز.
(٤) الميدانى ١ : ٣٤٨

وأين هى من حفيدة قطرىّ مع صاحبها ، حكى الإصبهانىّ عن إسماعيل بن المهاجر قال : خرجت أنا والسيّد الحميرىّ سكارى ، فلقينا بنت الفُجاءة بن عمرو ابن قَطَرِىّ بن الفجاءة ، وكانت امرأة بَرْزَةً حسناء ، فواقفها السّيد ، وأنشدها من شعره ، فأعجب كلّ واحد منهما صاحبَه ، ثم خطبها ، فقالت : كيف يكون هذا ونحن على ظَهْر الطريق ! قال : يكون كنكاح أمّ خارجة ، قيل لها : خِطْب ، قالت : نِكْح ، فاستضحكت وقالت : نَنظر فى هذا ، وعلى ذلك فمن أنت ؟ قال :

إن تسأليني بقومى تسألى رجلاً     فى ذِرْوة المجد من أجواد ذى يَمَنِ [(١)]
ثمّ الولاءُ الذى أنْجُو النجاةَ به     من كَبَّة النّار للهادى أبى حسنِ

فقالت : لا شىء أعجب من هذا ! يمانىٌّ وتميمية ، ورافضىّ وإباضيّة ، فكيف يجتمعان ! فقال : بحسن رأيك تسخو نفسك [(٢)] ، ولا يذكر أحدنا سلفاً ولا مذهباً ، قالت : أفليس التزويج إذا عُلِم ، انكشفتْ معه الستور [(٣)] ؟ قال : وأنا أعرض عليك أخرى ، قالت : وما هى؟ قال : المُتعة [(٤)] التى لا يَعلم بها أحد ، قالت :

(١) بعده فى رواية الأغانى :

حَوْلِى بها ذو كَلاعٍ فى منازلِهَا     وذو رُعينٍ وهَمْدَانٌ وذُو يَزَنِ
والأَزْدُ أزدُ عُمَانَ الأكرمون إذا     عُدَّتْ مآثرهمْ فى سالفِ الزّمَنِ
بانتْ كريمتُهُمْ عنّى فدارُهُمُ     دارى فى الرحب من أوطانهمْ وَطَنِى
لى منزلانِ : بلحْجٍ منزلٌ وسطٌ     منها ، ولى منزلٌ للعزّ فى عَدَنِ

(٢) ط : « تحشد نفسك » ، وما أثبته من الأغانى .

(٣) الأغانى : « انكشف معه المستور وظهرت خفيات الأمور » .

(٤) المتعة : أن تتزوج امرأة تتمتع بها أياما ، ثم تخلى سبيلها ؛ وذلك أن الرجل كان يشارط المرأة شرطا على شىء بأجل معلوم ، ويعطيها شيئا ، فيستحلها بذلك ، ثم تخلى سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ؛ وقد كانت مباحة فى أول الإسلام ثم حرمت ؛ وللعلودى ؛ أحد كبار علماء الشيعة الإمامية كتاب أسماه : «المتعة وماجاء فى تحليلها» .

تلك أخت الزنا ، قال : أعيذك بالله أن تكفرى بعد إيمانك ! قالت : وكيف ؟ قال لها : قال الله تعالى : ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ، قالت : أستخير الله وأقلدك ، إذ كنت صاحب قياس وتفتيش . ولما انصرفت معه ، وبات معرسًا بها ؛ وبلغ أهلها من الخوارج أمرُها توعّدوها بالقتل ، فجحدت وقالوا : أتزوجت بكافر ! فكانت تختلف إليه مدّةً وتواصله[1] .

وقوله : « تقليد الخوارج أبا نعامة » ، لما قُتِل الزّبير بن على السّليطى أمير الخوارج ، أداروا أمرهم ، فأرادوا تولية عبيدة بن هلال اليشكرىّ ، فقال : ألا أدلّكم على من هو خير منى لكم ؟ مَنْ يطاعن فى قُبُلٍ ، ويحمى عن دُبُر ؛ عليكم بقطرىّ ابن الفجاءة المازنىّ ، فبايعوه .

* * *

فأقبَلَ عَلَى الكَهْلِ ، وقالَ : اعْلَمْ أنِّى أُوَالِى ، هَذَا الوَالِى ، وَأُرَفِّحُ حَالِى ، بالْبَيَانِ الحَالِى . وَكُنْتُ أَسْتَعِينُ عَلَى تَقْوِيمِ أَوَدِى ، فى بلدى ، بِسَمَةِ ذَاتِ يدى ، مَعَ قِلَّةِ عَدَدِى . فلمَّا ثَقُلَ حَاذِى ، وَنَفِدَ رَذَاذِى ، أَمَّمْتُهُ مِنْ أَرْجَائِى ، بِرَجَائِى ، وَدَعَوْتُه لإعَادَةِ رُوَائِى ، وَإِروائى ؛ فَهَشَّ لِلوِفادَةِ وَارْتَاحَ ، وَغَدَا بالإِفادَةِ وَرَاحَ . فلَمَّا اسْتَأذَنْتُه فِى المَرَاحِ ، إِلَى المُرَاحِ ، عَلَى كَاهِلِ المِرَاحِ ؛ قال : قَدْ أَزْمَعْتُ أَلاَّ أُزَوِّدَكَ بَتَاتًا ؛ وَلاَ أَجْمَعُ لَكَ شَتَاتًا ، أَوْ تُنْشِئَ لِي أَمَامَ ارْتِحالِكَ ، رِسَالَةً تُودِعُهَا شَرْحَ حالِكَ ، حُرُوفُ إحْدَى كَلِمَتَيْهَا يَعُمُّهَا النَّقْطُ ، وَحُرُوفُ الأخْرَى لَمْ يُعْجَمْنَ قَطُّ ، وَقَد اسْتَأْنَيْتُ

(١) الأغانى ٧ : ٢٦٤ . مع اختلاف فى الرواية .

بيانى حَوْلا ، فما أحارَ قَولاً ، وَنبَّهْتُ فكْرِى سَنةً ، فما ازدادَ إلاّ سِنةً . واستعنتُ بقاطبةِ الكتّاب ، فكلٌّ مِنهمْ قَطَّبَ وَتَاب ، فإن كُنتَ صَدَعْتَ عَنْ وَصْفِكَ باليقينِ ، فأْتِ بآيةٍ إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِين .

فقال له : لقد استَسْعيْتَ يَعْبُوبًا ، واستَسْقيْتَ أُسْكُوبا ، وأعطَيْتَ القَوْس باريها ، وَأسْكَنْتَ الدّارَ بانيها . ثم فَكَّر رَيْثما استجمَّ قريحتَهُ ، واستَدَرَّ لِقحتَهُ ، وقال : ألقِ دَواتَكَ وَاقرُبْ(١) ، وَخُذْ أداتَكَ وَاكْتُبْ :

* * *

قوله :« أوالى » ، أى ألازم وأتخذه وليًا . أرقّح : أصلح ، يقال رقّح من عيشه ، إذا أصلح منه ، قال الشاعر :

يترك ما رقّح من عيشِهِ يَعيثُ فيه هَمَجٌ هامِجُ(٢)

الهَمَج : البعوض ، ثم قيل لأرذال الناس : همج . الحالى : المزيّن بالحُلِيّ . أَوَدِى : عوَجى . سعة : كثرة . ذات يدى ، أى مالى . عددى: عِيالى . حاذى: ظهرى ، وفلان خفيف الحاذ ، أى قليل العيال ، وأصل الحاذ مؤخر الفخذين . نفد رذاذى : فرغ قليل مالى ، والرّذاذ . المطر الضعيف . أمّته : قصدته. أرجائى : جهاتى وبلادى . رجائى : أملى . رُوائى : حسن هيئتى وحالى : إروائى : إزالة عطشى. هَشّ: خفّ، ورجل هشّ بسّام :طليق الوجه. للوفادة :للقدوم عليه . وارتاح : طرب واهتزّ .الإفادة : تكسيب الفوائد . المَراح ، بفتح الميم :المشى والانصراف.

(١) ساقطة من مخطوطة المقامات .
(٢) اللسان ـ رقح ، ونسبة إلى الحارث بن حلزة .

والمُراح، بالضم: الموضع الذى تَرُوح إليه الإبل وتروح منه، أو تراح إليه، أى تساق بالعشىّ. والمِراح، بالكسر: النشاط والخِفّة، وقد مرِح مَرَحا، لعب، من الفرح. كاهل: ما بين فروع الكتفين، استعاره للنشاط. أزمعت: عزمت. بتاتاً: زاداً. شتاتاً: مالاً متفرّقا. تنشىء: تصنع وتكتب. أمام ارتحالك: قبل سفرك: تودّعها: تضمّنها وتجعل فيها. يعجمْن: ينقطن، وأعجمت الكتاب: أزلت عنه عُجمته.

قطّ: لفظة موضوعة لما مضى من الدهر. وجعل الحريرىّ قول الخواصّ: «لا أكلمه قطّ» من أفحش الخطأ لتناقض الكلام، قال: وذلك أنّ العرب تستعمل لفظة «قطّ» فيما مضى من الزمان، كما تستعمل لفظة «أبداً» فيما يستقبل، فيقولون ما كلّمته أبداً، والمعنى: ما كلّمته فيما انقطع من عمرى، لأنه من قططتُ الشيء، إذا قطعتَه، ومنه قطّ القلم، إذا قطع طَرَفه. وفيما يؤثر من شجاعة علىّ رضى الله عنه أنه كان إذا استقبل قدّ، وإذا استدبر قطّ، فالقدّ قطع الشيء طولاً، والقطّ قطعُه عرضاً[1]. يقول. تصنع رسالة تضمنها حالك، يكون تركيبها من كلمة يعمّ حروفها النّقط، وكلمة لا ينقط منها حرف، وبهذا المعنى سُمِّيَت المقامة الخيْفاء، لأنّ الأخيفَ من الخيل: الّذى إحدى عينيه زرقاء. والأخرى كحلاء. استأنيت: أمهلت وأخّرت. أحار: ردّ وراجع. نبّهت: أيقظت. سَنَة: حولا. سِنَة: نومًا. قاطبة: جماعة. قطّب وجهه، إذا عبّسه. صدَعت: أوضحت وأظهرت، وأصل الصدع الشقّ. باليقين: بالحقّ الواضح. آية: علامة، قال ابنُ الأنبارىّ رحمه الله: فى قولهم آية من القرآن ثلاثة أوجه:

قيل إنها علامة لانقطاع الكلام قبلها وبعدها، واحتجّ أبو عبيدة لذلك بقول الشاعر:

* بآيَةِ ما تحبُّونَ الطَّعَامَا *

(١) درة الغواص ٨

وبقول النابغة :

توهَّمْتُ آياتٍ لها فعرفتُها لستَّةِ أعْوَامٍ وذَا العامُ سَابِعُ[1]

الثانى: سُمِّيت الآية لأنها جماعة حروف ، قال أبو عمرو: خرج القوم بآيتهم، أى بجماعتهم .

الثالث : سُمِّيت آية لأنها عجب من العجائب ، فالآية العجب .

قوله : «استسعيت» : طلبت سعيه أى جريه . واليَعْبُوب: الفرس السريع . استسقيت : استمطرت وطلبت سُقياه . والأُسكُوب : المطر الكثير . باريها : صانعها ، وكل هذه أمثال ، ويريد : أنا أهْلٌ لكلّ ما طلبت .

[ الحطيئة وسعيد بن العاص ]

وأوّل من قال: أعط القوس باريها[2] الحطيئة ، وذلك أنه دخل على سعيد ابن العاص وهو يقرى النّاس ، فأكل أكلاً جافياً، وخرج الناس ، فأقام ، وأتاه الحاجب ليُخرجه فامتنع ، وقال : أترغب بهم عن مجالستى ! إنّى بنفسى عنهم لأرغب ! فقال له سعيد : دَعْه . ثم تذاكروا الشعر والشعراء ، فقال لهم الحُطيئة: والله ما أصبتم جيّد الشّعر ولا شاعر العرب ، ولو أعطيتم القوس باريها ، وقعتم على ما تريدون ، فقال له سعيد : فمن أشعر العرب ؟ قال : الذى يقول :

لا أعُدُّ الإقتار عُدْمًا ولكنْ فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُه الإعْدَامُ

إلى آخر القصيدة . قال : فمن قائلها ؟ قال : أبو دواد الإيادىّ ، قال : ثم من ؟ قال : والله لحسبك بى رهبة أو رغبة ؛ أنا إذا رفعت إحدى رجلىّ على الأخرى ، وعويت فى إثر القوافى كما يعوى الفصيل الصادى إثْرَ أمّه ؛ قال :

(١) ديوانه ٥٠ .
(٢) الميدانى ٢ : ١٩ ، وجمهرة الأمثال ١ : ٧٦ .

[ من أنت ؟ قال : ](١) الحطيئة ، قال : حيَّاكَ الله يا أبامليكة ، ألا أعلمتنا بمكانك ، ولم تحملنا على الجهل بك ، فنضيع حقّك ونبخسك قسطَك ! وأدناه ووصله(٢) .

وقال الشاعر :

يا بارىَ القَوْسِ برْيًا ليس يُحْسِنُه　　لا تظلم القوس واعط القوسَ باريَهَا

ريث : مقدار وبطء . استجمّ : استكثر . قريحته : طبيعته ، والقريحة فى الأصل أوّل ماء البئر النابع ، واستجمّها : تركها حتى تكثر . استدرّ : استنزل دَرَّهَا وهو لبنها . واللَّقْحَة : الناقة ذات اللبن ؛ يريد : أقام قليلا يفكّر ويختار ما يقول : ومثل هذه الحالة ذكرُوا أن صديقا لكلثوم العتابىّ أتاه يوما ، فقال له : اصنَعْ لى رسالة ، فاستمدّ مُدَّة ، ثم علّق القلم ، فقال له صاحبه : ما أرى بلاغتك إلاّ شاردةً عنك ، فقال له العَتّابىّ : إنى لمّا تناولتُ القلم تداعت علىّ المعانى من كلّ جهة ، فأحببت أن أترك كلّ معنى حتى يرجع إلى موضعه ، وهذا مثل قول امرىء القيس ـ ويقال إنه قالها وهو ابن عشر سنين :

أذودُ القوافىَ عنّى ذيادًا　　ذيادَ غلامٍ غوىّ جَوادًا(٣)
فلمّا كثُرْن وعنّينَه　　تخيّر منها جوادًا جيادًا
فأعزل مَرجانها جانبا　　وآخذ من دُرّها المستجادَا

وقال عريف القوافى(٤) :

أبيتُ بأبواب القوافِى كأنّما　　أصادى بها سِرْبًا من الوحش نزّعَا
عواصِىَ إلا ما جعلت وراءها　　عصا مِرْبَدٍ تغشَى وجوهًا وأذرُعَا
إذا خفت أن تُروَى علىّ رددتُها　　وراء التراقِى خشيةَ أن تطلّعا

---

(١) من الأغانى　(٢) الأغانى ٢ : ١٦٧ ، مع تصرف واختصار .
(٣) ديوانه : ٢٤٨ .
(٤) كذا ذكر المؤلف ، والأبيات فى الشعر والشعراء ٦١٦،٢٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٢ والأغانى ١١ : ١٢٣ منسوبة لسويد بن كراع .

أصادِي : أدارى ، وجعل القوافى تقتحم عليه كالإبل ، وهو يضربها بعصاه حتى يختار جيادها .

[ فصل فى الدواة والمداد والقلم ]

قوله «ألِقْ» ، أى اجعل فيها لِيقة، تقول: لِقْت الدواة فهى مَليقة ، وألقتُها فهى مُلَاقة ، وجمع اللِّيقة لِيَق. ويقال للصُّوفة قبل أن تُبَلّ بالمداد: البُوهة والموارة ، فإذا بلّت بالمداد سُمِّيت ليقة ، وقد يقال لها : ليقة قبل أن تُبَلّ، سميت بما تئول إليه ، كما قيل للكبش: ذبيح، وللصيد : رميّة ، فإن كانت قطنة فهى العُطْبة والكُرْسفة، وكرسفت الدواة كرسفةً ، والقطن كلّه يقال له : العُطُب والكُرسف .

ويقال للمداد : نِقْس ونَقْس ، والكسر أفصح ، وقيل : الفتح مصدر نَقَسْتُها ، جعلت فيها نِقساً ، والحِبْر من المداد بالكسر لا غير ، والحَبْر بالفتح والكسر : العالِم. وقال بعضهم : سُمِّىَ المداد حِبراً باسم العالِم ، كأنهم أرادوا مداد حِبْر ، فحذفوا ، ولو كان ماقالوه صحيحاً لقالوا للمداد : حَبْر بالفتح ، والأشبه أن يسمَّى حَبْراً لأنه يحسِّن الكتابة ، من قولهم : حبرت الشىء إذا حسَّنته . ويقال للجمَال : حَبْر وسَبْر، فمداد حَبر ، كقولك مداد زينة وجمال ، أو يكون من الحَبَر والحُبار ، وهو الأثر ، فيسمَّى بذلك لتأثيره فى الكتاب . ويقال : مددت الدواة أمدّها مدًّا ، إذا جعلت فيها مِدَاداً ، فإن كان فيها مداد فزدت عليه قلت : أمددتها ، فإذا أمرته أن يأخذ من المداد بالقلم قلتَ : استمدد ، فإن سألْتَهُ أن يعطيَك على القلم مِداداً ،قلت: أمدِدْلى من دواتك ، واستمددته أنا ؛ سألْته أن يمدّنى . وقال الخليل : مُدّنى وأمدّنى : أعطنى من مداد دواتك ، وكلّ شىء زاد فى شىء فهو مداد له ، وأمهت الدّواة وموّهتها ؛ إذا جعلت فيها ماء ، والأمر من ذلك كلّه أمِهْ وموّهْ دواتك .

واشتقاق الدّواة من الدّواء ، لأن بها إصلاح أمر الكتّاب ، وبعض الشعراء اشتقّها من دَوِىَ الرجل يَدْوَى دَوِياً ، إذا صار فى جوفه الداء ، قال :

أمّا الدواة فأدوَى حملُها جـدى وحرّف الخطَّ تحريفٌ من القلم(١)

ووزنها « فَعَلَة » تحرّكت الياء وقبلها فتحة ، فقلبت ألفاً ، وتجمع دَوَيات ؛ كقناة وقنَوات ، ودوًى كقناة وقناً . ويقال : أدويت فأنا مدوٍ : اتّخذت دواة ، ويقال للذى يبيعها : دوّاء كخيّاط ، وإذا أمرت من يتخذها قلت : أَدْوِ دواةً ، ويقال لمن يحملها ويمسكها : دوّاء ، ويقال لها : الدواة والرقيم والنون .

ويقال:هو القلم والمِزْبر بالزاى والمِذْبر من زبرت وذبرت،أى كتبت ، ومَنْ فرّق بينهما قال : زبرتُ بالزاى ، أى كتبت ، وذبرت ، أى قرأت . وسمّىَ قلماً لأنه قلَمَ ، أى قطع وسوّى ، كما يقلّم الظفر ، وكلّ عود قطِع وحُزّ رأسه وأُعلم بعلامة فهو قلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُم يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾(٢) ، وكانت سهاماً فيها أسماؤهم مكتوبة . ويقال للذى يُقلم به : مِقْلم ، وللذى يُبرى به : مبرًى ، ولِمَا سَقَط عن البَرْى والتَّقليم : القُلامة والبُراية . وقيل لأعرابىّ : ما القلم ؟ ففـكّر ساعة ، وجعل يقلّب أصابعه ، ثم قال : لا أدرى ؛ فقيل له : توهّمْه فى نفسك ، قال : هو عود قُلِّمَ من جوانبه كتقليم الأظفار . ويقال لعُقَده : الـكعوب ، واحدها كَعْب ، ولما بينها الأنابيب ، واحدها أُنبوب ، ويستعملان فى الرّمح ، وفى كلّ عود فيه عُقَد ، والعقدة التى تشينه تسمّى الأُبنةُ وجمعها أُبَن ، فإن كان فى العود أو القصبة تأكُّل ، قيل فيه : قادح ونقَد ، ويقال لباطنه : الشحمة ، ولظاهره اللِّيط ، فإن قشرت منه قشرة قلت : لِيطت من القلم لِيطة ، فإن أخذت شحمته بالسِّكين قيل: شحمته أشحمه ، فإن أفرطت فى أخذها ، قلت : بطّنته تبطيناً فهو مبطّن ، وحفرته فهو محفور ، فإن تركت شحمته ، قلتَ : أشحمته إشحاماً . ويقال لغشائه الذى عليه : الغلاف واللِّحاء والقشر ، فإذا نزعتها عنه قيل : قشرته ولحوته وقشوته وسحوته ،

(١) الاقتضاب ٨٢ .

(٢) آل عمران ٤٤ .

ويقال فى ثلاثتها بالياء ، ووسّقته ونقّحْته ، مشدّدان . ويقال لطرفيه اللّذين يكتب بهما : السِّنّان والشّعيرتان ، واحدهما سنّ وشعيرة ، فإذا قطع طرفه وهيِّىء للكتابة قيل : قطَطته أقطّه قَطًّا ، وقصمته أقصمه قَصْماً ، والمِقطّ بالكسر : مايقطّ عليه ، وبالفتح الموضع الذى يقط من رأسه ، فإن جعلت إحدى سنّيه أطولَ من الأخرى قلت : قلم محرّف ، وقد حرّفته تحريفاً ، فإن سوّيتهما قلت : قلم مبسوط ، فإن سمع له صوت عند الكتابة ، فذلك الصريف والصرير والرشيق ويقال للقَصَب : اليَرَاع والأَباء ، الواحد يَرَاعة وأَباءة ، وقيل : الأَباء أطراف القلم ، أى القصب ، ويقال للقطن الذى يوجد فى بطنها : البَيْلَمُ والقيصف والقيسع ، واحدته بَيْلَمة وقيصفة وقَيْسَعة ، فإن كان فى القصب تأكّل قيل فيه : قادح ونقَد ، وكذلك العود والسنّ والقَرْن ، فإن كان فيها عِوَج فذلك الدّرء[1] .

قوله : «خذ أداتك» ، أى قلمك. وقال ابن طاهر لكاتب له : ألِقْ دواتك ، وأطلِ سنّ قلمك ، وفرّق بين السطور ، وتوسط بين الحروف .

وقال ابن عبد ربه : ينبغى للكاتب أن يصلح آلته التى لا بدّ له منها ، وأداته التى لا تتمّ صناعته إلا بها ، وهى دواته ، فلينعم ربُّها إصلاحَها ، ثم ليختر من أنابيب القصب أقلّها عُقَدًا ، وأكثفها لحماً ، وأصلبها قشراً ، وأعدلها استواء ، ويجعل لقرطاسه سِكيناً حاداً ليكون عوناً له على بَرْى أقلامه ، ويبريها من ناحية نبات القصب .

واعلم أنّ محل القلم من الكاتب محل الرّمح من الفارس ، نظم أحد الشعراء فقال :

يُمْسِكُ الفارسُ رُمحاً بيدٍ  وأنا أمسكُ فيها قَصَبَهْ
فكلانا فارسٌ فى شأنِهِ  إنما الأقلامُ رُمْحُ الكَتَبَهْ

(١) نظر المؤلف فى هذا الفصل إلى ما أورده ابن السيد البطليوسى فى كتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب لابن قتيبة ص ٨٢ ــ ٨٧ مع تصرف واختصار .

وقال أبو الفتح البُستى :

إن هزَّ أقلامه يوماً ليُعمِلَها أنساكَ كلَّ كَمِيٍّ هزّ عامِلَهُ[(١)]
وإن أقرّ على رَقّ أناملَه أقرّ بالرِّقّ كتّابُ الأنام لَهُ

رأى جعفر بن يحيى خطًّا فاستحسنه ، فقال : الخطّ خَيْط الحكمة ، يُنظم فيه منثورها ، وتُفصَّل فيه شذورها .

ومن كتاب جعفر بن يحيى إلى محمد بن الليث : أما بعد ، فليكنْ قلمُك محرَّفاً ، لامتيناً ولا رقيقاً ، ضيّق القلب . فابْرِه برياً مستوياً كمنقار الحمامة ، أعطِفْ بطنه ، ورقّقْ شفرتيه ، وليكُن قرطاسك رقيقاً مستوىَ النَّسْج ، مخرَّج السَّحَاءة[(٢)] ، مستوياً من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السّطور إلا فيما كان كذلك ، وليكُنْ أكثر مَطّك فى أطراف القرطاس الذى فيه يسارك ، وأقلّه فى الوسط ، ولا تمطّ فى الطرف الآخر ، والمطّ نصف الخطّ ، ولا يقوى عليه إلا العاقل .

قال العتابىّ : سألنى الأصمعىّ فى دار الرشيد : أىّ الأنابيب للكتابة أصلح ، وعليها أصْبر ؟ فقلت له : ما نَشِف بالهجير ماؤه ، وستره من تلويحه غِشاؤه ، من الدرّية الظهور ، النيّرة القشور ، الفضّية الكسور ؛ قال : فأىّ نوع من البرْى أصوب وأكتب ؟ فقلت له : البريّة المستوية القَطّة ، التى عن يمين سنها قُرنة[(٣)] ، تأمن معها المجّة عند المدّة والمَطّة ، للهواء فى شِقّها صفيق[(٤)] ، وللرّيح فى جوفها خريق ، والمداد فى خرطومها رقيق . قال العتابىّ : فبقى الأصمعىّ شاخصاً إلىّ لا يحيرُ جواباً[(٥)] .

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٩١ (٢) السحاءة : القشرة .
(٣) القرنة : الطرف المائل من كل شىء (٤) العقد : « فتيق »
(٥) العقد ٤ : ١٧٣

وقال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى خلال : جودة بَرْى القلم ، وإطالة جِلْفته ، وتحريف قَطّته ، وحسن التأتّى لامتطاء الأنامل ، وإرسال المدّة بعد إشباع الحروف ، واستواء الرسوم ، وحلاوة المقاطع .

وقال بعض الكتّاب : عطِّروا دفاتركم بجيّد الحبر ، فإنّ الكتب غوانٍ والحبر غوالٍ .

وقال بعض الكتاب أيضاً :

وما رَوْض الربيع وقد زهاه ... ندَى الأسْحارِ يأرَج بالغَدَاةِ
بأضوعَ أو بأسطعَ من نسيمٍ ... تــؤدّيه الأفاوهُ من دَوَاةِ

كأنّ هذا من قول الآخر :

دعىّ فى الكتابه ليس منها ... لهفِكرٌ يُعَدّ ولا بديهُ (١)
كأنّ دواته من رِيقِ فيه ... تلاقُ ، فريحُها أبداً كريهُ

ونظر جعفر بن محمد إلى فتى على ثيابه أثر مداد ، وهو يستره ، فقال له :

لا تجزعنّ من المِداد فإنه ... عِطْر الرجال وحِلْية الكُتّابِ

ولبعضهم يهجو كاتباً :

حمارٌ فى الكتابة يدّعيهــا ... كدعوَى آل حــربٍ فى زيادِ
فدعْ عنك الكتابةَ لستَ منها ... ولو لطّخت نفسك بالمــدادِ

وقال كُشاجم لورّاق يدّعى الكتابة :

وزعَمْتَ أنّك فى الكتابة مدركٌ ... شأوى، فقلت: رماحنا أقلامُ (٢)
هيهاتَ تلك صناعة ممزوجَــةٌ ... فيها ضياءٌ واضحٌ وظــلامُ

(١) أدب الكتاب للصولى ١٠١
(٢) ديوانه ١٦٠ وفيه : « يريق دماءنا »

هذا الحديد سلاح أبطالِ الوغى — وبه يَنْــــجّ دماءنا الحجّــامُ

وقال أبو العيناء : كنتُ عند إبراهيم بن العباس ، وهو يكتب كتاباً ، فنقطت من القلم نقطة مفسدة ، فسحها بكمّه ؛ فتعجّبت ، فقال : لا تعجَبْ ، المال فرع والقلم أصل ، والأصل أحوج إلى المراعاة من الفرع ، وبهذا السواد جاءت هذه الثياب ، ثم أطرق قليلاً وقال :

إذا ما الفِكْرُ وَلَّدَ حسن لفظٍ — وأسلَمَه الوجُودُ إلى الوِيانِ
ووشّاه فنمنمه جـــوادٌ — فصيحٌ فى المقالِ بلا لِسانِ
ترى حُلل الْبيان منشّراتٍ — تجلّى بينها صُور المعـانِى

وكتب سليمان بن وهب بقلم صلْب ، فاعتمد عليه اعتماداً شديداً ، فصرّ القلم فى يده ، فأنشد :

إذا ما التقينا وانتضينا صوارماً — يـكاد يُصِمّ السامعين صريرُها
تساقط فى القِرْطاس منها بدائعٌ — كمثل اللآلى نظمها ونثيرُهــا
تقود أبيّات البيـــان بفطنةٍ — تـكشّف عن وجه البلاغة نورُها
تظلّ المنايا والعطايا شـــوارعاً — تدور بما شئنا وتمضى أمورُها
إذاماخطوب الدهرأرْخَتْ ستورَها — تجلّت بنا عما يسرّ ستورُهـا

وأتى رجل وكيعاً ، فقال : رجل يمتّ إليك بحرمة ! فقال له : وماحُرمتك ؟ قال له : كنتَ تكتبَ بمحبرتى عند الأعمش . فوثب وكيع إلى منزله ، ثم أخرج منه دنانير لنفقته ، وقال له : اعذرنى فما أملك غيرها ، ودفعها إليه .

وقال أبو الحسن بن لبّال فى محبرة آبنوس :

وخديمة للعلْم فى أحشائها — كلَفٌ بجمع حلاله وحرامِه
لبِست رداءَ اللّيل ثم توشّحت — بنجومه وتتــوّجَتْ بهلالِهِ

وحدثني عن شيخي الفقيه أبي عبدالله بن زَرْقون ابنُه الفقيه أبو الحسين ، قال : حدّثني أبي أنه كان بسَبْتة أيام الشبيبة والطلب ، في مجلس جمع من طلبة الأدب ، فتعرّض لهم رجل بمِحْبَرة صنعها ، وأراد أن يقصد بها الوالي على حسنها ، وكانت محبرة آبنوس بحلية صفراء مذهبَة ، فأطرقوا يروّون ، فبادرهم أبو الطالب ابن أبي ركب فقال :

جاءتك من غُرَرِ العلا زِنجيّـةٌ ... في حُلَّةٍ من حِلْيةٍ تتبخترُ
سوداء صفراء الحليّ كأنّها ... ليـــل تُطرِّزه نجوم تزهَرُ

فاستحسنهما من حضر ، ورأوا أنه قد أربى على الغاية فيما عنه صدر ، فكتبا للرجل في رقعة ، فبعد ما سار بها قليلا ، رجع فأبرز منها قلم صُفْرٍ مذهباً ، ورغب أن يضمّن ذكره في منظوم يضاف إلى البيتين ، فأطرقوا يروّون في ذلك ، فبادرهم أبو طالب المذكور فقال :

كمَلَت بأصفرَ من نجارِ حُلِيِّهـا ... تخفيه أحياناً ، وحينا يظهرُ
خرسان إلا حينَ يَرْضع ثديهاَ ... فتراه ينطق ما يشاء ويذكُرُ

وقال آخر يصف دواة وأقلاما :

قَـــدْ بعثنا إليك أمّ العطايا ... والمنايا زَنْجِيَّـــة الأحْسَابِ
في حشاها من غير حَرْبٍ حِرَابٌ ... وهي أمْضَى من نَافِذَاتِ الحِرَابِ

وأحسن ما قيل في القلم قول حبيب يصف قلم محمد بن عبد الملك الزيّات :

لكَ القلمُ الأعلى الّذي بسنانِهِ ... تُصاب من المرء الـكُلَى والمَفاصِلُ (١)
له الجَـــلَوات اللاءِ لولا نجيُّها ... لَمَـا احتفلتْ للملكِ تلكَ المَحافِلُ
لُعاب الأفاعِي القاتلات لعـابُه ... وأرْيُ الجَنَى اشتارتْه أيدٍ عَوَاسِلُ (٢)

(١) ديوانه ٢٥٧ ، وشباة القلم : حده .
(٢) الأرى : العسل .

لهديمةٌ طلٌّ ، ولكنَّ وقعها بآثاره فى الشرق والغرب وَابِلُ[1]
فصيحٌ إن استنطقتَه وهْو راكب وأعجمُ إن خاطبتَه وهْو رَاجِلُ
إذا ما امتطى الخمسَ اللِّطاف وأفرغت
عليه شِعاب الفكر وهى حَوافِلُ
أطاعتْه أطرافُ القنا وتقوّضَتْ لنجواه تقويضَ الخيامِ الَجحافِلُ
إذا استغزر الذّهن الذكىّ وأقبلتْ أعاليه فى القِرْطَاس وهى أسَافِلُ
وقد رفدته الخِنصران وسدّدت ثلاث نواحِيه الثّلاثُ الأنَامِلُ
رأيتَ جليلاً شأنُه وهومرهَفٌ ضَنًى ، وسمينًا خطبُه وهو ناحِلُ

وقال أبو الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطالُ يومًا بسيفهمْ وعدّوه مما يكسب المجدَ والكَرَمْ[2]
كفى قلمَ الكتاب مجداً ورفعةً مدى الدهر أنّ الله أقسم بالقلَمْ

وقال البحترىّ :

تعنو له وزراء الملك خاضعةً وعادةُ السَّيفِ أن يستخدِمَ القلَمَا[3]

وقال أبو العباس التنوخىّ :

إن يخدم القلمُ السَّيفَ الّذى خضعت
له الرقابُ ودانت خوفَه الامَمُ
فالموتُ والموت لا شىء يقابلُهُ ما زال يتبع ما يجرى به القَلَمُ
بذا قضى الله للأقلام مُذْ بُرِيَتْ أنَّ السيوف لها مذ أُرْهِفتْ خَدَمُ

---

(١) الطل : المطر القليل ، والوابل : المطر الكثير .
(٢) الطرائف ٢٢ (٣) ديوانه ٢٠٤٨

وناقضه أبو الطيب المتنبي فقال :

حتى رجعتُ وأقلامي قوائلُ لي : المجد للسيف ليس المجد للقلمِ (١)
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فإنّما نحن للأسْيافِ كالخدَمِ

وقال الصوليّ : فاخر صاحب سيف صاحبَ قلم، فقال صاحب القلم : أنا أكتب بلا غَرَر، وأنت تقتل على خَطَر ، فقال صاحب السيفَ : القلم خادم السَّيف إن تمّ مدادُه ، وإلا فإلى السيف معادُه .

قال الصوليّ : وقال بعض اليونانيين : الدين والدنيا تحت شيئين : سيف وقلم ، والسيف تحت القلم .

وفي ذلك يقول جرير النّميريّ :

أتحقِرني ولستَ لذاك أهلاً وتُدْني الأصغرَيْن من الخِوَانِ
جهابذةٌ وكتّابٌ وليسوا بفرسانِ الكتيبة والطّعانِ
ستذكرني وتعرفُني إذا ما تلاقَى الحلْقتان من البِطَانِ

وقال كشاجم :

هنيئاً لأصحابِ السيوف بطالةٌ تقضّى بها أيامهم في التنعُّمِ
وكم فيهمُ من دائم الأمر لم يرعْ بحرْب ولم يَنْهَدْ لقِرْن مصمِّمِ
وكلّ ذوي الأقلام في كلّ ساعة سيوفهم ليست تجفّ من الدّمِ

وقال آخر :

قوم إذا أخذوا الأقلام من قصبٍ ثم استمدّوا بها ماء المنيّاتِ
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا
مَالاَ ينالُ بحدّ المشرفيّاتِ

وقال البحتريّ يصف كلام الحسن بن وهب وأقلامه :

(١) ديوانه ٤ : ١٥٩ ، ١٦٠ .

وإذا تألق في العيون كلامه الـ ... مَحْمودُ خِلْتَ لسانه من عضبه(١)

وإذا دجتْ أقلامه ثم انتحتْ ... برقت مصابيح الدُّجى في كُتْبِهِ

فاللفظ يقرب فهمه في بُعْدِه ... منّا ، ويبعُد نيْلُهُ من قُرْبِهِ

حِكَمٌ ، فسائحها خلال بنانِهِ ... متدفِّق ، وقليبُها في قَلْبِهِ

فكأنها والسَّمع معقودٌ لها ... شخص الحبيب بدا لعين مُحِبِّه

وقال عليّ بن الجهم في رقعة جاءته بخط جارية :

ما رقعة جاءتك مثنيّةً ... كأنها خَدٌّ على خَدِّ(٢)

نَبْذُ سوادٍ في بياضٍ كما(٣) ... ذُرَّ فَتيتُ المسْكِ في الوَرْدِ

ساهمة الأسطار مصروفةٌ ... عن وجهة الهَزْلِ إلى الجِدِّ

يا كاتباً أسلمني عَتْبُه ... إليه ، حسبي منك ما عِنْدِي

وقال البحتري في ابن الزيات :

قد تَصَرَّفْتَ في الكتابة حتّى ... عطَّلَ الناسُ ذِكْرَ عَبْدِ الحميدِ(٤)

في نظامٍ من البلاغةِ ما شَكَّ امرؤ أنّه نظامُ فريدِ

وبديع كأنه الزَّهر الضا ... حك في رَوْنَقِ الرَّبيعِ الجديدِ

ما أعيرت منه بطونُ القراطيـ ... ـس وما حملت ظهورُ البريدِ

حُزْنَ مستعملَ الكلامِ اختياراً ... وتجنَّبْنَ ظُلْمَةَ التعقيدِ

كالعذارى غَدَوْنَ في الحُلَلِ الصُّفْـ ... ـرِ إذا رُحْنَ في الخطوط السُّودِ

قال المأمون لمحمد بن داود: إن شاركناك في اللفظ فقد تاركناك في الخطّ .

فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ من أعظم آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أدّى عن الله تعالى رسالته ، وحفظ وحيَه ، وهو أميّ لا يعرف من فنون الخطّ فنّاً .

(١) ديوانه ١٦٤

(٢) ديوانه ٩١

(٣) النبذ : الشيء القليل .

(٤) ديوانه ٦٣٦ .

ولا يقرأ من حروفها حرفاً ، وبقى عمود ذلك فى أهله ، لهم يشرفون بالشَّرَف الكريم فى نقص الخطّ ، كما يشرف غيرهم بزيادته ، وإنّ أمير المؤمنين أخصّ الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والوارث لموضعه ، والمتقلّد لنهيه ولأمره ، فتعلّقت به المشابهة الجليلة ، وتناهت إليه الفضيلة . فقال المأمون : يا محمد ، لقد تركتَنى لا آسى على الكتابة ولو كنت أميًّا .

قد ذكرنا من آلات الكتابة نثراً ونظماً ما فيه كناية وفى السادسة والعشرين من النظم فى أوصاف الكتّاب ما يستحسن وينتظم بما أوردنا هنا .

وإنما أخرج الحريرىّ رسالته الخَيْفاء من هذه الأوصاف المنظومة فى الرسائل التى قدّمناها آنفاً لما ذكره من أنّ جميع الكتّاب قطب لإنشائها وتاب ، لما فيها من لزوم نقط لفظة وترك أخرى ؛ وهى على ما بها من التكلّف ، رائقة المعانى ، أنيقة المبانى ، ولو غيره تعاطاها لأظلمت معانيها ، وتداعت مبانيها ، فلله هو ! لقد كان منقاداً له صعب الكلام بأيْسَر مَرَامٍ ! وما هو فى محاولة البلاغة إلا كما قال حبيب فى سليمان بن وهب :

سَرَحٌ نطقه إذا ما استمرّتْ ... عقدة العىّ فى لسان الخطيبِ (١)
ومصيب شواكلَ الأمر فيه ... مشكلاتٌ مَلَكْنَ لُبَّ اللبيبِ
لامعنًى بكلّ شىء ولا كلُّ ... عجيب فى عينه بعجيبِ

* * *

الكرمُ ـ ثَبَّتَ اللهُ جَيْشَ سُعُودِكَ ـ يَزِينُ ، واللُّؤْمُ ـ غَضَّ الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ ـ يَشِينُ ، وَالأَرْوَعُ يُثِيبُ ، والمعورُ يَخيب ، والحُلاَحِلُ يُضيف ، والماحِلُ يُخيف ، والسَّمْحُ يُغْذِى ، والمَحِكُ يُقْذِى ، وَالْعَطاءُ يُنْجِى ، وَالمِطَالُ يُشجِى ، والدُّعاءُ يقى ، والمدْحُ يُنَقِّى ، والحُرُّ يَجزِى

(١) ديوانه ٣٧ . وفى فيه : « سرح قوله » .

والإلطاطُ يُخزِي، واطِّرَاحُ ذِي الْحُرْمَةِ غَيٌّ، وَمُحْرَمَة بنِي الآمالِ بَغْيٌ، وَمَا ضَنَّ إلاَّ غبينٌ، وَلاَ غُبِنَ إلاَّ ضنينٌ، ولاَ خَزَن إلاَّ شَقِيٌّ، ولاَ قَبَضَ رَاحَهُ تَقِيٌّ. وَمَا فَتِيءَ وَعْدُكَ يَفِي، وآرَاؤُكَ تَشْفِي، وَهِلاَلُكَ يُضِي، وحِلْمُكَ يُغضِي، وآلاؤكَ تُغْنِي، وأَعْدَاؤكَ تُثْنِي، وَحُسَامُكَ يُفْنِي، وسُؤدَدُكَ يَبْنِي، ومُواصِلُكَ يَجْتَنِي، ومَادِحُكَ يَقْتَنِي، وسَمَاحُكَ يُغيث، وسَماؤكَ تغيث، وَدَرُّكَ يَفيضُ، ورَدُّكَ يَغيضُ، ومؤمِّلُكَ شيخٌ حكاه فَيْءٌ، ولم يبق لَهُ شَيْءٌ. أَمَّكَ بِظَنٍّ حِرْصُهُ يَثِبُ، ومَدَحَكَ بِنُخَبٍ مُهُورُها تَجِب، ومَرَامُهُ يخِفّ، وأَوَاصِرُه تَشِفّ، وإطراؤه يُجْتَذَب، ومَلامُهُ يُجْتَنَب، ووراءه ضَفَف، مَسَّهُمْ شَظَف؛ وحَصَّهم جَنَف، وعَمَّهُمْ قَشَف، وَهُوَ فِي دَمْعٍ بجيب، وَوَلَهٍ يُذيب؛ وَهَمٍّ تضيّف، وَكَمَدٍ نيّف، لِمأْمُولٍ خَيَّبَ، وإِهْمالٍ شيَّبَ، وَعَدُوٍّ نَيَّبَ، وَهُدُوٍّ تغيَّبَ، ولَمْ يزِغْ وِدّه فيغضب، ولاَ خَبُثَ عُودُه فَيُقْضَب، ولا نَفَثَ صَدْرُه، فيُنفَض، ولاَ نشزَ وصْلُهُ فَيُبْغَض، وَمَا يَقْتَضِي كَرَمُكَ نَبْذَ حُرَمِهِ؛ فيبيض أمله، بتخفيف أَلمِه، يبث حَمْدَكَ بَيْنَ عَالِمِه. بقيت لإماطة شَجَبٍ، وإعطاء نَشَبٍ، وَمُدَاوَاة شَجَن، ومُرَاعَاةِ يَفَنٍ، موصولاً بخفضٍ، وسُرُورٍ غَضٍّ، مَا غَشِيَ مُمَهِّدُ غَنِيٍّ، أَوْ خُشِيَ وَهْمُ غبِيّ، والسلام.

ooo

قوله : «غضّ الدهر جفن حسودك» ، يقال : غضّ جفنه ، أى سدّ عينيه ، دعاء عليه بالعمَى ، يقول : الكرم يزيّن صاحبه . واللؤم — وهو البخل — يَشينه ويَعيبه ، ثم دعا له بدوام السّعد وثبوته ، وبعمى عين الحسود حتى لا يبصر ماأُعْطِىَ الممدوح من النِّعم ، فيأخذها بالعين . الأروع : السيد الكريم ، وهو الذى قصِد ، وقيل : الأرْوَع الحديد النفس ، وقيل : الذى يروعُك بجماله . يُثِيب : يُجازى قاصده . والمُعْوِر : البادى العَوْرَة ، وهو الفارس يظهر فى طعنه خلل ، وأراد به الناقص الخلق الكثير السفاهة ، ومن جملة عيوبه البخل حتى يخيب قاصده ، لأنه قابَل به الأرْوَع ، وهو التامّ الجسيم ، الجهير الصوت ، قال الشاعر :

يواخِى لئيمُ النَّاس كلَّ ملائمٍ ويَنطق بالعَوْرَاءِ مَنْ كان مُعْوِرَا

الُحلاحل : السيّد الذى يحُلّ به الناس كثيراً . يُضِيف : يُنزل الأضياف ويكرمهم . والمَاحل : البخيل ، شبِّه بالبلد الماحل ، وهو الجدْب ، فكأنّ الماحل الذى لا يوجد عنده خير ، يقال : أمحل البلد ، وبلد ماحل وذو مَحْل ، مثل لابن وتامر ، والماحل النَّمام ، يقال : مَحَلَ به إلى السلطان إذا وشَى به ، وهو الذى يُخيف على الحقيقة ، والماحل أيضاً : المخاصم ، وقد ماحلتُه وماحَلنى . يُغْذِى : يطعم . والمحِكُ : اللّجوج ، وهو مقابل السَّمْح الخلق . يُقذِى : يجعل فى العين قَذًى ، أى يضرّ قاصده ويؤلمه . يُنجِى : يخلّص صاحبَه من الذمّ ، وتقدّم المِطال . يُنْقِى : يغسل العيب . والإلطاط : الامتناع من فعل الخير ، ويقال : لطّ وألطّ ، إذا ذهب ، ولطّ الشىء وألطّه ، إذا ستره . يُخزى : يهين . اطّراح : ترك . ذى الحرْمة ، أى صاحبها ، والحرمة مالا يحلّ تركه لـ[illegible]ن قصدك فقد دخل فى حرمك ، فتركُه ليس من المروءة . غَىّ : فساد وضلال . مَحْرمة : منع . بنى الآمال : أهل الرجل الذين يرجون خيره ويأملونه . بَغْى : ظُلم . ضنّ : بخل . غَبِين : مخدوع فى رأيه . ضنين : بخيل ، يقول : ما يضَنّ بماله من هو سديد .

النظر ولا المصيب الرأى إنما يبخل به مَنْ هو فاسد النظر مغبون فى رأيه .
خَزن: حبس ماله : قبض راحه: ضمّ كفه على ما فيها ، وهذه كناية عن المنع والبخل.
والتقىّ : الذى يقى نفسَه من العذاب بعمله الصالح ، من وقيتُ نفسى أقيها ،
واختلف فى وزنه فقيل « فعول » وأصلها «وقوى» ، فأبدلوا من الواو تاء لقرب
مخرجيهما ، ومن الواو الثانية ياء وأدغموها فى الياء ، وكسروا القاف لتصحّح
الياء ، والاختيار أن يكون وزنه « فعيلاً » وأصله « تقِى » ، فأدغموا الياء فى الياء ،
والدليل على صحته جمعهم له على أتقياء ، كولىّ وأولياء ، ومن قال : إنه
« فعول » قال : لمّا أشبه « فعيلا » جُمِع جمعه .

قوله : «ما فتىء» ، أى ما زال. يفى : يصدق ويكون وفيًّا. آراؤك: جمع رأى.
تشفِى : تزيل الهمَّ عن قلب وليّك ، وتبرِئ مرضَ قاصدِك من فقره ، يصفه بجوْدة
الرأى وحسن النَّظر فيما يُصلح به أحوال أصحابه وقصاده . هلالك يضى :
يصفه بطلاقة الوجه وإضاءته عند السؤال ، قال زهير :

تَرَاه إذا ما جئتَه متهلِّلاً ... كأنّك تعطيه الذى أنت سائلُه[1]

وكما قال أبو بكر فى الطّلاقة :

وإذا نظرتَ إلى أسرّة وجهه ... برقتْ كبرق العارض المتهلّلِ

خلافًا لسيِّء الخلُق الذى يقطّب وجهَه عند اللقاء ، واللئيم الذى إذا سئل
انزوى وتقبّض .

يفضى : يسمح . آلاؤك : نعمك . أعداؤك تُثنى : يقول لكثرة المادحين
لك والناشرين لفضلك ، لم يمكن أعداؤك وحسّادك ذمّك لتكذيب الناس
إياهم ، فصاروا يثنون عليك مع من يثنى ؛ ويحكى أنّ أعرابيًّا استضاف حاتمًا ،

(١) ديوانه ١٤٢ .

فلم يُنزله ، فبات جائعاً مقروراً ، فلما كان فى السَّحر ركب راحلته ، وانصرف ، فتقدّمه حاتم ، فلما خرج من بين البيوت لقيه متنكّراً ، فقال له : من كان أبا مثواك البارحة ؟ قال: حاتم ، قال : فكيف كان مبيتك عنده ؟ قال : خيرَ مبيت، نحرَ لى ناقةً فأطعمنى لحما عبيطاً ، وأسقانى الخمر ، وعلف راحلتى ، وسرتُ من عنده بخير حال . فقال له : أنا حاتم ، والله لا تبرحُ حتى ترى ما وصفت ، فردّه وقال له : ما حملك على الكذب ؟ فقال له الأعرابىّ : إنّ الناس كلّهم يثنون عليك بالجود ، ولو ذكرت شرًّا كنت أكذب ، فرجعت مضطرًّا إلى قولهم ، إبقاء على نفسى لا عليك . وقد تقدّم قول البحترىّ فى هذا المعنى :

أأشكو نداه بعد ما وسع الوَرَى ... ومَنْ ذا يذمُّ الغَيْثَ إلا مُذَمَّمُ[1] !

وقال حبيب :

فإن أنا لم يحمدكَ عَنِّىَ صاغراً ... عدوّكَ فاعلم أننى غير حامِدِ[2]

بسبَّاقة تنساق من غير سائقٍ ... وتنقاد فى الآفاق من غير قائدِ

أفادت صديقًا من عدوّ وصيرّت[3] ... أقاربَ دنيا من رجالٍ أباعِدِ

ومُحَلَفة لمّا تَرِدْ أُذنَ سامع ... فتصدر إلاّ عن يمين وشاهِدِ

وهذه القصيدة من كلامه يمدح بها محمد بن الهيثم ، يقول : يسمع عدوّك إطنابى فى مدحك فيمدحك صاغراً ، فكيف وليّك ! فأمدحك بقصيدة تقطع الأرض ، ليست بإبل تُساق ، ولا بخيْل تقاد ، فتردّ العدوّ صديقاً ، والبعيد قريباً ، ولا

(١) ديوانه ١٩٨٠

(٢) ديوانه ١١٩ ، ١٢٠

(٣) ط : « وعاودت »

يسمعها أحد إلا ويحلف أنه لم يسمع مثلُها ، فيشهد له بالصدق .

قوله :« وسوددك يَبْني»، أي يرفع لك مجداً وشرفاً . حسامك يفنى ، أى سيفك يقطع ويفنى أعداءك . مواصلك يجتنى ، أى مَنْ زارك وواصلَك اجتنى نعمتك ومواهبك . يقتنى ، أى يكتسب . سماؤك تَغيث ، أى تأتى بالغيث وهو المطر فيستغيث الناس به من الجدب . سماحك يُغيث، أى جودك وحسن خلقك يفرّج كُرَب المهموم، وتقول : غوّث الرجل، أى قال : واغوثاه ، وأغثته أغيثه ، إذا فرّجت عنه ما يشتكى منه . درّك يفيض: عطاؤك يشمل ، أى لبنُك يملأ الإناء ويفيض عليه، يريد أن عطاءه يكثر لسائله . وردّك يَغيض ، أى منعك يذهب الرزق ، وغاض الماء: غار فى الأرض ، مؤمّلك: راجيك . والفئ : الظلّ بعد الزوال ، يريد أن عمره قد أدبر ، فشبّه نفسه بالفئ الذاهب . أمّك بظنّ ، أى قصَدك برجاء . وحرصه يُنَب ، أى طمعه يتزايد فيجعله فى غاية من القلق . نُخَب : مختارة . مهورها : حقوقها ، يقول : مدحك بنخب فى ملئه ، فوجَبَتْ حقوقها لحسنها وجودتها . ومما ينظر إلى هذه المعارضة قول الشاعر :

وخذ حمدى بجودك ، ذَا بهذا كلانا اليوم أربحُ صيرفىٍّ
لأُصبح من نوالك فى رياشٍ وتصبح من مقالى فى حُلىٍّ

وقال آخر :

وحُلَّةٍ كَسَاها كالحلىِّ فى النهابهْ
فاستبطنت مديحاً كالأرْىِ فى نِصَابِهْ
فراحَ فى ثيابى ورُحْتُ فى ثيابِهْ

وقال ابن شُهيد فى ضيف له :

وما أنفكّ معشوق الثّواء نَمُدُّهُ — بِبشر وترحيب وبَسْط لِسَانِ[1]
إلى أن تشَهّى البينَ من ذاتِ نفسِه — وحنّ إلى الأهلين حنَّـة حَانِ
فأتبعتُه ما ســدّ خَــلَّة حالِهِ — وأتبعنى ذكراً بكلّ مكَانِ

قوله : «مرامه يخفّ» ، أى مطلبه يسهل عليك .

أواصره : جمع آصرة وهى صلة الرحم ، والأَصْر : المَوضع الحابس ، من قولهم : أصرت فلاناً على الشىء آصِره أصْراً ، إذا حبسته عليه وعطفته ، ويقال : ماتأصرنى على فلان آصرة ، أى ماتحبسنى عليه حابسة ، ولا تعطفنى عليه عاطفة . ذكره ابن الأنبارىّ .

وذكر الحريرى فى الدرَّة ، أن اشتقاق أواصر القرابة والعهد من المأصِر ، بكسر الصاد ، ومعناه الموضع الحابس للمارّ عليه ، فسمِّيت أواصر ، لأنها تعطف على مايجب رعايته من المودة والرحم . قال : وحكى عُبَيد الله بن عبد الله ابن طاهر ، قال : اجتمع عندنا أبو نصر أحمد بن حاتم وابن الأعرابىّ فتحادثا[2] ، فحكى أبو نصر أنّ أبا الأسود دخل على عبيد الله بن زياد ، وعليه ثياب رَثَّة ، فكساه ثياباً جديدة من غير أن يسأله ، أو استكساه ، فخرج وهو يقول :

كساك ولم تستكسِه فحمِــدتَه — فتًى ماجد يعطى الجزيل وياصِرُ
وإنّ أحقّ الناس إن كنتَ مادحاً — بمدحك من أعطاك والعِرْض وافرُ

فقال ابنُ الأعرابىّ : « وناصر » بالنون ، فقال له أبو نصر : دعنى ياهذا وياصرى وعليك بناصرك ؛ يريد : « ياصر » يعطف[3] .

(١) الذخيرة لابن بسام ١ : ٢٦٧
(٢) الدرة : « فتجاذبا الحديث » .
(٣) درة الغواص ٧١

قوله :«تشفّ» ،أى تزيد وتفضل غيرها ، يقول :إن الأسباب التى توجب عطفك وحنانك علىّ كثيرة منها الشَّيَخ[١] والضعف وكثرة العيال وجودة المدح،والعهود السابقة التى بينى وبينك. إطراؤه يُجتذب ،أى مدحــه يتجاذبه الناس ويحرصون على تحصيله لجودته ، وأصل الإطراء المدح فى الوجه ، فهو بمشاهدته كأنه مدح طرىّ ،أو ظهرت عليه طراوة . ملامه يُجتنب : ذمّه يخاف ويبعد منه ،فيرثَى عليه ، يقول : إنّ الذى رجاك شيخ مسنٌّ فقير قصَدك بيقين لأنك من أهل الكرم ، فطمعُه لذلك يزيد لما ارتجى من معروفك، وأهدى إليك من مدائحه عرائس وجبت عليك حقوقها ، ومرامه سهل عليك ، ولديك عُلَق تقوم مقام القرابة ، وتزيد على ذلك ، وله مدح يرغَبُ فيه وذم يرهب منه .

ووراءه ضَفف ،أى خلفه كثرة عيال ،من ضفّ الطعام ضَفًّا إذا كثر القوم عليه ، وضفّ العيش اشتدّ . والشَّظف :سوء الحال. حصّهم:عرّاهم ونتف ريشَهم . جنَف : ميل الدهر عليهم. قشَف :بؤس عيش. يجيب :يساعد . وَلَه : همّ وحيرة . يذيب : يُذهب اللحم. تضيّف :نزل به ومال إليه . كمد: حزن قارب الموت. تيف : زاد على المعهود . للمأمول،أى لمقصود مرجوّ. إهمال : تضييع وتسييب . نيّب: عضّ بأسنانه . وهدوّ تغيّب،أى سكون وأمن زال عنه . يزغ : يمل . نفث صدره، أى تكلم بشرّ،ونفث :بَزَق من داء فى صدره ومنه المثل:لابدّ للمصدور أن ينفُث. ينفض،أى يضرب ويبعد .نَشَز : ارتفع وزال. يقتضى:يتضمّن ويلزم . نبذ:طرح. حُرَمه : جمع حُرْمة . بيّض أمله ، أى أسعد رجاءه ، ورُدّه أبيض بعطائك الذى يخنف أمله ،ويزيل وجعه . ينثّ:ينشر.عاله : ناسه وأهل زمانه . بَقيت : عشت وطال بقاؤك . إماطة شجب: إزالة هلاك وتنحيته . نشب: مال . شجن: حزن ، والشَّجن أيضاً الحاجة . مراعاة : حفظ . يَفَن : شيخ كبير . موصولاً ، أى

(١) الشيخ ، محركة ، مصدر شاخ يشيخ ، مثل الشيخوخة .

متصلاً . بخفض : عيش هنيء . غضّ : ناعم جديد . غُشِىَ : قُصِد ودخل.
معهد : موضع يعهد به جلوسه . وهم غبىّ : غلط جاهل .

* * *

فلمَّا فرَغ مِنْ إمْلاءِ رِسالتِهِ ، وجلَّى فى هَيْجاء البَلاغةِ عَنْ بَسالتِهِ ، أرْضَتْهُ الجماعةُ فِعلاً وقوْلاً ، وأوْسَعَتْهُ حفاوةً وطوْلاً . ثُمَّ سُئِلَ مِنْ أىِّ الشُّعُوبِ نِجارُه ، وفى أىّ الشِّعابِ وِجارُهُ ، فقالَ :

غسّانُ أسْرَتِىَ الصَّمِيمهْ وسَرُوجُ تُرْبتِىَ القَدِيمَهْ
فالبيتُ مِثلُ الشَّمسِ إشْـ ـراقاً ومَنْزِلةً جَسِيمَهْ
والرَّبْعُ كالفِرْدوسِ مطـ ـيَبةً ومَنْزَهةً وقِيمَهْ
واهاً لِعَيْش كانَ لِى فيهَا ولَذَّاتٍ عَمِيمَهْ
أيَّامَ أسْحَبُ مُطْرَفِى فى رَوْضِهَا ماضِى العَزِيمَهْ
أخْتَالُ فى بُرْدِ الشَّبَا بِ وأجْتَلِى النِّعَمَ الوَسِيمَهْ
لا أتَّقِى نُوَب الزَّما نِ ولاَ حَوَادِثَهُ المُلِيمَهْ
فَلَوْ أنَّ كرْباً مُتْلِفٌ لَتلِفْتُ مِنْ كُرَبِى المقِيمَهْ
أوْ يُفْتَدَى عَيشٌ مَضَى لَفَدَتْهُ مُهْجَتِىَ الكرِيمَهْ
فالموتُ خيرٌ لِلفتَى مِنْ عَيْشِهِ عَيْش البهِيمَهْ
تقتادُهُ بُرَةُ الصَّغا رِ إلى المظِيَمةِ والهَضِيمَهْ

وَيَرَى السِّباعَ تَنوشُها أيدى الضِّباعِ المستضيمَهْ
والذَّنْبُ للأيام لَوْ لا شؤمُها لم تَغْبُ شيِمَهْ
ولو استقامَتْ كانتِ الـ أحوالُ فيها مُستقِيمَهْ

* * *

قوله : «إملاء رسالته» ، أى إلقائها عليه ليكتبها. جلّى : كشف. الهيجاء : الحرب ، وهى من الهيْج وهو الحركة والاضطراب . بسالته : شجاعته . أوسعته : كثّرت له . حفاوة : إكرام . والطَّوْل : الإنعام . الشّعوب : القبائل ، واحدها شَعْب ، بفتح الشين وهو الأب الكبير . ثعلب، الشّعب :الأب الأكبر الذى ينتهون إليه والقبيلة دونه . نجاره : أصله . الشِّعاب : الطرق فى الجبال . وِجاره :جُحره ، أراد بَيْتَه ، لأنهم سألوه من أىّ قبيلة هو ، وعن مسكنه فى أىّ موضع هو .

قوله :«غسان أسرتى» : أى هذه القبيلة أصلى وقرابتى . الصميمة : الصريحة الخالصة . تربتى . بلدى . إشراقًا : ضياء ونقاء من العيب . جسيمة : عظيمة . الفردوس : الجنّة ، سُمِّيَتْ بذلك لعرائشها ، والفردوس : المعرّش من الكرم . مطيبة ، أى سروج مثل الجنة فى طيب الهواء ،وفى نزهتها وحسنها ، وفى قدرها ، وأراد بالبيت غَسّان ، وبالربع سَروج ، أو يريد بيتَه فى غسان فى الشرف كالشمس ، ومنزله فى سَروج كالجنة فى طيبها ونزهتها ، وقد قال فى أخرى :

مَنْ رآها قال مَرْمَى جنّةِ الدنيا سَرُوجُ

ومثل قوله فى البيت مثل الشمس ، قول أبى الطَّمَحان القينىّ :

وإنّى من القوم الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم سيّد قام صاحبُهْ(١)

---

(١) الأبيات فى الكامل للمبرد ١ : ٤٩

نجوم سماء كلّما غار كوكبٌ بَدَا كوكب تأوى إليه كواكبُهْ
أضاءتْ لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتّى نظّمَ الجزعَ ثاقبه[١]

وقال حسان بن ثابت :

بيض الوجوه مضيئةٌ أحسابهمْ شمّ الأنوف من الطّرازِ الأوّلِ[٢]

وزاد عليه فى الإضاءة والإشراق حجيّة بن المضرّب فقال :

أضاءتْ لهم أحسابهمْ فتضاءلَتْ لنورهمُ الشمس المنيرة والبَــدْرُ

وزاد عليه أبو الطيب وعلى الناس فى علوّ الهمة وتبعيد منازلها من منازل الكواكب ، حيث يقول :

وعزمةٍ بعثْتها همّةٌ زُحَلٌ مَنْ تحتَها بمكان التّرب من زُحَلِ[٣]

وزُحل أرفع من الشمس ومن سائر الكواكب منزلةً ، وهذا من غلوّ المتنبّى الذى يخرج به عن الناس حتى يُعاب ، لأنه لو جعلها مع زُحَل فى منزلة واحدة ، كما جعل الحريرى منزلَته مع الشمس لكان قد بلَغ النّهاية ، وزاد على غيره ، فلم يكتف بذلك حتى جعلها تعلو على زُحَل ، كما يعلو زُحل على الأرض . ومن هذا الإفراط فى شعره كثير ، وأكثر النقاد يعيبون عليه ؛ وبعد هذا فمعجزاته فى الشعر زاد بها على المتقدّمين والمتأخّرين عند الأكثر فلا يجارى فى كثير منها.

واهًا : تعجُّباً ، كأنه قال : ما أعجبَ ما كان عيشى بها ! عميمة : كثيرة . أسحب مُطْرَفى : أجرّ ثوبى المعلَم فى طرفه إعجاباً بنفسى. أختال : أمشى الخُيَلاء متكبّراً . بَرْد الشباب : ثوب الفتوّة . أجتلى : أنظر . الوسيمة : الحسان . والنّوب والحوادث : النوازل والمصائب ، كلّها بمعنى واحد ، وهى ماينوب الإنسان ، أو يحدث عليه أو ينزل به ، أو يصيبه من البلاء بعد العافية . المليمة:

(١) الجزع ، بالفتح ويكسر : الخرز اليمانى .
(٢) ديوانه ٣٠٨
(٣) لم أجده فى ديوانه ، كما لم أجده فى شعره أبى طالب المتنبى الأندلسى فيما أورده ابن بسام فى الذخيرة وعلى بن سعيد فى المغرب .

التي تأتي بما يُلام عليه . كَرَبي المقيمة : همومي الثابتة . مُهجتي : نفسي، وأصلها دم القلب . تقتاده : تسوقه . بُرَة : حَلْقة من صُفْر تجعل في وترة أنف البعير ، يذلَّل بها . الصَّغَار : الذِّلّة .العظيمة : داهية يُستعظم أمرها . والهضيمة : المحقَرة لشأنه عند الناس ، فيريد بالبهيمة البعير الذى يقاد ويذلَّل بالبُرَة ، وبالعظيمة سؤاله الناس ،وبالهضيمة احتقارهم له إذا سألهم فيردونه خائباً . والسباع هنا : الأسُود . تنوشها : تتناولها وتخدشها .

[ الضباع وما قيل فيها ]

والضباع : جمع ضَبُع ؛ وهو نوع من سباع الأرض ، وهي مضادّة في الخِلْقة لسبع الأندلس ، لأنها عظيمة الكَفَل والفخذين رقيقة الصدر ، وهذا السبع أزَل[(١)] عظيم الصدر ، والضبع عظيم البطن ، ولذلك سمي حُضاجر بالجمع ، والحِضجر : عظيم البطن . والحِضْجر : الوطب الكبير من اللبن ، ويشبّه به العظيم البطن ، وهي عرجاء مثل هذا السبع ، ويضرب بحمقها المثل فيقال : أحمق من ضَبُع ، وأحمق من أمّ عامر وهي كنيتها . ومن حمقها أنّ الصائد يدخل وِجارها فيقول لها : خامري أمّ عامر ، ومعناه الجئي إلى أقصى مغارك واستتري ، فتتقبّص،فيقول : أم عامر ليست في وجارها ،ثم يقول : أبشري أمّ عامر بكَمَر الرجال ، أبشري أم عامر بشاة هزلى، وجرادة عظلَى ، فتمدّ يديها ورجليها ، فيوثقها ويشدّ عراقيبها بحبال فلا تتحرّك ، ولوشاءت أن تقتله لأمكنها ، ولا يدخل عليها إلا عرياناً ، وإن دخل بثوب قتلته ، ثم يخرج لأصحابه بالحبال، وهم على فم الوجار بأسلحتهم ، فيخرجونها بالجرّ من قعر الوجار ويقتلونها .

ومن حمقها أنها تترك جِراءها إذا خرجت تلتمس ما تأكل ، فتجد جِراء أخرى قد خرجت أيضاً لذلك ، وتركت جِراءها فترضع أولاد غيرها ، وتترك أولادها ، فربما ضاعت جِراؤها فأكلها الذئب[(٢)] . وقال الشاعر :

(١) الأزل : الخفيف الوركين .

(٢) جمهرة الأمثال ١ : ٤١٦ ، الميداني ١ : ٢٣٨ .

كَمُرْضعةٍ أولاد أُخرى وضَيَّعَتْ    بنى بطنها ،هذا الضلال عن القَصْدِ

قال أبو زيد : والضباع لا تفترس شيئاً إنما تأكل الجِيف ، وتنبش القبور عن الموتى ، وربما اجتمعت الجماعة منها على حمار فأكلته ، وليس لها بالنهار كبير عمل ، قال الهذلىّ :

تبيت الليل لا يخفى عليها    حمارٌ حيث جُرَّ ولا قتيلُ[(١)]

قوله : « المستضيمة » أى المذلّة . والضيم : الذلّ ؛ يضرب المثل لتلاعب الزمان بالناس بالأسود والضباع ، فقال : إنّ الضباع المحتقرة عند الأسود تتناول الأسود بالضرر ، وكذلك الزّمان يرفع الحقير والهجين ويكثر رزقه ، ويضع الرفيع ويقتّر عليه ، ويملّك الهحناء والأراذل الخطط الجسام ، ويجرّع النبلاء والأعيان غُصَصَ المخازى وكئوس الحِمام .

* * *

[ نبذ فى أحوال الدهر ]

وهذه أحوال مشاهدة تنسب إلى الدهر لوقوعها فيه ، وقدّرها البارى عز وجل اختباراً لعباده ، وليبصّر العقلاء جريان أحكامه فى خلقه ، وأنّ الكل تحت قهره ، وأن كلّ إنسان من أهل الحزم والرأى عاجز عن إدراك ما لم يقدَّر له ؛ وقال محمد ابن الفضل :

هانت الدّنيا على الله فأعطاهـــا اللّئاما
فهُمُ فيهاَ يعيشُــو نَ وَيلْحَوْنَ الـكِرَامَا

(١) لساعدة بن جؤية الهذلى ، ديوان الهذليين ١ : ٢١٦ .

وقال المعرىّ فى معنى بيت الحريرىّ :

ومَنْ صَحِبَ اللَّيالِى علّمَتْهُ خداع الإلْفِ والقِيلَ المُحَالاَ (١)
وغيّرت الخطوب عليه حتى تريه الذرّ يحملن الجبالا

وقال يزيد المهلبىّ يرثى المتوكل :

علتْك أسياف من لادونه أحدُ وليس فوقَكَ إلا الواحدُ الصَّمَدُ (٢)
وأصبح الناسُ فوضَى يعجَبُون به ليثاً صريعاً تندى حوله النَّقَدُ (٣)

وأخذ لفظ بيته من قول حبيب :

مَنْ لم يعاين أبا نصرٍ وقاتلَه فما رأى ضَبُعاً فى شدقه سَبُعُ (٤)
فيم الشماتة إعلانا بأسْدٍ وغًى أفناهمُ الصَّبرُ إذ أبقاكم الجزَعُ !

هكذا يُنظم حرّ الكلام ، ويُعتذرلموت الكرام ، وتُنفى عنهم شماتة اللئام. وقد أحسن الاعتذار أيضاً لأبى نصر بأغرب من هذا ، وجعله قاتل نفسه ، إذ لا نظير له فى شجاعته فيقتله ،وإنما قتله أمر الله الذى لا يغالَب، كما قال أبو الطيب:

ألا إنّما كانتْ وفاة محمدٍ دليلاً على أن ليس لله غالبُ (٥)

وكذلك قوله :

فإن ترم عن عمرٍ توانى به المدَى فخانك حتى لم يجد فيك منزعا (٦)
فما كنتَ إلاّ السَّيفَ لاقى ضريبةً فقطّعها حتى انثنى فتقطّعَا

(١) سقط الزند ٨١
(٢) مروج الذهب للمسعودى ٤ : ١٢٤
(٣) النقد : جنس من الغنم.
(٤) ديوانه ٣٧٢
(٥) ديوانه ١ : ١٠٩
(٦) ديوانه ٣٧٤

أى لم يقتل حتى قتل أعداءه ، وأبو نصر هو محمد بن حُميد قتله بابك الخرّمىّ
ومما قال فيه حبيب — وهو أشجع بيت قيل — قوله :

ونفسٌ تعاف العار حتى كأنَّما ... هو الكفرُ يوم الرَّوْع أو دونه الكفرُ[1]
فأثبت فى مستنقَع الموتِ رِجْلَهُ ... وقال لها: من تحت إخمَصِك الحشرُ

قوله : «الذنب للأيام »، نسب الذنب إليها لوقوع المكروه فيها كما تقدم .
تنبُ : ترتفع ، شيمة : طبيعة، أى لولا شؤم الأيام لم تتغير الطباع ، أى لو استقامت هى لاستقامت أحوال الناس فيها ، فكان كل إنسان يدرك منها على قدر منزلته.

* * *

[ نبذ وأقوال وحكايات فى ذم الزمان ]

ومما قيل فى ذمّ الزمان مما يوافق هذا المعنى ، أنّ عبد الملك بن مروان سأل مسلمة بن يزيد — وكان من المعمَّرين — فقال : أىّ الملوك رأيت أكمل ؟ وأىّ الزمان رأيت أفضل ؟ فقال : أمّا الملوك فلم أر إلا حامداً أو ذامًّا ، وأمّا الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواماً ، وكلّهم يذمّ زمانه ، لأنه يُبلى جديدَهم ، ويفرّق عديدهم، ويُهرم صغيرهم ، ويُهلك كبيرهم .

أبو جعفر الشيبانىّ قال : أتانا أبو ميّاس الشاعر ، ونحن فى جماعة ، فقال: ما أنتم فيه ؟ قلنا: نذكر الزمان وفساده ، قال : كلاّ إنّ الزمان وعاء ، وما أُلقِىَ فيه من خير أو شر كان على حاله ، ثم أنشأ يقول :

أرى حُلَلاً تُصانُ على رجال ... وأخلاقا تُذَال ولا تُصَانُ
يقولون الزَّمان به فسادٌ ... وهمْ فسدوا وما فسد الزَّمَانُ

(١) ديوانه ٣٦٩

وقال آخر :

أيا دهر إنْ كنت عاديْتَنَا فها قد صنعْتَ بنا ماكَفَا كَا
جعلت الشِّرارَ علينا خِيـاراً وأوْلَيْتَنا بعد وجـهٍ قفَا كَا

وقال أبو العتاهية :

كفاكَ عن الدّنيا الذميمة مُخبِراً غِنَى باخِليها وافتقار كِرَامِهَا
وأن رجال النَّفْع تحت مداسِهَـا وأنَّ رجال الضرّ فوقَ سَنَامِهَا

وقال ابن لَنْكَك :

يا زمانا ألبس الأحـ ـرارَ ذُلاًّ ومهانَهْ
لست عنـدى بزمانٍ إنَّمـا أنتَ زَمَانَهْ[1]

وقال ابن الرومىّ :

دهرٌ علاَ قدرُ الوضيـع به وغدا الشَّرِيف يحطُّه شرفُهُ[2]
كالبحر يرسبُ فيه لؤلـؤهُ سُفْلاً ويطفو فوقَهُ جِيَفُـهْ

وكرّره فقال :

قالتْ:علا الناسُ إلا أنتَ قلتُ لَهَا: كذاكَ يَسْفُل فى الميزان مارَجَحَا

وقال آخر :

ربّ يومٍ بكيتُ فيه فلمَّا صرتُ فى غيره بكيتُ عليْهِ[3]

---

(١) الزمان : العاهة
(٢) التمثيل والمحاضرة ٢٥٩
(٣) التمثيل والمحاضرة ١٠٦ نهاية الأرب ٣ : ٩٨

وقال آخر :

لم أبكِ من زمنٍ نكْدٍ أساء به ... إلاَّ بكيتُ عليه حين أفقدُهْ
ولا جزعتُ على مَيْتٍ فُجِعتُ به ... إلا ظللت بسكنى القبر أحسُدُهْ
ولا ذممتُ زماناً في تقلّبه ... إلاَّ وفي زمني قَدْ صِرْتُ أَحْمَدُهْ

وقال ابن أبي عيزارة :

عتبتُ على سَلْمٍ فلمَّا فقدتُه ... وجَرَّبْتُ أقواماً بكيتُ على سَلْمِ
رجعت إليه بعد تفويتِ غيره ... فكان كبُرْءٍ بعد طول من السُّقْمِ

وأنشد المبرّد :

حياة أبي العباس زيدتْ بقربِهِ ... أخا ثقةٍ قاس الأمور وَجَرَّبَا
ونعتب أحياناً عليه ولو قَضَى ... لكنّا على الباقي من الناس أعتَبَا

قال عروة بن الزبير : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . أخذه أبو الطيّب فقال :

وشبه الشيء منجذبٌ إليه ... وأشبهُنا بدنيانا الطَّغَامُ[1]
ولو لم يعلُ إلا ذُو محلٍّ ... تعالى الجيشُ وانحطَّ القَتَامُ
ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ... وإنْ كانت لهم جُثَثٌ عِظَامُ
وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهمْ ... ولكن مَعْدِنِ الذّهب الرَّغَامُ

الطّغام : السفلة .

* * *

ثمَّ إن خَبره نمَا إلَى الوالي ، فَمَلأَ فَاه باللآلي ، وَسَامَهُ أنْ يَنْضَوِيَ إلى أَحْشائِهِ ، وَيَلِيَ دِيوانَ إنْشائِهِ ، فأَحْسَبَهُ الْحِباء ، وَظَلَفَهُ عَنِ الْوِلايةِ الإباء .

(١) ديوانه ٤ : ٧١

قال الرَّاوِى : وَكُنتُ عَرَفْتُ عُودَ شجرَتِه ، قَبْلَ إِينَاع ثَمَرَتِه ، وَكِدْتُ أُنبّهُ عَلَى عُلُوِّ قَدْرِه ، قَبْلَ اسْتِنَارَةِ بدْرِه ، فأَوحى إِلىَّ بإِيماض جَفْنِه ، أَلاَّ أُجَرِّدَ عَضْبَهُ مِنْ جَفْنِه . فلمَّا خَرَجَ بَطِينَ الْخُرْج ، وَفَصَلَ فائِزًا بالْفُلْج ، شَيَّعْتُهُ قَاضِيًا حَقَّ الرِّعَايَةِ ، وَلاَحِيًا لهُ عَلَى رَفْضِ الْوِلاَيَةِ ، فأَعْرَضَ مُتَبَسِّماً ، وَأَنْشَدَ مُتَرَنِّماً :

لَجَوْبُ البلاَدِ مَعَ الْمَتْرَبَهْ ... أَحَبُّ إِلَىَّ مِنَ الْمَرْتَبَهْ
لِأَنَّ الْوُلاَةَ لَهُمْ نَبْوَةٌ ... ومَعْتَبَةٌ يا لهاَ مَعْتَبَهْ !
وَمَا فِيهِمُ مَنْ يَرُبُّ الصَّنِيعَ ... وَلاَ مَنْ يُشَيِّدُ ما رَتَّبَهْ
فَلاَ يَخْدَعَنْكَ لُمُوعُ السَّرَابِ ... وَلاَ تأْتِ أَمْرًا إِذَا ما اشْتَبَهْ
فَكَمْ حَالِمٍ سَرَّهُ حِلْمُه ... وَأَدْرَكَهُ الرَّوعُ لَمَّا انْتَبَهْ

* * *

قوله : « نما » ، أى ارتفع ووصل . اللآلى : الدرر . سامه : كلّفه . ينضوى : ينضمّ . وأحشائه : خاصّته . يلى ديوان إنشائه : يتولّى دار كتابته ، أى يكون هوالذى ينشىء الكتبَ، وينسخها الكتّاب وتنفذ إلى البلاد . أحسَبه : كفاه . الحِباء : العطاء . ظَلَفه : منعه . الإباء : الامتناع ، وقد أبيت من كذا ، أى امتنعت منه ؛ ويكنَى به عن نزاهة النفس . عود شجرته ، يريد أنه كان عرفه قبل أن يتكلّم ، وأن يعرّف نفسه . وإيناع الثمرة : إدراكها ونضج ثمرتها . إيماض جفنه : إشارة عينه . عضْبه : سيفه . جفنه : غمْده ، أى

أشار عليّ أن أستره . بطين : مملوء . الخُرْج : وعاء معلوم ، وهذا كقول الشاعر :

يبيتون بالدَّهنا خِفَافاً عيابُهُمْ ويخرجْن من دَارِين بُجْرَ الحقائبِ[(١)]

وقد أخذ هذا اللفظ فى مقامة أخرى فقال : حتى آل ذا عيبة خضراء وحقيبة بجراء ، أى مملوءة . وإلى هذا المعنى أشار ، نُصَيب فى قوله :

أقولُ لركبٍ قافلين رأيتهُمْ قَفاذاتَ أوْشَالٍ ومو لاكَ قارب[(٢)]

قفوا خبِّرونى عن سليمان إنَّنِي لمعروفه من أهل وَدَّانَ طالبُ[(٣)]

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولوسكتوا أثنت عليك الحقائبُ

ثناؤها عليه ، أن بدت للناس مملوءة من معروفه ، فأتى أبو العتاهية فزاد المعنى بياناً بقوله :

إنّ المطايا تشتكيكَ لأنّها قطعتْ إليك سباسباً ورِمَالاَ[(٤)]

فإذا أتينَ بنا أتيْنَ مخِفَّةً وإذا رجعن بنا رَجَعْنَ ثِقَالاَ

قوله : « فصَل » ، أى زال وتنحّى . الفُلْج : الظفر بما أراد . الرعاية : حفظ الصحبة . لاحيًا : لائما . رفض : ترك . مترنّما : مطربا ، أى لما خرج ممتلىء الوعاء ، ظافراً بما أراد ، لُمْتُه على ترك خدمة الأمير التى كلفه ، فأنشد

---

(١) لأعشى همدان ، يهجو لصوصاً ؛ وهو من شواهد ابن عقيل ١/٤٩٨

(٢) البيان والتبيين ١ : ٨٣ . والقارب : طالب الماء . وذات أوشال : موضع بعينه

(٣) ودان : موضع بين مكة والمدينة قريب من الجحفة ؛ قال ياقوت : « وقد أكثر نصيب من ذكرها فى شعره » وأنشد الأبيات .

(٤) ديوانه ٢١٧ .

معتذراً . المتربة ، أى الفقر . المرتبة: المنزلة الرفيعة . وهذا البيت ينظر إلى حكاية الأصمعىّ وقد رُئِىَ راكباً حماراً فقيل له : أبعد براذين الخلفاء تركب هذا ؟ فقال متمثلاً :

ولما أبتْ إلا اطِراقاً بودّهـا وتكديرها الشِّرْب الذى كان صافيا

شربنا برنْقٍ من هواها مكدَّرٍ وليس يعاف الرَّنْقَ مَنْ كان صاديا

يقول : هذا وأملك دينى ونفسى ، أحبّ إلىّ من ذلك مع ذهابهما[1] .

أطرف الشىء وتطرّفه : استفاده ، وقيل : استجاده .

نبوة : ارتفاع وقلّة ثبات . معتبَة : سخط . يالها : تعجب ، كأنه قال : ياعجبا لها ، ما أشدّها . يربّ : يصلح ويقوّى . الصنيع : الفعل الجميل . يشيّد : يرفع ويتم . رتّبه : بناه وهيّأه . السّراب : ما يظهر نصف النهار كأنه ماء ، اشتبه : أشكل . الحالم : من يرى فى منامه رؤيا ، وقد حلُم يحلَم : والرّوْع : الفزع ، يقول : مثل المترفّه بالخطّة السلطانية كحالم رأى نفسه فى النوم أميراً ، فانتبه فى أيدى أعاديه أسيراً ، أو رأى نفسه بين غزلان ورياحين فانتبه لزئير أسود ولصفير ثعابين ، وكذلك الأمراء إن رفعوا الخديم ببعض إنعامهم كدّروه بتعجيل انتقامهم . ومما يجرى فى هذا النَّمَط قول الشاعر :

إلى الله أشكو كلّ يوم ٍ وليلةٍ إذا نمت لم أعدم خواطر أوْهَامِ

فإن كان شرًّا كان لاشكّ واقعاً وإن كان خيراً كان أضغاث أحْلاَمِ

أخذ المعنى هذا الشاعر من قول أشعب الطماع . قال: رأيت رؤيا نصفها حقّ، ونصفها باطل ، قيل: وكيف ذلك؟ قال: كنت أرانى أحمل بَدْرة ؛ فمن ثِقَلها كنت أسلح فى ثيابى ، فانتبهت فإذا السَّلح ولا بَدْرة . قال الفنجديهىّ : ومن أحسن ماسمعت فى هذا المعنى أبيات لطيفة المعانى ظريفة المبانى ، شرّفنى بإنشادها وإملائها علىّ السيّد الأجلّ أبو المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين بقاهرة مصر لبعضهم:

---

(١) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٧ .

وزارني طيف مَنْ أهْوَى على وَجَلٍ  مِنَ الوُشَاةِ وداعي الصبح قد هَتَفَا
فكدت أوقظ مَنْ حولي به فرحاً  وكاد يُهتك ستر الحب بي شَغَفَا
ثم انتبهتُ وآمالي تخيّيـــني  نيل المنى فاستحالت غِبْطتي أَسَفَا

ومن مُلح هذا الباب ، أن ابن عَبْدل دخل على بِشْر بن مروان لمّا وَلِيَ الكوفة ، فقال : أيّها الأمير إني رأيت رؤيا ، فأذن لي بقصّها ، فقال : قل ، فقال :

أغفيت قبل الصبح نومَ مسهَّدٍ  في ساعة ما كنت قبل أنامُها[1]
فرأيت أنك رُعتَني بوليدةٍ  مغنوجةٍ حَسَنٍ عليّ قيامُها
وببَدرةٍ حُملت إليّ وبغلة  شهباء ناجيَةٍ يصلّ لجامُها[2]

فقال له بشر : كلّ شيء رأيته فهو عندك إلا البغلة ، فإنها دهماء ، قال : امرأتي طالق ثلاثاً إن كنت رأيتُها إلا دهماء ولكني غلطت .

قال البطين الشاعر : قدمت على عليّ بن يحيى الأرمنيّ ، فكتبت إليه :

رأيت في النوم أني راكب فرساً  ولي غلام وفي كفّي دنانيرُ
فجئت مستبشراً مستشعِراً فرحاً  وعند مثلك لي بالفعل تبشيرُ

فوقّع في أسفل كتابي : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾[3] ، ثم أمر لي بكل ما رأيته في منامي

(١) الخبر والشعر في ذيل زهر الآداب ١٠١ .
(٢) بعده في زهر الآداب :
فدعوتُ ربّي أن يثيبك جنّةً  عِوَضًا يصيبُك بردُها وسلامُهَا
(٣) سورة يوسف ٤٤ .

# المقالة السابعة وهى البرقعيدية

حَكَى الحارث بن همام، قال : أَزْمعتُ الشُّخُوصَ مِن بَرْقَعيدَ، وَقَد شمتُ بَرْقَ عيدٍ ، فكرهتُ الرِّحْلَةَ عَنِ تلك المدينةِ ، أَو أشهدَ بها يَوْم الزِّينةِ . فلمَّا أَظَلَّ بِفَرْضِه وَنفْلِهِ ، وَأَجلَبَ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ ، اتبعتُ السُّنَّةَ فِي لُبْسِ الجديد ، وَبَرَزْتُ مع مَنْ بَرَزَ للتَّعْيِيدِ . وَحِينَ التَأَمَ جَمْعُ المُصَلَّى وَانْتَظَمَ ، وأَخذَ الزِّحَامُ بالكَظَم ، طَلَعَ شيخٌ فِي شَمْلَتَيْنِ ، مَحْجُوبُ المُقْلتين ، وَقد اعْتَضَدَ شِبْه المخلاة ، وَاسْتَقَادَ لعجوزٍ كالسِّعْلاةِ ، فوقف وِقفةَ مُتَهَافِتٍ ، وَحيَّا تحيَّةَ خافتٍ . وَلَمَّا فرغَ من دُعائِهِ ، أَجال خَمْسَةً فى وِعَائِه ؛ فأَبْرَزَ منه رقاعًا قد كُتِبْنَ بألوان الأصباغ ، فِي أَوَانِ الفَرَاغ ، فناوَلَهُنَّ عَجُوزَهُ الحَيْزَبُونَ ، وَأَمَرَها بأَنْ تَتَوَسَّمَ الزَّبُون ، فَمَنْ آنَسَتْ نَدَى يدَيْه ، أَلْقَتْ مِنهُنَّ وَرَقَةً لَدَيه ، فأتاحَ له القدرُ المعتوب ، رقعةً فيها مكتوب ...

* * *

أزمعت الشخوص ، أى عزمت على الخروج . بَرْقَعيد : بلد بينه وبين الموصل عشرون فرسخاً . شِمت : نظرت .

ويريد ببرق عيد ، مقدمات العيد التي ينظر الناس بها فى أسبابه ، سأل رجل

الجنيد ، لماذا سُمّى يوم العيد ؟ فقال : لأنّ آدم لمّا خرج من الجنة ، وأُهبط إلى الأرض ، ثم تاب الله عليه ، فردّه إلى الجنة ، كان فى ذلك اليوم ؛ فقيل له يوم عيد ، لأنه أعيد إلى الجنة فيه، قال ابن الأنبارىّ رحمه الله : معنى يوم العيد ، الّذى يعود فيه الفرح والسرور . والعيد عند العرب : الوقت الذى يعود فيه الفرح أو الحزن ، وأصلُه « العِوْد » لأنه من عاد يعُود ، فلما سُكِّنت الواو وكُسِر ما قبلها قُلِبت ياء ، فصارت من باب ميزان وميقات ، وهما من الوزن والوقت ، وكذلك الياء إذا سكنت ، وانضمّ ما قبلها قلبت واواً مثل مُوسر ومُوقن ، وهما من أيسر وأيقن ، ويقولون فى الجمع مياسر .

المدينة : البلد ، مَنْ أخذها من مَدَن بالمكان يمدُن ، إذا أقام فيه ، فهى « فَعِيلة » والجمع مدائن بالهمز ، والميم أصلية والياء زائدة ، ومن أخذها من دَان يدين ، فالميم زائدة والياء أصلية ، وهى « مفعولة » . يقال : دِنْتُ الرّجل ملكته ، ودنت له أطعت ، ويقال للأَمَة مَدِينة لأنها مملوكة ، قال الشاعر :

ربت وربا فى حَجْرها ابن مدينةٍ يظلّ على مَسحاته يتركّل[(١)]

يعنى عبداً . يوم الزينة : يوم العيد لتزيّن الناس فيه . قوله : « أظل » ، أى قرب ودَنا حتى دخلنا فى ظلّه . بفرضه : يعنى زكاة الفطر . ونفله : يعنى صلاة العيد .

الفنجديهىّ : فَرْض العيد : صدَقة الفطر ، ونَفْل العيد مثل الصلاة والغُسل ولبس الجديد من الثياب .

ابن عمر رضى الله عنهما : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر أو شعير ، على كل حرّ أو عبد ، ذكر أو أنثى من المسلمين .

ابن عباس رضى الله عنهما : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة

(١) للاخطل ، ديوانه ٥ . تركل الشىء : دفعه برجله.

الفطر من رمضان لجبر الصيام من اللغو والرفث طعمة المساكين، فمن أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومن أداها بعدها فهى صدقة من الصدقات . أجلب بخيله ورجله ، أى جمع أصحاب الخيل والرجالة وجاء بهم ، ضرب به المثل لإقباله وتصميمه على المجيء . لبس : لباس ، وجاء فى لبس الجديد حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما على أحدكم أن يكون له ثوبان سوى ثوبىْ مهنته لجمعته ولعيده» .

جابر : كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم حُلّةٌ يلبسها فى العيدين ويوم الجمعة . برزت: خرجت . التأم : التحم والتصق . المصلّى : موضع صلاة العيد . الزّحام : الضيق لكثرة الناس . الكظَم : تضييق النفس من شدة الزحام . شملتين : عباءتين ، والشّملة :نوع من الأكسية ، وقيل لها شملة لأنّ صاحبها يشتمل بها ، أى يديرها حواليه . محجوب : مستور . المقلتين : العينين ، أراد أنه أعمى . اعتضد : علقها فى عضُده . استقاد : جعلها تقوده . السّعلاة : أنثى الغُول ، وذكَرُها يسمى الكعنكَع ، وأنشدوا :

* غُولا تَراعى شَرِساً كَعَنْكَعاً *

والغول : جنّ مسكنها الصحارى تتراءى للإنسان كأنها إنسان فلا يزال يتبعها حتى يضلّ الطريق فيهلك . قوله:« متهافت» ، أى متساقط لضعفه،وتهافت الشىء فى يدى : تناثر . خافت: خفىّ الصوت ، وقد خفَت الرجل ، إذا ظهر عليه الضعف من مرض أو جوع أو غير ذلك ، وأصل خفت مات هزالا . فرغ : أتمّ . أجال : مشى وصرّف . خمسه : أصابعه . فى وعائه ، يعنى المخْلاة التى اعْتَضَدَها ، وهى تعلقية يعلّقها السائل فى عنقه أو ذراعه ، ويجعل فيها ما يُعْطَى من الصّدقة . أبرز : أخرج . أوان : وقت . الفراغ : قلّة الشغل . ناولهنّ : أعطاهنّ . الحيزبون : المسنّة القويّة الخلق . تتوسّم :تنظر . الزّبون : المنخدع عن ماله « فَعول» بمعنى«مفعول» ، وهو من ألفاظ أهل المشرق ، وأراد به الكثير

الصدقة ، آنست : أبصرت . ندّى : كرم . أتاح : ساق . التّمَدّر المعتوب: الملوم .

لقدْ أُصْبِحْتُ موقوذًا بأوجاعٍ وَأَوْجَالِ
وَمَمْنُوًّا بمحْتالٍ وَمُخْتالٍ ومُغْتالِ
وَخَوَّانٍ مِنَ الإخوا نِ قالٍ لى لا لالِ
وَإعْمَالٍ مِنَ الْعُمَّا لِ فى تَضْليعِ أعْمالى
فَكَمْ أَصْلَى بأذْحالٍ وَأَمْحالٍ وَتَرْحالٍ
وَكَمْ أَخطرُ فى بالٍ وَلا أخْطُرُ فى بَالِ
فلَيْتَ الدّهْرَ لَمّا جا رَ أطفا لِيَ أطْفَالى
فلَوْلا أَنَّ أَشْبالِيَ أغْلالِى وَأَعْلالى
لمَا جَهّزْتُ آماليِ إلى آلٍ وَلاَ وَالى
وَلاَ جَرّرْتُ أَذيَالى عَلَى مَسْحَبِ إذْلاَلى
فَمِحْرَابِيَ أَحْرَى بى وَأَسْمَالِيَ أسْمَى لِى
فَهَلْ حُرٌّ يرَى تَخْـــفِيفَ أثقالِى بِمِثْقَالِ
وَيُطفِى حَرَّ بَلْبالى بسِرْبالٍ وَسِرْوَالٍ !

° ° °

قوله : «موقوذاً » ، أى مشرفاً على الموت من شدّة الأوجاع والأوجال ، والموقوذة فى القرآن(١) : المقتولة بالخشب ، والوقْذ : شدة الضرب . أو جال : مخاوف. ممنوًا : مبتلًى . محتال : ماكر كثير الحيلة . مختال : متكبّر . مغتال : مهلك . خوّان : كثير الخيانة .

ابن عمر رضى الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلَّما يوجد فى

(١) وهو قوله تعالى فى سورة المائدة ٣ : « والمنخنقة والموقوذة » .

آخر الزمان درهم من حلال ،أو أخ يوثق به » . قالٍ : مبغض . إقلالى : فقرى . إعمال : جِدّ وبحث ، تقول : أعملت الشىء فى الشىء ، إذ جعلتَه يعمل فيه . والعمال : عاملو كلّ شىء . تضليع : إفساد . أعمال : جمع عمل ، يريد أنه مطلوب يبحث على أعماله إذا أتى بها مجموعة فتنقض أعماله وتصير له أضلاعاً بعد اجتماعها ، وذلك فساد لها . ويحتمل أن يكون التّضليع من «ضَلَعُك مع فلان » . أى ميلك معه ، فأعماله تميل عن طرقها فتفسد . وقيل : تضليع الأعمال :تثقيلها ، قال الأزهرىّ رحمه الله : ضَلَع الدين.ثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء لثقله ، وفى الحديث : « أعوذ بالله من ضَلَع الدَّيْن » . أصْلَى : أحترق . أذحال : أحقاد وعداوات . إمحال: فقر .تِرْحال : سَفَر ونقلة من بلد إلى بلد . أخطِر : أمشى متبختراً ، وقد خطر الرجل،إذا أقبل بيديه وأدبر بهما ، وهى مشية الشبّان . بالٍ : خَلَق. ولاأخطُر فى بال :لا أمرّ على بال أحد ولاخاطره . جارَ : مال عن الحق ولم يعدِل . أطفأ : أمات . أطفالى : أولادى ، ومثله : أشبالى .

الفنجديهىّ : يقول : ليت الدّهر لمّا ظلم أولادى ، وجار عليهم أماتنى لأتخلّص ، فإنّ مقاساة الولائد سبب الوقوع فى المصائد . قال ابن عيينة : قلت لصيّاد: أىّ طائر أسرعُ إلى مصايدكم ؟ قال : الذى يزقّ، يعنى الذى يطعم ولده . أغلالى : قيودى . والأعلال : جمع علّ ، وهو القُراد الضخم ، وهو الذى يلصق بأفخاذ الدوابّ ، وهو كثير التشبّث والالتصاق ، لا يُقلَع إلا بجهد ، فيريد بالأغــلال أولاده لأنهم قيوده فلا يسرح بسببهم ، وبالأعلال أنهم قد تعلّقوا به يطلبون ما عنده ، وقال الشاعر يصف ناقته:

* ولو ظلّ فى أوصالها العَلّ يرتقى *

ويقال للقراد : الطِّلْح والفينق والحجير والعَلّ والبُرام والقُرشوم واللَّبود فى بعض اللغات . جهّزت : أرسلت . آلْ : قريب ، وآل : أهل ، أو يكون آل أميرًا وسائساً ؛ قال عمر رضى الله عنه : ألْنَا وأُيِلَ علينا ، أى سُسْنا الناس

وساسنا غيرُنا ، فيكون على هذا مقلوباً من «آيل» ، كما قيل : سار فى سائر . مسحب : طريق . يقول : لولا ذلّ الأولاد ما قصدت والياً ، ولا جررت ذيلى فى طريق ذلّ ، ويقال : سحب ذيله سحباً إذا جرّه ، والمسحَب : موضع جرّه ثوبه محرابى : مسجدى . أحرى: أحقّ بى.أسمالى . أثوابى الخَلقة . أسمى لى : أعزُّ لى وأرفع لقدرى.أثقالى : همومى أو ديونى ، أو كثرة عيالى واحدها ثقَل ، وثَقُلَ الشىء ثقلا ضدّ خَفَّ ، وأثقل الرجل : كثر عياله . بلبالى : حزنى ، والبلبال:وسواس الهموم . سربال : قميص . والسروال : معروف،وفى الحديث أن امرأة سقطت من على حمار فأعرض النبىّ صلى الله عليه وسلم بوجهه عنها ، فقالوا : إنها متسرولة ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «اللهمّ اغفر للمتسرولات من أمّتى ـ ثلاثاً ـ يأيّها الناس اتّخذوا السراويلات فإنها من أستر ثيابكم ، وحصّوا بها نساءكم إذا خرجْنَ » .

ومن مُلَح الصاحب بن عبّاد أن بعض الشعراء[1] كتب له :

أيا مَنْ عطاياه تُعطى الغِنَى إلى راحتىْ مَنْ نأى أوْ دَنَا
كَسَوْتَ المقيمينَ والزائرينَ كُسًا لم يخلْ مثلها مُمْكِنَا
وحاشيــة الدار يمشون فى ثيــابٍ من الخزّ إلاّ أنَا

فقال الصاحب : قرأت فى أخبار مَعْن بن زائدة أن رجلا قال له : احمِلْنى أيّهَا الأمير ، فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية ، ثم قال له : لو علمت أنّ الله خلق مركوباً غير هذا لحلَتُك عليه . وقد أمرنا لك من الخزّ بجبّةٍ وقميص ودُرّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطرَف ورداء وكساء وجَوْرب وكيس ، ولو علمنا لباساً غير هذا من الخزّ لأعطيناكه . ثم أمر بإدخاله إلى الخزانة ؛ وصبّ تلك الخلع عليه[2] .

وأخبار الصاحب مستظرفة كثيرة الملح .

---

(١) هو أبو القاسم الزعفرانى .

(٢) الخبر والشعر فى يتيمة الدهر ٣ : ١٧١ ، مع تصرف واختصار .

قال الحارث بن همام : فلمَّا استعرضتُ حُلَّةَ الأبياتِ ، تُقْتُ إلى معرفةِ مُلْحِمِها ، وَرَاقِمِ عَلَمِها . فناجاني الفِكْرُ بأنَّ الوُصْلَةَ إليه العجوز ، وأفتاني بأنَّ حُلْوانَ المُعَرِّفِ يجوزُ ؛ فرصدتُها وهي تستقري الصفوفَ صفًّا صفًّا ؛ وتستوكِفُ الأكفَّ كفًّا كفًّا ، وما إنْ ينجحُ لها عناء ، ولا يرشحُ على يدِها إناء ، فلمَّا أكْدَى استعطافُها ، وكدَّها مَطافُها ، عاذتْ بالاسترجاع ، ومالتْ إلى إرجاعِ الرِّقاع ، وأنساها الشيطانُ ذِكْرَ رُقْعتي ، فلمْ تعُجْ إلى بُقْعتي ، وآبتْ إلى الشيخِ باكيةً للحِرْمانِ ، شاكيةً تحامُلَ الزمانِ ؛ فقالَ : إنَّا للهِ ، وأُفوِّضُ أمري إلى اللهِ ، ولا حوْلَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ ! ثمَّ أنشدَ :

لمْ يبقَ صافٍ ولا مُصافٍ ولا مَعِينٌ ولا مُعِينُ
وفي المساوي بدا التَّساوي فلا أَمينٌ ولا ثَمِينُ

* * *

قوله : « ملحمها » ، ناسجها ، ولما جعل الشعر حُلّة جعل له ناسجاً وراقماً . ناجاني : حدّثني . الوُصلة : الموصّلة . استعرضت ، أي نظرت وعرضتها على نفسي . تُقْت : اشتقت . أفتاني ، أعلمني . الحُلوان : أجر الكُهّان ، وأراد أجرة العرّاف ، وهو الذي يعرّف بالتلائف الملتقطة أربابها ، فيمتكّونها منه بما اتفقوا عليه ، فذهب مالك أنّ من عرّف اللُّقَطة[1] ، وكان من شأنه أخذ الجُعْل على مثل ذلك ، فله أجرة مثله ، والشافعيّ لا يوجب له حقًّا ؛ سواء كان من شأنه أن يعرّف

(١) اللقطه ، كهمزة : ما التقط .

باللُّقَطة أو لم يكن ، تعب فى ذلك أو لم يتعب ، إلاّ أن يشترط قبل الطلب .

رصدتها : ارتقبتها . تستقرى : تتبع ؛ واقتريْتُ الأرض واستقريتها ، تتبَّعْتُها متأمِّلاً . تستوكف : تستمطر . ينجح : ينفع ويؤثِّر ؛ يقال : نجحت الحاجة إذا انقضتْ ،ونجح طالبها إذا لم يخب ، وأنجح: أشهر ؛ يقول : إنّ مشيها عليهم لم يقضِ حاجتها ولا نفعها . وقصد برشْح الإناء كرمَ الكفّ ؛ يقول : لم يرشح لها كفٌّ بعطِيَّة . أكدى : خاب وصعب ، ويقال : أكدى الحافر ، وهو أن يحفر البئر يطلب الماء ، فإذا بلغ إلى الصَّلابة ويئس من الماء ولم يقدر على الحْفر قيل له : أكدى فهو مكدٍ ، والكُدْية هى الصلابة التى يتعذّر حفرها . استعطافها: تليينها القلوب . كدَّها : أتعبها . مطافها : مشيها وطوْفها على الناس ، ويحسن أن ينشد هنا فى حالها لأبى نُوَاس :

إذا لم يُعِنْكَ الله فيما تريدُه فليس لمخلوقٍ إليه سبيلُ
وإن هو لم يرشدكَ فى كلِّ مسلكٍ ضللتَ ، ولو أنّ السِّماكَ دليلُ

غيره :

إذَا لم يكن عونٌ من الله للفَتَى فأكثر ما يجنى عليه اجتهادُهُ

عاذت : تعوّذت ولاذت . الاسترجاع ؛ قولهم: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وفى حديث أم سلمة رضى الله عنها عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : «ماقال أحدٌ عند المصيبة إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهمّ أَجِرْنى فى مُصيبتى ، وأخْلِفْ لى خيراً منها ؛ إلا استجيب له » .

إرجاع : ردّ . تعج : تميل وترجع . بقعتى : موضعى . آبت : رجعت . الحرمان : الخيبة والمنع . تحامل : مشقّات ، وتحاملت فى الأمر : تكلَّفته على مشقة . أفوّض : أردّ .

لا حول ، أى لا حيلة ، يقال : ما له حيلة ولا حَوْل ، وما له احتيال ولا محتال ، ولا مَحالة ولا مَحِيلة ؛ كلّه بمعنى . ويقال : ما له مَحال بالفتح ، أى حَوْل، ومِحال بالكسر ، أى مكر . ثعلب :هو من قولهم : مَحِل به ؛ إذا سعى به إلى السلطان وعرّضه للهلاك . ومَحِل به القرآن : شهد عليه بالتّقصير ؛ وقال الفرّاء : المَحالة على ثلاثة أقسام؛ هى الحِيلة، والّتى تجعل على رأس البئر كالبَكْرة،وواحدة مَحال الظهر وهى فَقاره . ويقال : أخذت فى الحوْلَقة والحوقلة ،إذا قلت: لاحول ولا قوّة إلا بالله ، وينتصب « لا حولَ ولا قوّة » بالتبرئة ، وإن شئت رفعتهما بالابتداء ، « وبالله » خبر « قوّة » ، وحُذفت خبر « لاحول » لدلالة الثانى عليه ، وإن شئت رفعت «حول » بالابتداء ، ونصبت « قوة » بالتبرئة ، وإن شئت نصبت « حولا » بالتبرئة ورفعت « قوّة » بالعطف على موضع « لا حول » ، وإن شئت نصبت«قوّة» بالتنوين عطفاً على اللفظ .

قوله : «صافٍ » ، أى خالص الودّ .مصافٍ : صادقٌ فى ودّه. مَعين : ماء كثير ، يريد صاحبَ كرم كثير . مُعين : يُعين بماله . المساوى : ضد المحاسن ، واحدها « سوء » على غير قياس ، وقيل لا واحدَ لها . بدا : ظهر . الثمين : النفيس الغالى الثمن ؛ يقول : إنّ الناس قد استووا فى الأفعال السيّئة ، وأراد قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا ، فإذا استَوَوْا هلكوا » ، ومعناه أنّ الناس فى الغالب إنّما يتساوون فى الشرّ ، ولا تجدهم كلّهم فضلاء لأنّ الخير قليل .

قال أبو العباس التُّطيلىّ فيما يتعلّق بهذا المعنى :

والنّاس كالناس إلاّ أنْ تجرِّبَهُمْ     وللبصيرة حكم ليس للبَصرِ[1]
كالأيك مشتبهاتٌ فى منابتها     وإنما يقع التفضيلُ بالثمرِ

وقال التّهامىّ :

(١) ديوانه ٤٨

ومِنَ الرِّجالِ معالمٌ ومجاهلٌ ومن النّجوم غوامضٌ ودَرَارِي[1]
ولربّما اعتضد الحليمُ بجاهلٍ لا خير في يُمنَى بغير يسارِ
والنّاس مشتبهون في إيرادهمْ وتفاضلُ الأقوام بالإصْدارِ

* * *

ثُمَّ قالَ لها : مَنِّي النَّفْسَ وَعِدِيهَا ، وَاجْمَعي الرِّقاعَ وُعُدِّيها ، فقالَتْ : لَقدْ عَدَدْتُها لمَّا استَعَدْتَها ، فَوَجَدْتُ يَدَ الضَّياعِ ، قَدْ غالَتْ إحْدَى الرِّقاعِ ، فقالَ : تعسًا لَكِ يالَكاعِ ، أنُحْرَمُ وَيْحَكِ الْقَنَصَ وَالحِبالَة ، والْقَبَسَ وَالذُّبالَةَ ! إنَّها لَضِغْثٌ عَلَى إبَّالَةٍ . فانْصاعَتْ تَقْتَصُّ مَدْرَجَها ، وتَنْشُدُ مَدْرَجَهَا ؛ فلمَّا دَانتني قَرَنْت بالرُّقْعَةِ ، دِرْهَماً وَقِطْعَةً ، وَقُلْتُ لها : إنِ رَغِبْتِ فِي الْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ - وَأَشَرْتُ إلى الدِّرْهَمِ - فبُوحِي بالسرِّ الْمُبْهَمِ . وَإنْ أبَيْتِ أنْ تَشْرَحي ، فخُذِي الْقِطْعَةَ وَاسْرَحِي . فمالَتْ إلى اسْتِخلاصِ الْبَدْرِ التِّمِّ ، والأبْلَجِ الهِمِّ ، وقالت : دَعْ جِدَالَكَ ، وَسلْ عَمَّا بَدَالك ، فاستَطْلَعْتُها طِلْعَ الشَّيخ وَبلدَتِهِ ، وَالشِّعرِ وناسِجِ بُرْدَتِه .

° ° °

قوله : «عِديها» ، أي طَمِّعيها . استعدتَها : رددتَها . غالت : أهلكت ، واستعار للتضييع «يداً» مجازاً. تعساً : هُلْكاً ، والتّعس: الدّعاء ألاّ تقَال عثرتُه. يالَكاعِ : يا لئيمة يا مُنتِنة ، واللّكاع : وسخ الفرْج . واللُّكع : ولد الحمار . القَنَص : الصيد .

---

(١) ديوانه ٥٦

الُحبالة : الشبكة ، وصفة الُحبالة أن يُعمد لحبل من شعر مخلوط بيسير من صوف ، فذلك أقوى له ، فيعقد فى أحدِ طرفيه عين يجرى فيها الحبل، ويربط فى الطرف الثانى خشبة ، وربّما حدّدوا طرفها ، ثم يأتون إلى الطريق الذى يدخل منه الصيد إلى الماء فيحفرون فيه حفرة فيغطّونها بورق الشجر وشبهها ، ويفتحون عليها عين الحبل ، ثم يغطّونها بالتراب والزّبل ، حتى تصير فى طبع الأرض ، فإذا أقبل الصيد للماء ، فوضع يده أو رجله فى الحفرة ، سقطت به ، وانضمّ على يده أو رجله الحبل ، فيثب فازعاً ويفرّ ، فتتبعه تلك الخشبة ، فكلّما انتفض أقبلت عليه ، فتضربه بين يديه ورجليه وبطنه وظهره ، فتوهِى أعضاءه ، وربّما كسرت يديه أو رجليه ، فلا يسير بها قدْر ميل ، حتى يقف موقوذاً منها ، فيأتيه الصائد فيأخذه ، وأنواع الُحبالة كثيرة .

قوله : «القبَس» ، يريد به نور المصباح . والذُّبالة : الفتيلة . ضِغْث : حُزمة من حشيش صغيرة ، وأصلها جماعة القضبان ، وشبهها من النبات ، يجمعها أصل واحد ، وكلّ ما جمعت عليه كفّك من حشيش أو عيدان فانتزعتَه من أصله ضغث . إبّالة : حُزمة كبيرة ، والضِّغث على الأبّالة مثل حزمة الحطّاب إذا حملها للبيع ، وجعل فوقها حُزمة صغيرة لنفسه ؛ فالكبيرة إبّالة والصغيرة ضِغْث ، فكأنه قال : إنها خسارة على خسارة ، ويقال لها : إبالة وأبيل وأبيلة ، وضِغْثٌ على إبّالة ، مَثَل أخذه من قول الشاعر :

فى كلِّ يوم من ذُؤالَهْ ضِغْثٌ يزيد على إبّالَهْ[1]

وقال آخر وذكر ناقته :

رَدّتْ عوارِىَ غيطانِ الفَلا ونجتْ بمثل إبّالةٍ من خالصِ الشَّعَرِ

وهذا مثل قول حَبيب :

(١) الميدانى ١ : ٤١٥ من غير نسبة واللسان ــ أبل ، ونسبه إلى أسماء بن خارجة ــ

فكم جزعِ وادٍ جبَّ ذروة غاربٍ ... وبالأمس كانت أتمكتْه جوانبُه[(1)]

قوله : «انصاعت» ، أى ذهبت نافرة وانثنت مسرعة ، وكلّ ماثنيتَه ولوّيته بسرعة ؛ فقد صعته صوعاً ، وكذلك إذا جمعته وفرّقته ، فذهب عنك بسرعة ، وصاع الشجاع القوم فى الحرب ؛ إذا جمعهم بهيبته ثم صدمهم ، ففروا سراعاً متفرّقين . وكلّ نافرٍ مسرعٍ منصاع ، وقال ذو الرمّة فى الحمر :

رَمَى فأخطأ والأقدارُ غَالِبَةٌ ... فانصَعْنَ والويْلُ هجّيراه والحَرَبُ[(2)]

تقتصّ ، أى تتبع . مدرجها : طريقها التى مشت فيها لتفريق الرقاع ، ويقال: دَرج الشيخ والصبىّ درجاً ودَرَجاناً ، إذا تقاربتْ خُطاها ، والمدْرَج: الموضع الذى دَرَجا فيه ، والمدرَجة: قارعة الطريق. تنشد: تطلب من نشدْت الضَّالّة ، ومُدْرجها: رقعتها ، ويقال : أدرجت الكتاب والثوب طويتهما . القِطْعة : عند أهل المشرق: الواحدة مَنْ صرف يعرّفونه الخندوس ، يعمدون إلى دراهمه فيقطعونها قطعاً ، فهى صرفهم ، وبها يتصدقون ، فأراد أنه قرن برقعة الشعر درهما ، وقطعة من الخندوس ، وقال لها : إن خبّرتنى بقائل الشعر ، فخذى الدرهم أجرة ، وإن أبيت أن تعرّفينى به فخذى القطعة صدَقة وانصرفى .المشوف : المصقول المجلوّ ، والشوف: الجلاء ، والمعلَم : المنقوش ، ونقشه علامته ، وقيل : هو الذى عليه علامة الملك ، وأخذه من قول عنترة :

ولقد شربتُ من المُدامة بَعْدَمَا ... ركَدَ الهواجرُ بالمشُوف المُعلَمِ[(3)]

---

(١) ديوانه ٤٤ . جزع الوادى : جانبه . جبّ : قطع . الذروة: أعلى شىء . الغارب : الكاهل . أتمكته : رفعته . وفى الديوان : « أمسكته جوانبه »

(٢) ديوانه ١٦ ، وانظر حواشيه .

(٣) من المعلقة ٢٥٨ بشرح التبريزى .

بُوحى . تـكلّمى . المبهم : المغلَق الملبس . أبيْتِ: امتنعت. اسرحى: اذهبى. اسخلاص: تخليص ، واستخلص الشىء ، جعله خالصاً . التمّ: الكامل. والأبلج : النقىّ الأبيض ، وفعله ابلاجّ كاحمارّ . الهِمّ : الـكبير الذى يهمّ به مَنْ رآه ، وشيخ هِمّ : مسنّ ، والهِمّ : الرقيق النحيف ، وهو من همته النار إذا أذابته ، وهَمَمت الشحم: أذبته . استطلعتها طِلْعهُ : استخبرتها خبره ، وسألتها أن تطلعنى عليه ، وتقول:استطلعت طِلـع الشىء ،إذا حاولتَ الاطلاع عليه ، وأردت معرفة خبره الّذى تطلع منه عليه ، وطِلْع بالـكسر . بُرْدته : ثوبه .

* * *

فقالَتْ : إنَّ الشَّيخَ منْ أَهلِ سَرُوجَ ، وَهُوَ الَّذِى وَشَّى الشِّعْرَ المَنْسُوجَ ، ثُمَّ خَطفَتِ الدِّرْهَمَ خِطْفَةَ الْبَاشِقِ ، وَمَرَقَتْ مُرُوقَ السَّهْمِ الرَّاشِقِ ، فَخالجَ قلْبِي أَنَّ أَبا زَيْدٍ هُو الْمشارُ إِليهِ ،وَتأجَّجَ كَرْبِى لِمُصابِهِ بِناظِرَيهِ ، وَآثَرْتُ أن أُفَاجِيهِ وأُناجِيهِ ، لأعْجُمَ عُودَ فِراسَتِى فيهِ ، وَمَا كُنْتُ لأَصِلَ إِلَيهِ إلاَّ بتَخَطِّى رِقابَ الْجمعِ ، الْمَنْهِىِّ عنْهُ فِى الشَّرْعِ ، وَعِفْتُ أَنْ يتَـأَذَّى بِى قَوْمٌ ، أَوْ يَسْرِىَ إِلَىَّ لَوْم ، فَسَكَنْتُ عَـكانى ، وَجَعَلْتُ شَخْصَهُ قَيْدَ عِيانى ، إِلَى أنِ انْقَضَتِ الْخُطْبَةُ ، وَحَقَّتِ الْوثْبَةُ ، فَخَفَفْتُ إِلَيْهِ ، وَتَوَسَّمْتُهُ عَلَى الْتِحَامِ جَفْنَيهِ ، فإذَا أَلْمَعِيَّتِى أَلْمَعِيَّةُ ابنِ عَبَّاسٍ ، وَفِرَاسَتِى فِرَاسَةُ إِياسٍ .

* * *

وشّى : زيّن ورقّم . خطَفت : أخذت بسرعة . الباشق : من جوارح الطير . مرقت : خرجت بسرعة . الراشق : الّذى يرشق الصيد ، أى ينشبه ،

ويكون الراشق بمعنى المرشوق ، كقوله تعالى : ﴿من ماء دافق﴾[١] ، أى مدفوق. قوله : «خالج» ، أى داخل وجاذب . تأجّج : اشتعل . كربى : همّى ، والتأجّج «التفعّل» من الأجيج ، وهو تصويت النار ولهبها إذا اشتعلت وعظمت . آثرت : اخترت وفضّلت ، وآثرته بكذا: فضّلته به والإيثار المصدر . أفاجيه : آتيه فجأة وهو لا يشعر . أناجيه : أحدّثه . أعجُم : أجرّب . فِراستى : نظرى ، وجعل لها عوداً مجازاً . تخطّى رقاب الجمع : الجواز على أعناق الناس ؛ خرّج الترمذىّ فى النهى عن ذلك ، قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تخطّى رقاب الناس يوم الجمعة اتّخذ جسراً إلى جهنم » .

عفت : كرهت . يتأذّى : يصيبهم أذى. يسرى : يصل. اللوم : ضدّ الحمد ، وهو أن تأخذ الإنسان بلسانك ذمًّا لما فعل . شَكَدْتُ : التصقت ولزمت . قيد عيانى : غرض نظرى ، أى قيدت نظرى فيه . انقضت : تمّت . حقّت الوثبة ، أى وجبت القفزة إليه . خففت : أسرعت . توسّمته : نظرته . التحام : التصاق وانغلاق . ألمعيّتى : ذكائى وصدق ظنّى ، والألمعىّ ، هو الذى يظن بك الظّنّ ، ولا يخطىء ، وهو اليلمعىّ من اللّمعان ، كأنه يلمع لذكائه وجودة فطنته ، وقال أوس :

الألمعىّ الذى يَظُنّ بك الظّنّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعَا[٢]

ولا يبيّن أحد الألمعىّ بأحسن مما بيّنه أوس ، فإذا سُئلت : ما الألمعىّ ؟ فأنشدت بيته تأت بالجواب الشافى .

والفِراسة ، أن تنظر الشىء فتستدلّ بظاهره على باطنه ، وبما حضر على ما غاب ، وقيل : الألمعيّة أن ترى الشىء على بُعْد فتعرفه وتحقّقه ، والفِراسة أن ترى الرجل بين يديك فتحكمَ عليه بما أضمر ، أو بما يريد أن يفعله ، فالألمعيّة فى البعد، والفراسة فى القرب ، وكيف اختلفت الألمعيّة والفراسة ، فالظنّ الصادق يجمع بينهما.

(١) سورة الطارق ٦ . (٢) ديوانه ٥٣ .

[ ذكر ابن عباس وبعض أخباره ]

وابن عباس رضي الله عنه ، هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشيّ الهاشميّ ، يكنى أبا العباس .

ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وكان ابن ثلاث عشرة سنة يوم توفِّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . واختُلف فى السنة التى مات فيها ، ما بين ثمان وستين فى الأقل ، وأربع وسبعين فى الأكثر . وصلّى عليه محمد بن الحنفيّة ، وقال : اليوم مات ربانيّ هذه الأمة ، وضُرِبَ على قبره فسطاط .

روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اللّهم علّمه الحكمة وتأويل القرآن » ، وفى حديث آخر : «اللّهم بارك فيه ، وانشر منه، واجعله من عبادك الصالحين» . وفى حديث آخر : «اللهمّ زده علماً وفقّهه » ؛ وفى حديث آخر : «اللهم فقّهْهُ فى الدين وعلّمه التأويل » . وكلها أحاديث صحاح .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحبّه ويُدنيه ويقرّبه ويشاوره ، مع وفور جِلّة الصحابة رضى الله عنهم .

وكان ابن عمر رضى الله عنه يقول : ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سَئول ، وقلْب عَقول .

عبد الله بن عبدالله : ما رأيت أحداً كان أعلَمَ بالسنة ، ولا أجلَد رأياً ، ولا أثبت نظراً من ابن عباس .

ولقد كان عمر يعدّه للمعضلات ، مع اجتهاد عمر ونظره للمسلمين .

عمرو بن دينار : ما رأيت مجلساً كان أجمعَ لكلِّ خيرٍ من مجلس ابن عباس ، الحلال والحرام والعربيّة والأنساب والشعر .

عطاء : كان الناس يأتون ابنَ عباس فى الشّعر والأنساب ، وناس يأتُونه

لأيام العرب ووقائعها ، وناسٌ يأتونه للعلم والفقه ، فما منهم صِنف إلا يُقبل عليهم بما يشاءون .

مسروق : كنتُ إذا رأيت ابنَ عباس ، قلت : أجمل الناس ؛ فإذا تكلّم قلت : أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس .

أبو وائل : خَطَبنا ابن عباس رضى الله عنهما ، وهو على الموسم ، فافتتح سورة، فجعل يقرأ ويفسّر ، فجعلت أقول : ما رأيتُ ولا سمعت كلام رجلٍ مثله ، لو سمعتْه فارس والترك والروم لأسلمت .

طاوس : أدركت نحو خمسمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا ذكروا ابنَ عباس خالفوه ، فلم يزل يقودهم حتى ينتهُوا إلى قوله .

ابن مسعود : نِعْمَ تَرجمان القرآن ابن عباس ، ولو أدرك أسناننا ماعاشره منّا رجل .

يزيد الأصمّ : خرج معاوية حاجًا ، ومعه ابن عباس ، فكان لمعاوية موكب ، ولابن عباس موكب ممّن يطلب العلم .

القاسم بن محمد : ما رأيتُ فى مجلس ابن عباس باطلاً قطّ ، وما سمعت فتوى أشبه بالسنّة من فتواه .

وكان أصحابه يسمونه الحَبْر والبَحْر . وذكر أبو العباس فى الكامل أن عمر بن أبى ربيعة أنشده قصيدته :

أمِنْ آل نعمٍ أنتَ غادٍ فمبكرُ ... غَدَاة غدٍ أم رائحٌ فمهجّرُ

فحفظها مَنْ سمعها ، وهى ثمانون بيتاً[1] .

---

(١) الكامل للمبرد ٣ : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، وفى آخره بعد أن أورد أبياتاً من القصيدة : «فقال له ابن الأزرق — وقد كان حاضراً فى المجلس : لله أنت يابن عباس ! أنضرب إليك =

مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما : رأيتُ جبريل عليه السلام عند النبيّ صلى الله عليه وسلم مرتين ، ودعا لى بالحِكمْة رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين .

وروى عنه أنه رأى رجلاً مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يعرفه ، فسأل عنه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيته ؟ قال: نعم ، قال :ذاك جبريل ، أمّا إنّك ستفقد بصرَك ؛ فعمِىَ بعد ذلك فى آخر عمره ، وهو القائل فى ذلك ـ ويروى لحسان رضى الله عنهما :

إن يأخذِ الله من عينىّ نورَهما ... فنى لسانى وقلبى منهما نُورُ[1]
قلبٌ ذَكىٌّ وعقل غير ذِى دَخَلٍ ... وفى فمى صارمٌ كالسيف مأثورُ

نظر إليه الحطيئة فى مجلس عمر رضى الله عنهما ، فقال : مَنْ هذا الذى برع الناس بعلمه ، ونزل عنهم بسنّه ؟ فقيل له : عبد الله بن عباس .

وقال فيه حسان بن ثابت رضى الله عنهما :

إذا مَا ابنُ عبّاسٍ بَدَا لك وجهُه ... رأيتَ لَهُ فى كلّ أحواله فَضْلاَ[2]
إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ ... بمنتطحاتٍ لا ترى بينها فَصْلاَ[3]
كفَى وشَفَى مافى النفُوسِ ولم يَدَعْ ... لذى إِرْبَةٍ فى القول جِدًّا ولا هَزْلاَ

= أكباد الإبل ، نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفها فتسمعه! فقال : تالله ما سمعت سفها ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأتْ رجلاً أمّا إذا الشمسُ عارضَتْ ... فيخزَى ، وأما بالعشىّ فيخسرُ

فقال : ما هكذا قال ؟ إنما قال : « فيضحى وأما بالعشى فيخصر » فقال : أوتحفظ الذى قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتى هذه ، ولوشئت أن أرددها لرددتها ، قال: فارددها ، فأنشده إياها كلها.

(١) ديوان حسان ١٦٣
(٢) ديوانه ٣٥٩ ، ولم يرد فيه البيت الأول .
(٣) الديوان : « بملتقطات » .

سموتَ إلى العليا بغير مشقّـة فنلت ذَراها لا ذليلا ولا وَغْلا(١)

ونظر إليه معاوية يوماً يتكلّم معه، فأتبعه بصره، فقال متمثّلاً:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائـلٍ مصيب ولم يثن اللّسان على هُجْرِ
يصرِّف بالقول اللّسانَ إذا انتحى وينظر فى أعطافه نظرَ الصّقْرِ

وروى أن طائراً أبيض خرج من قبره، فتأوّلوه عِلمَه خرج إلى الناس.

وقيل: دخل قبرَه طائر أبيض، فقيل: هو بصره.

وقال أبو الزبير: مات ابن عباس رضى الله عنهما بالطائف، فجاء طائر أبيض فدخل فى نعشه حين حُمِل، فما رُئى خارجاً منه.

وفضائله كثيرة مشهورة، فلنقف منها على هذا القدر.

[ ذكر إياس القاضى ]

وأما إياس، فهو أبو واثلة بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب المزنىّ، قاضى البصرة. وسبب قضائه أنّ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى عدىّ بن أرطاة عامله على البصرة؛ أن اجمع إياس بن معاوية المزنىّ والقاسم ابن ربيعة الحارثىّ، فولِّ القضاء أنفذَهما وأفقههما. فجمع بينهما، فقال كلّ واحد: إنّ صاحبَه أنفذ وأفقه، فقال له إياس: سلْ عنّى وعن القاسم فقيهَىِ المصر: الحسَن وابن سيرين - وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما - فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به. فقال القاسم: لا تسأل عنى ولا عنه؛ فوالله الذى لا إله إلا هو؛ إن إياسًا لأفقهُ منّى، فإن كنتُ كاذبًا فما عليك إلا ألّا تولّيَنى

(١) الوغل من الرجال: الضعيف الساقط.

وأنا كاذب، وإن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل قولى. فقال له إياس: إنك جئتَ برجل، فوقفتَه على شفير جهنم، فنحّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها، وينجو مما يخاف، فقال له عدىّ: أما إنك إذ فهمتَها فأنت لها؛ فاستقضاه.

وقال إياس رحمه الله: أرسل إلىّ ابنُ هَبيرة فأتيته، فسألنى فسكتُّ، فلمّا أطلتُ قال: هيهِ! قلت: سلْ عمّا بدا لك، قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟ قلت: أنا بها أعرف، قال: إنى أريد أن أستعينَ بك على عملى، قلت: إن فىّ خصالاً ثلاثاً لا أصلح معها للعمل، قال: ما هى؟ قلت: أنا دميم كما ترى، وأنا عَيِىّ، وأنا حديد، قال: أمّا دمامتك فإنى لا أريد أن أحاسن بك الناس، وأما العِىّ فإنى أراك تُعْرِب عن نفسك، وأما الحِدّة فإن السوط يقوِّمك، قم. فولاّنى القضاء، وأعطانى عشرة آلاف درهم، فهى أول مالٍ تموَّلتُه.

ودخل عليه عدىّ بن أرطاة فى مجلس القضاء ـ وعدىّ أمير البصرة، وكان أعرابىَّ الطبع ـ فقال: يا هناه، أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: فاسمع منى، قال: للاستماع جلست، قال: إنى تزوّجت امرأة، قال: بالرِّفاء والبنين، قال: وشرطتُ لأهلها ألاّ أخرجَها من بينهم، قال: أوفِ لهم بالشرط، قال: فأنا أريد الخروج، قال: فى حفظ الله، قال: فاقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: فبمَ تحكم؟ قال: بألّا تخرجها، قال: بشهادة مَنْ؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وأول ما ظهر من ذكائه، أنه دخل دمشق، وهو غلام، فتحاكم مع شيخ عند قاضيها، فصال إياس بحِدّته على الشيخ، فقال له القاضى: إنه شيخ كبير، فخفِّض كلامَك، فقال له إياس: الحقّ أكبرُ منه، فقال له القاضى:

اسكت ، فقال : ومَنْ ينطق بحجّتى ؟ فقال له القاضى : ما أراك تقول حقًّا ، فقال إياس : لا إله إلا الله ، أحقٌّ هذا أم باطل ؟ فدخل القاضى من فوره إلى عبد الملك بن مروان ، فأعلمه بما رأى من ذكائه ، فقال له عبد الملك : اخرج فاحكم بينهما ، وأخرجْه الآن من دمشق إلى بلاده لئلاّ يُفسد على أهل الشام .

ولما دخل عبد الملك البصرة رأى إياساً وهو صبىّ ، وخلْفه أربعة من القرّاء أصحاب الطيالسة ، وإياس يقدُمهم ، فقال عبد الملك : أُفٍّ لهذه العثانين ؛ أما فيهم شيخٌ يقدُمهم غير هذا الحدَث ! ثمّ التفتَ إليه ، وقال : كم سنُّك ؟ فقال : سنِّى ـ أطال الله بقاء الأمير ـ سنُّ أُسامة بن زيد بن حارثة حين ولاّه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيهم أبو بكر وعمر ؛ فقال : تقدَّم بارك الله فيك ، وكان سنُّه سبع عشرة سنة .

وأمّا ذكاؤه وفراسته ، فقد ألَّف فى ذلك المدائنىّ كتاباً سمّاه كتاب «زكَن إياس» ، والزَّكن : التشبيه ، يقال : زَكَّنَ عليهم وزكَّمَ : شبَّه وخيَّل ، وقيل : الزَّكَن : الظنّ والتفرُّس . ومن زكَنِه أنه اختصم إليه رجلان فى قطيفتين : حمراء وخضراء ، فقال أحدهما : دخلت الحوضَ لأغتسل ووضعت قطيفتى ، ثم دخل واغتسل ، فخرج قبلى ، وأخذ قطيفتى ، فتبعته ، فزعم أنها قطيفته ، فقال : ألك بيِّنة ؟ قال : لا ، قال : ائتونى بمُشط ، فأُتِىَ به ، فسرَّح رأس هذا ، ثم هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر ، ومن رأس الآخر أخضر ، فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر ، وبالأحمر لصاحب الأحمر .

وأتى المدينةَ فصلّى فى مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فزكنه أهلُه حتى صاروا فرقتين : فرقة تزعم أنه معلم ، وآخرى تزعم أنه قاضٍ ، ثم وجّهوا إليه رجلا ، فأخبره خبرَهم ، فقال : أصاب الذين ذكروا أنى قاضٍ ، ورويداً أخبرْك عن القوم ؛ أمّا الذى مَنْ صفته كذا فهو كذا ، وأما الذى يليه فهو كذا ، وأما ذاك الشيخ فإنه نجار ، فقال الرجل : فى كلِّهم والله أصبت إلاّ فى الشيخ ،

فإنه من قريش ، فقال إياس : وإن كان من قريش ! فقام الرّجل إلى أصحابه ، قال : قد جئتكم من عند أعجب النّاس ، والله إنْ منكم من أحدٍ إلاّ أخبرَني بصناعته إلاّ هذا فزعم أنه نجّار ، فقال : صدق والله ؛ إنى لأنجُر عيدان جوارىَ - يعنى عود المزمار .

ونظر إلى ثلاث نسوة فزعن من شىء ، فقال : هذه حامل ، وهذه مرضع ، وهذه بِكْر ، فسُئِلْن فوُجِدْن كذلك ، فسئل من أين لك علم ذلك ؟ فقال : لمّا فَزِعن وضعت كلّ واحدة منهنّ يدها على أهمّ المواضع لها ، فوضعت المرضع على ثديها ، والحامل على بطنها ، والبِكْر على فَرْجها .

وسمع نُباح كلب لم يره ، فقال : هذا نُباح كلب مربوط على شفير بئر ، فنُظِر فكان كما قال ، فقيل له فى ذلك ، فقال : سمعت عند نُباحه دويًّا ، ثم سمعت بعده صدًى يجيبه ، فعلمت أنه عند بئر .

ومن فِراسته أنه رأى أثر اعتلاف بعيرٍ ، فقال : هذا بعير أعور ، فنظروا فكان كما قال ، فقيل له فى ذلك ، فقال : لأنّى وجدت اعتلافه من جهةٍ واحدةٍ .

ولما صار ذكاؤه يضرب به المثل ، كما يُضرب بجود حاتم وحلْم الأحنف وشجاعة عمرو بن معديكرب ، نظمهم حبيب فى بيت جمع فضلَهم المتفرّق للعباس ابن المأمون ، فقال :

إقدامُ عمرٍو فى سماحة حاتمٍ  فى حِلْم أحنفَ فى ذكاء إياس[1]

وتُوُفِّىَ سنة ثنتين وعشرين ومائة . وأخباره كثيرة ، وفيما أوردناه كفاية .

* * *

**فعَرَّفتُهُ حينئذٍ شَخْصِى ؛ وَآثَرْتُهُ بِأَحَدِ قُمْصِى ، وَأَهَبْتُ بِهِ إِلَى قُرْصِى ، فهَشَّ لِعَارِفتى وَعِرْفَانِى ، وَلَبَّى دَعْوَةَ رُغفانِى ،**

(١) ديوانه ١٧٤ ، وفيه : « يمدح أحمد بن المعتصم ».

وَانطَلَقَ وَبِيَدِي زِمَامُهُ ، وَظِلِّي إِمَامُهُ ، وَالْعَجُوزُ ثَالِثَةُ الأَثافي ، وَالرَّقِيبُ الَّذِي لا يَخْفَى عَلَيهِ خَافٍ . فلمّا استَخْلَسَ وُكْنَتِي ، وَأَحْضَرْتُه عُجَالَةَ مُسْكَنَتِي ، قالَ لي : ياحَارِث ، أَمَعَنا ثالث ؟ فقُلتُ : لَيْسَ إلاَّ الْعَجُوزُ ، قال : مادُونها سِرٌّ مَحجُوز . ثمَّ فتَحَ إِحْدَى كَرِيمَتَيْهِ ، وَرأَرأَ بتَوْءمَتَيهِ ، فإِذَا سِرَاجا وَجْهِهِ يَتقِدَانِ ، كأَنَّهُمَا الْفَرْقَدَانِ . فابْتَهَجْتُ بِسَلاَمَةِ بَصَرِه ، وَعَجِبْتُ مِنْ غَرَائِبِ سِيَرِه ، وَلَم يُلقِنِي قَرارٌ ، وَلا طَاوَعَنِي اصْطِبَارٌ ، حتى سَأَلْتُه : مادَعاكَ إِلَى التَّعالي ؛ مَعَ سَيْرِكَ في الْمَعَامِي ، وَجَوْبِكَ الْمَوَامِي ، وَإِيغالِكَ في الْمَرَامِي !

• • •

قوله : « أهبت به » ، أي دعوته ، وأصل « أهاب » دعا لنفسه مَن بَعُد . وقيل : الإهابة دعاء الإبل للشرب . والقُرْص : رغيف صغير سُمِّيَ قرصا ، كأنه قرص من العجين ، أي قُطِع ، والتقريص : التقطيع . هشّ : خف فرحاً . والعارفة ، يريد النعمة وهي المعروف . لبّي : أجاب وقال : لبيك ، ومصدره تلبية وهي « تفعلة » ، من الإلباب وهو اللزوم ، ولبّ بالمكان وألبّ به : أقام ، وأصله لَبّب بثلاث باءات ، فأبدلوا الآخرة ياء استثقالا لاجتماع الأمثال ، كما قالوا : تظنّيت وتمطّيت ، فالياء فيهما بدل من مثل الحرف الذى قبلها ، ثم أتبعوه الإبدال في المصدر وهو تلبية ، فياؤه باء . وقولهم : لبيّك ، معناه إجابةً بعد إجابة ، ولزوماً لطاعتك بعد لزُوم . رُغفان : جمع رغيفٌ ، يريد أنه لمّا سمع بذكر الخبر ، فكأنّ الخبر دعاه فأجابه . زمامه : مقوده . إملمه : هاديه . الأثافيّ : حجارة القِدْر ، وهي ثلاث ، والعرب تقول : رماه الله بثالثة الأثافيّ ـ يعنون بها الجبل ، لأنهم يجعلون حجَرين

ويلصقونهما بالجبل ، فيقوم الجبل مقام الحجر الثالث ، واحدتها أُثْفِيَّة بالتشديد ، وقد تُخفَّف ، وقد أثفيت القدر وأثفتها وثفَّيتها ، وتسمِّى العرب أثافىَّ الحديد المنصَب . الرقيب : الحافظ ، يريد الله تعالى . استحلس وُكْنَتِي ، أى دخل بيتى ، وجاس على حِلْسه ، وهو ما يُبسط تحت بسطه ؛ يقيها الأرض ، وفلان حِلْس بيته ، أى لازم التعود فيه ، وفى الحديث : « كن فى الفتنة حِلْس بيتك » ، أى لا تدخل فيها ، والحِلْس : كساء يلِي ظهر البعير تحت البرذعة ويلزمه ، فشُبّه الذين يعرفون الشىء ويلزمونه بالحِلْس ، ومنه قولهم : لست من أحلاسها ، أى من أصحابها العارفين بها . ومنه بنو فلان أحلاس الخيل ، أى الذين يضمِّرونها ويلزمون ظهورها ، وأحلاس القوافى : المجيدُون فى نظم الشعر ، والوُكْنة : الثقبة فى الحائط يسكنها الطائر ، وقيل : هى الموضع من الشجرة وغيرها ، يقع عليه للمبيت ، وهى الوَكْن ، ووكَن الطائرُ وَكْنًا ، فهو واكن إذا حضن على فرخِه ، فلزم وُكْنَته . عُجَالة مُكنَتى : ما تعجَّل وأمكن من الطعام . محجوز : ممنوع ، وحجزت الشىء : حزته ومنعته ، وحجزت بين الشيئين حجزاً ، فأنا حاجز ، إذا جعلت بينهما حائلا ، والمفعول محجوز ، ومنه الحِجاز ؛ لأنها أرض حجزت بين نَجْد والسَّراة . كريمتيه : عينيه ، وفى الحديث قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد أذهب الله كريمتيه إلا كان ثوابه عند الله الجنـة » قالوا : وما كريمتاه ؟ قال : عيناه . رأرأ : قلَبهما وأدارهما إدارة كثيرة . وتوءمتاه : كريمتاه ، وقوله : « مسحَ كريمتيه » ، يريد أنه حكَّهما بكفِّه ، فانتفض عنهما ما كان ألصقهما به ، حتى التحما . وقيل : رأرأ : أدار العين وحدَّدَ نظرها . وتَوءمتاه : عيناه ، وفى الغريب المصنَّف : رأرأتِ المرأة بعينها ولألأت ، إذا برقت عينُها ، وأنشد ابن الأعرابىّ :

عجبت من الحور الكريم نجارها ... تُرأرِىء بالعينين للرجل الحِبْلِ (١)

الحِبْل : الداهية . الفرقدان : نجمان مُنيران فى بنات نعش . ابتهجت : فرحت .

(١) اللسان ــ حبل ، وروايته : « فيا عجبا للخود تبدى قناعها » .

سِيَره : عاداته . يُبقِنِي قرار: يحبسني سكون وطمأنينة. التَّعامى : استعمال العَمَى . المامى : الطرُق المجهولة ، وقيل : القِفار البعيدة التى تعمى فيها الآثار فلا يُهتدى فيها . الموامى : القفار ، واحدها مَوْماة . إيغالك : إبعادك ومبالغة دخولك . المرامى : المقاصد والبلاد التى ترميه إلى بلاد أُخْرَى ؛ يقول : سألته ما الذى دعاك إلى استعمالك العمى مع دخولك لطلبك الرزق فى المشقات وجَوْب البلاد البعيدة ، فلم تجِدْ لنفسك حيلة حتى تشبَّهت بالعميان !

* * *

فتَظاهَرَ باللُّكْنةِ ، وتشاغَلَ باللُّهْنةِ ، حَتى إذَا قضَى وَطَرَهُ ، أتأرَ إلىَّ نظرَه ؛ وَأَنشدَ :

وَلَمَّا تعَامى الدَّهرُ وَهْوَ أبوالْوَرَى … عَنِ الرُّشْدِ فِى أنْحائه وَمَقاصِدِهْ

تعَامَيتُ حَتى قيلَ إنى أخُو عَمًى … وَلاَ غَرْرَ أن يحذُو الْفَتى حَذْوَوالِدهْ

ثمَّ قالَ لى: انْهَضْ إلَى الْمُخْدَعِ فائتنى بِغَسُول يَرُوقُ الطرْف ، ويُنَقِّى الْكَفَّ ، وَيُنعِّمُ الْبَشَرَةِ ، وَيُعَطِّرُ النَّكْهَة ، وَيَشدُّ اللّثَة ، وَيقَوِّى المَعِدَة ، وَليَكُنْ نظيفَ الظَّرْفِ ، أريجَ الْعَرْفِ ، بَقِىَّ الدَّقِّ ، ناعِمَ السَّحْقِ ، يحسَبُهُ اللاَّمِسُ ذَرُورًا ، وَيَخَالُهُ النَّاشِقُ كَافُورًا ، وَاقرُنْ بهِ خِلاَلَةً نقِيَّةَ الأصلِ ، محبوبَةَ الْوَصلِ ، أنيقَة الشَّكْلِ ، مَدْعاةً إلَى الأكلِ ؛ لهَا نحافَة الصَّبِّ ، وَصَقَالة الْعَضْبِ ، وَآلَة الْحَرْبِ ، وَلدُونة الْغُصْنِ الرَّطْبِ .

° ° °

تظاهر : استعان . واللُّكنة : احتباس اللسان ؛ يريد: لمّا امتلأ فمه بالطعام .

لم يتسرّح لسانه بالكلام ، فوجد بذلك عِلّة لقطع الجواب ، فكأنَّ اللُّكنة أعانته على ذلك . اللُّهنة : الطعام المعجّل للضيف قبل الغداء ، وكلّ ماتعجّلته قبل إدراك الطعام لُهنة ، ولَهَّنْتُ الضيف: علّلته بذلك . قضى وَطَره : أتمّ حاجته من الأكل ، والوطر : المراد ، ولا فعل له . أتأر : تابع نظره وحدّده . الوَرَى : الخلق . أنحائه : أغراضه ومقاصده ، والنّحو كالقصد . لاغرْو : لاعجب . يحذُو حذْوَه: أى يفعل فعله .

[ ذكر العمى وما ورد فيه من الشعر ]

وهذا الاعتذار عن التعامى حسن ، وقد تقدم اعتذار ابن عباس رضى الله عنهما عنه . ومما يعزى للحُصْرىّ[1] فى ذلك :

وقالوا قد عميتَ فقلت كلاَّ ... فإنى اليوم أبصرُ من بَصيرِ
سواد العين زار سَواد قَلبى ... ليجتمِعَا على فهم الأمُورِ

أخذَه من قول بشار :

إذا وُلِدَ المولود أعمَى وجَدتَه ... وجدِّك أهدَى من بصير وأحْوَلاَ[2]
عميتُ جنيناً والذّكاء من العمَى ... فجئت عجيب الظنّ للعلم معقِلاَ
وغاضَ ضياء العين للقلب فاغتدَى ... بقلب إذا ما ضيع النَّاس حَصَّلاَ
وشعرٍ كنوْر الرَّوض لاءمتُ بينه ... بقولٍ إذا ما أحْزنَ الشِّعْرُ أسْهَلاَ

وقال بشار :

قالوا العمَى منظرٌ قبيحٌ ... قلت بفقدِى لكُمْ يَهُونُ[3]
تالله ما فى البلاد شىءٌ ... تأسَى على فَقْدِه العُيُونُ

(١) الحصرى ، بضم الحاء وسكون الصاد ، منسوب إلى عمل الحصر أو بيعها : على ابن عبد الغنى القيروانى ، صاحب قصيدة « ياليل الصب » ، وهو ابن خالة إبراهيم بن على الحصرى ، صاحب كتاب زهر الآداب ، والبيتان فى نكت الهميان ٧٦ .
(٢) الأبيات عدا الأول فى الأغانى ٣ : ١٤٢ ، ونكت الهميان ٧٥ .
(٣) نكت الهميان ٧٥ .

وعكَس هذا المعنى أبو العيناء حين سأله المتوكل : ما أشدُّ ما عليك فى ذهاب بصرك ؟ قال : ما حرِمتُه يا أمير المؤمنين من رؤيتك مع إجماع الناس على جمالك .

ومما يُستملح من هذا الباب : نشأ أعمَى بين أعورين ، فإذا مشيا أو قعدا ، فحاذى عَوَرُ هذا عَوَرَ هذا نشأ بينهما أعمى .

وقال المتنبى يمدح العوَر ويذمّه فى بيت واحد :

أيا بن كَرَوّسٍ يانصفَ أعْمَى ... وإن تفخر فيا نِصْفَ البصيرِ[1]

فإذا انضمّ ابن كَرَوس إلى مثله نشأ بينهما أعمى ، قال الشاعر :

وبيننا أبداً أعمَى نؤلّفُـه ... قد يخلُق الله عِميانا من العُورِ

وقال آخر :

ألم ترنِى وعَمْراً حين نغـدُو ... إلى الحاجات ليس لنا نظيرُ

أسـايره على يُمنَى يديه ... وفيما بيننا رجـلٌ ضريرُ

وقال آخر فى أعور وعوراء تعاشقا :

هى عوراء باليمين وهـذَا ... أعورٌ بالشمال وافق شَنَّا

بين شخصيهما ضريرٌ إذا ما ... قَعدَتْ عن شماله تتغنَّى

فأما قول جميل[2] اليشكرىّ فى صفة الذئب[2] :

وأعور مِنْ يمناه إن شاء مرّة ... وإن شاء من يسراه ما كان راقدَا

لقد فزت دون العُور أوس برتبة[3] ... وأعطيتَ نابا يفلَق الصخر باردَا

---

(١) ديوانه ٢ : ١٤٤ ، قال فى شرحه : « يخاطب ابن كروس الأعور وكان يعاديه » .

(٢) كذا فى الأصول ، ولعله تصحيف عن « المنخل » .

(٣) أوس اسم علم على الذئب .

فإنما وصفه بشدة الحذر ، وذكر العور على معنى الاستعارة كما قال حُميد ابن ثور :

ينامُ بإحــــدى مقلتيه ويتّقى    بأخْرى المنايا فهو يقظان نائمُ(١)

وقال ابن المعذّل :

أشتهى فى المقلة القبــلا    لا كثيراً يشبه الحوَلاَ
واحمرار الخـدّ من خجلٍ    إننى أستحسـن الخَجَلاَ

وقال آخر :

وأحولٍ ذِى حَرَكَهْ    يملأْ بيتى بَرَكَهْ

يريد أنه يرى من الشىء اثنين ، كما قال الآخر :

فقد جعلتُ أرى الشخصين أربعةً    والواحد اثنين ممّا بورك البصرُ

لأن هذا يصف الكِبَر .

واعتذر القاضى أبو محمد عبدالوهاب(٢) عن الحوَل فأحسن ، حيث يقول

حمِـدت إلهى إذ بُليت بحبِّهـا    وبى حَوَلٌ يغنى عن النَّظَرِ الشَّزْرِ
نظـرتُ إليها والرَّقيبُ يظنّنى    نظرت إليه، فاسترحت من العُذْرِ

فحَولُه رفع عنه ثقل مؤنة التكلّف الذى ذكر الآخر حين قال :

ولمّا التقينَـا والعيونُ نواظرٌ    وليس لنارُسْلٌ سِوَى الطَّرْفِ للطَّرْفِ

---

(١) البيت لحميد بن ثور ، ديوانه ١٠٥ ، : « يقظان هاجم » .
(٢) هو أبو محمد عبد الوهاب بن نصر بن أحمد المالكى ، القاضى ذكره النباهى فى ترتيب العليا ٤٠ ـ ٤٢ .

تنزهّت فى خدّيك من نظر خفى ... وما زلت أخفى الودّ ضعفاً على ضعفِ
فإن غفل الواشون فزتُ بنظرةٍ ... وإن نظروا نحوى نظرتُ إلى كَفِّ

فلذلك حمد الله على الحوَل .

وقال الناشى فى هذا المعنى فأحسن :

يتناقلان اللفظ من جفنيهمَا ... فكأنما يتناسخان كتاباَ
وإذا سَهتْ عَيْنُ الرقيب تخالستْ ... كفّاهما خَلْسَ السّلام سِلاَبَاَ

وللقاضى أبى محمد عبد الوهاب ، أنشدنا بعض أشياخنا البيت الثانى والأخير من القطعة التالية ، وكان كثيراً مايحرضنا بها على الطلب ، ويسلّينا عن الغربة :

ومحجوبةٍ فى الخِدْرِ عن كلِّ ناظرٍ ... ولو برزتْ باللّيل ماضلّ مَنْ يَسْرِى
أقولُ لها والدّمع يغلبُ صبرها ... أعِدّى لفقدى ما استطعتِ من الصّبْرِ
سأنفِق رَيْعانَ الشبيبة آنفاً ... على طَلبِ العَلْيَاءِ أو طلب الأجْرِ
أليس مِنَ الحرمان أنّ لياليًا ... تمرُّ بلانَفْعٍ وتحسَب من عُمْرِى!

ولم ينشدنا البيت الأول ولا الأوسط ، وهما من القطعة .

وأما كلام الحريرىّ الّذى فرغنا من شرحه ؛ فهو منقول من مقامة البديع[1] ، يقول على لسان عيسى بن هشام : «ثمّ فارقهم وتبعتُه ، وعرفت أنه متعامٍ لسرعة ما عرَف الدينار . فلما نظمتْنا حلوة ، مددت يمناىَ إلى يسرى عضديه ، فقلت : والله لتريَنّى سرّك ، أو لأهتكنّ[2] سِترك ، ففتح عن توءمتيه[3] ، وحدَر لثامه عن وجهه ، فإذا والله أبو الفتح الإسكندرىّ ، فقلت له : أنت أبو الفتح ؟ فقال :

---

(١) المقامات ٩٣ . (٢) المقامات : « لأكشفن» .
(٣) المقامات : « توءمتى لوز» .

أنا أبو قلمونْ في كلّ لون أكُونْ
اخترمن الكسبدوناً فإنّ دهرك دُونْ
زَجّ الزمان بحمقٍ إنّ الزمان زَبُونْ
لا تكذبنّ بعقلٍ ما العقل إلا الجُنونْ

وعتْب الحريريّ على العمى فائقٌ في النثر ، وشعره في الاعتذار عنه رائق في النظم ، وهو على انطباعه في القصد إذا أتى بالبيتين أتى بالعجَب ، وهو في ذلك كما قيل في أبي منصور الفقيه : إذا رمَى برُجِّيه قتل .

* * *

قوله: «المخدع»، هو بيت داخل بيت، قال ابن الأنباريّ:هو الخِزانة في جانب البيت ، وهو من خدع ،إذا توارى واستتر ، وأخدعه إخداعا : أخفاه ، فمن ضمّ ميم «مُخدع» فهو من «أخدع» ، ومن فتح فهو من «خَدع» ، وخدع الضبُّ في جُحره خدعاً : دخله خوفاً من صائده . الغَسُول : الأُشنان ، وهو النّقاوة ، ويقال أيضاً: الفاسول ، وكل ماغسلت به ثوبك أو رأسك فهو غِسْل وغَسُول. يَرُوق : يعجب . والطرف : العين . ينقّى : ينظّف . والبَشَرة : ظاهر الجلد . والنكهة : رائحة الفم ، ونكهت الرجل أنكِهه وأنكَهه ـ والفتح أقلّ ـ واستنهكته ، كلّه شممت فاه ، قال الشاعر :

نكِهْتُ مجالداً فشممتُ منه كريح الكَلْبِ ماتَ حَديثَ عَهْدِ

واللّثة : اللحم على الأسنان . نظيف الظّرف : نقىّ الوعاء . أريج العَرْف : عَطِر الرّائحة، والأرَج:فوْح الطِّيب وأرَج المسكُ: فاح. فتىّ الدقّ: طرىّ الكسر. ناعم : حسن ، قد بولغ في سحقه ، يريد أنه في الحال الذى يسحق يستعمل . الناشق : الشامّ . والذّرور والكافور : من أنواع الطيب ، والذّرُور هو

(١) اللسان — نكه ، وفيه : « فوجدت منه » .

المعروف بالذَّريرة ،والذَّرُور أيضاً: غُبار يُذَرّ فى العين، وكلّه مأخوذ من الذّرّ ، وهو التفرّق، لأن أجزاءه تفرّقت عند سَحْقه ، وفعلُه ذرّ ، وأصلُه ذرَرَ . والكافور مأخوذ من الكَفْر ، وهو التغطية ، فلِشدَّة فَوْحِه وحده يستر رائحة غيره من الطِّيب . واللاَّمس : الذى يمسُّه بيده . الخِلالة : عُوَيد رَقيق يخرج به الطعام من خلل الأسنان . أنيقة الشكل ، معجِبة الهيئة ، وشَكْل الشىء : هيئته التى هو عليها . ومدعاة : داعية ، والهاء للمبالغة . نحافة الصَّبّ : رقّة العاشق . والعضْب : السيف القاطع . آلة : عدّة وأداة ، يريد أنها محدّدة مصقولة مثل آلة الحرب. ويروى : « ألّة » بالتشديد ، وهى الحربة . لدونة : لين. نحافة الصبّ : ليس هو تشبيهاً حقيقيًا ، وإنما أراد أنها أخذت من العاشق نحافته ، ومن العضب صقالته ، ومن الغصن لُدونته ، ولو شبّه الخِلالة فى الرقّة بالعاشق ونحوله لكان جائزاً ، وكان من التشبيه المقلوب ، وكلاهما بديع فى بابه .

والخِلالة الّتى ذكر ، أصلها نبات لشُجَيْر ينبت فى الصيف ، وتطلع له رءوس، يكون فى الواحد منها عدّة من قضبان رِقاق ، فيمسك الرجل منها فى جيبه رأساً، فمتى أكل طعاماً نزع منها قضيباً فتخلّل به ، ويعرف هذا النبات عندنا بالبستينج ، فيحتمل أن يكون هذا بعينه هو الذى عندهم فى المشرق ، وإلا فصفته التى وصفت موجودة فى البستينج من الرقة والصّفاء واللّين والحدة .

وجاء فى الحديث النّهى عن التخلّل بعود الآس والرّمان والقصب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نقّوا أفواهكم بالخِلال فإنها مسكن الملكين الكاتبين الحافظين ، وإن قلمهما اللسان ، ومدادهما الرّيق ، وليس عليهما شى أشدّ من فضول الطعام ».

أبو أيوب: قال صلى الله عليه وسلم :«حبّذا المتخلّلون فى الوضوء والطعام ».

أبو هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم :« من أكل فليتخلّل، فما تخلّل فليلفظ ، وما لاك بلسانه فليبتلع » .

[ استطرد بذكر أشعار فى التشبيه رائقة ]

والخِلالة إذا بلغت من رقتها ، أن تقع بين الأسنان ، فالعاشق إذا بلغ الغاية النّحول ، هو الذى يشبّه بها ، كما قال فى التاسعة فى وصف الصبىّ الهزيل من الجوع : « ولى منه سُلالة ، كأنها خِلالة » ، وأخذه من قول ديك الجن :

ارحَمِ اليوم ذلّتى وخُضُوعِى فلقد صرت ناحلًا كالخِلَالِ

وقال أبو الطيّب :

رُوحٌ تَرَدّد فى مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يَبِنِ (١)

فذكر أنّ ثوبه على بدنٍ لم يتبين للناظر . والتشبيه المقلوب عندهم شىء مستظرف ، ومذهب مستحسن كما قال ذو الرّمة :

ورملٍ كأوْرَاكِ العذارَى قطعتُه وقد جَلَّلَتْه المظلماتُ الحنَادِسُ (٢)

فقلب التشبيه ، لأن العادة أن تشبَّه الأعجاز بكثبان الرمل ، كما قال الآخر :

* مثل قضيبٍ تحته كثيبُ *

وكما قال الآخر :

وبيضٍ نضيراتِ الوجوه كأنّما تأزّرْن دون الأُزْرِ رمْلاتِ عالِجِ

وأخذه حبيب ، وجوّد الصنعة حيث قال :

كم أحرزت قُضُبُ الهندىّ مصلتةً تهتزّ من قُضُبٍ تهتزّ من كُثُبِ (٣)

---

(١) ديوانه ٤ : ١٨٦
(٢) ديوانه ٣١٨
(٣) ديوانه ١١

علق قوله: «من قضب تهتز» ، «أحرزت» يلج[1] لك بديع صنعته بسرعة ، فإنه أراد: كم أحرزت قُضُب الهند وهى السيوف إذا أُصْلِتت من أغمادها ، وهزّت. من قضب ، أى قدود نساء . تهتزّ من كُثُب ، أى أكفال شبه أكداس رمال.

وما أعذب وأظرف قول البحترى :

أين الغزال المستعير من النَّقَا كفَلاً ومن نَوْرِ الأقاحى مبسِما[2]

فهذا هو الذى جرت به العادة فى التشبيه ، فقلب ذو الرمّة العُرْف والعادة ؛ فشبّه كُثبان النَّقَا بأكفال النساء ، وتبعه خالد الكاتب وغيره .

حدث جحظة قال : حدثنى خالد الكاتب ، قال : جاءنى يوماً رسول إبراهيم بن المهدىّ ،فسرت إليه ، فرأيت رجلاً أسود على فُرُشٍ قد غاص فيها ، فاستجلسنى وقال: أنشِدْنى من شعرك ، فأنشدته :

رأتْ منه عينى منظرَيْن كما رأتْ من الشَّمس والبدرِ المنير على الأرْض
عشيَّة حيَّـانِى بوردٍ كأنَّه خدود أضيفتْ بعضهنّ إلى بَعْضِ
ونازعنى كأساً كأنّ حَبابهـا دموعِىَ لمَّا صَدّ عن مُقْلَتِى غَمْضِى
وراحَ وفعلُ الرَّاحِ فى حركاتِه كفِعْلِ نسيمِ الريح فى الغُصن الغَضِّ

فزحف حتى صار فى ثلثى الفراش ، وقال : يا فتى ، شبّهوا الخدود بالورد ، وأنت شبهت الورد بالخدود ! فزدنى ، فأنشدته :

عاتبتُ نفسى فى هوا ك فلم أجدها تقبلُ[3]
وأطعت داعِيها إليـ ك ولم أُطِـعْ من يعْذِل
لا والذى جعل الوجو ه لحسن وَجْهك تمثلُ
لاقلت إن الصبر عَنْـ ك من التَّصابى أجْمَلُ

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى ط : « يلح » .
(٢) ديوانه ١٩٥٨ (٣) الأغانى ٢١ : ٣١

فزحف حتى انحدر من الفراش ، ثم قال: زدْنى ، فأنشدته :

عش فحُبّيكَ سريعـــاً قاتلى       والضّنى إن لم تصلنى وَاصِلِى
فأنا بين اكتئابٍ وضَنًى       تركانى كالقَضِيب الذّابــــل
فبـــكى العاذل لِى من رحمةٍ       فبــكائى لبــكاء العـــاذِل

فاستخف طرباً ، ثم قال : يابليق(١) ، كم معك لنفقتنا؟ قال: ثمانمائة وخمسون ديناراً ، قال : اقسمها بينى وبين خالد ، فدفع إلىَّ نصفَها .

وقد سُبِق إلى قوله : « كأنه خدود » ، قال المفضّل : دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد ، وعنده جاريةٌ مليحة شاعرة أديبة ، قد أهديت إليه ، فقال : يامفضّل ، قُلْ فى هذا الورد شيئاً تشبّهه به ، فأنشأتُ أقول:

كأنه خَدُّ معشوقٍ يقبّلُه       فم الحبيب وقد أبقى به خَجَلاَ

وقالت الجارية :

كأنّه لون خدّى حين تدفعنى       كفُّ الرّشِيدِ لأمرٍ يوجب الغسْلاَ

فقال : يا مفضّل قم فاخرج ، فإن هذه الماجنة قد هيَّجتنا ، فقمت وأرخيت السّتـــور .

ولقد أحسن ابن الزقّاق فى قوله :

ورياضٍ من الشقائق أضحتْ       تتهادى بهـــا نسيم الرياح(٢)
زرتُها والغمام يجلِد منهـــــا       زهراتٍ تروق لونَ الرّاح
قلت : ما ذنبُها ؟ فقال مُجيباً :       سرقتْ حُمْرَةَ الخدود المِلاَح

---

(١) الأغانى : « يارشيق » .
(٢) ديوانه ١٣٥ ، المغرب ٣٢٤ .

وقال البحترى :

في طلعة الشمس شيء من ملاحتها ... وللقضيب نصيبٌ من تثنّيها[1]

وقال ابن المعتزّ :

سقتنيَ في ليلٍ شبيه بشعرها ... شبيهةَ خدّيها بغير رقيب

فأمسَيْتُ في ليلين: في الشعر والدجى ... وشمسين : من خمر وخدّ حَبيبِ

وأستطرد إلى قلب التشبيه من مبالغة النّحول الذى ذكرنا ، فأقول : إذا صار جسم العاشق من النحول يوصف بمثل قول الشاعر :

أنحلنى الحبّ فلو زجّ بى ... في مُقْلَةِ النَّائم لم ينتبه

قد كان لى فيما مضى خاتمٌ ... والآن لو شئت تمنطقت بهْ

وبمثل قول أبى بكر بن دُريد :

إنّ الذى أبقيتَ من جسمِهِ ... يامتلفَ الصبّ ولم يَشْعُرِ[2]

صُبابة لو أنها قطرةٌ ... تجول في جفنك لم تَقْطُرِ

صار جسم الخِلالة على نحافته أكبر من جسم الصبّ بأضعاف ، فينقلب التشبيه ، وكذلك إذا بولغ في وصف الأكفال بالعِظَم صغرت عندها الكُثبان ، فينقلب التشبيه .

وقد ترجم ابن جنّى في خصائصه ترجمة ، فقال : هذا باب من غلبة الأصول على الفروع ، ثم أنشد بعض ما أنشدنا ، وقرنها بمسائل من العربية حِسان تشبه الباب[3] .

---

(١) ديوانه ٢٤١ ، وفيه : « في حمرة الورد شكل من تلهبها » .

(٢) ديوانه ٦٧

(٣) الخصائص ١ : ٢٠١ — ٢٠٣

والمتقدّمين والمتأخّرين في النحول شعر كثير، ويستحسن في ذلك قول المجنون:

فأصبحتُ من ليلَى الغداةَ كناظرٍ ... مع الصّبح في أعقاب نجم مغرّبِ[(١)]
ألا إنما غادرتِ يا أُمَّ مالكٍ ... صدًى أينما تذهبْ به الريح يذهَبِ

أخذه المؤمّل فقال:

قد صرتُ من ضعفي إلى حالةٍ ... تجرى لهـا آماقُ حُسَّادِى
يـكاد جسمى من نحول الضَّنَى ... تحمـله أنفاسُ عُـوَّادِى

وزاد خالد الكاتب، فجعله لا يُدرك إلا بالوهم، فقال:

يا من تجاهلَ عمّا كان يعمله ... عمداً وباح بسرٍّ كان يكتُمُه
غَدَا خليلك نِضْواً لاحَراكَ به ... لم يبق من جسمه إلا توَهُّمُه

فزاد ابن المعتزّ، وجعله يخفى على الموت، فقال:

مُسَهَّدٌ خانه التفريق في أمَـلِهْ ... أضناه سيّدُه ظلماً بمرتحـلِهْ[(٢)]
فدقّ حتى لو أن الدهر قادَ لهُ ... حتناً لمـا أبصرتْه مقلتا أجَـلِهْ

فأعدمه المتنبيّ واستريح منه، فقال:

أراكِ حسبتِ السّلكَ جسمى فَعُقْتِهِ ... عليك بدُرٍّ عَنْ لقاء التّرائبِ[(٣)]
ولو قَلَمٌ أُلقيتُ في شَقِّ رأسِهِ ... من السّقم ماغيَّرتُ من خَطِّ كاتبِ

* * *

قال: فنهَضْتُ فِيما أمرَ، لأدْرَأَ عَنْهُ الْغَمرَ، ولَمْ أَهْمْ إِلَى أنّه

(١) البيتان فى حماسة ابن الشجرى ١٥٦ بنسبتهما إلى محمد بن النميرى .
(٢) ديوانه ١ : ١٤٩ . السلك : الخيط . والترائب : محل القلادة من الصدر .

قَصَدَ أَنْ يَخْدَعَ، بإِدْخَالِ الْمُخْدَعِ، وَلا تَظَنَّيْتُ أَنَّه سَخِرَ من الرَّسُولِ، فِي اسْتِدعَاءِ الخَلاَلَةِ وَالْغَسُولِ.

فَلَمَّا عُدْتُ بالْمُلْتَمَسِ، فِي أَقْرَبَ مِن رَجْعِ النَّفَسِ، وَجَدْتُ الْجَوَّ قَدْ خَلاَ، وَالشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ قَدْ أَجْفَلاَ، فاسْتَشَطْتُ مِنْ مَكْرِهِ غَضَبًا، وَأَوْغَلْتُ فِي إِثْرِهِ طَلَبًا، فَكَانَ كَمَنْ قُمِسَ فِي المَاءِ، أَوْ عُرِجَ بِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ.

* * *

قوله: «أدرأ» أى أزيل. الغَمَر: الودَك. أهِم: أظنّ، ويذهب وهمى. تظنّيت: حسبت، وأبدل إحدى نونى «ظنّ» ياء تخفيفاً للتضعيف. سخر: هزأ. الملتمَس: المطلوب. الجوّ هنا: داخل البيت. أجفَلا: هربا وأسرعا. قوله: «استشطت»: اشتدّ غضبى. مكرِهِ: خداعِهِ. أوغلت: بالغت وباعدت. قُمِسَ: غمس. عُرِجَ به: طلع به. عَنان بفتح العين: سحاب، والعنانة: السحابة، وأعنّت السماء: صار لها عَنان، والله الموفّق للصواب.

# المقالة الثامنة وهي المعرية

[ معرّة النعمان ]

هي بلدة بالشام ، والنُّعمان : اسم جبل مطلّ عليها، والمَعرّة اسم البلدة ، فأضيفت إليه ، ولها سبعة أبواب ، وعلى جبل منها دَيْر سمعان ، فيه قبر عمر بن عبد العزيز ، وقبر شيث بن آدم عند باب شيث منها ، وداخلها قبر يوشع بن نون ، وله يوم حَفِيل في كلّ عام ، وإلى المعرّة ينسب الشاعر المعرّى . قال شيخنا ابن جبير : إنه خرج من قِنَّسرين يريد حِمْص، قال : فرأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين بلاد المَعَرّة ، وهي سواد كلها محاطة بشجر الزيتون والتين والفُستق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قُراها مسيرة يومين ، وهي من أخصب البلاد ، وأكثرها أرزاقاً ، ووراءها جبل لبنان ، وهو سامي الارتفاع ، ممتدّ الطول ، متّصل من البحر إلى البحر ، وفي سفح الجبل حصون للملحدة الإسماعيليّة ، فرقة مَرَقَتْ من الإسلام ، وادَّعت الإلٰهية[1] ، قيّض لهم شيطان يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخيالات ، وموّه عليهم باستعمالها ، وسحرهم بمُحالها ، فاتخذوه إلٰهاً يعبدونه ، ويبذلون الأنفس دونه ، وحصلوا من طاعته[2] بحيث يأمر أحدهم بالتردِّي من شاهق جبل ، فيتردّى المأمور ، والله يضل من يشاء[3] .

* * *

أخبر الحارثُ بن همّامٍ قالَ : رأَيْتُ منْ أَعَاجِيب الزَّمَانِ ، أنْ

---

(١) بعدها في ابن جبير « في أحد الأيام » .

(٢) بعدها في ابن جبير « وامتثال أمره » .

(٣) رحلة ابن جبير ٢٣٤

تَقَدَّمَ خَصْمانِ ، إلى قاضي مَعَرَّةِ النُّعمانِ ، أَحَدُهُما قَدْ ذَهَبَ مِنهُ الأَطْيَبانِ ، وَالآخَرُ كأَنَّهُ قَضيبُ البانِ .

* * *

قوله : « الأطيبان » ، أي الأكل والنكاح ، أي هو شيخ مسنّ ، وقيل : الأطيبان : النوم والنكاح ، وقيل : طيب النكاح ، وطيب النَّكْهة .

أبو هريرة ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « الأطيبان التمر واللبن » .

وسئل شيخ مسنّ من العرب عن حاله ، فقال : ذهب مني الأطيبان : السَّيْر والأيْر ، وبقي الأرطبان : الضّراط والسّعال .

والبان : شجر تشبَّه بقضبانه القُدود الناعمة .

* * *

فَقَالَ الشَّيْخُ : أَيَّدَ اللهُ القاضِي ، كَما أَيَّدَ بِهِ المُتَقاضِي ، إِنَّهُ كانَت لِي مَمْلُوكَةٌ رَشِيقَةُ القَدِّ ، أَسِيلَةُ الخَدِّ ، صَبُورٌ على الكَدِّ ، تَخُبُّ أَحْيانًا كالنَّهْدِ ، وَتَرْقُدُ أَطْوارًا فِي المَهْدِ ، وَتَجِدُ في تَمُّوزَ مَسَّ البَرْدِ ، ذاتُ عَقْلٍ وَعِنانٍ ، وَخَدٍّ وَسِنانٍ ، وَكَفٍّ بِبَنانٍ ، وَفَمٍ بِلا أَسْنانٍ ؛ تَلْدَغُ بِلِسانٍ نَضْناضٍ ، وَتَرْفُلُ فِي ذَيْلٍ فَضْفاضٍ ، وَتُجْلَى في سَوادٍ وَبَياضٍ ، وَتُسْقَى وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ حِياضٍ ، ناصِحَةٌ خُدَعَةٌ ، خُبَأَةٌ طُلَعَةٌ ، مَطْبُوعَةٌ عَلَى المَنْفَعَةِ ، وَمِطْواعَةٌ في الضِّيقِ وَالسَّعَةِ ، إِذا قَطَعْتَ وَصَلَتْ ، وَمَتى فَصَلْتَها عَنْكَ انْفَصَلَتْ ، وَطالَما خَدَمَتْكَ فَجَمَّلَتْ ، وَرُبَّما جَنَتْ عَلَيْكَ فَآلَمَتْ وَمَلْمَلَتْ ، وَإِنَّ هَذا

الفَتى اسْتَخْدَمَنيها لِغرَض ، فَأَخْدَمْتُهُ إيَّاها بلاَ عِوَض ، عَلَى أن يَجْتَنِيَ نَفعَهاَ ، ولاَ يُكلِّفَهَا إلاَّ وُسْعَهاَ ، فأوْلجَ فِيهَا مَتاعَهُ ، وأطَالَ بِهَا استِمْتاعَهُ ، ثمَّ أعادَهَا إلَيَّ وَقَدْ أَفْضَاهَا ، وَبذَلَ عنْها قِيمةً لا أَرْضَاهَا .

* * *

المتقاضى ، أى المتحاكَم إليه الذى يطلب من الحاكم قضاءه ، وعونه على خصمه؛ وهذا الغرض الذى ذكره ضرب من الألغاز ، لأنه مشى كلامه فى وصف جارية وغلام ، وقد ضمّن الكلام وصف إبْرَة ومِرْوَد. مملوكة ، يعنى الإبرة جعلها مملوكة لأنها مما يُتموّل. رشيقة القدّ : معتدلة القامة . أسيلة: ملساء. خدّ الإبرة: شَقٌّ فيه ثقبها ، وأصل الخدّ شَقٌّ مستطيل فى الأرض ، والأسالة : ملاسةٌ مع طول.

صبور على الكدّ ، أى صابرة على المشقّة والتعب ، وفعول - بمعنى فاعل - يمتنع من إلحاق الهاء به إذا وقع صفة لمؤنث ، قال عنترة :

إنِّى امرؤٌ سهلُ الخليقة ماجدٌ لا أُتبع النَّفسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

ومنه: امرأة شكور وصَبُور ولَجُوج وَلحن أبو محمد خواص العراق بقولهم: شكورة ولجوجة وصبورة، قال: إنّ هذه التاء إنما تدخل فى «فعول» إذا كانت بمعنى «مفعول» ، نحو ناقة رَكوبة وشاة حلوبة(١). قال: وذكر النحويّون فى امتناع الهاء من «فعول» بمعنى «فاعل» للمؤنث عِللاً ، أجودُها أن الصفات الموضوعة للمبالغة نُقلت عن بابها لتدلّ على المعنى الذى تخصصّت به ، فأسقطت الهاء من صبور وفتاة معطار ونظائره ؛ كما ألحقت بصفة المذكّر فى رجل علاّمة ونسّابة ، ليدلّ على تحقيق المبالغة ، وتؤذن بحدوث معنى زائد فى الصفة . وامتناع الهاء المذكورة

(١) قال فى درة الغواص : «لأنهما بمعنى مركوبة ومحلوبة» .

أصل مطّرد [لم يشذّ منه إلا قولهم ][1] : عدوّة، فإنهم ألحقوه بصَدِيقة ، والشيء في أصول العربية [قد] يُحمَل على ضدّه ونقيضه ، كما يحمَل على نظيره ورَسيله[2] .

تَخُبّ : تثب في الثوب بسرعة . النّهد : الفرس الضّخم . أطواراً : أحياناً، ومهدها: منبر الخائط الذى تُمسك به إبرته . تَمُّوز : أحد الشهور، وهو يوليه . والبرد : أن يبردها الحدّاد بالمِبْرَد ليقوِّمها ويعدِّلها ، فالبرد هنا فعْل صانعها . قال ابن ظَفر : ذهب بالبرْد إلى ما طُبع عليه الحديد من البَرْد فى القيظ . قوله: «ذات عقل وعِنان» ، أراد بالعِنان الخيط لأنها ترسلُه فى الخياطة ، والعقل شدّها بالخيط حين تمسك فى الثوب . سنان : طرفها المسنون ، أى المحدّد . كفّ ببنان : الكفّ والتضريب شيئان معروفان فى الخياطة ، فيريد أن الخائط يقلّب التضريب بأصابعه وهى البَنان ويكفّه بالإبرة . فم ، يريد ثقب الإبرة . تلدغ : تضرب الإصبع . واللسان النضناض للحيَّة ، والنَّضْنَضَة ، قيل : هى صوت الحيَّة ، وقيل : حركة لسانها ، وإنما اختُلِفَ فيها لأن الحيَّة إذا ضُيِّق عليها فتحت فاها وصفرت وحركت لسانها ، فيقال : نضنضتْ ، وشبّه طرف الإبرة بلسان الحيّة لكثرة حركته فى الثوب ؛ وما أحسن قول الشاعر فى تشبيه لسان الأفعى بنُورِ السِّراج:

وقنديلٍ كأنَّ النُّـورَ منه ... محيَّا مَنْ أحِبّ إذا تَجلَّى
أشار على الدُّجى بلسانِ أفْعَى ... فشمَّر ذيـلَه فَرَقاً وَوَلَّى

وقال ابن الصبّاغ الصقلىّ فى شمعة :

يطعنُ صدْرَ الدجى بعـاليةٍ ... صَنَوبَرِى لسانُ كوكَبِهاَ
كحَيَّـــةٍ باللسان لاحســـةٍ ... ما أدركت من سواد غيْهبِهاَ

وللبيتين الأوّلين حكاية مستظرفة ، حدّثنى بها غير واحد من الطّلبة أردت ترك ذكرها لأمرين: لشهرتها ، ولأنى وجدت البيتين مثبتين فى بعض النّسخ من

(١) من درة الغواص .
(٢) درة الغواص ٦٨ .

القلائد لأحد رجالها ، ثم عزم عليّ بعض الأدباء أن أذكرها ، فذكرتها على اختصار لفائدتها ؛ وذلك أن الشاعر المعروف بالبكيّ الهجّاء ، دخل عليه في ليلة ماطرة ذات رعد وبرق في بيت فندق دوابّ ـ شخص في الظّلام لايعرفه ، وعلى البكيّ بقية من سِلْهامة[1] خَلَقة ، لايواريه غيرُها ، وعلى الثاني بقيّة من قميص قد اسودّ من طول البلى وكثرة الأوساخ، حتى لايعرف رائيه من أيّ ثوبٍ هو ؛ وقد بلّل كلَّ واحدٍ منهما المطر . وهما في بلاء من الفقر والجوع والبرد ، فرَقّ لهما خادم الفندق ، فدخل عليهما بقنديل ، فعندما نظر كلّ واحد منهما صاحبه تأسّى به ، ورأى أنه قد وجد لنفسه نظيراً في الشقاء . فقال البكيّ لجليسه : أيّ شيء أنت ؟ فقال : شاعر ، وشؤم الأدب بلغ بي ماترى ، قال : فأجِزْ ، فقال :

* وقنديلٍ كأنّ النُورَ منه *

فقال الآخر :

* محيًّا من أحبّ إذَا تجلّى *

فقال البكيّ :

* أشار على الدُّجى بلسانِ أفْعَى *

فقال الآخر :

* فشمّر ذيله فرقًا وَوَلّى *

فقال له البكيّ ـ وقد أعجب به : بمن تعرَف ؟ فقال: بعنق البرة ، قال له : وأنا البكيّ ، فجعلا يتناظران بقيّة ليلتهما في أيّهما أكثر حرماناً ، حتى أصبحا وكانا يتلمسان . فقال عنق البرة للبكيّ : هلمّ لنقترع ؛ أيّنا يقيم هنا، وأيّنا يرتحل ؟ فإنا إن بقينا في موضعٍ واحدٍ ،أدرك الناس من شؤمنا مايؤدّى بهم إلى الهلاك، فاقترعا فخرجت قرعة البكيّ بالرحيل ، فارتحل ونزل بفاس ، فحلّ بأهلها من بلائه ما قد شُهِر .

(١) كذا في الأصول ، ولم أقف على معناها .

قوله : «ترفل فى ذيل فضفاض» ، أى تمشى فى خيط طويل . تجلّى فى سواد وبياض ، أى تبرز فى خيط أسود لخياطة السواد، وأبيض لخياطة البياض. تسقى: أراد سقى الحدّاد لها إذا أخرجها من النار وألقاها فى الماء لتصلُب . ناصحة : خائطة ، والنّصاح : الخيّاط ، ونصحتُ الثوب : خطته . خُدَعة : تخدع الخائط كثيراً ، فتخيط وجه الثوب الأعلى ، وتترك الأسفل ، والهاء فى هذه الصفات للمبالغة . خُبأة طُلَعة ؛ يصف حالها من الخياطة حين تختبىء فى الثوب ، ثم تطلع فى يد الخائط . مطبوعة ، أى مصنوعة لينتفع بها . مِطواعة فى الضيق والسّعة ؛ يريد إذا دفعتَها فى الثوب دخلت فيه ، سواء اتّسع موضع دخولها أوضاق . إذا قطعت وصلت ، يريد إذا قطعت الثوب وفصّلته ألّفته . فصاْتها عنك : نحّيتها ، وجعلتها فى مئبرها . خدمتْك ، أى صرفتها فيما تحتاج من خياطة ثيابك . جمّلتْ : ألّفت قطع الثوب . جنت عليك فآلمت ، أى ضربتك فأوجعتك وصيّرتْك ذا ألم . ململت ، أى جعلتك متقلّباً لشدة الوجع . قوله : «استخدمنيها »، أى طلب منى خدمتها . الغَرض : الحاجة ، وأصل الغَرض ما قصدَته سهام الرامى ، ثم سميت الحاجة غرضاً ، لأنها قُصدت بالرغبة فيها . وسْمها : طاقتها وقَدْر ما تحتمل مما تكلف . أولج فيها متاعه ، أى أدخل فيها خَيْطه . أفضاها : خرق عينها ، وفى المرأة خلط مسلكيْها ، من أفضيت إلى الشيء ، وصلت إلى متّسعه ، ومنه: القوم فوضى ، أى متسعون مختلطون . بذل : أعطى .

* * *

فقَالَ الْحدَث : أمّا الشّيْخُ فأصْدَقُ منَ القَطا ، وَأمّا الإفْضَاء فَفَرَط عَنْ خطأ ، وقدْ رَهَنْتُهُ ، عَنْ أرْشِ ما أوْهنْتُهُ ، مَلُوكاً لي مُتَناسِبَ الطّرَفَيْن ، مُنْتَسباً إلى القَيْن ، نَقيّاً مِنَ الدّرَن والشّيْن ، يُقارِنُ مَحلُّهُ سَوَادَ الْعَيْنِ . يُفشِي الإحْسَانَ ، وَيُنْشِي الاسْتِحْسَانَ ،

وَيُغْذِى الإنْسَانَ ، وَيَتَحَامَى اللِّسَانَ ، إِنْ سُوِّدَ جادَ ، أَوْ وَسَمَ أَجَادَ ، وَإِذَا زُوِّدَ وَهَبَ الزَّادَ ، وَمَتى اسْتُزِيدَ زَادَ ، لايَسْتَقِرُّ بِمَغْنًى ، وَقَلَّمَا يَنْكِحُ إِلاَّ مَثْنَى ، يَسْخُو بِمَوْجُودِهِ ، ويَسْمُو عِنْدَ جُودِهِ ، وَيَنْقَادُ مَعَ قَرِينَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ طِينَتِهِ ، وَيُسْتَمْتَعُ بِزِينَتِهِ ، وإن لَمْ يُطْمعْ فى لِينَتِهِ.

* * *

[ القطـــا ]

القَطَا : طائر يصيح «قَطَا قَطَا» فسمِّى بصياحه ، وبما يُفهم من صوته ، ولذلك تسمِّيه العرب الصَّدُوق ، ويقال : أنسَب من قطاة ، لأنها إذا صاحت عرفت ، وقال الشاعر :

تدعو القطا وبه تدعى إذا انتسبتْ ... ياصِدْقَها حين تدعوها فتنتسبُ
حمراء مقبلةً سَكَّاء مدبرةً ... للماء فى البحر منها نَوْطة عَجَبُ

وقال الكميت :

لا تَكْذِب القول إن قالت قطا صدقَتْ ... إذ كلّ ذِى نسبةٍ لا بُدّ ينتحِلُ[(1)]

وقال أبو وجْزة :

ما زلن ينسُبْن وَهْنًا كلّ صادقة ... باتت تباشر عُرْمًا غير أزواج[(2)]

---

(١) الحيوان ٦ : ٥٧٨ .

(٢) الحيوان ٥ : ٥٧٣ ، وروايته : « وهن ينسبن » ، والوهن : نصف الليل

يريد ، أن الحمير وردت الماء ليلا ، فأثارت القطا عن أفاحيصه ، فصاحت : « قطا قطا » ؛ فذلك انتسابه وجعلها صادقة لصياحها قطا . والعُرْم بيضها ، لأن فيه سواداً وبياضاً ، وبَيْض القَطا أفراد ثلاثة أو خمسة ، قال مزاحم العقيلىّ فى القطا وفراخها :

فلمّا دعَتْه بالقَطاة أجابَهــــا  بمثل الّذى قالت له لم يبدّلِ[1]

وقال المعرّىّ :

عُرِفت جُدُودك إذ نطقتَ وطالَما  لفظ القطا فأبان عن أنسابِها[2]

وقال الأصمعىّ : القطا لا تصيح إلا إذا أرادت الماء ، فإذا عدم الماء ، وسمعت العرب صياح القطا ، فرحوا به وعرفوا قُرْب الماء من بعده .

وقيل : سُمِّى القطا لثقَل مشيِه ، يقال : قَطَا الرجل يَقْطُو ، إذا ثَقُلَ مشيه .

* * *

قوله : « فرط » أى سبق . عن خطا ، أى عن غير تعمّد . رهنته : أعطيته رهْنًا ، وأرهنتك : أعطيتك ما ترهنه . والأرْش : قيمة العيب ، أى دية الجرح ، مأخوذ من أرَشَ بين القوم لأنّ الأرش يُختصم فى قدره . أوْهنته : أفسدته ، ووهن الشىء يَوْهَن ويهِن : ضعُف ، وأوْهنته أنا ، إذا أضعفته . مملوكا ، يعنى المرود . متناسب الطرفين ، أى هذا الطرف مثل هذا الطرف ، تكتحل بأيّهما شئت . القَيْن : الحدّاد الذى صنعه . الدّرَن : وَسَخ الحديد ، والشَّيْن : العيب ، أى هو مصقول معتدل ليس فيه اعوجاج ولا عيب . يقارن محلّه سواد العين ، أى عند التكحّل به . يفشى : يحدِث ويظهر . وإحسان الكَحَل فى العين لا يخفى . ينشىء استحسان ، أى ينشىء لناظر العين استحسان الكحل فى العين

(١) الحيوان ٥ : ٥٧٨ .

(٢) لم أجده فى سقط الزند ولا فى اللزوميات .

والإنسان : إنسان العَيْن يغذيه بالكُحْل ، والإنسان : السَّواد الذى فى وسط العين ، إذا رأيته رأيت فيه شخصاً ، والشخص هو الإنسان ، فسُمِّىَ السواد به . يتحامى : يبعدعنه، يريدأنه يكحل العين ولا يقرب من الفم . قوله : « سُوِّد »، أى جعل فيه الكحل .جاد : أعطاه العين . وَسَم العين بالكحل : أجاد عمله فيها . قلّما ينكح إلامثنى ، أى ينكح عينا واحدة فى الغالب . وقد نظم هذا النثرفى الثانية والأربعين .

جوده ، أى يجود بكحله للعين . ويسمُو : يطلُع للعين ، وجعل له الكحل غذاء يأخذ ويرتفع به للغير . قرينته : مُكحلته . من طينته : من جنسه . زينته : تزيينه للعين يُطمع فى لينته : أى لا يطمع أن يكون الحديد ليِّنا . وكلّ لفظة فسرّ بها المرود والإبرة ، لها لفظ فى ظاهرها غير مافسّرت به .

* * *

فقال لهمَا القاضى : إمَّا أنْ تُبينَا ، وإلا فَبِينَا ، فابْتَدَرَ الغُلامُ ، وَقال :

أَعَارَنِى إِبْرَةً لأرْفُوَ أَطْ ... مارًا عَفَاهَا البِلَى وَسَوَّدَهَا

فانْخَرَمَتْ فى يدِى عَلَى خَطإٍ ... مِنِّىَ لَمَّا جَذَبْتُ مِقْوَدَهَا

فلمْ يَرَ الشَّيْخُ أَن يُسَامِحَنِى ... بِأَرْشِهَا إذْ رَأَى تأَوُّدَهَا

بل قَالَ هَاتِ أبْرَةً مَاثِلَهَا ... أوْ قِيمَةً بَعْدَ أَنْ تجوِّدَهَا

واعْتَاقَ مِيلِى رَهْنا لَدَيْهِ وَنَا ... هِيكَ بهِا سُبَّةً تَزَوَّدَهَا

فالْعَينُ مَرْهى لِرَهْنِهِ وَيدِى ... تَقْصُرُ عَنْ أن تَفُكَّ مِرْوَدَهَا

فاسْبُرْ بِذَا الشَّرْحِ غَوْرَمَسكَنَتِى ... وارْثِ لِمَنْ لم يَكُنْ تَعوَّدَهَا

* * *

تبينا : توضَّحَا وتفسَّرا حديثكما المبهَّ الملغز . فبينا : أبعدا ، أو ارتفعا .
قوله: «أرفو» أى أخيط ، ويروى «لأرفأ» يقال : رفأت الثوب أرفؤه ورفوته وأرفوه ، والرفو من أدقّ أنواع الخياطة ، وهو نسج الخرق فى الثوب حتى يعود كأنه لم يكن فيه خرق .

[ مما قيل فى رَفْو الثياب ]

وقال ابن القابلة السبتىّ فى غلام رفّاء :

يارافيــاً قطع كلّ ثوبٍ    ويارَشـــا حَبَةَ اعتمادى
عسى بخيطِ الوصــالِ ترفُو    ماقطَّع الهجرُ من فؤادِى

وقال الحلوانىّ فى خياط :

ربّ خيّـــاطٍ فُتنت به    فتنة أوهَتْ قُوَى جَلَدِى
لاعبٌ بالخيــــطِ يفتلهُ    أتراه ظنّــه جسَـــدِى !
ليت أنى كنتُهُ فأُرَى    بين ذاك الدُّرّ والـبَرَدِ
فعلتْ بالثّوب إبرتُه    فعلَ سهم الشَّوْق فى خَلَدِى
وجرى المِقْرَاض فى يدِهِ    جَرْىَ عينيْه عَلَى كَبَدِى

ومن مجون أبى نواس ، أنه كان يؤاكل إسماعيل بن أبى سهل ، فعرضت له على مائدة رُقاقة فى جانبها خُرْق قد ضمّ ، فرفعها بإحدى يديه ونقرَها بالأخرى ، فانفرجت ، وقال وهو يضحك : أخبزكم مرفوء ؟ فلما خرج قال :

خبز إسماعيل كالوَشْـــى إذا ما انشق يُرْفَا
عجبـا من أثر الصنـــعة فيه كَيْفَ يخفَى
إنّ رَفَّاءك هــذا ألطف الأمّة كفّا
فإذا قابل بالنّصْــــف من الخبزة نصفَا

أَلطف الصَّنعة حتى لا ترى المَغْرَزَ أَشْفَى
مثل ماجاء من التنُّور ما غادرَ حَرْفَا

والأطمار : الثياب الخَلَقة ، واحدها طِمْر . عفاها البلى : غَيَّرها القدم ودرسها ، وسوَّدها بالأوساخ حتى صارت فى طبع الثوب ، فمتى غسلت لم تزل.

[ مما قالت الشعراء فى الأطمار البالية ]

ومما قالت الشعراء فى الأطمار البالية مِمّا يستحسن قول الحمدونىّ فى طيلسانٍ[1] وَهَبَه له أحمد بن حرب المهلبىّ :

يابن حرب أطلت هَمّى برفْوِى طيلساناً قد كنتُ عنه غنيًّا[2]
فهو فى الرّفو آل فرعون فى العَرْ ض على النار بكرةً وعشيّا

وقال أيضاً فيه :

طَيْلسانٌ لابن حربٍ يتداعَى لا مَسَاسَا
قد طوى قَرْناً فقرناً وأناساً فأناساً
لَبِسَ الأيام حَتَّى لم تَدَعْ فيه لِبَاسَا
غاب تحت الخسّ حتى لا يُرى إلا قِيَاسَا

(١) قال الثعالبى فى المضاف والمنسوب ٦٠٢ : كان محمد بن حرب أهدى إلى الحمدونى طيلسانا خلقا ، وكان الحمدونى يحفظ قول ابن حمران السلمى فى طيلسان :

يا طيلسانَ أبى حمرانَ قد برِمَتْ بك الحياة فما تلتذّ بالعُمُرِ
فى كل يوم له رفْأ يجدّده هيهات ينفع تجديدٌ مع الكِبَرِ
إذا ارتداه لعيدٍ أو لجمعته تنكّب الناسَ لا يبلى من النَّظَر

واحتذى حذوه ، وانثالت عليه المعانى ، حتى قال فى وصف الطيلسان قرابة مائتى مقطوعة ، ولا تخلو واحدة منها من معنى بديع

(٢) المضاف والمنسوب للثعالبى ٦٠٢ ، وفيه : « أطلت فقرى » .

وقال فيه أيضاً :

قل لابن حرب مقالة العاتبْ ولستُ فيما أقولُ بالكاذبْ
أما رأيت الرفاء يُحزِنني برفوِه طيلسانَكَ الذاهبْ
أفناه جَوْرُ البِلَى عليه كما أفنَى الهوَى عُمرَ خالدِ الكاتبْ

وقال فيه أيضاً :

إن ابن حربٍ جادلى كاسياً بطيلسان هَرِمٍ قَشْعَمِ
انظر إلى كثرة تمزيقه كأنما مُزّق فى مأتمِ
رفوى له وهو رميمٌ كمن يبنى بناء فوق مستهدَمِ
بصدعه اللحظ بإيماضِهِ صدع فؤاد العاشق المغرَمِ
يُذكِرُنى كثرةُ تمزيقِهِ تفرّقَ الناس عن الموْسمِ

وقال فيه أيضاً :

يابن حربٍ كسوتَنِى طيلساناً ملّ من صحبة الزمان وصدّا[1]
طال ترداده إلى الرفو حتّى لو بعثناه وحدَه لتهدّى
فحسِبْنا نسج العناكب قد جِئنَ إلى ضعف طيلسانك شدّا

وقال أيضاً فيه :

يا قاتل الله ابن حربٍ لقد أطال إتعابى على عَمْدِ
بطيلسانٍ خلتُ أنّ البِلَى يطلبه بالوتْر والحِقْدِ
أجدّ فى رفوِى له والبِلَى يلهو به فى الهزْل والجِدِّ

(١) المضاف والمنسوب ٦٠٣

إن أتهم الراقى رَفْوِهِ  مضى به التمزيقُ فى نَجْدِ
غَنَّيته لما مضى راحلاً :  تركتنى ياواحدى وَحْدى

والحمدونىّ هو إسماعيل بن إبراهيم حمدويه ، نُسب إلى جده ، وهو من أهل مَيْسان ، وكان حلو التصرّف مليح الافتتان ، وهو القائل :

من كان فى الدنيا له شارةٌ  فنحن من نظّارة أدْنَى
نلحظها من كُتُبٍ حَسْرَةً  كأننـــا لفظ بلا مَعْنَى

وقال ابن الرومىّ فى طيلسانه :

ولى طيلسانٌ ناحلٌ غير أنَّه  ثبوت لهمات الرياح الزَّعازِعِ
وما ذاك إلا أنه متهتّـكٌ  يخلى سبيلَ الريح غير مُنازَعِ
أراه لضوءِ الشمس بالعين رؤيةً  ويمنعنى من لمسه بالأصابعِ
شكا ثقل اسم الطيلسان لضعفِه  فسميته ساجا فهل ذاك نافِعِى !

وقال ابن سارة فى فروة :

أودت بذات يدى فُرَيْوةُ أرنبٍ  كفؤاد عُروة فى الضَّنَا والرِّقَّةِ
يتجشم الرفّاء فى ترقيعها  بعد المشقـة فى قَرِيبِ الشُّقَّةِ
لو أنَّ ما أنفقت فى ترقيعِها  يحصَى لزاد على رمال الرقّةِ
إن قلتُ : « باسم الله» عندلباسِها  قرأت علىّ « إذا السماء انشقَّتِ »

وله فيها أيضاً :

لى فروةٌ وصفى لجانحتى بهـا  يأتيك بين مقـرّطٍ ومشنّفِ
عطّلْتُ كتب أبى عبيدٍ بالذى  ألفتُ فيها من غَرِيبٍ مُصَنّفِ
يسطو علىّ البَرد فى ترقيعها  سطوَ الغرام على فؤاد الدنَفِ

فأنا وفروى خوف تمزيقى لها    أحكى معاوية بجنب الأحنفِ

وله فى طيلسانه :

وطيلسان هَرِمٍ يُحتَمى    عليه أكلُ النحلِ والبقلِ
كأن كفّى إذا انضمّتا    عليه خوف الرّيح فى غُلّ

ولبعض أصحابه فيه :

على منكب ابن علىّ سَمَلْ    تقطّعه لحظات المُقَلْ
إذا غيّم الجوّ أبصرته    رهين الذّبول بكفّ البَلَلْ
نسوا طيلسان ابن حربٍ به    وصاروا به يضربون المَثَلْ

وله فى غِفارته (١) :

لأحمــــد بن علىّ    غِفَارةٌ كالسَّرَابِ
إن هبّ أدنى نسيمٍ    تمرّ مرّ السَّحَابِ

والشعر فى هذا الباب كثير .

قوله : « انخرمت » ، أى انكسرت . مقودها : خيطها . تأوّدُها : انكسارها ، وأصله الاعوجاج . أعتاق مِيلى : أحبس مِرْوَدِى . ناهيك : كافيك ، ومعناه المبالغة ، كأنه بلغ النهاية فى العَيْب الذى فعل . سُبّة : عيب يُسَبّ به . مَرْهَى : خالية من الكُحْل ، وقد مَرِه الرجل مَرَهاً إذا لم يتعهد الكحل ، والمَرْهى من النساء : البيضاء البينة الزّرَق الذى يختصّ الكحل فى زرَقها . اسْبُر : قِسْ . غَوْر : غاية وقَدْر . ارثِ : ارحم وتوجع .

* * *

(١) الغفارة ، ككتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة .

فأقبلَ القاضِى عَلَى الشَّيخِ ، وَقالَ : إِيه ، بِغَيرِ تَمْويه ، فقال :

أَقسمْتُ بالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَمَنْ ضم مِنَ النَّاسكِينَ خَيْفَ مِنَى
لَوْ سَاعَفَتْنِي الأَيَّامُ لم يَرَنِى مُرْتَهِنًا مِيلَهُ الَّذِى رَهَنَا
وَلاَ تَصَدَّيْتُ أَبْتَغِى بَدَلاً مِنْ إِبْرَةٍ غَالَهَا وَلاَ ثَمَنَا
لَكِنَّ قَوْسَ الْخُطُوبِ تَرْشُقُنِى بِمُصْمِيَاتٍ مِنْ ها هنا وَهُنَا
وَخُبْرُ حَالِي كَخُبْرِ حَالَتِهِ ضُرًّا وَبُؤْسًا وَغُرْبَةً وَضَنَى
قَد عَدلَ الدَّهرُ بَيْنَنَا فأَنَا نَظيرُه فى الشَّقاءِ وهْوَ أَنَا
لا هُوَ يَسْتَطِيعُ فَكَّ مِرْوَدِهِ لَمَّا غَدَا فى يَدَىَّ مُرْتَهِنَا
وَلاَ مَجَالَ لِضيقِ ذَاتِ يدى فيهِ اتِّسَاعٌ لِلْعَفْوِ حِينَ جَنَى
فَهذِهِ قِصَّتِي وَقِصَّتُهُ فانظُرْ إِلَيْنا وَبَيْننَا وَلَنا

ه ه ه

إيه : كلمة يُستزاد بها الحديث . والتمويه : الكذب ، وهو فى الحديث كالتعمية ، وقد موّه عليه ، إذا خيّل له أنّه على شىء وهو على ضدّه ، وأصل التمويه الصَّقْل ، كأنّ على ألفاظه المموّهة صقالة ، وهو من لفظ الماء . المَشْعر : المزدلفة ، وهو جمع ، سُمِّىَ مشعراً لأنه من علامات الحج ، وكلّ علامات الحج مشاعر ، والمَشْعر والمَنْسك : موضع ذبح الهَدْى بمكة المفضَّل ، سُمِّى مشعرًا ، لأنه شعر أنه حرام كالبيت . الناسكين : الحجّاج الذين يُشعرون الهَدْى وما يُنْحر ، أنسك ونسُكَ مَنسكا ونَسْكاً ونَسَكاً ، إذا ذبح النُّسْك ، وأصلها ذبائح

الجاهلية ثم سُمِّيت الأضاحى ، والنّاسك أيضاً : الزاهد . خَيْف : موضع بمِنى . قوله : « ساعفتنى » : ساعدتنى . تصدّيت : تعرّضت . غالها : أهلكها . الخطوب : الأمور الشداد . ترشقنى : تصيبنى . بمصميات : بسهام قاتلة . بؤس : شدّة حال . ضنًى : ضعف ومرض . وهو أنا ، أى هو مثلى فى ضيق الحال . مجالى : موضع تصرّفى . ذات يدى : مالى ، وذات اليد ما يُملك . العفو : الغفران . جَنَى : أذنب . قصّتى : حديثى ، يقول : فانظر إلينا بعين الشفقة والرحمة ، وأصلِحْ بيننا بما ننصرف به شاكرين لك ، وهبْ لنا ما نُثنى به عليك ، وجعل النّظر عاملا فى الجميع ، لأن من وجوه النّظر الإصلاح بينهم والتكرّم عليهم .

* * *

فلمّا وَعَى القاضِى قَصَصَهُمَا ، وتَبَيَّنَ خَصَاصَتَهُمَا وتَخَصُّصَهُمَا ؛ أَبْرَزَ لَهُمَا دِينَارًا مِنْ تَحْتِ مُصَلاَّهُ ، وَقَالَ لَهُمَا : اقْطَعَا بِهِ الخِصامَ وَافْصِلاَهُ . فَتَلَقَّفَهُ الشَّيْخُ دُونَ الحَدَثِ ، واسْتَخْلَصَهُ عَلَى وَجْهِ الجِدِّ لا العَبَثِ ، وقالَ لِلحَدَثِ : نِصْفُهُ لِي بِسَهْمِ مَبَرَّتِي ، وسَهْمُكَ لِي عَنْ أَرْشِ إِبْرَتِي ، وَلَسْتُ عَنِ الحَقِّ أَمِيلُ ، فقم وَخُذِ المِيلَ . فَعَرَا الحَدَثَ لِمَا حَدَثَ اكْتِئَابٌ ، وَاكْفَهَرَّ عَلَى سَمَائِهِ سَحَابٌ ، وجَمَ لَهُ القاضِى ، وَهَيَّجَ أَسَفَهُ عَلَى الدِّينارِ الماضِى ؛ إلاّ أَنَّهُ جَبَرَ بالَ الفَتَى وبَلْبَالَهُ ، بِدُرَيْهِماتٍ رَضَخَ بِهَا لَهُ ، وقالَ لَهُمَا : اجتَنِبَا المُعَامَلاَتِ ، وَادْرَآ المُخَاصَمَاتِ ، وَلاَ تَحْضُرَانِي فِي المُحَاكَمَاتِ ، فَمَا عِندِي كِيسُ الغَرَامَاتِ .

فنهضا من عنده ، فرحين برفده ، مفصحين بحمده ، والقاضي مايخبو ضجره ، مذ بض حجره ، ولا ينصل كمده ، مذ رشح جلمده .

* * *

قصصهما ، أى حديثهما ، وهو جمع قصة . خصاصتهما : فقرهما . تخصصهما : رفعتهما وانقباضهما ، وقد تخصص الرجل ، إذا انقبض عن العامة وتشبه بالخاصة. أبرز : أخرج . مصلاه : بساطه الذى يصلى عليه . افصلاه : اقطماه وأزيلاه . استخلصه : حازه لنفسه خالصاً . الجد : التحقيق . العبث : الهزل . سهم: نصيب. مبرتى : إكرامى الذى وصلنى به القاضى . أميل : أخرج وأعدل عنه . عرا : قصد ونزل به . حدث : ظهر . اكتئاب : حزن وهم . وجم : غضب ، والوجوم: السكوت على غضب . هيج : حرك . أسفه : حزنه . باله: فكره . بلباله : حزنه ووسواسه . رضخ : كثر العطاء . اجتنبا : باعدا . المعاملات : المعاوضات والعوارى . ادركا : ادفعا . كيس: وعاء الدراهم . رفده : عطاؤه . يخبو ضجره : يسكن غضبه : بض حجره : رشحت كفه . قال الأخطل :

كزم اليدين من العطية ممسك ما إن تبض صفاته ببلال(١)

ينصل كمده: يزول حزنه . الجلمد : الصخر الصلب، كنى به عن كفه ؛ وأنه بخيل ، ويد البخيل تشبه بالحجر ، وقال جرير :

كأنما خلقت كفاه من حجر فليس بين يديه والندى عمل(٢)
يرى التيمم فى بر وفى بحر مخافة أن يرى فى كفه بلل

(١) ديوانه ١٥٩ .
(٢) لم يرد البيتان فى ديوانه

وقال ابن عبد ربه :

يَرَاعةٌ غرّنى منها وميضُ سناً حتى مددتُ إليه الكفّ مقتبساً[1]
فصادفت حجراً لو كنت تضربُهُ من لؤمه بعصا موسى لما انبجسا
كأنما صيغ من لؤم ومن كذبٍ فكان هذا له رُوحاً وذا نَفَسَا

أين هذه الأكف من التى ذكر حجيّة بن المضرّب ، حين قال :

أناس إذا ما الدهر أظلم وجهه فأيديهمُ بيضٌ وأوجههم غُرُّ
يصونون أحساباً ومجداً مؤثّلاً ببذل أكفّ دونها المُزْن والبَحْرُ
فلو لامس الصخر الأصمُّ أكفّهمْ أفاض ينابيع النَّدى ذلك الصّخْرُ

وقال أبو الشيص :

إنّ الأمان من الزمان وريبهِ يا عقبَ شطّا بحرك الفيّاضِ[2]
بحرٌ يلوذُ المعتفون بسيْلِه فعم الجداول مترعُ الأحْواضِ
لأبى محمد المؤمّل راحتَا مَلكٍ إلى أعلى العُلا نهّاضِ
فيدٌ تدفّق بالغنَى لصديقه ويدٌ على الأعداء سمٌّ قاضِ

وقال أبو تمام :

تعوّد بَسْطَ الكفِّ حتى لو أنَّهُ دعَاها لقبضٍ لم تجبْه أناملُهُ[3]

وقال البحترىّ :

قد قلت للغيث الرّكام ولجّ فى إبراقه ، وألحّ فى إرعادِهِ :[4]

(١) العقد ٦ : ٢٩٥ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ٧٦
(٣) ديوانه ٢٣٢
(٤) ديوانه ٧٠٣

لا تعرضنَّ لجعفرٍ متشبهاً ... بندى يديه فلستَ من أندادِهِ
الله شرَّفه، وأعلى ذكرَه ... ورآه غيثَ بلاده وعبادِهِ

وقال ابن الرومىّ:

مُقَبَّلُ ظهر الكف وهّاب بطنها ... له راحةٌ فيها الحطيمُ وزمزَمُ
فظاهرها للنَّاس ركنٌ مقبَّــلٌ ... وباطنها عينٌ من الجود عَيْلَمُ

* * *

حَتَّى إذا أفاقَ مِن غَشْيَتِهِ، أَقْبَلَ على غَاشِيَتِهِ وقالَ: قَدْ أُشْرِبَ حِسِّى، وَنَبَّأَنِي حَدْسِي؛ أَنَّهُما صَاحِبا دَهَاء، لاخَصْمَا ادِّعَاء، فكَيفَ السَّبيلُ إلَى سَبْرِهِما، وَاسْتِنْبَاطِ سِرِّهِماَ! فقالَ لهُ نِحْرِيرُ زُمْرَتِه، وشَرَارَةُ جَمْرَتِه: إنَّهُ لم يَتِمَّ اسْتِخْرَاجُ خَبْئِهِمَا إلاَّ بِهِما، فقَفَّاهُماَ عَوْناً يُرْجِعُهُما إليه، فلمَّا مَثَلا بينَ يدَيْهِ، قَالَ لهُما: اصْدُقَانِى سِنَّ بَكْرِكما، وَلَكُماَ الأمَانُ مِنْ تَبِعَةِ مَكْرِكُماَ. فأَحْجَمَ الحَدَثُ واستَقَالَ، وَأَقْدَم الشَّيخُ وَقَالَ:

* * *

قوله: «غشْيته»، أى ذهاب عقله بأن يُغمَى عليه. وغاشيته: زوّاره ومَنْ يغشَى موضعه. أُشرِب: دُوخِل: حِسّى: إدراكى وفهمى. نبّأنى: حدّثنى، وأخبرنى. حَدْسى: ظنّى، قال الفرّاء رحمه الله: حدست أحدِس، إذا قلت فى الشيء برأيك. غيره: حدَست: ظننت ظنًّا بلغت منه غاية الشيء فى عدده أو

وزنه ، وأصله من قول العرب : بلغت الحدْس ، أى الشىء الذى تطلب لحاقه. والدّهاء فى الرجل : الحذق والتبصُّر فى الأشياء . لاخصما ادّعاء ، أى ليس بينهما ادّعاء على الحقيقة فيختصمان فيها . سبْرها : اختبارها . استنباط : استخراج . نِحْرير: حاذق . زمرته : جماعته ، وجعله شرارة ؛ لنفوذ ذهنه واتّقاده ، ولذلك يسمى نحريراً ، أى ماهراً بالأشياء كلها ، كأنه لإدراكه وفهمه بالأشياء ينحرها بظنّه الصادق . خبئهما : خفىّ ما عندهما . قفّاهما : أتبعهما . والعون : الشرطىّ ، لأنه يُعين من يتصرّف له . مثلاَ : وقفاَ ، يقال : مَثَل الشىء ، فهو ماثل ، إذا قام وانتصب ، وإذا لطِئ بالأرض أو ذهب ، وهو من الأضداد . سنّ بكركما : حقيقة خبركما. والبَكْر : الفتىّ من الإبل ، وسنه : مبلغ عمره ، لأنّ بالسنّ يُعرف كم بلغ من العمر ، ولفظ المثل «صدقنى سِنّ بَكره» ، وروى البكرى عن ابن الأعرابىّ أن رجلاً سَامَ رجلاً بَكْراً على أن يشتريه مسنًّا ، فقال البائع : هذا جمل ؛ لبَكْر له ، وقال المشترى : هذا بَكْر ، فقال البائع : بل هو مسنّ ، فبينما هما يتنازعان إذْ نفر البَكْر ، فقال صاحبه: ليسكّن نفاره: «هدع هدع» ، وهى كلمة من العرب يسكّن بها صغار الإبل عند نِفارها ، ولا تقال للكبار ، فقال المشترى عند ذلك: صدقنى سنّ بَكْرة . تبعة ؛ شُرِحت فى الصّدر . أحجم : تأخّر فَزِعاً . أقدم : تقدم متشجّعاً . استقال : طلب الإقالة .

* * *

أنا السَّرُوجِىُّ وهَذَا وَلَدِى  والشِّبلُ فى الْخَبرِ مِثْلُ الأسدِ
ومَا تعدَّتْ يدُهُ وَلا يَدِى  فِى إبْرَةٍ يَوْمًا ولاَ فى مِزْوَدِ
وَإنَّما الدَّهْرُ الْمُسِئُ المعتدِى  مَالَ بنا حَتَّى غَدَوْنا نَجْتَدِى
كلَّ ندِى الرَّاحةِ عذْبِ المَوْرِدِ  وَكُلَّ جَعْدِ الْكَفِّ مَغْلُولِ الْيَدِ

بِكُلِّ فَتًى وبِكلِّ مُقْصِدِ ... بالجِدِّ إن أجدَى وإلاَّ بالدَّدِ
لِنَجْلِبَ الرَّشْحَ إلى الحظِّ الصَّدى ... وَنُنفِدَ الْعُمْرَ بِعَيْشٍ أنْكَدِ
والموتُ مِن بَعْدُ لَنا بالمَرْصَدِ ... إن لم يفَاجِ اليَوْمَ فاجَى فى غَدِ

* * *

الشِّبل : ولد الأسد . المخْبَر : التجربة والخبرة . تعدّت : ظلمت ، والمتعدّى: الظالم المجاوز الحدّ فى الظلم . مال بنا ، أى حطّنا . نجتدى: نسأل الناس الجدا ، وهو العطاء . ندىّ الراحة: كريم الكفّ . وجعْد الكفّ، ضدّه ، وأراد أنْ يسأل كل كريم سهل العطاء ، وكل لئيم صعبه ، وأصل الجعودة انقباض الشعر ، ثم استعيرت لقبض الكفّ من اللؤم ، ومثله مغلول اليد ، أى كأنّ يده محبوسة بغُلّ للؤمها ، والسائل كأنه يحاول بسطَها بالجود فيجدها محبوسة بغلّ اللؤم ، وفى الكتاب العزيز : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ ﴾[1] فهذا نهىٌ عن التبذير .

وقال حبيب فى قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزدىّ ويذكر الجعودة ، وهى:

يَرَى الوَعْدَ أخزى العارِ إن هو لم تكنْ ... مواهبُه تأتى مقدّمة الوعْدِ[2]
فلو كانَ ما يعطيه غيثاً لأمطرتْ ... سحائبُه من غير بَرْقٍ ولا رَعْدِ
من القوم جَعْدٌ أبيضُ الوجهِ والنّدى ... وليس بنانٌ يجتدى منه بالجَعْدِ

(١) سورة الإسراء ٢٩
(٢) ديوانه ١٣٠ :

وقال البحتريّ :

صنتَنِي عن معاشرٍ لا أسمِّي أوّليهم إلاّ غَدَاةَ سِبَابِي[1]
من جِماد الأكفّ غير جعادٍ وغضاب الوجوه غير غِضَابِ
خطروا خطرةَ الجهام وساروا فى نواحى الظنون سَيْرَ السَّحَابِ

وقال أيضاً فى نحوه :

وخلّفنى الزمانُ على أناسٍ وجوههمُ وأيديهمْ حديدُ[2]
لهم حُللٌ حسُنّ فهنّ بيضٌ وأخلاقٌ قبحنَ فهنّ سُودُ
أناسٌ لو تأمّلهمْ لَبيدٌ بكى الخلفَ الّذى يشكو لبيدُ

قوله « الدد » : ضد الجدّ ، وهو اللهو واللعب ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لستُ مَنْ دَدٍ ولا الدّد منى » ، أى لست من باطل ولا الباطل منى أجدَى : نفع . الحظ : البخت والنصيب . والصدِى : العطشان ، وأراد أن حظّه فى الدّنيا قليل ، فهو سعى له ليجلب رزقاً يكثر به حظه . تنفذ : تتمّ . أنكد : مشئوم وكل ما جلَب شرًّا فهو أنكد ونكِد . والمرصَد : الموضع الذى ترتقب فيه من تريد أخذه ، وقد رصدته رصداً ترقبته . يفاج : يأت على غفلة ، وأصله فاجأ بالهمز ، فسهّله .

* * *

فقال له القاضى : للهِ درّكَ ، فَمَا أعْذَبَ نفثَاتِ فِيكَ ، وواهاً لكَ لَوْلاَ خِدَاعٌ فيكَ ، وَإنّى لَكَ لَمِنَ الْمُنْذِرِينَ ، وعَلَيْكَ مِنَ

(١) ديوانه ٨٦
(٢) ديوانه ٥٨١

الحَذِرِين ، فَلاَ تُمَاكِرْ بَعْدَها الحَاكِمِينَ ، واتَّقِ سَطْوَةَ المُتَحَكِّمِينَ ، فَمَا كلُّ مُسَيْطِرٍ يُقِيلُ ، وَلا كُلَّ أَوانٍ يُسْمَعُ القِيلَ .

فَمَاهَدَهُ الشَّيخ عَلى اتِّبَاعِ مَشورَتِه ، والارْتِدَاعِ عَنْ تلبيسِ صُورَتِهِ . وفَصَلَ عَنْ جِهَتِهِ ، وَالخَتْرُ يَلمَعُ مِن جَبْهَتِهِ .

قال الحارِث بن همّامٍ: فلَم أَرَ أَعْجَبَ مِنهَا فى تصَاريفِ الأسْفارِ، ولاَ قَرأتُ مِثلَها فِى تَصَانيف الأسفارِ .

* * *

قوله: «لله درك» ، أى ما أحسن كلامك ، والدَّرّ أصله اللبن ، وكأنه سمّى بحكاية صوته عند الحلْب . ولله ،أصله القسم ، ولا تدخل اللام فى القسم إلّا على اسم الله تعالى ، والتعجّب معها لازم ، فإذا قال الذى يسمع صوت الحلب لصاحب الناقة: لله دَرّك ! فكأنه قال: والله إن دَرّك هذا لكثير ، ثم استعير للفصيح فى كلامه ، ولكل من أحسن فى شىء ، فكأنّه قيل: ما أحسن ماجئت به! وقيل: معناه لله اللبن الذى شربته من أمّك ، قال الفرّاء رحمه الله : ربما قالوا :دَرّك ، ولم يقولوا : لله دَرّك ، وأنشد :

دَرّ دَرّ الشَّباب والشَّعَر الأسـ ــودِ والضَّامراتِ تحت الرِّجَالِ

قوله : «نفثات» ، أى كلمات . واهًا: عجبًا . والمنذر: المعلَم بما يخاف. تماكر: تخادع . سطوة : بطشة . المتحكم : الذى يتحكم بما شاء فيُمتثل حكمه . مسيطر : أمير مسلّط. يقيل : يغفرالزلة . أوان : وقت . عاهده : حالفه . مشورته : أخذ رأيه . الارتداع : الكفّ . تلبيس : تخليط . صورته : قصته . فَصَل : زال .

الختْر : الخداع . يلمع : يضيء ، يريد أنه انفصل عنه وعلى وجهه علامة الغدر ، وأنّ يمينه التي حلف له كاذبة ، وأوّل مَنْ نظم في هذا المعنى الشمّاخ حين قال :

أتتني تميمٌ قَضَّها بقضيضها تمسّح حَوْلي بالبقيع سبالَها
يقولون لي : احلف ولستُ بحالف أخادعهم عنها لكيما أنالَهَا
ففرّجت همّ النفس عني بحلفة كما شقّت الشقراء عني جلالَها

ومن الملح في اليمين الفاجرة ، قول ابن الرومي :

وإني لذو حَلِفٍ كاذبٍ إذا ما استمحتُ وفي المال ضِيقُ
وهل من جناحٍ على معسر يدافع بالله ما لا يطيقُ

وقال فيه أيضاً :

إذا حلّتْ على ضيق دُيُونِي وباكرني التِّجار وخوّفُوني
دفعتهمُ بمن لو شاء أدّى حقوقهم إليهم منذ حِينِ

ولدِعبل :

سألوني اليمينَ فارتعْتُ عنهَا كي يغروا بذلك الإرتياع[1]
ثم أرسلتها كمنحدَر السَّيْـل تدلى من المكان اليَفاعِ

وأنشد أبو عليّ :

لا شيء يدفعُ حقّ خصمٍ شاغبٍ إلا كحلف عبيدة بن سَمَيْذَعِ
يمضي اليمين على اليمين لجاجة عَضّ الجموح على اللجام القدِعِ
فإذا يذكر حلفة أصغى لهـا وإذا يذكر بالتقى لم يَسْمَعِ

(١) ديوان ١٠٧ .

قوله: «تصاريف» ،أراد التصرّف بالجولان في البلدان. والأسفار : الأوّل : جمع السفر في البلاد ، والثاني : جمع سِفْر ، وهو الكتاب ، قال الفرّاء رحمه الله: الأسفار : الكتب العظام . والتصانيف : التآليف المنوّعة ، والمصنّف الذي فيه أنواع شتى .

# المقامة التاسعة وهى الإسكندرانية

قال الحارثَ بنُ همَّام : طَحَا بِي مَرَحُ الشَّبَابِ ؛ وَهَوَى الاكتِسَابِ ، إلى أنْ جُبْتُ مَا بَيْنَ فرْغَانةَ وَغَانَةَ ، أَخُوضُ الغِمَارَ ، لِأجْنِيَ الثّمَارَ ، وَأقْتحِمَ الأخْطَار ، لِكَيْ أُدْرِكَ الأوطارَ ، وَكُنْتُ لَقِفْتُ مِنْ أفْوَاهِ العُلَمَاءِ ، وَثَقِفْتُ مِنْ وَصَايَا الحُكَمَاءِ ، أنَّهُ يَلْزَمُ الأَدِيبَ الأَرِيبَ ، إذا دَخَلَ البَلَدَ الغرِيب ، أن يَسْتَمِيلَ قاضِيَهُ ، وَيَسْتَخْلِصَ مَرَاضِيَهُ ، لِيشْتَدَّ ظَهْرُه عِنْدَ الخِصَامِ ، وَيأمَنَ فى الغُرْبَةِ جَوْرَ الحُكَّامِ ؛ فاتَّخَذْت هَذَا الأَدَب إمَاماً ، وَجعلتُه لِمَصَالِحِى زِمَاماً ، فَمَا دَخَلْتُ مَدِينةً ، وَلَاوَلجتُ عَرِينَةً ، إلاّ وامْتَزَجْتُ بِحَاكِمِهَا امتزاجَ الماء بالرَّاح ، وتقوّيتُ بعنايتِهِ تقوِّيَ الأجساد بالأرواح .

* ○ *

طحا بك قلبك ووَهْمك طحْواً وطَحْيًا : دهب بِكَ ، وطحا الله الأرض ودحاها: بسطها. ابن الأنباريّ: طحا قلبه فى الهوى واللهو ، إذا تطاول وتمادى، قال علقمة :

* طَحَا بِكَ قلبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ *

مرح الشباب : نشاط الفتوة . جُبْت : قطعت ومشيت .

[ ذكر فرغانة ]

فرغانة : مدينة فى أقصى خراسان ،وكان فيها بيتٌ يُسمَّى هيكل الشمس ، بناه فارس الملك ، وخَرَّبه المعتصم ، وبها قُتِل قتيبة بن مسلم الباهلىّ أمير خراسان سنة ثلاث وخمسين،وبينها وبين سَمَرْقند ثلاثة وخمسون فرسخاً . قال اليعقوبىّ : من سَمَرْقند إلى أسروشنة خمس مراحل شرقا ، ومن أسرُوشَنَة إلى فَرْغَانة مرحلتان ، ومدينة فرغانة التى ينزلها الملك يقال لها كاسان ، وهى مدينة جليلة القَدْر ، عظيمة الأمْر ، وكلٌّ هذه المدن مضافة إلى عمل سَمَرْقند . وكان أنو شروان بنَى فَرْغَانة ، ونقل إليها من كل بيت قوماً ، وسمَّاها أزهرخانه، أى من كل بيت .

[ ذكر غانة ]

وغانة : بلد من بلاد السودان ، وإليها ينتهى التجار ، والمدخل إليها من سِجِلْمَاسة ومن سِجِلْمَاسة إليها مسافة ثلاثة أشهر ، ومن غانة إلى سِجِلْمَاسة شهر ونصف ، ودون ذلك ، وسبب ذلك أن الرِّفاق تتجهّز إليها من سِجِلْمَاسة بالأمتاع والأثقال ، فتباع فى غانة بالتِّبر،فمن سافر إليها بثلاثين حِمْلاً يرجع منها بثلاثة أحمال ، أو بحملين: واحد لركوبه ، وثانٍ للماء بسبب المفازة التى فى طريقها ، حدَّثنى غيرُ واحدٍ من تجارها أنهم يقطعون المفازة فى ستة عشر يوماً ، لا يروْن فيها ماء إلاّ على ظهور الإبل ، فأثمان أحمال الثلاثين جملاً يجتمع فيها من التِّبْر ما يجعل فى مِزْوَد واحد ، فيطوون المراحل للخِفَّة . وغانة بلد مملكة السودان، وانتشر الإسلام فى أهلها ، وبها مدارس للعلم،وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتِّجارة فيصيبون الخِصْب والأمن وكثرة المتاجر ، فيشترون بها خدماللتَّسرِّى، ويقيمون بها عند أميرها فى غاية الكرامة ، والخدم فيها قد جعل الله فيهنّ من

الخصال الكريمة في خُلقهن وخَلْقهن فوق المراد، من ملاسة الأبدان، وتفتّق السواد، وحسن العينين، واعتدال الأنوف، وبياض الأسنان، وطيب الروائح.

[ مما ورد من الشعر في وصف السواد والبياض ]

وكان ابن الرومي وصف واحدة منهن بقوله :

تذكّرك المسك والغوالي والنـدّ ذواتُ النّسيم والعبَقِ
ليست من العُبّس الأكف ولا السـفُاج الشفاه الخبائث العَرَقِ
أكسبها الحبّ أنها صُبِغَتْ صِبْغة حَبِّ القلوب والحدَقِ
يفـترّ ذاك السّواد عن يقَقٍ من ثغرها كاللآلىء النّسَقِ
كأنّها والمزاح يضحكها ليلُ تعرّى دُجاه عن فَلَقِ
لها حِرٍ يستعيرُ وقدتَه من قلبِ صبٍّ وصدر ذي حَنَقِ
يزداد ضيقاً على المراسِ كما تزداد ضيقا أنشوطةُ الوَهَقِ
غصن من الآبنوس ركّب في مؤزّر معجب ومنتطِقِ

وقال الشّريف الرضيّ :

أحبُّك يالونَ السّوادِ فإنّني رأيتُك في العينين والقلب توْأما[1]
وما كان سهمُ العين لولا سَوادُها ليبلغ حبّاتِ القُلوب إذا رَمَى
إذا كنت تهوى الظبي ألمَى فلا تلمْ جنوني على الظّبي الذي كلّه لمَىَ

وقال ابن مسلمة :

يكونُ الخالُ في خدٍّ قبيحٍ فيكسوه الملاحَـةَ والجَمَالاَ

(١) ديوانه ٧٥٥ .

فكيف يُلامُ مشغوفٌ على مَنْ *** يَرَاها كلُّها في العَيْنِ خالاَ!

وله أيضاً:

لام العواذلُ في سوداء فاحمةٍ *** كأنَّها في سواد القلب تمثالُ
وهام بالخال أقوامٌ وما علمُوا *** أنِّي أهيمُ بشخصٍ كلُّه خالُ

ولابن رباح:

وسوداء الأديم إذا تبدَّت *** يرى ماء النعيم جرى عليه
رآها ناظري نصبًا إليها *** وشِبْهُ الشيء مُنجَذِبٌ إليه

ولابن رشيق:

دعا بك الحسن فاستجيبي *** باسمك في صبغةٍ وطيبِ (١)
تيهي على البيض واستطيلي *** تِيْهَ شبابٍ على مَشيبِ
ولا يرعْك اسودادُ لونٍ *** كمُقْلَة الشَّادن الرَّبيبِ
فإنَّما النُّور عن سوادٍ *** في أعين الناس والقُلُوبِ

قال ابن رشيق: أخذته من قول الآخر، أنشده الجاحظ:

مشبهاتُ الشَّباب والمسك تفديـ *** ـن نفسي من الرَّدَى والخطوبِ
كيف يهوي الفتى اللبيب وصال الـ *** ـبيض، والبيضُ مشبهات المشيبِ

وأخذ بيته الآخر من قول الآخر، أنشده الجاحظ:

وإنّ سواد العين في العين نورُها *** وما لبياضِ العينِ نُورٌ فيُعْلَمُ

فأخذه أيضاً أبو الطيب، فقال في كافور وأحسن:

---

(١) الغيث المنسجم ٢: ١٦١، معاهد التنصيص ٢: ٢٣، ديوان الصبابة (على هامش تزيين الأسواق) ٦٨.

فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانه ... وخلّتْ بياضاً خلفها ومآقيا[1]

ولابن الجهم :

وعائب للسُّمْرِ من جهله ... مفضِّل للبيض ذى محك[2]

قولوا له عنّى : أما تستحى ... من يجعل الكافور كالمسك !

والسابق لهذا المعنى أبو حفص الشطرنجىّ ، والناس تبعٌ له حيث قال :

أشبهكِ المسكُ وأشبهته ... قائمة فى لونه قاعدة

لا شكّ إذ لونكما واحدٌ ... أنّكما من طينة واحده

على أنّ العباس[3] بن الأحنف معاصره ، قال :

أحِبّ النساء السُّود من أجل تكتم ... ومن أجلها أحببتُ ما كان أسودا

فجئنى بمثل المسك أطيبَ نكهةً ... وجئنى بمثل اللّيل أطيبَ مرقدا

أخذ بيته الأول من قول ابن الأعرابىّ :

أحبُّ لحبّها السّودان حتّى ... أحبّ لحبّها سودَ الكلابِ

وقال ابن الرومىّ فى تفضيل السّواد على البياض :

وبعضُ ما فُضّل السّواد به ... والحقّ ذو سُلّم وذو نَفَق

ألا يَعيب السوادَ حُلكتُه ... وقد يُعاب البياض بالبَهَق

وهذه الأقوال كلها على استحسانها اعتذارات واقتدارات من الشعراء على تحسين القبيح ، والأمر المجمع عليه تفضيلُ البياض .

(١) ديوانه ٤ : ٢٨٧

(٢) ديوانه ١٦٢ ( عن الشريشى )

(٣) كذا فى ب ، وفى ط ، ا : « على بن العباس » ، تصحيف ، ولم أجد الأبيات فى ديوان عباس بن الأحنف .

قال الجاحظ : العرب تمدح بالبياض ، وتهجو بالسّواد ، وربما مدحوا بالسّواد ، ولكن أصل ماينون عليه أمرهم ذمّه ، وأنشد :

لهمْ ديباجةٌ عُرِفت قديماً     بياضٌ فى الوجوه وفى الجُلودِ

وأحسن كشاجم فيما قصد إليه بقوله :

يامشبِهاً فى فعلِه لونَه     لم تعدُ ما أوجبت القسْمَهْ[1]
خُلْقُك من خَلْقِك مستخرَجٌ     والظلم مشتقٌّ من الظلْمَهْ[2]

قوله : «جبت مابين فرغانة وغانة» ، ماهاهنا بمعنى الذى ، كأنه قال: جبت الذى بين فرغانة التى هى أقصى المشرق ، وغانة التى هى أقْصَى المغرب من البلاد والقفار والبحار لكسب المال ، فماهى التى أوجبت لِماَ بين البلدتين ما ذكر أن يعمّ بالمشى ، ولوسقطت لم يلزم العموم ، وكأنه يشير بهذا التعبير إلى قول حبيب :

سَلِى هل عمرت القَفْرَ وهو سَبَاسِبٌ     وغادرت رَبْعِىمن ركابى سَبَاسِبَا[3]
وغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ     وشرقت حتى قد نسيت المَغَارِبَا

قوله : « أخوض الغمار » ، أى أدخل المياه الغزيرة فأجوزها . أقتحم الأخطار ، أى أترامى فى المخاوف . والخطَر : الغرَر . والأوطار : الحاجات . وقال أبو عمر القسْطلِّىّ[4] فيما يتعلق بهذا :

تخوّفنِى طولَ السّفار وإنّنى     لتقبيلِ كفّ العامرىّ سَفِيرُ
دعينِى أرِدْ مَاءَ المفاوِز آجناً     إلى حيث ماء المكرمات نَمِيرُ

(١) ديوانه ١٧ ، وفيه : « فى لونه فعله » .
(٢) فى الديوان : « ظلمك من خلقك » .
(٣) ديوانه ١٧ ، والسباسب : القفار الفسيحة .
(٤) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاص بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دار ، المعروف بابن دراج القسطلى ، فى ط : « أبو عمرو » ، خطأ يذكر فى بعض تراجمه ؛ وقد نبه إليه الدكتور محمود مكى فى حواشيه على ديوان ابن دراج ص ٢١ ، والأبيات فى ديوانه ٢٩٨ .

ألم تعلمى أنّ الثواء هو التّوَى وأن بيوتَ العاجزين قبورُ
وأن خطيرات المهالك ضُمّنٌ لراكبها أنّ الجزاء خطيرُ

وقال النابغة الجعدىّ :

إذا المرء لم يطلبْ معاشاً لنفسهِ
شكا الفقر او لام الصّديقَ فأكثَرَا[1]
فسِرْ فى بلاد الله والتمسِ الغِنَى تَعِشْ ذا يسار أو تموت فتُعْذَرَا

وقال ابن سارة :

سافِرْ فإنّ الفتى من بات مفتتحاً قُفْلَ النجاح بمفتاحٍ من السَّفَرِ
إن شئت خضرتها يا ابن الرخاء فكنْ
فى طىّ عمر الفيَافِى نائِىَ الحضَرِ
ولا يصدَّنْكَ عن أمرٍ تصعّبُه قدينبع الكوثر السلسال من حَجَرِ
لابدّ أن يقع المطلوب فى شَرَكٍ ولو بنى وكْرَهُ فى دارةِ القَمَرِ

[ باب فى الحضّ على السفر وترك العجز ]

ومما ينتظم فى باب الحضّ على السفر وترك العجز قولهم : لا ينبغى للعاقل أن يكون إلا فى إحدى المنْزلتين ، إما فى الغاية من طلب الدنيا ، وإما فى الغاية من ترْكها ، ولا ينبغى للعاقل أن يُرى إلاّ فى أحدمكانين، إما معالملوك مكرّماً ، وإما مع العباد متبتّلاً ، ولا يعدّ الغرم غرماإلا إذا ساق غُنْماً،ولا الغْنم غنما إلاّ إذا ساقغُرْماً ؛ ونظم هذا المعرىّ فقال :

(١) ديوانه ٧٣

ذرِ الدّنيا إذا لم تحظَ فيها      وكُنْ فيها كثيراً أو قليلاً[1]
وأصْبح واحدَ الرّجلين إمّا      مليكاً فى العشائرِ أو أبِيلاً

الأبيل : الراهب .

وفى كتاب الهند : من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .

وفى التوراة : ابنَ آدم، خُلقتَ من الحركة إلى الحركة ، فتحرك وأنا معك .

وفى بعض الكتب : امدد يدك إلى بابٍ من العمل ؛ أفتح لك باباً من الرزق .

وقالوا : مَنْ ضعُفَ عن عمله اتّكل على رزق غيره .

وقال علىّ رضى الله عنه : الحرص مقدمة السكون .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس : ما المروءة فيكم ؟ قالوا : العفّة والحِرفة .

ورئى عكرِمة وراء نهر بَلْخ ، فقيل له : ما جاء بك هاهنا ؟ فقال : بناتى.

وقال رجل لمعروف الكرخىّ : ياأبا محفوظ أتحرّك لطلب الرزق أم أجلس ؟ قال : لا بل تحرّك ، فإنه أصلحُ لك ، فقال : أتقول هذا ؟ قال : وما أنا قلته ولكن الله عز وجل أمر به ، قال لمريم عليها السلام : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾[2] ولو شاء لأنزله عليها .

وأنشد الثعالبىّ :

ألم تَرَ أنّ اللهَ أوحى لمريمٍ      وهزّى إليك الجِذعَ يسّاقطِ الرُّطَبْ

(١) سقط الزند ١٣٧١ .

(٢) سورة مريم ٢٥

ولو شاء أن تجنيه من غير هزّها　　جنته، ولكن كلّ شيء له سببْ

وقال موسى بن عمران عليه السلام: لاتلوموا السفر، فإنى أدركت فيه مالم يدركه أحد؛ يريد أن الله كلّمه فيه.

ونظم هذا المعنى حبيب فقال:

فإن موسى صلّى على روحه الله صلاةً كثيرة القدُس[1]

صار نبيًّا وعُظْمُ بُغيتِه　　فى جذوة للصَّلاء والقبَسِ[2]

قال المأمون: لاشيء ألذّ من السفر فى كفاية؛ لأنك تحلّ كل يوم فى محلّة لم تحلّها، وتعاشر قوماً لم تعاشرهم.

الثعالبيّ: من فضائل السفر أن صاحبه يرى من عجائب الأمصار، وبدائع الأقطار، ومحاسن الآثار، مايزيده علماً بقدرة الله، ويدعوه إلى شكر نعمته.

وفى الأثر الصحيح: سافروا تصحّوا وتغنموا.

آخر: السفر يشدّ الأبدان، وينشّط الكسلان، ويشهّى إلى الطعام.

آخر: ليس بينك وبين بلد نسب، فخير البلاد ما حملك.

قال ابن رشيق: كتبتُ إلى بعض إخوانى: مثل الرجل القاعد - أعزّك الله - كمثل الماء الراكد، إن تُرك تغيّر، وإن تحرّك تكدّر، ومثل المسافر كالسحاب الماطر، هؤلاء يدْعونه رحمة، وهؤلاء يدْعونه نقمة، فإذا اتصلت أيامه، ثقل مقامه، وكثر لوّامه، فاجمع لنفسك فرجة الغيبة، وفرحة الأوبة، والسلام.

وقال ابن رشيق:

غِبْ عن بلادِك وارْجُ حسن مغبَّةٍ　　إن كُنتَ حقًا تشتكى الإقلالا[3]

---

(١) ديوانه ١٧٠. والقدس: الطهارة

(٢) البنية: المطلب. الجذوة: الجمرة، والصلاء، التدفؤ.

(٣) نقله فى النتف ٥٩

فالبدرُ لم يُجْحِفْ به إدبارُه ... ألّا يسافر يطلب الإقبالا

وقال أبو الطيّب :

وما بلد الإنسان غير الموافِق ... ولا أهله الأدنَوْن غير الأصادقِ(١)

وقال البحتريّ :

وإذا ما تنكّرت لى بلادٌ ... أو صديق فإننى بالخيارِ(٢)

وقال أبو الطيّب :

إذا لم أجِدْ فى بلدةٍ ما أريده ... فعندى لأخرى عَزْمَةٌ ورِكَابُ

وقال إبراهيم بن العبّاس الصولّى:

لا يمنعنَّك خفضَ العيشِ فى دَعَةٍ ... نزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطَانِ(٣)

تلقَى بكلّ بلاد إن حللتَ بها ... أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرَانِ

أى لا يمنعنَّك الشوقُ إلى الوطن فى الغربة من الاستمتاع بلذة العيش ، فالأرض واحدة ، والناس جنس واحد . وفى غير الحماسة :

لا يمنعنَّك خفضُ العيشِ فى دعةٍ ... من أن تبدّل أوطاناً بأوْطَانِ

برفع «خفض» ، أى لا يمنعنك عيشك الهنىء فى بلدك أن تجول فى البلدان ، وترى الناسَ ، فتستفيد النزهة والتجربة .

وقالوا : المسافر يسمع العجائب ، ويكشف التجارب ، ويجلب المكاسب . أوحِشْ أهلك إذا كان أنسُك فى إيحاشهم ، واهجر وطنك إذا نبتْ نفسك عنه .

قيل لأعشى بكر : إلى كم ذا الاغتراب ؟ أما ترضى بالدّعة ! قال : لو دامت الشمس عليكم يومين لملتموها .

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٢٠ .

(٢) ديوانه ٩٨٧

(٣) ديوانه ١٥١ ، ديوان المعانى ١ : ١٩٢ .

أخذه حبيب فقال :

وطولُ مُقام المرء فى الحىِّ مُخْلِقٌ لديباجتيْه فاغترِبْ تتجدَّدِ (١)
فإنّى رأيتُ الشَّمسَ زِيدَتْ محبَّةً إلى النَّاس أن ليستْ عليهم بسَرْمَدِ

وقال الحكماء : لا تُنال الراحة إلا بالتعب ، ولا تدرَك الدّعة إلا بالنَّصَب .

وقال حبيب :

على أننى لم أحوِ وَفْرا مجمَّعاً ففزت بِهِ إلاَّ بشملٍ مبدّدِ (٢)
ولَمْ تُعطِنِي الأيّام يوماً مسكَّناً ألذّ به إلا بنومٍ مُشرّدِ

وقال ابن عبد ربه : هل يجوز فى عقل ، أو يمثُل فى وهم ، أو يصحّ فى قياس ، أن يُحصَد زرعٌ بغير بَذْر ، أو يثمِّر مالٌ بغير طلبٍ ، أو تُجْنَى ثمرة بغير غَرْسٍ ، أو يُورَى زندٌ بغير قَدْح ! وقد يكون الإكداء مع الكدّ ، والخيبة مع الغيبة .

وقال الشاعر :

ومازلت أقطعُ عَرْضَ البلادِ من المشرقيْن إلى المغربين
وأدّرع الخوفَ تحت الدُّجَى وأستصحب الجَدْىَ والفرقدَيْن
وأطوِى وأنشرُ ثوبَ الهمومِ إلى أن رجعتُ بخُفَّىْ حُنَيْن

وقال ابن رشيق :

يُعطَى الفتَى فينالُ فى دَعَةٍ مالم ينل بالكدِّ والتَّعَبِ (٣)
فاطلُبْ لنفسك فَضْلَ رَاحتِهَا إذْ ليست الأشياء بالطَّلَبِ
إن كان لا رزقٌ بلا سببٍ فرجاء ربِّك أعظمُ السَّبَبِ

وقال محمد بن يسير :

---

(١) ديوانه ١٠٠ ، ١٠١
(٢) ديوانه ١٠٠ ، وفيه : «ولكننى لم أحو » .
(٣) نقله فى التنف ١١

قد يُرزَق الخافضُ المقيمُ وما شدَّ لِعنْسٍ رَحْلاً ولا قَتَبَا (١)
ويحرَم المـــال ذو المطية والرَّ حل ومَنْ لايزال مُغترِبَا

وقال آخر :

قد يُرزَق المرء لم تتعب رواحلُه ويحرَم الرِّزقَ بالأسفار والتَّعَبِ
إنّى وعمرك ما أحصى ذَوِى حمقٍ الرزقأعْدَى بهم من لاصقِ الجَرَبِ

ولآخر :

ألا ربّ باغى حاجةٍ لاينالُها وآخر قد تُقْضَى له وهو جَالسُ

آخر :

قد يُرْزق المرء،لامن حُسنِ حيلته ويُصرف الرزق عن ذى الحيلة الدَّاهى
مامسَّنى من غنَى يوْمٍ ولا عدَمٌ إلا وقولى فيـــه : الحمـــدُ للهِ

آخر :

لوكان باللبّ يزداد اللبيب غنًى لـكان كلّ لبيب مثل كافُورِ
لـكنّه الرّزق بالقسطاس من حِكَمٍ يُقْصى اللبيبُ،ويعطى كلّ ماخُورِ

ومثل هذا قليل فى كثير وإنما يحكم بالأغلب ، والنُّجْح مع الطلب أكثر، والحرمان للعاجز أصحب ، وشرح حبيب هذا المعنى فقال :

همّ الفتى فى الأرض أغصانُ المنى غُرِسَتْ وليست كلّ حينٍ تُورِقِ

أوصى بعضُ الحـكماء ابنَه وأراد سفرا ، فقال : إنّك تدخل بلداً لاتعرفه، ولا يعرفك أهله ،فتمسَّكْ بوصيّتى تنفُق بها ؛ عليك بحسن الشمائل؛ فإنها تدلّ على الحرّية ، ونقاء الأطراف فإنها تشهد بالملوكية ، ونظافة البِزَّة فإنها تشهد بالنشء فى النعمة ، وطيب الرائحة فإنها تظهر المروءة ، والأدب الجميل فإنه يُكسب المحبّة ، وليـكن عقلُك دون دينِك ، وقولُك دون فعلِك ، ولباسُك دون قدرِك ، والزم

(١) الأغانى ٥ : ٢١ ، من أبيات نسبها إلى بن عبدل الأسدى

الحياء والأنفة فإنك إن استحييت من الفظاظة اجتنبت الخساسة ، وان أنفتَ من الغلَبة لم يتقدّمك نظير فى مرتبة .

قوله : «لقِفت» ، أخذت ، واللّقَف:أخذما يرمى إليك بيدك. ثقِفت: قيدت، ويُمدح الرجل الحازم به فيقال: فلان ثقفٌ لَقِف. والأريب : العاقل، وقد أرُب أرابة وأرَبًا ، صار أريباً ، والأريب من أربت العُقْدة أرَبا ، شددْتها . يستميل: يستنزل ويدعوه أن يميل إليه . يستخلص مراضيه ، أى يحوزها لنفسه . ومراضيه: مايُرْضى القاضى ويوافقه ، وهو جمع مَرْضاة ، ويقال :صلة الرحم مَرْضاة للربّ ، أى يرضيه برّها ،يقول:العاقل إذا دخل بلدة استعطف قاضيَها لنفسه، بحسن خاتمه حتى يخفّ عليه أمره . ليشتدّ : ليتقوّى . جَوْر : ظُلم ، إماماً : قُدْوة ، زماماً: حبلاً أقودها به . ولجت : دخلت . عرينة : بلدة ، وأصلها بيت الأسد . الراح : اسم الخمر ، وأبهم على ابن الرومىّ ممّ اشتُقّ اسمها حين قال :

واللهِ ما أدرى لأيّةِ عِلّةٍ يدعونها فى الرّاح باسم الرّاحِ
ألريحها أم رُوحها تحت الحشا أم لارتياح نديمها المرتاحِ !

وانظر الامتزاج الذى ذكر فى الخامسة والأربعين .

عنايته : اعتناؤه به واهتمامه .

* * *

فبينما أنا عِندَ حاكِمِ الإسكَنْدرِيَّةِ ، فى عَشِيَّةٍ عَرِيَّةٍ ، وَقَدْ أَحْضَرَ مَالَ الصَّدَقاتِ ، لِيَفُضَّهُ عَلَى ذَوِى الْفاقَاتِ ، إِذْ حَلَّ شَخْصٌ عِفْرِيَةٌ ، تَعْتَلُهُ امرأةٌ مُصْبِيَةٌ ، فقالَتْ : أيَّد اللهُ القاضى ، وأَدَامَ بِهِ التَّرَاضى ، إِنّى امرأةٌ من أَكْرَمِ جُرْثومةٍ ، وأطهرِ أَرُومةٍ ،

وأشرفِ خُئولةٍ وعمومةٍ ، ميَسَمِي الصَّوْن، وَشِيَمَتِي الهَـون ، وَخُلُقِى نِعمَ المَوْن ، وبينى وبين جاراتى بَوْن ، وَكَانَ أَبِى إذا خَطَبَنى بُنَـاة المجـدِ ، وَأَرْبابُ الْجِـدِّ ، سَكَّتَهمْ وَبَكَّتَهمْ، وَعَافَ وُصْلَتَهُمْ وَصِلَتَهُمْ ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّه عَاهَدَ اللّهَ بِحِلْفَةٍ ، أَلاَّ يُصَاهِرَ غَيْرَ ذِى حِرْفَةٍ .

* * *

## [ ذكر الإسكندرية ]

مدينة عظيمة من بلاد مصر ، بناها الإسكندر ذو القرنين ، وهو الذى مشى مشارق الأرض ومغاربها . قال السدّىّ : لما سأل أهلُ الكتاب النبىَّ صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، قال : سأخبركم كما تجدونه مكتوباً عندكم : إنَّ أول أمره أنه غلام من الروم ، أُعْطِىَ مُلْـكاً ، فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر ، فابتنى عندها مدينة يقال لها الإسكندرية .

وقال الهمذانىّ : ذو القرنين ينسب إليه التاريخ قبل الإسلام ، ومؤدّبه أرسطاطاليس الحكيم ، وكان مُلْكه الذى بلغ فيه أقصى المشرق والمغرب خمسة عشر عاما ، والإسكندرية لما بناها رخّمها بالرخام الأبيض جدُرها وأرضها ، فكان لباسهم فيها السواد من نصوع بياض الرخام ، وإذا كانت ليلة مقمرة يُدْخِل الخياط الخيط فى خَرْق الإبرة من بياض رخامها .

وقيل : إنها مكثت سبعين عامًا لا يدخلها أحد إلا وعلى بصره خرقة سوداء من بياض جِصّها ورُخامها ، ولم يحتج لها فى تلك المدة إلى سراج بالليل من ضيائها . وقيل : كانت ثلاث مدن يحيط بجميعها سور .

قال ابنُ جبير: ماشهدنا[1] بلداً أوسعَ مسالك، ولا أعلى بناء، ولا أعتق ولا أحفل من الإسكندرية، وأسواقها فى نهاية الاحتفال ومن أعجب مافى وضعها أن بناءها تحت الأرض كبنائها فوقها وأعتق، لأنّ الماء إذا جاء من النيل يخترق جميع آبارها وأزقّتها تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض، ويمدّ بعضها بعضاً، وعاينّا فيها من سوارى الرّخام وألواحه كبراً وعلوًّا واتساقاً وحسنا مالا يُتخيَّل إلا بالوهم؛ حتى إنك تلقى بعض سواريها يغصّ بها الجوّ صعوداً لا يدرى معناها. ولا لأىّ شىء وضعت إلاما يتحدّث به أنه كان عليها من قديم الزمان مبانٍ للفلاسفة وأهل الرّياسة ومن أعظم عجائبها المنار، آية للمتوسّمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى برّ الاسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلاً، ومبناه فى فى نهاية العتَاقة والوثاقة طولاً وعرضاً، يزاحم الجوّ سموًّا وارتفاعا ينحصر عنه الوصف، وينحسر دونَه الطَّرف، الخبر عنه يضيق، والمشاهدة له تتسع، ذرعْنا أحَدَ جوانبه الأربع، فألفينا فيه نَيِّفاً وخمسين باعا، ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة

وأما داخله فمرأى هائل، اتساعَ معارج، ومداخل[2] وكثرة مساكن. حتى إن الوالج فى مسالكه ربّما ضلّ وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة، يتبرّك الناس بالصلاة فيه، طلعنا إليه، وشهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف، والله تعالى لا يخليه من عزة الإسلام.

* * *

قوله «عشية عريّة»، أى باردة. يفضّه: يفرّقه. ذوى الفاقات: أهل الفقر والحاجات. عِفْرِية: يقال رجل عِفْرِية وعِفْر وعِفِرّى، إذا كان صحيحا شديداً موثّق

(١) رحلة ابن جبير ٩، ١٠ بتصرف.

(٢) ط: «دواخل»، وما أثبته من ا، ب وابن جبير.

الخلْق ، أخِذمن عَفَرالأرْض : وهو التراب،أىمن عَلِق به عفره بالأرض ومنه ليث عِفِرّين ، أى ليث ليوث ، مُعَفِّر لفريسته.قال الخليل : رجل عِفْرٌ بيّن العفارة، إذا وصِف بالشيطنة ،والعِفِّير أيضاً : الظَّريف الكيِّس ،ويقال للشيطان :عِفْرِيت وعِفْرِية ، وهم عَفارية . وقرئ : ﴿قال عِفْرِيَةٌ مِنَ الجِنّ﴾[1] ، وفى الحديث:«إن الله ليَبْغَض العفريت النِّفْريت » ، قيل هو الجَمُوع المَنُوع .

وقال أبو عثمان النّهدىّ : دخل رجل عظيم الجسم على النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال له : متى عهدُك بالحُمَّى . قال : ما أعرفها ، قال : فبالصُّداع ؟ قال : ما أدرى ماهو ! قال : أفأصِبت بمالك ؟قال : لا، قال : أفرُزِئت بولدك؟ قال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يُبغض العفريت النِّفرِيت» ، وهو الذى لا يرزأ فى بدنه ولا يصاب فى ماله .

وقوله : «تعتله »، أى تسوقه بعنف ، وكذلك تدُعّه . مُصبية : لهاصبىّ . جرثومة : أصل ، وكذلك أرومة . ميسمى : علامتى . الصَّون : الصيانة والانقباض. شيمتى : طبيعتى . الهوْن : الرفق . بون : بُعْد . بناة : جمع بانٍ ، والمجد : الشرف الضخم ، وأصله من الإبل المواجد ، وهى التى امتلأت بطونُها من الرّعى وعظمت . وأمجدَها راعيها ، إذا رعاها بحيث تَمجُد ،ومجدُت وهى تَمجُد : رعت فامتلأت . وحكى الأصمعىّ قال : أتيت شُعبة يوما ؛ وعنده حماد بن سلمة ، وهما يتكلّمان فى حديث فقال شعبة : يا أبا سلمة، هذا الفتى الذى ذكرت لك ، فقال حماد :يابنىّ كيف تنشد بيت الحطيئة : « أولئك قوم . . » ؟ فابتدأت القصيدة من أوّلها :

ألا طرقَتْنا بعد ماهجعتْ هندُ     وقدسِرْنَ خَمساً واثلأبَّ بها الجِدّ[2]

(١) هى قراءة عيسى الثقفى ، وانظر تفسير القرطبى ١٣ : ٢٠٣ .
(٢) ديوانه ١٩ ، ٢٠

إلى أن بلغت قوله :

أولئك قومٌ إن بنوْا أحسنوا البِنَى وإن عاهدوا أوفَوْا وإن عَقَدُوا شدُّوا[١]

فقال لى حماد : يا بنىّ إن العرب تقول : بَنَى يبنى بناء فى العمران ، ويقولون فى الشرف : نبا يَنْبُو نَبْوًا ، فأنشِد هذا البيت « أحسنوا البِنَى » ، فعرفت قَدْر حمّاد من ذلك فما كنت أنشد إلا كما لقّننى .

قوله : «أرباب الجِدّ» . أى أصحاب السعد والمال . والعرب تقول : لفلان جَدٌّ فى الدّنيا ، أى حظ وبخت ، قال امرؤ القيس :

* وقاهمْ جَدُّهم ببنى أبيهم[١] *

وقال آخر :

عش بجَـدّ ولا يضرُّكَ نَوْكٌ إنما عيشُ مَنْ تَرَى بالجدودِ

وجدّ الرّجل : صار له جَدّ ، وأجدّه الله : جعل له جَدًّا ، وما كنتَ ذا جَدّ ، ولقد جَدِدْت تجِدّ ، ورجل جديد : حظيظ من الجَدّ والحظّ .

أبو عبيد قوله : « ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَد»[٢] ، أى ولا ينفع ذا الغنى منك غناه إنما تنفعه طاعته . يعقوب : أى من كان له حظ فى الدنيا لم ينفعه ذلك فى الآخرة .

بكّتهم : قطع كلامهم وأهانهم . عاف : كره . وصْلتهم : اتّصالهم به ، والوُصْلة : سبب التواصل ، وهى فى الآدميين مايصل واحداً بآخر من حُبّ وغيره ، والوَصْلة بالفتح : ما جعلته بين عود وعود ، أو حبل وحبل ، فوصلتهما به . صلتهم : عطيتهم . حِلفة : يمين . يصاهر : يخاتن . حِرْفة : صنعة ومكسب ، وهى فِعْلة من الُحرف وهو الحِرمان ، والمحارَف : المحروم ، كأنّ صاحبها منع الرزق ، فصار يعالج كسبه .

---

(١) ديوانه ١٣٨ و بقيته :

* و بالأشقَيْن مَا كانَ العِقَابُ *

(٢) اللسان ـ جدد ، وفى رواية : الجد ، بكسر الجيم ، أى الاجتهاد والعمل .

أبو هريرة رضي الله عنه ، قال صلى الله عليه وسلم : «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح» .

سهل بن سعد رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عمل الأبرار من الرجال الخياطة ، ومن النساء الغزْل »

* * *

فَقَيَّضَ القَدَرُ لِنَصَبِي وَوَصَبِي ، أَنْ حَضرَ هَذَا الْخُدَعَةُ نَادِيَ أَبِي ، فأَقْسَمَ بَيْنَ رَهْطِهِ ، أَنَّهُ وَفْقُ شَرْطِه ، وَادَّعَى أَنَّهُ طالمَا نَظَمَ دُرَّةً إلى دُرَّةٍ ، فَباعَهُمَا بِبَدْرَةٍ ؛ فاغترَّ أَبِي بزُخْرُفِ مُحالِهِ ؛ وَزوَّجَنيهِ قَبْلَ اختبَارِ حَالِهِ ، فلمَّا اسْتَخْرَجَنِي مِنْ كِنَاسِي ، وَرَحَّلَنِي عَنْ أُنَاسِي ، وَنقَلَنِي إلى كِسْرِه ، وَحَصَّلَنِي تَحْتَ أَسْرِهِ ، وَجَدتُهُ قُعَدَةً جُثَمَةً ، وَأَلْفَيْتُهُ ضُجَعَةً نُوَمَةً . وَكُنْتُ صَحِبْتُهُ بِرِيَاشٍ وَزِيٍّ ، وَأثَاثٍ وَرِيٍّ ، فَمَا بَرِحَ يَبِيعُهُ في سُوقِ الهَضْمِ ، وَيُتْلِفُ ثَمَنَهُ في الخَضْمِ وَالقَضْمِ ، إلى أَنْ مَزَّقَ حالِي بأسْرِه ، وَأَنفَقَ مَالِي في عُسْرِهِ .

° ° °

قوله : «قيّض» ، أي قدّر وساق . نَصَبِ : تعب . وَوَصبي : مرضي ، ونصِب الرجل نَصَباً .أعيا من التعب ، ووصِبَ وَصَباً :أتعبه المرض ، فهو نصِب ووصِب . الخُدَعة : الكثير الخداع لغيره ، وبسكون الدال الذى يخدعه غيره كثيراً ؛ التحريك للفاعل والسكون للمفعول فيما يأتى على « فُعَلة» من الصفات . نادى : مجلس . رهطه : قومه ، وهو اسم لجماعة من ثلاثة إلى عشرة ، ويجمع

أرهُط وأراهط . وفْق شرطه : أى موافق ما اشترط . نَظْمُ دُرَّة ، يريد أنه جوهرىّ ينظم سلوك اللؤلؤ . بَدْرة : عشرة آلاف درهم ، وأراد بالدُّرَّة هنا الكلمة ، ويعبّر بها عن الحكمة ،قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « لاتَدَعُوا الدُّرَّة فى أفواه الكلاب » ، يعنى العلم . اغترّ : انخدع ، وهو افتعل من الغرور .زخرف محاله : تزيين باطله ، وأصل زخرف ؛ زيّن الشىء بالزخرف وهو الذهب . كِناسى : بيتى وأصله للظّبى ، وهو من قوله تعالى:﴿ الجَوَارِ الكُنَّسِ ﴾(١) تشبيهاً لها بالظباء على ماذكره ابن قتيبة ؛ ويقال له : كُناس ومِكنس من الكنس ، كأنّ الظبية قد كنست مرقدها ووطّأته . رحّلنى : نقلنى وحَملنى على الرّحْل . كِسْره : بيته ، وأصله جانب بيت الشَّعر أو الخِباء ، لأنّ جانب الخِباء قد انكسر عن يمينه . أسْره:حبسه . قُعَدة : كثير القعود. جُثَمَة : كثير الجُثوم ، وهو ملازمة الموضع . ضُجَعَة : كثير الاضطجاع ، وهو الامتداد على الأرض للنوم . نُوَمة : كثير النوم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاثة لهم المقت من الله»، وذكر الذى يكثر النّوم بالنّهار ، ولم يأخذ من الليل شيئاً ، وفى حديث آخر : « خير أهل شر الزمان مُؤمن نُوَمة » . أبو عبيدة : هو الخامل الذّكر الذى لا يعرف الشرّ وأهله ، فتريد أنه عاجز قد لازَم بيتها ، فإن تصرّفتْ فيه اعتَرضها ممتداً،فلا تجد معه راحة. رياش:ثياب ،« فعال»من الرّيش،لأنها تكسو البدنَ كما يكسو الرِّيش الطائر . زِىّ : هيئة حسنة من اللباس . أثاث : متاع . رِىّ : حالة حسنة،وأصله الهمز ، فسُهّل وأُدْغم ليوافق « زِيًّا» .قال ابنُ الأنبارىّ: الأثاث : المتاع .والرّؤى والرُّؤاء : المنظر ، وما له رؤاء أى ماله منظر ولا لسان. والَحرْفان ، من رأيتُ أرى . ما برح : ما زال . الهَضْم : النّقصان .الخَضْم : الأكل بالفم كله . والقضْم : الأكل بأطراف الأسنان . مَزّق : قطع وأفسد . حالى: غناى،وروى«مالى» مكان«حالى» ، وما فيه بمعنى الّذى كأنه قال : فرّق

(١) سورة التكوير ١٦

الذى لى ، ورواية ابن ظفر «بالى» بالباء ، وقال: البال : الخاطر ، وما لهذا الشيء بالٌ ، إذا حَقَّرتَه ، والبال كالخلَد ، تقول خَطَرَ ببالى ، كما تقول : خطَر بخلدى ونفسى ، وكأنّ هذا هو الأصل. والبال : الحال أيضاً ، ومنه قوله :

* وخالَف بالَ أهلِ الدّار بالِى *

عسره ، أى فقره .

* * *

فلمّا أنْسَانِى طَعْمَ الرَّاحَةِ ، وَغَادَرَ بَيْتِى أَنقَى مِنَ الرَّاحَةِ ، قُلتُ له : يا هَذَا ، إنّهُ لاَ مَخبأَ بعْدَ بُؤسٍ ، وَلاَ عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ ، فانهَضْ لِلاكْتِسَابِ بِصِنَاعَتِكَ ، وَأَجْنِنِى ثَمَرَةَ بَرَاعَتِكَ ؛ فَزَعَمَ أَنَّ صِنَاعَتَهُ قدْ رُمِيَتْ بِالْكَسَادِ ، لِمَا ظَهَرَ فى الأرْضِ مِنَ الفَسَادِ ، وَلِى مِنهُ سُلالَةٌ ، كَأنَّهُ خِلالَة ، وَكِلانَا مَا ينَالُ مَعَهُ شَبْعَةً ، وَلاَ تَرْقَأُ لهُ مِنَ الطَّوَى دَمْعَةٌ ، وَقدْ قُدْتُهُ إِلَيْكَ ، وَأحْضَرْتُهُ لَدَيْكَ ، لِتَعْجُمَ عُودَ دَعْوَاهُ ، وَتحْكُمَ بَيْنَنَا بِمَا أرَاكَ اللهُ .

فأقبَلَ القَاضى علَيْهِ ، وَقَالَ له : قَدْ وَعَيْتُ قَصَصَ عِرْسِكَ ، فبَرْهِنِ الآنَ عَنْ نفسِكَ ، وَإلاَّ كشَفْتُ عَنْ لَبْسِكَ ، وَأَمَرْتُ بِحَبْسِكَ ؛ فأَطْرَقَ إطْرَاقَ الأفعُوَانِ ، ثُمَّ شمَّرَ لِلحَرْبِ العَوَانِ ، وقال :

• • •

الراحة : القرار والعيش الهنىء ، وأراد بأنقى من الراحة خلوّ الكف من الشعر . مخبأ : ستر . بؤس : شدّة وفقر . عطر : طيب .

[ أصل المثل : لا عطر بعد عروس ]

ولا عِطْرَ بعد عَرُوس ، مثل يضرب لتأخير الشيء عن وقت الحاجة إليه ، وأصلُه أن رجلاً تزوّجَ امرأة فوجدها تَفِلَةً[١] ، فقال لها : أين عِطْرُكِ ؟ قالت : خبأته لغير هذا الوقت ، فقال لها : لا مخبأ لعطر بعد عروس ؛ وبهذا اللفظ روى أبو زيد الأنصاريّ المثل[٢] .

البكريّ : عَرُوس رجل كانت عنده ابنة عمّ له ، فمات عنها ، فتزوّجها بعده ابن عمّ لها آخَر ، وهى كارهة ، وانطلق بها إلى أهلِه وقد زوّدها طِيباً فى سَفَط ، فمرّ بها بقبر عروس ، فأقبلت تبكيه وترفع صوتها ، وتقول : ياعَرُوسَ الأعراس ، وياشديد الباس ؛ مع أشياء لا يعلمها النّاس . فانتهرها زوجُها ، وقال : ماتلك الأشياء ؟ فقالت : كان عن المكارم غير نَعَّاس ، يُعمِل السيف صبيحة الباس . ثم قالت : يا عروس الأعراس الأزهر ، الكريم المحضر ، مع أشياء كانت تذكر ؛ فازداد زوجُها غضباً ، وقال : ما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان عيوفاً للخنا والمنكر ، طيب النكهة غير أبخر ، ثم أخذت السَّفَط وكسرته على قبر عَروس ، ثم قالت : لا عطر بعد عروس ، فذهب مثلاً . فقال زوجها : ارجعى إلى أهلِك ، أنت طالق ، فقالت : إذًا أنصرف مغتبطة[٣] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن عروساً هذا رجل من هُذيل ، وامرأته هُذليّة اسمها أسماء .

قوله : «براعتك» ، أى جودة تدبيرك . سلالة : ولد صغير كما سُلّ من بطن

(١) تفل الشىء : تغيرت رائحته ، وامرأة تفلة ومتفال .
(٢) اللسان ــ عرس ، جمهرة الأمثال ٢ : ٣٩٥ ، الفاخر ٢١١ .
(٣) فصل المقال ٣٣٨

أمه ؛ ولهذا سُمّى ولد الناقة عند النّتاج قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى : سليل ، ثم اتسعوا فى السُّلالة فقالوا : فلان كريم السّلالة . والخلالة : عود تُنقّى به الأضراس من الطعام ، شبّهت ولدها به فى رقّته . ترقأ : تنقطع . الطّوى : الجوع ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «كفى بالمرء إثما أن يضيّع من يقوت» . تعجُم: تختبر . دَعْواه : ما ادّعاه من الصّنعة ، وعجمت العود : عضضته بأسنانك لتعلم قوّته من ضعفه . وعيت : حَفِظت . قِصَص عرسك : حديث زوجك . بَرهِنْ : أَظهِر حُجّتك ، والبُرهان : الحجّة . لَبْسك . تخليطك والتباس أمرك . أطرق : أمال رأسه إلى الأرض ساكتاً . الأُفْعُوان : ذَكَر الأفاعى ، وهذا منقول من قول المتلمّس :

فأطْرَقَ إطراق الشّجاع ولو رأى مساغًا لنابيْه الشّجاعُ لصَمَّا[1]

ووقع لنا فى رواية « لناباه »[2] ، وهى لغة . شمّر : احتزم . العوَان : التى قُوتل فيها مرة بعد أخرى ، وهى أشدّ ، والمرأة العَوان : التى علت فى السنّ ولم تهرم . والعَوان : الثيّب، كانت ذات زوج أو لم تكن ، وعوّنت المرأة تعويناً ، والجمع عُون .

* * *

اسْمَعْ حَدِيثِى فإنَّهُ عَجَبُ يُضْحِكُ مِنْ شَرْحِهِ وَيُنْتَحَبُ

أَنا امْرؤٌ لَيْسَ فى خَصَائصِهِ عَيْبٌ وَلا فى فَخَارِهِ رِيَبُ

سَرُوجُ دَارِى الّتِى وُلِدْتُ بِهَا وَالأَصْلُ غَسَّانُ حِينَ أَنْتَسِبُ

وَشُغْلِىَ الدَّرْسُ ، وَالتَّبحُّرُ فى الـعِلْمِ طِلاَبِى ، وَحَبَّذَا الطَّلَبُ

وَرَأْسُ مَالِى سِحْرُ الْكَلاَمِ الّذِى مِنْهُ يُصَاغُ القَرِيضُ وَالْخُطَبُ

---

(١) من الأصمعية ٩٢ ص ٢٥٦ ، الشجاع : الحية الذكر ، ومساغ ، مفعل من ساغ يسوغ ، وأصل معناه سهولة مدخل الشراب فى الحلق .

(٢) يجعلونه شاهدا على إلزام المثنى الألف فى إعرابه .

أَغُوصُ فى لُجَّةِ الْبَيَانِ فأخْـتارُ اللَّآلِى مِنْهَا وَأَنْتَخِبُ
وَأَجْتَنِى الْيَانِعَ الْجَنِىَّ من الـقَوْلِ ، وَغَيْرِى لِلْعُودِ يَحْتَطِبُ
وَآخُذُ اللَّفظَ فِضَّةً فإذَا مَاصُغْتُهُ قِيلَ إنهُ ذهَبُ
وَكُنْتُ مِنْ قَبْلُ أَمْتَرِى نَشَباً بالأدَبِ المُنْتَقَى وأَحْتَلِبُ
وَيَمْتَطِى أَخْمَصِى لِحُرْمَتِهِ مَرَاتِباً لَيْسَ فوقَهاَ رُتَب
وَطَالمَاَ زُفَّتِ الصِّلاتُ إلى رَبْعِي فلَمْ أَرْضَ كلَّ مَنْ يَهَبُ

* * *

قوله : « يُنتحب » ، أى يُبكى ، ونحب نحيباً : أعلن بالبكاء . خصائصه : فضائله ومايختصّ به من الأفعال المحمودة . رِيْب : شكوك . التبحّر : التوسّع . طِلابى : أى طلبى ، وإنما هو للعلم ، وذكر التبحّر واللآلى والغوْص وغير ذلك مجازاً ؛ وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما انتعل رجل قطّ ولا تخفّف ولا لبس ثوباً ليغدُوَ فى طلب علم يتعلمه إلاّ غفر الله له حيث يخطو عتبة بيته » .
رُوِى عن عائشة رضى الله عنها أنَّها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من انتعل ليتعلم خيراً غفر الله له قبل أن يخطو » .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الغُدُوّ والرّواح فى تعليم العلم خيرٌ عند الله من الجهاد فى سبيله » .

ابن مسعود رضى الله عنه ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ خرج بطلب بابا من العلم ليردَّ به ضلالا إلى هدى ، أو باطلا إلى حق ، كان كعبادة متعبد أربعين سنة » .

قوله : « يصاغ » ، أى يصنع . القريض : الشعر . أغوص : أغيب فى الماء إلى قعره . واللّجة : معظم الماء ، جعله للبيان مجازاً . اللآلى : جمع لؤلؤة أنتخب :

أختار . وقال المسيب بن علَس[1] فى وصف الغائص وانتخابه الدرة وتشبيه المرأة بها :

كَجُمَانة البحرىّ جاء بِهــــا غَوّاصُها من لُجّةِ البحرِ[2]
نصف النهار المـــاءُ غامرُه وشريـــكه بالغيب ما يدرِى
فأصاب مُنْيَتَه فجـاء بهـــا صدفيّـــةً كمضيئة الجَمْرِ
يُعْطَى بهـــا ثمنا فيمنعُها ويقول صاحبه : ألا تشرِى ![3]
وترى الصّرارى يسجدون لها ويضمُّهـــا بيديه للنحــــر

وقال عبد الرحمن بن حسان :

وهى بيضاء مثل جوهرة الغـــوّاصِ مُيِّزَتْ من جوهرٍ مكنون

وقال النابغة :

أو درّةٍ صدفيّةٍ غواصُها بَهِـجٌ متى يرها يُهِلّ ويسجد

قوله : « اليانع » أى الناعم . الجنِىّ : الطرىّ . أمترِى نشباً ، أى أستخرج مالاً ، ومريتُ ضرعَ الناقة : مسحته وحككته ليدِرّ اللبن . والنَّشب ، قيل : هو العقار ومالا ينقل ، وكأنَّ مالكه قد نشب إليه حيث لا ينتقل به ، كالذى ماله الماشية أو الذهب والفضة . المنتقَى : المختار ، ويروى « المقتنى » ، وهو المكتسب . ويقال : احتلب وحلَب حلَباً ، والحليب : اللبن ، وهو الحِلاب ، والحِلاب أيضا : الإناء يحلب فيه ، وأصله السَّيلان . وتحلَّب الضّرْع : سال ، وانحلبتْ عينه : سال دمعها . يمتطِى : يركب . أخمصى : باطن قدمى ، وهو ماضمُر منهـا وارتفع عن الأرض . لحرْمته : أى لرفعته وشرفه . مراتباً : منازلا : والمرتبة منزلة الشرف ، من الرتَب وهو

(١) ط : « على » تحريف .
(٢) الأبيات فى شعراء النصرانية ٣٥٦ ، وخزانة الأدب ١ : ٥٤٥ .
(٣) ألا تشرى ، أى ألا تبيع ، كما ذكره ابن الأنبارى فى الأضداد ٧٤

ما أشرف من الأرض . والرُّتَب : جمع رُتبة ، وهي بمعنى المرتبة ، وأصل الرُّتَب الدَّرَج تُقطع في الحجر ليُصعد بها إلى أعلى الجبل ، ومنه رتب كلامَه، إذا أتبع بعضه بعضا على نظام واعتدال . زُفَّت : حُمِلت ، من زَفَفت العروس إلى زوجها إذا أهديتَها له . الصِّلات : العطايا . رَبْعي : منزلي . لم أرض كلَّ مَن يَهَبُ ، أي لا أرضى أن أكون تحت مِنّة كل أحد .

* * *

فالْيَوْمَ مَنْ يَعْلَقُ الرَّجَاءُ بِهِ ... أكْسَدُ شَيءٍ في سوقِهِ الأَدَبُ

لا عِرْضُ أبْنَائِهِ يُصانُ وَلا ... يُرْقَبُ فيهِمْ إلٌّ وَلا نَسَبُ

كَأنَّهُمْ في عِراصِهِمْ جِيَفٌ ... يُبْعَدُ مِنْ نَتْنِها وَيُجْتَنَبُ

فَحَارَ لُبِّي لِمَا مُنِيتُ بِهِ ... مِنَ اللَّيالي وَصَرْفُها عَجَبُ

وَضاقَ ذَرْعي لِضِيقِ ذاتِ يدي ... وَسَاوَرَتني الهُمُومُ وَالكُرَبُ

وَقادَني دَهْرِي المُلِيمُ إلى ... سُلُوكِ مَا يَسْتَشِينُهُ الحَسَبُ

فبِعْتُ حَتى لم يَبْقَ لي سَبَدٌ ... وَلا بَتَاتٌ إلَيْهِ أنقَلِبُ

وادَّنْتُ حَتى أثقَلْتُ سَالِفَتي ... بِحَمْلِ دَيْنٍ مِنْ دونِهِ العَطَبُ

ثُمَّ طَوَيْتُ الحَشَى عَلَى سَغَبٍ ... خَمْسًا فلمَّا أمَضَّني السَّغَبُ

لَمْ أرَ إلاَّ جِهازَهَا عَرَضًا ... أجُولُ في بَيْعِهِ وَأضطَرِبُ

* * *

مَنْ يعْلق : معنى من استفهام[1] . يرقُبْ : يرعى . إلّ : قرابة ، وإلّ : بقاء

(١) حاشية ط : قوله : من استفهام ، الظاهر أن من موصولة وعبارة غيره ؛ أي أن من يتعلق به الأمل ، ويرجى منه النوال لا يستعمل الأدب والمعارف ، حتى صار ذلك كالسلعة الكاسدة عنده . انتهى بالحرف . مصححه .

عهد . وسبب: معرفةوصحبه، والسبب : العلم، ومنه : ﴿وآتيناهُ مِنْ كلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾[1] ؛ وأصله الحَبْل ؛ ثم يُستعمل فى كل ما يَرْبط شيئاً بشيء ، من كلام أو غيره . عِرَاصهم: مواضعهم ، وأصل العَرْصة ، فناء الدار. يقال: لَبَّ الرَّجل يَلُبّ لَبَابَةً ، ورجل ملبُوب : موصوف باللّبابة ، ولُبّ كل شىء من الثمار ولبابه : داخله ، ولبّ كل شىء : خالصه . مُنِيت: ابتليت وقُدِّرلى . صَرْفُها : تقلّبها وتصرّفها بما يكره . ذَرْعى : كناية عن صدرى وخُلقى ،وأصل الذَّرع كيل الشىء بالذّراع ؛ ثم صار مثلا ، يقال : ضاق ذَرْعى بكذا إذا لم تحتمله وضاق تصرّفك فيه . ذات يدى ، أى مالى. ساورتنى : واثبتنى . الكَرْب : الهموم ، وكرّرها لاختلاف اللفظ . المُليم : الذى أتى بما يُلام عليه . سُلُوك : دخول .يستشينه : يستعيبُه ، والشَّيْن : العيب . لَبد : شىء لا قليل ولا كثير ، وأصله الصّوف ، وأكثر ما يستعمل مُزْدَوجاً مع سَبَد ؛ يقال : ما عنده سَبَد ولا لَبَد، أى لاشعر ولا صوف ، ويراد بها نفى الإبل والغنم ، ثم صار نفيا لكلّ شىء من المال . بَتَات : زاد . أنقلب : أرجع .

ادّنت : أخذت بالدَّيْن، وفى حديث عمر: «فادّان مُعْرِضًا»[2] .والسالفة : صفحة العنق ، يريد أن هذا الدَّيْن لثقله ومقاساة همومه فوق العَطَب ، والعطب : الذى هو الهلاك دونه فى الشدّة. عائشة رضى الله عنها : قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إذا أراد الله أن يذلّ عبده ابتلاه بالدَّيْن وجعله فى عنقه » ، وقال أنس رضى الله عنه : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إياكم والدّين فإنه همٌّ بالليل ومَذَلّةٌ بالنهار » ، وروى جابر رضى الله عنه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لاهمَّ إلا همُّ الدَّيْن ولا وجع إلا وجع العين » .

الحشى : أسقاط الجَوْف . سَغَب : جوع . أمضّنى : أحرقنى . جهازها :

(١) سورة الكهف ٨٤ .

(٢) فى حديثه عن أسيفع جهينة ، أى استدان معرضا . النهاية لابن الأثير ٢ : ١٤٩

متاعها الذى جاءتنى به ، والجهاز ، متاع البيت ، يريد شوارها . عرَضاً ، أراد « عرْضا » فحركه ضرورة ، والعرْض الأمتعة هنا ، أخبرنى بهذا مَنْ يوثق به فى اللغة : والعرَض خلاف النقد مشهور فى اللغة . وفى العين : العرَض ، بفتح الراء : كثرة المال، فيقول : لمّا لم يبقَ لى مالٌ لم أر مالاً إلا جهازها ، فيكون على هذا أتمّ معنى ، ويخرج عن الضرورة التى ألزمته ذلك التحريك . أحول : أتصرّف . أضطرب : أكثر التّرداد والتصرّف .

* * *

فَجُلْتُ فيهِ وَالنَّفسُ كَارِهَةٌ ... وَالعَيْنُ عَبْرَى وَالقَلْبُ مكْتَئِبُ
وَمَا تجاَوَزْتُ إذْ عبِثْتُ بهِ ... حَدَّ التَّرَاضِي فَيَحْدُثُ الغَضَبُ
فإنْ يَكُنْ غَاظَهَا تَوَهُّمُهَا ... أنَّ بنَانِي بالنَّظْمِ تَكْتَسِبُ
أوْ أنَّنِي إذْ عَزَمْتُ خِطْبَتَها ... زَخْرَفْتُ قَوْلِي لِيَنْجَحَ الأَرَبُ
فو الَّذِي سَارَت الرِّفَاقُ إلَى ... كَعْبَتِهِ تَسْتَحِثُّهَا النُّجُبُ
ما المكرُ بالمحصنَاتِ مِن شِيَمِى ... وَلاَ شِعَارِى التَّمْوِيهُ وَالكَذِبُ
وَلا يدِى مُذْ نَشَأْتُ نِيطَ بِهَا ... إلاَّ مواضِي اليَرَاعِ وَالكُتُبُ
بَلْ فِكْرَتِي تَنْظِمُ القَلائِدَ لا ... كَفِّي، وَشِعْرِى المَنْظُومُ لاالسُّخُبُ
فهذِى الحِرفَةُ المُشَارُ إلى ... مَا كُنْتُ أَحْوِى بِهَا وأجْتَلِبُ
فأْذَنْ لشَرْحِي كما أَذِنْتَ لها ... ولا تُراقِبْ واحْكُمْ بمَا يَجِبُ

* * *

عبْرَى : باكية . مكتئب : حزين . عَبِثْتُ: لعبت وتحكّمت فيه ؛ يقول : ماتصرّفت فى بيعه الا برضا منها ومنى[1]. قوله: « توهّمها » ، أى ظنها. خطبتها:

(١) حاشية ط : « قوله : ومنى ، لاحاجة إليه » .

مراسلتها فى النكاح . لينجج الأرب : لتقضى الحاجة . تستحثها : تستعجلها . النُّجُب : الإبل الكرام . المكر : الخداع ، المحصنات : العفائف . شِيَمى : طبائعى . شِعارى : علامتى: التمويه ، تقدّم فى الثامنة . نيطَ :علق ، وناط الشىء نوطًا : علقه . اليَراع: الأقلام .والمواضِى : المسرعة فى الكتابة ؛ يريد أنه فصيح لا يتوقف قلمه . السُّخُب : جمع سخاب ، وهى قلادة قرنفل ليس فيها جوهر ولا لؤلؤ . قال ابن ظفر : السّخُب : العقود من اللؤ لؤ وغيره ، ومن الطّيب أيضا . أحْوَى : أحْوَزَ وأجمع .

فأذنْ : اسمع . لا تراقِبْ : لا تراع منّا أحدا ولا تؤثره على صاحبه واحكم بيننا بما يجب ؛ وأخذ معنى الأبيات المتقدمة من قول ابن هَرْمة :

إنى امرؤ لاأصوغ الحَلْىَ تعمله  كفّاى لكن لسانى صائغُ الكلِمِ

وقال آخر :

وإنى لنظّام القلائد للمُلَا  ولستُ بنظّام القلائد للنَّحْرِ

* * *

قال : فلمَّا أحْكَمَ مَاشادَهُ ، وأكملَ إنْشادَهُ ، عَطَفَ القاضى إلى الفَتاة ، بعدَ أن شَفِعَ بالأبياتِ ، وَقالَ : أمَا إنَّهُ قَدْ ثبتَ عِنْدَ جميعِ الحكَّامِ ، وَوُلاةِ الأحْكامِ ، انقِرَاضُ جيلِ الكِرامِ ، وَمَيْلُ الأيَّامِ إلى اللِّئامِ ، وإنِّى لإخَالُ بَعْلَكِ صَدُوقًا فى الكَلامِ ، بَرِيًّا منَ الملامِ ، وَهَاهُوَ قَدِ اعْتَرَفَ لكِ بالقَرْضِ ، وَصَرَّحَ عن المحْضِ ، وَبَيَّنَ مِصْدَاقَ النَّظْمِ ، وَتبَيَّنَ أنَّهُ معروقُ العَظْمِ ؛ وإعْناتُ المُعْذِرِ مَلأمةٌ ، وَحَبْسُ المُعْسِرِ مَأثَمةٌ ، وَكِتمَانُ الفَقْرِ زَهَادَة ، وَانْتظارُ الفَرَجِ بالصَّبْرِ

عِبَادَة ، فارْجِعِى إلى خِدرِكِ ، واعْـذُرِى أَبا عُذْرِكِ ، وَنَهْنِهِى مِنْ غَرْبِكِ ، وَسَلِّمِى لِقَضَاءِ رَبِّكِ . ثُمَّ إنَّهُ فَرَضَ لَهُمَا فى الصَّدَقَاتِ حِصَّةً ، وَنَاوَلَهُمَا مِنْ دَرَاهِمِهِمَا قَبْضَةً ، وقال لهما : تَعَلَّلاَ بِهَذه العُلاَلَةِ ، وَتندَّيا بِهَذه البُلاَلَةِ ، واصْبِرَا عَلَى كَيْدِ الزَّمان وَكدِّه ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عنده . فَنَهَضَا وَلِلشَّيْخِ فَرْحَةُ المطْلَقِ منَ الإسارِ ، وَهِزَّةُ الْمُوسِرِ بعد الإعسار .

* * *

قوله : « أحكم » ، أى أتقن . شاده : بناه وزيّنه ، وشاد البناء: أطاله وعَمِله بالشِّيد ، وهو الجِصّ ، ويقال فيه : أشاد ، ويقال : شاد عمله بالشِّيد وأشاده : أطاله ، هو الأول ، وأشاد الحديث : رفعه ، وعطف : ثنى عُنُقَه وردّها ، وكل ما تثنيه من عنق أو جارحة أو عُود فقد عطفتَه . شُعِفَ : أعجب . انقراض : انقطاع وهلاك . جيل : صِنْف ، وجيلُك : أهل عصرك . بَعْلك : زوجك ؛ وبَعَل الرجل بُعولة : تزوّج . والقرْض : السَّلف ، أراد به ما أعطته من ثمن جهازها سلفاً . صرّح : بيّن . وصرّح عن المحْض ، مثل يضرب لسرّ الأمر ، إذا انكشف ، وقالوا : أمرٌ صُراح ، أى منكشف ظاهر ، والصريح من اللبن : المحض الخالص الذى لا رَغْوة فيه ، قال الشاعر :

* وتحت الرَّغوة اللّبن الصَّريحُ[1] *

ثم قالوا : لكل شىء خالص : صريح . وقوله : « بيّن مصداق النظم » ، يريد أن نظمه إنما هو للشعر لا للجوهر . معروق : لا لحم على عظمه ، أى هو فقير

(١) أصل المثل : « تحت الرغوة الصريح » ، وأول من قاله عامر بن الظرب . وانظر جمهرة الأمثال ١ : ٢٧٠ .

اعنات : مشقة . المعذِر : الذى يجهد نفسه فى الشَّى ثم لا يستطيعه ، يقال : قد أعذر ، أى قد َبيَّن عذرُه أَنَّه لا يقدر عليه ، وعذَّر فهو معذِّر ، إذا قصّر فى طلب الشىء ، قال تعالى : ﴿وَجَاء المعذِّرُون مِنَ الأعْرابِ ليُؤذَن لهم﴾[1] ، وقال ابن دريد :

* حكم المعذِّر غير حكم المعذِر *

الملائمة والمأثمة : اللوم والإثم . والمعسر : الفقير : والزهادة : قلّة الرغبة ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ جاع واحتاج فكتمه الناس وأنزله بالله ، كان حقًّا على الله أن يفتح عليه رزق سنة من حلال » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » .

وقال ابن عمر :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما صبر أهل بيت على جهد ثلاثًا إلا أتاهم الله عزّ وجل برزق » .

خدرك : بيتك ، وأصله السّتر يكون خَلْفه الجارية المحجوبة . أبا عُذْرك : زوجك المفتضّ لك . نهنهى : كُفِّى . غربك: حدّة لسانك . وقيل : معنى «نهنهى من غَرْبك» ،أى غيِّضى من دموعك ، والغَرْب : فيْض الدمع ، والأوّل أشبه . سلِّى : انقادى. فَرَض ، أى أوجب . حِصّة: نصيب . ناولها : أعطاها. قبْصة : ما أخذت بأطرافِ أصابعك . العُلالة : الشىء القليل . تعلّلا : خُذا منه شيئًا بعد شىء ، وكذلك تندّيا ، وأصل العُلالة بقية الماء فى الإناء ، وبقيّة اللبن فى الضّرْع بعد الحلب ، قال الراجز :

* يرضعها الدِّرة والعُلاله *[2]

---

(١) سورة التوبة ٩٠ (٢) اللسان ــ علل ، وروايته : « ترضعى » ، وقبله :

* أُحمِلُ أُمّى وهِىَ الحَمَّالَهْ *

والبُلالة : الندى القليل يبلُّ وجهَ الأرض . كيد : مكر . كدّه : جهده
وأنشد أبو مِحْجَن الثقفىّ :

عسى فرجٌ يأتى به الله إنّه ... له كلَّ يومٍ فى خليقته أمرُ
عسى ماترى ألاّ يدومَ وأن تَرى ... له فرجاً مما ألحّ به الدهرُ
إذا اشتدّ عسرٌ فارجُ يُسْراً فإنه ... قَضى اللهُأنّ العسر يتبعهُ اليُسْرُ

الإسار : الحبل يشدّ به الأسير . هِزّة : طرب. الموسر : الغنىّ . الإعسار: الفقر ، وسئل حكيم : أىّ الأشياء أحلَى ؟ قال: النُّصرة على العدوّ بعد الهزيمة ، والاستغناء بعد الحاجة ، والغلَبة للمتكلم .

* * *

قال الرَّاوى : وكُنْتُ عَرَفْتُ أنَّهُ أبو زيدٍ ساعَةَ بَزَغَتْ شَمْسُهُ ، وَنَزَغَتْ عِرْسُهُ ، وَكِدْتُ أُفْصِحُ عَن افتنانهِ ؛ وإثمارِ أَفْنَانهِ ؛ ثُمَّ أشْفَقْتُ منْ عُثورِ القَاضِي عَلَى بُهتَانِهِ ، وَتَزْوِيقِ لِسَانهِ ، فلاَ يَرَى عِنْدَ عِرْفانهِ ، أنْ يُرَشِّحَهُ لإحْسانهِ ، فأَحْجَمْتُ عَنِ القَوْلِ إحْجامَ المُرْتابِ ،وطَوَيْتُ ذِكْرَهُ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتابِ؛ إلاَّ أنِّي قُلْتُ بَعْدَ مَافَصَلَ ، وَوَصَلَ إلى مَاوصَلَ : لَوْ أنَّ لنَا مَنْ يَنطَلِقُ فى أثَرِهِ ، لأَتَانَا بِفَصِّ خَبَرِهِ ، وَبماَ يُنْشَرُ مِنْ حِبَرِه ! فأَتبَعَهُ القَاضِى أحَدَ أُمَنَائهِ ، وَأمَرَهُ بالتَّجَسُّسِ عن أنبَائِهِ ، فما لَبِثَ أن رَجَعَ مُتَدَهْدِهًا ، وَقَهْقَرَ مُقَهْقِهاً ، فقال له القاضى : مَهْيَمْ، يا أبا مَرْيم ، فقال : لقَدْ عَايَنْتُ عَجَبًا ، وَسمِعتُ ما أنْشَأَ لى طَرَباً ،

فقال له : ماذا رَأَيْتُ ، والَّذى وَعَيْتُ !

* * *

قوله : « بزغت » ، أى طلعت . ونزغت : نشزت وقابلته بالشرّ والذِّكْر القبيح ، وأراد أنه عرّفه حين ساقته زوجته إلى القاضى . أُفْصِح : أُبين . افتنانه : تنوّعه . إثمار : إخراج الثمر ، وهو حمل كلّ شجرة . أفنانه : أغصانه . أشفقت : خافت . عثور : ظهور ، وعثر على الأمر : اطّلع عليه . بهتانه : باطله وكذبه . تزويق : تزيين ، وهو من الزّاوُوق الذى يعرفه العامة بالزّواق ، أى أنه تزيين فى الظاهر ، وليس له ثبات . عِرْفانه : تقدّم معرفته . يرشّحه : يهيئه ، وفلان يرشّح لكذا ، أى يؤهّل له ، من رشّحت الأم ولدَها باللبن ، إذا جعلته فى فيه شيئاً بعد شىء حتى يقوَى ، وقيل : الترشيح : التربية ، وقيل : هو تحنّن الأمّ على ولدها من الشدّة . أحجمت : تأخّرت . المرتاب : صاحب الريبة . طويت : سترت . السِّجلّ : الورق . والكِتاب : المكتوب فيها ، وقوله تعالى : ﴿ كطَىِّ السِّجِلِّ للكِتاب ﴾(١) ، قيل : السِّجلّ : اسم كاتب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ملَك من السماء الثالثة ترفع إليه الحفَظة أعمال العباد كلّ خميس واثنين . فصَل : زال وانفصل . بفصّ خبره : بحقيقة أمره . ينشر : يظهر . حبّره : حسّن كلامه ، وأصله ثياب يمانية مزينّة ، ونشرها : حلّها من طيّها . التجسُّس : البحث . أنبائه : أخباره . ما لبث ، أى ما أقام ، والمعنى ما أبطأ شيئاً حتى رجع . متدهداً : متحرّكاً ، والتدهده : قَذْفك الحجر من أعلى إلى أسفل . قهقر : رجع إلى خلف . مقهقهاً : مبالغاً فى الضحك ، والقهقهة : حكاية صوت الضاحك . مهيم : كلمة استفهام ، معناها : ما الأمر ؟ عاينت : رأيت . أنشأ : أحدث ، وتقديره : سمعت شيئاً أحدث لى ذلك الشىء

(١) سورة الأنبياء ١٠٤ .

المسموع الطَّرَب ، ولا يكون «أنشأ» فعلاً لأبي زيد ، إنما هو فعل لـ« ما » من قوله : «ما أنشأ» . وعيت : حفظت .

* * *

قالَ : ولم يَزَلِ الشيخُ مُذْ خَرَجَ يُصفِّقُ بيَدَيهِ ، ويُخالِفُ بَينَ رِجْلَيْه ، وَيُغَرِّدُ بملءِ شِدْقَيْهِ ، ويَقول :

كِدْتُ أُصْلَى بِبَلِيَّهْ مِنْ وَقاحٍ شَمَّرِيَّهْ
وَأزُور السِّجْنِ لَوْلا حَاكِمُ الإسكندرِيَّهْ

فَضحك القاضِي حَتَّى هَوَتْ دَنِيَّتُهُ ، وَذَوَتْ سَكِينَته ، فلَمَّا فاء إلى الْوَقارِ ، وَعَقَّبَ الاستِغْرَابَ بالاستِغْفارِ ، قال : اللَّهُمَّ بِحُرمَةِ عِبَادِكَ المُقَرَّبِينَ ، حَرِّمْ حَبْسِي عَلَى المتأدِّبِينَ . ثم قال لذلك الأمِين : عَلَيَّ بِهْ ، فانْطَلِقْ مُجِدًّا فى طَلَبِهْ . ثُمَّ عادَ بَعْدَ لأيٍ ، مُخَبِّرًا بنَأْيِهِ ، فقال له القاضى : أَمَا إِنَّهُ لَوْ حضَرَ ، لَكَفَيَ الحذَرَ ، ثُمَّ لَأَوْلَيْتُهُ مَاهُوَ بهِ أوْلَى ، وَلَأَرَيْتُهُ أنَّ الآخِرَةُ خيرٌ لهُ من الأولَى .

قال الحارث بن همام : فلَمَّا رَأيتُ صَغْوَ الْقاضى إليْهِ ، وَفوْتَ ثمرَةِ التنبيه عَلَيْهِ ، غَشِيَتْنِي نَدامَةُ الفرزدقِ حِينَ أبَانَ النَّوارَ ، وَالكُسَعِيّ لمَّا استبان النَّهَار .

* * *

يصفّق بيديه : يضرب بكفيه . يخالف بين رجليه : يعبث بهما فى مشيه

فيضع كلَّ رِجْلٍ موضع الأخرى ، وهى من أنواع الرقص ؛ أراد أنه يضرب بكَفّيه ويرقص . يغرّد : يغنّى . بملء شدقيه ، أى بصوت شديد تمتلىء به أشداقه .

وملء القدح: قدر ما يملؤه. أبو يعقوب: يقال: أعطنى ملءالقدحماء ، وأعطنى مِلأَيْه، وأعطنى ثلاثة أملائه .

أصْلَى ببليّة ، أى قربتُ أن أحترق بها وأتصلّى بها ، والبليّة: المصيبة يبتلى بها ، وَقَاح ، جمع وقاحة ، وهى صلابة الوجه ، وأصلها من الحافر الصُّلْب ، وقال بعضهم فى صلابة الوجه :

لا يعملُ المِبْرَد فى وَجهِهِ  بل وجهه يعمل فى المِبْرَدِ

فجعل وجهه لصلابته يؤثّر فى الحديد . شَمَّريّة ، أى شديدة القِحَة ، قال الأصمعىّ : سألت أعرابيًّا ، وقد خرج من الصَّلاة : ما قرأ الإمام؟ قال: ما أدرى إلا أنه وقع بين موسى وفرعون شمّريّة. هوت: سقطت. دِنِينَته: قلنسوته ، وهذه اللفظة إنما وقعت فى المقامات بفتح الدال وكسر النون ، ودنينته بنونين لتوافق «سكينته» ، والصحيح حذف نونها الثانية وكسر الأولى ، وهى قلنسوة محدّدة الطرف يلبسها القضاة والأكابر ، وليست من كلام العرب ، إنما هى من الألفاظ المستعملة فى العِراق ، وقد استعملها شعراؤهم ، قال ابن لَنْكَك :

نفسى تقيك أبا الهندام يا أملى  إنّى بكلّ الذى ترضاه لى راضِى (١)

ما كان أُرى فقيهاً إذ ظفرت به  فكيف ألبسته دِنِّيّةَ القاضِى

وقال الصابى :

وفوقه دنيّة  تَذْهَبُ طَورًا وتجى

(١) يتيمة الدهر .

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٢٦ ، وهناك : « تقيك أبا الهيذام كل أذى » ، وأبو الهيذام شاعرا اسمه كلاب بن حمزة ؛ كان ابن لنكك مولعا بهجائه .

ذَوت : زالت وخفيت.سكينته : وقاره ، وأصل ذَوَى ،فى الشىءالذى فيه بلَل وندوّة ، فيجفّ بلله،فاستعاره للسكينة.فاء: رجع.وعقّب : أتبع.الاستغراب: كثرة الضحك ، حتى تدمع العينان ؛ أراد أنه أتبَع ضحكه الاستغفار ليكون كفَّارة له ، وهذا الذىحُكِىَ عن القاضى يُحْكَى مثالهعن الحجاج ،يقال : إنه كانإذا استغرب ضحكاً يوالى من الاستغفار .

وقال عبد الله بن مسعود : فى كتاب الله آيتان ما أصاب عبد ذنباً فقرأهما ثم استغفر الله إلاغفر له الأولى : قولهتعالى:﴿ والَّذِين إِذَا فَعَلوا فَاحِشَةً . . ﴾[1] الآية ، والثانية قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ... ﴾[2] الآية .

قال أبو سعيد الخدرىّ رضى الله عنه : من قال : « أستغفر الله الّذى لا إله إلاّ هوالحىّ القيوم وأتوب إليه » خمس مرّات ، غفر له ولو فرّ من الزحف .

شدّاد بن أوس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلمأنه قال: « سيّد الاستغفارأن تقول:اللهمّ أنت ربى لا إله إلاأنت وأنا عبدك أصبحت على عهدك[3] ووعدك ما استطعت.أعوذ بك من شرّما صنعتُ ، أبوء بنعمتك علىّ ،وأبوء لك بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلاأنت » .

وأصل غفر واستغفر غَطّى .قالقطرب : اللهمّاغفر لنا ذنوبنا ، أىغطّها ،من قول العرب : غفرت المتاع فى الوعاء أغفره غفرا ، أىغطّيته . ثعلب :غَفَر الرجل فى مرضه يغفر غفرًا ، أى نكس ، فكأنّ المرض غطّى عليه . وقال الأصمعى رحمه الله : اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، أى استرها علينا ، ومنه : اصبغ ثوبك ، فإنه أغفر للوسخ ، أى أستر ، وهذه معان متقاربة .

---

(١) آل عمران ١٣٥ (٢) النساء ١١٠ .

(٣) الجامع الصغير ١ : ٥٧ ، وفيه : «وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك» ،وفى آخر الحديث : « ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح كان من أهل الجنة » .

قوله: «عَلَيّ به»، أي جئني به. مجدًّا : مجتهداً في طلبه . لأْيه : إبطائه. نأيه : بعده. الحذَر : الخوف . أوليته ، بمعنى وليته وأعطيته . أوْلَى : أحقّ ، يريد أنه لو رجع إليه كان يصله في المرّة الثانية بما هو خير مما وصله به أوّل مرة . قوله : « صغو » ، أي ميل . فوْت : ذهاب . التنبيه : الإعلام . غشيتني : غطّتني ولحقتني . أبان : طلقّ . النّوار : بنت عم الفرزدق وزوجه. استبان : تبيَّن .

وقال الشاعر :

لو أنّ صدور الأمر تبرز للفتَى كأعقابه لم تُلفِه يتندَّمُ

[ ذكر الفرزدق وبعض أخباره ]

والفرزدق اسمه همام بن غالب بن صعصعة ، دارميّ من أشراف تميم ، والفرزدق لقِّب به لجهومة وجهه وغلظه ، والفرزدق : قطعة العجين ، وقيل : الرغيف الضخم .

وخبره مع النوّار بنت أعين المجاشعيّ ، أنه خطبها رجل من قريش أو من دارم ، فبعثتْ إلى الفرزدق أن يكون وليَّها إذا كان ابن عمها ، فقال: إنّ بالشّأم مَنْ هو أقرب إليك مني ولاء ، وأنا حذر من أن يقدم منهم قادم ، فينكر ذلك عليّ ، فاشهدي أنك جعلت أمرك إليّ . فجعلتْ له أمرها أن يزوّجها ممن يرى ، وأشهدت له بذلك ، فقال لها : أرسلي إلى القوم أزوّجك ممن خطبك. فلما غصّ مسجدُ بني مجاشع بني تميم جاء الفرزدق ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : قد علمتم أن النَّوار ولّتني أمْرَها ، وأشهدكم أني قد زوّجتها من نفسي ، فنشزَت عليه ونافرته من البصرة إلى عبد الله بن الزبير بمكّة حين أعياها أمراء البصرة، أن يطلقوها منه . وأعياها الشهود أن يشهدوا لها اتقاء من شرّه ، فلم يقدْر أحد على

حملها ، حتى تحمّلها قومٌ من بنى عدىّ ، يقال لهم بنو نُسير إلى مكة ، فصحبتْهم النّوار ، فقال الفرزدق :

وقد سخِطتْ منى النَّوار الذى ارتضى … به قبلها الأزواجُ ، خاب رحيلُهَا[1]

أطاعت بنى أمّ النُّسَيْرِ فأصبحتْ … على شارفٍ ورقاء صعبٍ ذَلُولُهَا[2]

وإن امرأً يسعى ليفسد زوجتى[2] … كساعٍ إلى أسْدِ الشَّرى يستبيلُهَا[3]

ومن دون أبوال الأسود بسالةٌ … وبسطة أيدٍ يمنع الضَّيْمَ طُولُهَا

وإنَّ أمير المؤمنين لعـــالمٌ … بتأويل ما وصَّى العبادَ رسولُهَا

ثم ارتحل فى أثرها حتى وصلا مكة ، فنزلت النَّوار على بنت منظور بن زبّان زوجة عبدالله بن الزبير رضى الله عنه ، ونزل الفرزدق على ابنه حمزة ، وقال :

أصبحتُ قد نزلتْ بحمزة حاجتِى … إن المنوَّه باسمه المـــوثوقُ[4]

بأبى عُمارة خيرِ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى … وجرت له فى الصالحين عروقُ

بين الحـــوارىِّ الأغرّ وهاشمٍ … ثم الخليفةُ بعـــدُ والصِّدِّيقُ

فكان كلُّ ما أصلح حمزة بن عبد الله من شأن الفرزدق نهاراً أفسده بنت منظور ليلًا ، حتى غلبت النَّوار ، وقضى ابن الزبير عليه ، فقال :

أمَّا البنُونَ فلم تُقْبَلْ شَفاعتُهمْ … وشُفِّعَتْ بنتُ منظور بن زبَّانَا[5]

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزراً … مثل الشفيع الذى يأتيك عريانَا

فلما سمع ابن الزبير شعره ، توقّف فى أمره ، فلقيه يوماً بباب المسجد ، فضمّه إلى الحائط ، حتى كادت تَزْهَق نفس الفرزدق . وكان الزبير فى غاية من القوّة ، ثم

---

(١) ديوانه ٦٠٤ ، ٦٠٥ النقائض ٨٠٤ ، طبقات الشعراء ٢٨١ (٢) الشارف : الناقة المسنة.
(٣) يستبيلها : يأخذ بولها بيده . (٤) ديوانه ٥٧٠ .
(٥) ديوانه ٨٧٣ ، النقائض ٨٠٥ ، طبقات الشعراء ٢٨٢ .

هزّه وتركه خائفاً . ثم دخل على النّوار ، فقال لها : إمّا أن تُتِمّي زواج ابن عمّك وإلا قتلتُه ، وأرحت المسلمين من شرّ لسانه ، فقالت له : ولا بدّ أن تقتله ؟ قال : ولا بدّ ، فعطفها عليه رَحِم القرابة ، وقالت : لا والله لا أدَعَهُ للقتل ، قد رضيته . فتزوّجها ، فحكم عليه ابن الزبير بمهر مثلها عشرة آلاف درهم ، فسأل : هل بمكة أحد يعينه ؟ فدُلَّ على سلم بن زياد ، وكان ابن الزبير قد حَبَسه ، فقال :

دَعِي مُغْلِقِي الأبواب دون فعالهمْ ... ومُرّي بمسرّى لِي هُبلْتِ إلى سَلْمِ (١)
إلى مَنْ يرى المعروف سهلاً سبيلَه ... ويفعل أفعال الكرام التي تَنْمِي

ثم دخل على سَلْمْ ؛ وأنشده القصيدة ، فقال : هي لك ومثلها لنفقتك ، فقبض عشرين ألفاً ، فدفع مهرَها ، فدخل بها ، وأحبلها قبل أن تخرج من مكة ، ثم خرج بها ، وهما عديلان في محمل ، وكانت أبداً تخالفه وتسبّه ، لأنها كانت صالحة الدِّين ، وكان هو رديء الدين ، زانياً قاذفاً للمحصنات ، فكانت تكرهه .

ومن ملح أخبارها أنه راود امرأة شريفة على نفسها ، فامتنعت عليه ، فتهدَّدها بالهجاء ، فاستعانت بالنّوار ، فقالت : واعديه ليلة ، ثم أعلميني . ففعلت ، وجاءت النّوار ، ودخلت الحَجَلة مع المرأة ، فلما دخل الفرزدق البيت ، أمرت الجارية فأطفأت السراج ، وبادر الحَجَلة والنّوار فيها ، وهو لا يشكّ أنها صاحبة الدار ، فواقعها . فلما فرغ قالت : يا عدوّ الله ، يا فاسق ! فعرفها ، وعلم أنه قد خُدِع ، فقال لها : وأنت هي ! يا سبحان الله ! ما أطيَبك حراماً ، وأردك حلالاً ! فلم تزل تؤذيه بلسانها حتى أبغضها .

فحدَّث أبو معقل راويته ، قال : قال لي الفرزدق يوماً : امض بنا إلى حلقة الحسن ، فإني أريد أن أطلّق النّوار ، فقلت : إني أخاف أن تتبعها نفسُك ، ويشهد

(١) ديوانه ٧٧٥

عليك الحسن وأصحابه ، قال : امض بنا ، فجئنا حتى وقفنا على الحسن فقال : كيف أصبحتَ يا أبا سعيد ؟ قال : بخير ، كيف أصبحت يا أبا فِراس ؟ قال : لتعلمنّ أن النَّوار طالق مني ثلاثاً ، فقال الحسن وأصحابه : قد سمعنا ، قال : فانطلقنا ، فقال الفرزدق : يا هذا ، إنّ في قلبي من النَّوار شيئاً ، فقلت : قد حذَّرتك ، فقال :

ندمتُ ندامةَ الكُسَعيّ لمّا غدت مِنّي مطلَّقةً نَوارُ[1]
وكانتْ جَنَّتِي فخرجْتُ منها كآدم حين أخرجه الضِّرارُ
ولو أني ملكت يدي ونفسي لأصبح لي على القَدَرِ اختيارُ
وكنت كفاقئٍ عينيه عمداً فأصبح ما يُضيء له نَهارُ

وتوفّي سنة عشر ومائة . وفيها مات جرير وابن سيرين والحسن ، فقالت امرأة بصريّة : كيف يفلح بلد مات فقيهاه وشاعراه ، وأضافت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومه إليها ، ومسكنه باليمامة . وأخباره تطول ، وإنما ذكرنا منها ما تعلّق بالنَّوار معه .

[ ذكر خبر الكسعيّ وقوسه ]

وأما الكُسَعيّ فرجل منسوب إلى كُسع ، قبيلة باليمن ، واسمه محارب ابن قيس ، وبندامته يُضرب المثل؛ يقال: أندم من الكُسعيّ[2] ، وقيل: إنه من بني سعد بن ذبيان ، وقيل : اسمه عامر بن الحارث .

ومن حديثه أنه كان يرعَى إبلاً بوادٍ كثير العشب والخَمْط؛ فبينما هو يرعاها بَصُرَ بِنَبْعةٍ على صخرة ، فقال : ينبغي أن تكون هذه قوساً ، فجعل يتعهّدها ويقوّمها حتى أدركت، فقطعها ، فلما جفّت اتّخذ منها قوساً ، وأنشأ يقول :

(١) ديوانه ٣٦٣ .
(٢) ثمار القلوب ١٣٤ ، الميداني ٢ : ٣٤٨

يا ربّ وَفِّقني لنَحْتِ قوسِي فإنَّها من لذَّتي لنفسِي
وَانفع بقوسِي وَلدى وَعِرْسِي أنحتُها صَفْراء مثل الوَرْسِ
* صَلْداء ليست كَقِسِيِّ النُّكْسِ *

ثم دهنها وَخطمها بوتَر ، وَاتّخذ من بُرايتها خمسة أسهم ، وَجعل يقلّبها في كفّه ، وَيُنشد :

هنّ وربي أسهمٌ حِسَانُ يلذّ للرَّامِي بها البَنَانُ
كأنما قوَّمها مِيزانُ فأَبشروا بالخصبِ يا صبيانُ
* إن لم يعقني الشُّؤمُ والحِرمَانُ *

ثم أتى قُتْرَةً(١) على موارد حُمُر ، فكمن فيها ، فمرَّ به قطيعٌ ، فرمى عَيْراً منها بسهم ، فأمخطه ــ أي أنفذه ــ وجازه ، وأصاب الجبل ، فأورى نارا ، فظنَّ أنه أخطأه ، فأنشأ يقول :

أعوذ بالله العزيز الرَّحْمَنْ من نكد الجَدّ معاً والحِرْمَانْ
مالي رأيت السهم بين الصَّوَّانْ يُورى شَراراً مثل لون العِقْيانْ
* فأخلف اليوم رَجاءَ الصِّبْيَان *

ثم مرَّ به قطيع آخر ، فرمى عيْراً فأمخطه السهم ، فصنع صنيعه الأوّل ، فأنشأ يقول :

لا باركَ الرَّحْمٰن في رَمْي القُتَرْ أعوذ بالخالق من شرِّ القَدَرْ
أأمخط السهمُ لإرهاق الضَّرَرْ أم ذاك من سوء احتيالٍ ونَظَرْ
* أم ليس يغني حَذَرٌ عنه قَدَرْ *

(١) القترة : ناموس الصائد .

ثم مرّ به قطيع آخر فرمى عيْراً ، فأخطأه السهم ، فصنع صنيعه الأوّل ،فأنشأ يقـــول :

ما بال سهمى يوقد الْحُبَاحِبَا قد كنت أرجو أن يكون صَائبَا
فأخطأ العَيْر وولّى جانبـــاَ فصار رأيى فيه رأياً خَائبَا

ثم مرَّ به قطيع آخر ،فرمى عَيْراً بسهم فأخطه السهم ، وصنع ما صنع أولاً ، فأنشأ يقول :

يا أسفاً للشُّؤْم والجدّ النَّكدْ فى قوسِ صدق لم تزيَّن بأَوَدْ
أخلف ما أرجو لأهلٍ وَوَلَدْ فيها ولم يغنِ الحِذَار وَالجَلَدْ
* نخاب ظنّ الأهلِ جمعاً والوَلَدْ *

ثم مرّ به قطيع آخر ،فرى عَيْراً بسهم ،فأخطه السهم؛ وصنع كما صنع أولاً ، فأنشأ يقول :

أبعد خمس قد حفظتُ عَدَّهَا أحمِل قوسِى وأرِيدُ رَدَّهَـــا
أخزى الإله لينها وشَدَّهَـــا والله لا تسلم منى بعدَهـــاَ
* ولا أرجِّى ما حييت رِفْدَهَا *

ثم أخذ القوس ، فكسرها على حجر وبات ، فلمّا أصبح أبصر الأعيار الخمسة مطروحة حوله ، فأسف وندم على كسر القوْس ، وعضَّ على إبهامه فقطعها تلهفاً ، وأنشأ يقول :

ندمت ندامةً لو أنَّ نفسى تطاوِعُنِى إذاً لقطعتُ خَمْسِى
تبيَّن لى سَفَـــاهُ الرأى مِنِّى لَعمرُ أبيك حين كسرت قَوْسِى

# المقامة العاشرة وتعرف بالرَّحْبيَّة

حَكي الحارثَ بنُ هَمَّام قالَ : هَتَفَ بِي دَاعِي الشَّوْقِ ، إلى رَحْبَة مالكِ بن طوقٍ ؛ فلبَّيتُه مُمتطِياً شِمِلَّةً ، وَمُنْتَضِياً عَزْمَةً مُشْمَعِلَّةً . فلمَّا أَلْقَيْتُ بِهَا الْمَرَاسِي ، وَشَدَدْتُ أَمْرَاسِي ، وَبَرَزْتُ من الحمَّام بَعْدَ سَبْتِ راسِي ، رأَيتُ غُلاَماً أُفْرِغَ في قَالَبِ الجَمَالِ ، وَأُلبِسَ من الحُسْنِ حُلَّةَ الكَمَالِ .

* * *

هتف بى ، أى دعانى ، يقال : هتف بى هتفاً وهُتافاً : دعاه ، وهتفت الحمامة : مدّت صوتها . والشَّوْق : تحرّك الحبّ ، يريد أنَّ شوقه إلى الرَّحْبة يهيج عليه حتى سار إليها ، وجعل له داعياً مجازاً . والرَّحْبة : مدينة شَهيرة من عمالة الفرات ، بناها مالك بن طَوْق ، ووَلِيَهَا فنُسبت إليه ، وإليها تنسب الثياب الرحبيّة ، وتعرف برحبة الشأم ، وهى على يسار الطريق هى والرّقة فى استقبالك الفرات جائيا من حرّان ، وهى فى آخر ديار ربيعة ، وأول بلاد الشأم والفرات ، بين ديار ربيعة والشأم ، فإذا عبرته صرت فى حدّ الشام .

[ ذكر مالك بن طوق ]

ومالك ـ كنيته أبو كلثوم ـ بن مالك بن عتّاب بن سعيد بن زهير بن جُشَم ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن ثعلب . وقال حَبيب يمدحُه ويذكر الرَّحَبة :

يامالِ قد علمتْ ربيعـةُ أنَّهُ ما كان مثلُكَ فى الأراقِمِ أرقمُ(١)
طالت يدِى لَمَّا رأيتُكَ سالماً وأُنيخ عن خَدَّىَّ ذاكَ العظْلِمُ(٢)
وشممت تُربَ الرَّحبةِ العبِقَ الثّرى وشفَى صَدَاىَ البحرُ منها الخِضْرِمُ(٣)
كم حلَّ فى أكنافِها مِنْ مُعدمٍ أمسى بها يأوى إليـه المعدِمُ

وقال فيه:

رأته فى النوم عتَّابٌ فقال لهـا ذوو الفراسة : هذا صفوة الـكَرَمِ(٤)
فجاء والنَّسب الوضَّاح جاء به كأنه بُهْمَةٌ فِيهِمْ من البُهَمِ(٥)
طعَّان عمرو بن كلثوم ونائلُه إنَّ السيورَ التى قُدَّت من الأدَمِ(٦)
لو كان يأمل عمرو مثلَه خلفاً(٧) من صُلْبِهِ لم يجد للموت من ألمِ

يقول هذا فى اتصاله بنسب عمرو بن كلثوم ، وأين هذا من قول دعبل يهجوه :

الناس كلُّهمُ يعـــدو لحاجَتِهِ ما بين ذى فرحٍ مِنْهُمْ ومهمومِ(٨)
ومالكٌ ظلَّ مشغولاً بنسبته يَرُوم منها بناء غير مهدُومِ(٩)
يبنى بيوتاً خراباً لا أنيسَ بها ما بين طَوْقٍ إلى عمرو بن كلثُومِ

---

(١) ديوانه ٢٧٥ ، والأراقم بنو تغلب .
(٢) الديوان : « وأنحت عن خدى » . والعظلم ، كزبرج : نبت يصبغ به .
(٣) الخضرم : الماء الـكثير .
(٤) ديوانه ٢٦٨ .
(٥) البهمة : الشجاع .
(٦) النائل : العطاء . والأدم : الجلد .
(٧) الديوان : « ولدا » .
(٨) ديوانه ١٤٤ ، ديوان المعانى ١ : ١٨١ .
(٩) الديوان « خرابا غير مهموم » .

وكان ملكا شجاعاً ، جواداً ممدوحا أميراً على الجزيرة مسكن قومه بنى ثعلب .

* * *

قوله « لبّيته » ، أى أجبته . ممتطياً : راكباً . شِمِلّة : ناقة سريعة . منتضياً : مجرّدا . عزمةً مشمعلّةً ، أى عزمة سريعة لاتوانىَ فيها . المراسى : هى محابس السفينة . أمراسى : حِبالى ، يريد أنه استعدّ للإقامة وترك السفر ، وضرب لذلك المثل بإلقاء المراسى وشدّ الأمراس . برزت : خرجت وظهرت . سَبْتَ : حَلَق ، ومتى دخل أهل المشرق الحمام حلقوا رءوسهم . أفرِغ : وُضع ليصنع . والقالَب : الذى تطبع فيه الدراهم ، ودِرْهم مفرغ ، إذا أذيبت فضته وصُبّتْ فى قالَبه ، فيريد أنّ هذا الغلام لإفراط حسنه أفرغ فى قالب الجمال .

[ نبذ وحكايات وأشعار مما ورد فى الحسن والجمال ]

ونذكر فى هذه المقامة من أوصاف الحسن والجمال ما أمكن ، ونُضيف إلى ذلك ما قيل فى الملمان من الأشعار الحِسان ممّا يليق بهذا المكان وندعها من كلّ مقامة يقع فيها ذكر الملمان . قال ابن عبد ربه : الحسن أحمر ، وقد تضرب فيه الصّفْرة مع طول المكث فى الكِنّ والتضمّخ بالطيب كما تضرب فى بيضة الأدحىّ. وقال أعرابىّ :

وما تطيّبت من صفراء خالية كالعاج صفّرها الأكنانُ والطِّيبُ

وقال آخر :

كأنّ لون البيض فى الأُدحىِّ لونكِ لولا صفرة الجادىِّ

يريد أنها تضمّخ بالجادىّ ، وهو الزعفران ، وصفرة النعمة لا تبلغ صفرته .

وقالوا : إن الجارية الحسناء تتلون بلون الشمس ، فهى بالضّحَى بيضاء ، وبالعشى صفراء ، قال الأعشى :

بيضاء ضحوتها وصفـــــراء العشية كالعَرَارَهْ[1]

العَرار : البهار .

وقال الحريرىّ فى الدرّة : فأما[2] قولهم فى الحسن : أحمر ، فمعناه أنه لا يكتسب ما فيه من الجمال إلا بتحمّل مشقة يحمرّ[3] منها الوجه ، كما قالوا : السَّنة الحمراء للمجدبة[4] ، وكَنَوْا عن الأمر المستصعب بالموت الأحمر ، وأما قوله :

هِجانٌ عليها حُمرة فى بياضِها ... تروق لها العينان والحسنُ أحمرُ

فإنه عنَى به الحسن فى حمرة اللّون مع البياض ، دون غيره من الألوان .

وقالوا فى الجارية : جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ، فالجميلة الّتى تأخذ بصرك جملة ، فإذا دنت منك لم تكن كذلك ، والمليحة التى كلما كرّرتَ بصرَكَ فيها زادتْكَ حسناً .

وقيل : الجميلة السمينة ؛ من الجميل ، وهو الشحم[5] ، والمليحة البيضاء من المُلحة[6] ؛ وهى البياض ، والصَّبيحة كذلك من الصبح لبياضه .

وقالوا : إن الوجه الرّقيق البَشَرة الصافى الأديم إذا خجل يحمرّ ، وإذا فرق يصفرّ ، ومنه قولهم : ديباج الوجه ، يريدون تلوّنه من رقّته .

وقال عدىُّ بن زيد فى تلوّن الوجه :

حُمرة خلط صفرة فى بياضٍ ... مثل ما حاك حائكٌ دِيباجا

---

(١) ديوانه ١٥٣ ، والعرارة : شجر لها نور أصفر .
(٢) درة الغواص ١٠٤ .
(٣) الدرة : « يحمار » .
(٤) الدرة : « للسنة المجدبة حمراء » .
(٥) فى القاموس : « الجميل : الشحم الذائب » .
(٦) فى القاموس : « الملحة : بياض يخالط سواد » .

وقال ابن عبد ربه فى ذلك :

يالؤلؤًا يَسْبِي العقــــولَ أنيقاَ     وَرَشًا بتقطيع القُلوبِ رَفِيقاَ[1]
ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثـله     دُرًّا يعود من الحياءِ عَقِيقـاَ
وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهِهِ     ألفيْتَ وجهك فى سَنَاه غريقـاَ
يامن تقطّع خَصْرُهُ من رِقّةٍ     ما بالُ قلبك لا يـكون رَقِيقاَ !

وأعاد معنى: « درًّا يعود من الحياء عَقِيقًا » ، فى بيت آخر فقال وأحسن :

كم سَوْسَنٍ لَطَفَ الحياء بلونه     فأصاره ورداً على وجَنَاتِهِ

قالت امرأة خالد بن صفوان لخالد: لقد أصبحتَ جميلاً ، قال : وكيف ذاك وما فِيَّ رداء الحُسْنِ ولا عموده ولا بُرْنسه ! قالت : وما ذاك ؟ قال : عموده الشَّطَاط [2] ، ورداؤه البَيَاض ، وبرنسه سَوَاد الشعر .

وقالوا: الحَلاَوة فى العينين ، والجمال فى الأنف ، والحسن فى الوجه، والملاحة فى الفم .

وقال بعضهم : الظرف فى القدّ ، والبراعة فى الجِيد ، والرّقة فى الأطْراف والخَصْر ، والشأن كلّه فى الـكلام ، والمدار على العقل .

وقال علىّ بن عبيد الريحانىّ : الحسن تناسبُ الصورة ، وزينته اعتدال الحركة ؛ ثم مالا يحسن اللسان الترجمة عنه من خفّة الروح والقبول .

وسئل عن اختياره من الحُسن ، فقال: أمّا ما يمـكن نعته فخَلّتان

---

(١) مطمح الأنفس ٥٢

(٢) الشطاط : الطول وحسن القوام.

وثلاثة بينهما ، ليست من صفة اللسان تعجبني صورة أ كثر نعتها الملاحة ، وبراعة بفصاحة ، والخلة الثالثة نسميها مَراح الروح وشكل النَّفس وماهية الشوق ، وبمقدار تمكّن الثالثة من القلب يستحكم سلطان الهوى على العقل ، فهذه زبدة هذا الباب .

وأحسن الحسن ،ما لم يُجْلَبْ بتزيين وتضييق ، وتحلية وتزويق ، وأطيب الطيب أنفاس عَبِقةٌ من كبد سليمة ، ومزاج معتدل ، وثغر نقيٌّ ،قال امرؤ القيس:

ألم ترَ اَنِي كلّما جئتُ طَارِقاً وجدْتُ بها طيباً وإن لم تطيَّبِ (١)

ويحكى أن سيبويه كان يقرأ على الخليل بن أحمد منتقباً ، لئلا يشغَله بحسنه عن تعليمه . ومعنى «سيبويه» بالفارسية رائحة التفاح ، وكان يقال : إنه أطيَبُ الناس رائحة ومع تحفّظ الخليل وورعه ، فكان إذا استأذن عليه سيبويه يقول : مرحباً بزائرٍ لا يملّ .

وكان أبو حاتم السجستاني يختم القرآن في كل أسبوع ، ويتصدّق كلّ يوم بدينار ، ومع هذا الفضل كان يميل بحبّه إلى أبي العباس المبرّد ، وكان أبو العباس يلزم حلقته وهو غلام وسيم ، فقال فيه :

ماذا لقيتُ اليومَ من مُتَمَجِّنٍ خَنِث الكلاَمِ (٢)
وقف الجمال بوجهِهِ فسمتْ له حدقُ الأنَامِ
حركاتُه وسكونُه يُجنَى بها ثمر الاثامِ
فإذا خلوتُ بمثله وعزمت فيه على اغترامِ (٣)
لم أعْدُ أفعالَ العَفَا ف ،وذاك آكدُ للغرَامِ
نفسي فداؤك يا أبا الـعباس ياجلَّ اعتصامي

(١) ديوانه ٤١ .
(٢) الشعر والخبر في ابن خلكان ١: ٢١٨، والأبيات الثلاثة الأخيرة في نزهة الألباء ١٩٠
(٣) ابن خلكان : « اعتزام » .

فارحمْ أخاك فإنه نَزْر الكرى بادى السّقام
وأنِله مادون الحرا م فليس يرغبُ فى الحرَام

والوَلُوع فى الجمال سجيَّة ركبها الله فى الأولياء وأكابر العلماء ، فمن دُونهم من الشوقة والغوغاء . وعلى قدر ذكاء الأرض يَطيب زرعها ، وعلى قدر طِيب التربة يطيب تبعُها ، فمنها العذب والأجاج وما بينهما ، وعلى قدر شرف النفس يكون حبّها ، فمنه المستحسن ومنه المستقبح .

* وكلّ إناء بالذى فيه ينضحُ *

فى كتاب الوشاح : العشق إذا تزيّن بالعفاف فهو معنى شريف ، ويتلو قوله تعالى : ﴿ الأخِلَّاء يَوْمَئذٍ بَعْضُهمْ لبعضٍ عَدُوٌّ إلّا المُتَّقِين﴾[1] ؛ فمن اتقى الله فهو خليل .

وذهبت طائفة من المتكلّمين البغداديين إلى أن الله تعالى إنما امتحن الناس بالهوى ، ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوَوْنه ، وليشقّ عليهم سخطه ، ويسرّهم رضاه ؛ فيستدلّوا بذلك على قدر طاعة الله تعالى . لأنه لامِثْلَ له ولا نظير ، وهو خالقهم غير محتاج إليهم ، ورازقهم مبتدئ المنن عليهم ، فإذا أوْجَبُوا على أنفسهم طاعة لسواه كان هو تعالى أولى أن يُتّبع رضاه .

قالوا : ولا ينبغى للعاقل ولا للجاهل أن ينكر علاقة شخص بشخص ، وحنين شكل إلى شكل ، ومؤالفة إلفٍ إلى إلفٍ ، فالقلوب صافية قابلة ، والعيون إليها ناقلة .

وقالوا : لاعاشق على الأغلب إلا موفورَ النَّعماء ، مكفىّ كدّ المعيشة ؛ لأنه من فراغ نفسه ورقّة حاشيته .

(١) سورة الزخرف ٦٧

وقد قيل : إن جميلاً وبُثينة لوقعدا ليلتين دون غداء وعشاء لبزق كلُّ واحد منهما فى وجه صاحبه .

ومن شرط المعشوق أن يكون ممّن يؤيس ويُطمع، ويستتر ويلم ، ويبدو ويُحجَب ، ويباين ويصعُب ، ويُرضى ويُسخط ، ويقرُب ويشحَط ، كما قال أبو الطيب :

وأحْلى الهوى ما شكَّ فى الوصل رَبُّه
فى الهجر فهو الدَّهرَ يَرْجُو ويتَّقى[1]
وبين الرّضا والسخط والقرب والنّوى
مجـــالٌ لدمـــعِ المقلةِ المترقرِقِ

والحسن أول سعادة المرء ، ورائد اليُمْنِ ، وسائق النُّجح ؛ لأن الله تعالى بلطفِ الحكمة ، وبِشرف الإبداع والصنعة ، لم يخلق الصورة مختارة الصفات ، سليمة من الآفات ، إلاَّ عن فضل الاحتفاء ، ولم يطابقها من الأخلاق إلاَّ بما يناسب جمالها من العقل والصفاء . وقلّما تجد الخلُق إلاّ تبعاً للخلقة ، تناسباً يطّرد، وأصلا لا ينعكس ، وإجماعاً لا ينفرد ، وما خلق الله نبيًّا قطّ إلا وقد بهر أهلَ زمانه بحسنه وإحسانه ؛ فإذا نظرتَه لأوّل وهلةٍ رأيتَه أحسنهم صورة ، وأتقنهم بنْيةً ، فهو أوْلَى مرتبة ، وأعلى منقبة .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله لا يعذِّب حِسان الوجوه ، سُود الحدَق» .

وورد عليه وفد عبد القيس ، وفيه غلام وضيء الوجه ، فأقعده وراء ظهره ، وقال : إنما أُتِيَ أخى داود من النّظر .

وقد أكثر الشعراء فى وصف الحسن ؛ فمن أحسن ذلك ما قال علىّ بن بسّام ؛ وكأنه يصف الفتى الذى ذكره الحريرىّ :

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٤ ، وفيه البيت الأول بعد الثانى .

يامَنْ تسرْبَل بالملاحة وارْتَدَى ... فعليه تعتكف العيونُ إذا بَدَا
فيرى هِلالاً زاهراً ويرى قضيـــباً ناضراً ويُرى كثيباً أملدَا
فإذا نهضت ترجرجا وإذا سفر ... ت تبلجا وإذا مشيت تأوّدَا
فترى الجبـين كتاج ملك زانَهُ ... درّ تراه منّزقا ومنضّدَا
ويجولُ ذاكَ الرَّشح فى أقطارِه ... كالياسمين جرَى به قَطرُ النَّدَى
الوجه فضىٌّ أحاط بوجنتىْ ... ذهب ، فأنبتَ عارضينِ زَبَرْجدَا
وفمٌ عقيقىٌّ تضمّن لؤلؤا ... رَطْباً ونظم فوق ذاكَ زُمرّدَا

ولأبى إسحاق الخفاجىّ(١) :

وأغيدَ أهدى نَرْجِساً من محاجرٍ ... وَثَنى فأبْدَى سَوْسَناً من سوالِفِ
وقد ماجَ مِنْ عِطْفَيْه ماء شبيبـةٍ ... تَعبّ ولا أمواجَ غيرُ الرَّوادِفِ
تطلّع مثل الرمح بسطة قامةٍ ... وفتكةَ ألحاظٍ ولينَ مَعاطِفِ

ولابن وكيع :

يامَنْ إذا لاحتْ محاسنُ وجهِه ... غفرت بدائعُها جميعَ ذنوبِه(٢)
إ كان فى تَعذِيب قلبى راحةٌ ... لك فاجتهد بالله فى تعذيبه

ولأبى إسحاق الخفاجىّ :

ياربّ وضّاح الجبين كأنما ... رسمُ العِذار بصفحتيه كتَابُ(٣)
تُغْرَى بطلعته العيون ملاحـةً ... وتبيتُ تعشَقُ عقلَه الألبَابُ
خُلِعَتْ(٣) عليه منَ الصَّباحِ غلالةٌ ... تَندَى ومن شفق السَّحاب نِقَابُ

---

(١) هو أبو إسحاق بن إبراهيم بن أبى الفتح بن خفاجة ، والأبيات فى ديوانه ٣٣٦ .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٤٠ ، وبعده هناك :
النَّجمُ يَعْلَمُ أنَّ عينِىَ فى الدُّجَى ... معقودة بطلوعه وغروبه
(٣) ديوانه ٣٣٧ .

ولأبى نواس :

أساء فزادته الإساءة حُظْوَةً حبيبٌ على ما كان فهو حبيبُ
يعدّ علىّ الواشيان ذنوبَهُ ومن أين للوجهِ الجميل ذنوبُ !

ولأبى إسحاق الخفاجىّ :

تعلقتُه نَشْوانَ من خمرِ ريقةٍ له رشفها دونى، ولى دونها السُّكْرُ(١)
ترقرق ماء مُقْلَتاىَ ووجْهُهُ ويذكَى على قلبى ووجنتِه الجمْرُ
أرقّ نسيبى فيه رِقَّةَ حسنهِ فلم أدر أىٌّ قبلها منهما السِّحْرُ
وطبْنا معاً ثغرا وشعرا ، كأنما له منطقى ثغرٌ ، ولى ثغرُه شعرُ

* * *

وَقَدِ اعْتَلَقَ شَيْخٌ بِرُدْنِهِ ، يَدَّعِى أَنَّهُ فَتَكَ بِابْنِهِ ، وَالْغُلاَمُ يُنْكِرُ عِرْفَتَهُ ، وَيُكْبِرُ قِرْفَتَهُ ، وَالْخِصَامُ بَيْنَهُمَا مُتَطَايِرُ الشَّرَارِ ، وَالزِّحَامُ عليهما يجْمَعُ بَيْنَ الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ ، إلى أَنْ تَرَاضَيَا بَعْدَ اشتطاطِ اللَّدَدِ ، بِالتَّنَافُرِ إلى وَالِى الْبَلَدِ ، وَكَانَ مِمَّنْ يُزَنُّ بِالْهَنَاتِ ، وَيُغَلِّبُ حُبَّ البنينَ عَلَى الْبَنَاتِ ، فَأَسْرَعَا إِلَى نَدْوَتِهِ ، كالسُّلَيْكِ فى عَدْوَتِهِ .

* * *

قوله :« وقد اعتلق شيخ بُرْدنه »، أى تعلّق بكمه وأطراف ثوبه . فَتَكَ : قتل ، والفتك : أن تأتِىَ رجلا آمنا منك وتقتله، أو تمكّن له فى موضع لا يعرف بك، فإذا أتاك قتلتَه ، ثم سُمِّىَ من هجم على الأمور العظام فاتكاً ، فإذا أدخلت

(١) ديوانه ٣٠٣ :

رجلا منزلك أو موضعاً لا مغيث له فيه ، فقتلته فذلك الغيلة ، فإن كان رجلا يخافك فأمنته وآنسته حتى آمنك ، ثم قتلتَه فذلك الغدر. عِرْفته: معرفته. يُكْبِر: يراه أمراً كبيراً قِرْفته : تهمته ، وقد قرفتُه بذنب ، إذا حملتَه عليه واتّهمته به، وشبّه ما يلحق كلّ واحد منهما من أذى صاحبه بشرر النار اشتطاط اللَّدَد : اشتداد الخصام . التنافر : التحاكم . يزنّ بالهنات : يتّهم بالقبائح ، والهنات : الدواهى والهَن والهَنة من الكنايات العامّة التى يكنى بها عن كلّ شىء ولا يقتصر بها على شىء دون شىء .

[ فصل فى ذكر بعض أخبار الولاة ]

قوله «ويغلِّبُ حبَّ البنين على البنات» نذكر هنا من الولاة المتهمين بهذه الهنات مايليق بالموضع . قال أهل الأخبار: إن القاضى يحيى بن أكثم [1] ، كان مشتهراً بحبّ الغلمان ، وإن أهل البصرة رفعوا أمره إلى المأمون قبل اتّصاله به ، وقالوا فيه :إنه قدأفسد أولادهم،وظهرت منه الفواحش، وأنه القائل فى صفة الغلمان:

أربعةٌ تَعْشَقُ ألحاظُهمْ فعيْن من يعشقهم ساهِرَهْ
فواحد دنياه فى وجْهِهِ منافقٌ ليست له آخِرَهْ
وآخر دنياه منقوصةٌ من خَلْفِه آخرةٌ وَافِرَهْ
وثالث فاز بكلتيهمَا قد جمع الدُّنيا مع الآخِرَهْ
ورابعٌ قد ضاع ما بينهمْ ليست له دنيا ولا آخِرَهْ

فاستعظمها المأمون وعزله عنهم .

ثم اتصل بعد ذلك يحيى بالمأمون ، ونادمه ، فخرج معه فى يوم عيد ، وقد ركب الجند أمامه ، ويحيى يحادثه ويضاحكه ، فنظرت إلى غلام أمْرَد من أولاد

(١) انظر أخبار يحيى بن أكثم فى ابن خلكان٢ : ٢١٧ - ٢٢٤ وأخبار القضاة لوكيع ٢ : ١٦١ - ١٦٧ ، وتاريخ بغداد ١٤ : ٢٩١ - ٢٠٤ ، وثمار القلوب ١٠٦ ، ١٥٧

الجند فى غاية الفَراهة ، عليه ثوب حرير أخضر ، ودرع موشّاة مزرّرة بالذهب . فالتفت إلى يحيى ، وقال له : ما تقول فى هذه البضاعة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ هذا لقبيح من إمام مثلك مع فقيه مثلى ، قال : فمن الذى يقول :

قاضٍ يرى الحدّ فى الزّناة ولا ... يَرى على من يلوطُ من باسِ

قال : من عليه لعنة الله وغضبه ، ابنُ أبى نعيم[1] ، الذى يقول :

أميرنا يرتَشِى وحاكمُنَا ... يلوط والشرّ بيننا راسى

قاض يرى الحدّ .. البيت ، وبعده :

لا أحسِب الموت ينقضى وعلى الا ... أمّة والٍ لآل عبّاسِ[2]

قال : أوصحيح هذا ؟ قال : نعم ، قال : يُنفَى إلى السّند ، وإنما مازحناك ، ثم قال المأمون فى الغلام :

أيّها الراكب ثوباً ... ه حريرٌ وحديدُ
جئت للعيد وفى وجـ ... ـهك للأعين عيدُ
أنت جندىّ ولكن ... فيك للحسن جُنودُ

وفى يحيى يقول ابن أبى نعيم :

ياليتَ يحيى لم يلده أكثَمُهُ ... ولم تطأ أرضَ العراق قدمُهْ[3]
ألوَطُ قاضٍ فى البلاد نعلمُهُ ... أىّ دواةٍ لم يُلِقْهَا قلمُهْ
* وأىّ جُحْرٍ لم يلجْه أرقمُهْ[4] *

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٢ .
(٢) ديوانه ٩٨٧
(٣) المضاف والمنسوب ١٥٨ .
(٤) ذكر فى المضاف والمنسوب بعد الأبيات : « فقال يحيى : دواتك أيها الأمير » .

وهذا كقول الآخر :

* يُدْخِل الأفعى إلى خِيس الأسَدْ *

ويحيى خُراسانىّ من مَرْو . وبلغ من تحكّمه على المأمون أن فرض لأربعمائة غلام مُرْد ، واختارهم حِسان الوجوه يركبون لركوبه ، فقال راشد بن إسحاق :

خليـلىّ انظرا متعجِّبيْنِ ... لأظرف منظرٍ تقْلاه عَيْنِى
لفرضٍ ليس يُقبل فيه إلا ... أسيلُ الخدِّ حُلْوُ المقلتيْنِ
يقودهم إلى الهيجاء قاضٍ ... شديدُ الطَّعْن بالرُّمح الرُّدَيْنِى
إذا شهدَ الوغى منهم غلامٌ ... تجدّل للجبين ولليديْنِ
وبات الشيخُ منحنياً عليه ... وصُدغاه تحاذِى الركبتيْنِ

وقال فيه :

وكنا نرجِّى أن نرى العدْل بيننا ... فأعقبناه بعد الرّجاء قنوطُ
متى تَصْلح الدّنيا ويصلُح أهلُهـا ... إذا كان قاضِى المسلمين يلُوطُ

* * *

وكان القاضى أبو القاسم علىّ بن محمد التنوخىّ(١) مولعاً بالغلمان ، وكان له غلام اسمه نسيم ، فى نهاية من الحسن ، وكان يُؤْثره على سائر غلمانه ، ويخصّه بتقريبه واستخدانه ، فكتب إليه بعض من يأنسُ به :

هل علَى مَنْ لامُه مدغمةٌ ... لاضطرار الشعر فى ميم نسيم

فوقّع تحت البيت : نعم ، ولم لا ! (٢)

وسنذكر من شعره فى هذه المقامة ما يستملح .

(١) انظر أخبار تاريخ بغداد ١٢ : ٧٧ ، وابن خلكان ١ : ٣٠٣ .
(٢) الخبر فى معجم الأدباء ١٤ : ١٦٦ .

ومن كان يميل إلى الغلمان من الأمراء أبو العشائر الحمداني[١] الذي يقول فيه المتنبي :

فيا بحرَ البحُـور ولا أورِّى ويامِلكَ الملوك ولا أحاشِى[٢]
كأنّك ناظـــرٌ فى كلّ قلبٍ فما يخفى عليك محـــلُّ غاشِ

وقال بعض الرواة : دخلت على أبى العشائر أعودُه من علّة ، فقلت : ما يجد الأمير ؟ فأشار إلى غلام قائم بين يديه ، كأنّ رضوان قد غفل عنه فأبَق من الجنة ، ثم أنشأ يقول :

أسْقَمُ هذا الغلامُ جسمى بما بعينيه مِنْ سَقَامِ[٣]
فتورُ عينيْه من دَلاَلٍ أهدى فتوراً إلى عظامى
وامتزجتْ روحُه بروحى تمازُجَ المــــاء بالمـــدام

ولأبى العشائر :

سطا علينا ومَنْ حاز الجمال سطاَ ـ ظبىٌ من الجنة الفردوس قد هَبَطَا
له عِذاران قد خُطّا بوجنتِـــهِ فاستوقفا فوق خدّيه وما انبَسَطاَ
وظلّ يخطُو فكلٌّ قال من شغَفٍ : يا ليتَه فى سواد الناظرين خَطاَ !

ومع هذا الميل ، كان نزيه النفس ، رفيع الهمة ، سليم الناحية ، وكان فى الجود غاية ، وفى الشجاعة نهاية ، وفى الشعر آية . وإذا كان المتنبى الذى هو أشعرُ الناس عند الأكثرية ، يقول حين عوتب فى آخر أيامه على فتور شعره : قد تجوّزت فى شعرى ، وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة ، مذ فارقت آل حمدان ، ومنهم الذى يقول ـ يعنى أبا العشائر :

(١) انظر أخبار أبى العشائر فى يتيمة الدهر ١ : ٧١ ـ ٧٥ .
(٢) ديوانه : ٢١١ .
(٣) يتيمة الدهر ١ : ٧٢ :

أأخا الفوارِس لو رأيتَ مواقفِى والخيْل من تحت الأسنة تَنْحَطُ[1]
لقرأتَ منها ما تخطُّ يد الوغى والبيض تُشكِل والأسنة تنقطُ

فهكذا تستعار المعانى البديعة فى الألفاظ الرفيعة ؛ فما ظنك بمَنْ يُثْنى عليه المتنبى هذا الثناء !

* * *

وممَّن وصف غلاماً فأحسن ، الأمير تميم بن المعزّ صاحب مصر ، حيث يقول :

وباتَ ضجيعى منهُ أهيفُ ناعمٌ وأدعجُ وَسْنَانٌ وألْعَسُ أشنبُ[2]
كأنَّ الدجى من لون صُدغيه طالعٌ وشمس الضُّحى فى صحن خدِّيه تَغْرُبُ

وقال أيضاً :

يا ليلةً باتَ فيها البدرُ معتنِقِى وكانت الشمس فيها بعض جُلاَّسِى[3]
وبتُّ مستغنياً بالثَّغر عن قدَحِى وبالخدود عن التُّفاح والآس

وقال أيضاً :

وَرْدُ الخدود أرقُّ من وَرْدِ الرياض وأنعَمُ[4]
هذا تَنَشَّقُهُ الأنوفُ وذَا يقبِّله الفَمُ
فإذا عدلت فأفضل الْـ ـوردين ورد يُلثَمُ

قوله : « ندوته » ، أى مجلسه .

## [ذكر السُّلَيْك بن السُّلَكة]

والسليك ، هو ابن السُّلَكة ، معروف بأمّه ، وكانت أمَةً سوداء شديدة

(١) يتيمة الدهر ١ : ٧١

(٢) ديوانه ٤١ ، ٤٤ . اللعس : سواد مستحسن فى الشفة . والشنب : رقة وعذوبة وبرد فى الأسنان .

(٣) ديوانه ٢٥٠ . (٤) ديوانه ٣٨٦ .

السواد ، وكان هو أسود ، وأبوه عمرو بن سنان بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدىّ التميمىّ .

وكان يسبق الخيلَ على رجليه ، وكان من العدّائين ومن رَجْلَى العرب — وهم الذين يسعَوْن على أقدامهم ، ويسبقون الخيل ، فيستغنون بأرجلهم عنها — وكان من أشجع الناس ، وكان لا يُغيرُ إلاّ وحده ، وكان يقال له : الرئبال :

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن معد يكرب ، فقال : أىّ العرب كان أبغضَ لك أن تلقاه ؟ فقال : أمّا من مَعدّ فعدىّ بن فَزارة ومُرّة بن ذبيان وكلاب بن عامر وشيبان بن بَكْر وشقّ بن عبد القيس والأراقم من تَغلب ، ثم لو جُلْت بفرسى على مياه سعد ماخفت هَيْجَ أحدٍ ، ما لم يلقنى حُرّاها أو عبداها ، قال : أما حُرّاها فعامر بن الطفيل وعُتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما عبداها فعنترة الفوارس وسُليك المقانب .

وأما عدْوته المذكورة ، فيقال : إنه أحاط به عدوّه فنزا نزوة عُدّ فيها أربعًا وعشرون خطوة ، وعُدَّ أيضاً فى نزوة للشّنفَرى إحدى وعشرون خطوة .

ويقال فى المثل : أعدى من الشّنفرَى ، وأعدَى من السليك .

فأما الشّنفرَى فإنه أغار على بَجيلة مع تأبّط شرًّا وعمرو بن براق ، فرصدتْهم بجيلة على الماء ، فقال تأبّط شرًّا : إنّ بالماء رصَدًا ، فقالا : ليس عليه أحد ، ولا بدّ من وروده ، فورد الشّنفرَى ثم عمرو ، فقال تأبّط شرًّا : القوم إنما يريدوننى ، فلذلك لم يعرضوا لكما ، وإذا وردتُ أنا الماء فسيشدّون علىّ ، ويأسروننى ، فاذهب يا شَنْفَرى ، كأنك تهرب ، وكن فى أصل ذلك القرن ، فإذا سمعتَنى أقول : خذوا خذوا ، فتعال فأطلقنى ، وقال لعمرو : إنّى سآمرك أن تستأسر لهم ، فلا تبعد ، ولا تمكّنهم من نفسك . ثم ورد الماء ، فشدّوا عليه ، وكتفوه ، وفعلا

ما أمرهما ، فقال : تأبّط شرًّا: يامعشر بَجيلة ، هل لـكم في أن تيسّروا فداءنا به ونستأسر لـكم ابنَ براق ؟ قالوا : نعم . فقال ياعمرو : هل لك في أن تستأثر ويُياسرونا في الفداء ؟ قال : حتى أروّضَ نفسي شوطاً أو شوطين ، فجرى الأول كالريح ، والثاني كالخيل، ثم أرادأن يجريَ ثالثاً ، فجعل يقع ويقوم فشلاً ؛ يُطمعهم بذلك ، فقال لهم تأبّط شرًّا : خذوا خذوا ، فأسرعوا إليه بأجمعهم ، وهوَى الشّنفَرى كالريح فقطع وثاقه ، ثم أحضروا ثلاثتهم ، فنجوْا ،فقال تأبّط شرًّا من قصيدة :

ليلةَ صاحوا وأغرَوْا بي سِراعَهُمُ ... بالعَيْكَتَيْن لدَى عَمْرو بن بَرّاقِ[1]

لا شيء أسرعُ منّي غير ذِي عُذَرٍ ... أو ذي جناح بجنب الرَّيْدِ خَفّاقِ[2]

فالثلاثة عدّاءون ، والمثل مقصور على الشّنفَرى .

وأما السُّليك، فرأته طلائع جيش لبكر بن وائل ،جاءوا مجرّدين ليُغيروا على تميم ، فقالوا : إن عَلِم السليك بنا أنذر قومه ، فبعثوا إليه فارسين على جوادَيْن، فلمّا صاحاه خرج يمحص[3] كأنه ظبي ، فطارداه يوماً أجمع ، ثم قالا : إذا كان الليل أعيا فنأخذه ، ووجدا أثر بَوْله قد خدّ[4] في الأرض ، فقالا : قاتله الله ! ما أشدّ متنه ! فتبعاه ليلتهما : فلما أصبحا وجداه قد عثر بأصل شجرة ، فندر[5] منها كـكان قدمه ، وسقطت قوسُه في جريه فانحطمت،فوجدا قطعه منها قد ارتَزّت[6] بالأرض ، فقالا : ما بعد هذا شيء ، والله لاتبعناه بعد هذا . ومرّ السليك إلى أهله ، فأنذرهم ، فـكذّبوه لبعد الغاية ، فقال :

(١) من قصيدة مفضلية ٢٧ ـ ٣١ ، مطلعها :

ياعيدُ مالكَ من شوقٍ وإيراقِ ... ومرِّ طيفٍ على الأهوال طرّاقِ

والعيكتان : موضع ، ورواية المفضليات: «معدى ابن براق» ، ومعدى مصدر ميمى من عدا يعدو .

(٢) العذر : جمع عذرة ، وهى ماأقبل من شعر الناصية على وجه الفرس . والريد : الشمراخ الأعلى من الجبل ، يقول : لاشيء أسرع مني إلا الفرس ، وإلا الطائر الجارح الذي يأوي إلى الجبل.

(٣) يمحص : يسرع .

(٤) خد في الأرض : شقها .

(٥) ندرت : سقطت .

(٦) ارتزت : أثبتت .

يكذّب بني العمّران: عمرو بن جندب ... وعمرو بن سعد والمكذّب أكذب[١]
ثكلتكما إن لم أكن قد رأيتها ... كراديس يهديها إلى الحيّ موكب
كراديس فيها الحَوْفَزَان وحولَه ... فوارس همّام متى يَدْعُ يركبوا

فصدّقه قوم، فنجوا، وكذّبه آخرون، فورد عليهم الجيش فاكتسحهم.

ومن شعر السليك يرثى فرسه — وكان يقال لها النحّام — وأنشدها المبرّد فى باب التشبيه من الكامل:

كأن قوائم النّحّام لمّا ... تحمّل صُحبتى أُصُلاً مَحار[٢]
على قَرْماء عالية شَوَاهُ ... كأنّ بياض غُرّته خِمار[٣]
وما يُدْريك مافقرى إليه ... إذاماالقومُ وَلّوْا أوأغارُوا[٤]
ويُحضِرفوق جُهْدِ الحُضْرِ نَصًّا ... يصيدُك نافلاً والمخّ رار[٥]

أى يصيدلك. ونافلا: ثانيا، ورار: ذائب من الهزال؛ وحكاية السُّليك، عن أبى عبيدة، وحكاية الشّنفَرى عنه وعن الشيبانىّ؛ وكلتاهما على اختصار.

ونزل على جماعة من كنانة ضيفاً، فأكرموه، وجمعوا له إبلاً كثيرة، وأعطوه إياها، وكان قد كبِر وشاخ، وذهبت قوّته، وانتقص عَدْوُه، فقالوا له: إنْ رأيتَ أن ترينا مابقى من عَدْوك! قال: نعم، ابغُوا لى أربعين شاباً،

---

(١) الأغانى ٢٠ : ٣٥٣ (طبعة بيروت)
(٢) الكامل ٣ : ٣ : ٦٩، قال فى شرح هذا البيت: المحار: الصدفة، يريد الملاسة وأنه قد ارتفعت قوائمه للموت. والأصل: جمع أصيل، والأصيل: العشى.
(٣) قال أبو العباس: قرماء، ممدودة: اسم موضع: وشواه: قوائمه.
(٤) قال أبو العباس: ولوا أو أغاروا؛ إذا طلبوا أو هربوا.
(٥) قوله. « يصيدك »، أى يصيد لك، يقال: صدتك ظبيا، قال الله عز وجل: ﴿ وإذا كالُوهم أوْ وزنوهم يُخْسِرُون ﴾.

وأتونى بدِرْع ثقيلة عظيمة ، فأتوا بِهَا واختارُوا من شبانهم أربعين أقوياء عدّائين ، فلبس سُليك الدرع ، ثم قال للشبّان : الحقونى ، ثم عَدَا عَدْواً وسطاً ، وعدا الشبان وراءه جهدهم ، فلم يلحقوه حتى غاب عنهم ، ثم كرّ راجعاً حتى عاد إلى القوم وحدَه يخطِر ، والدرع عليه، وسبق الشبَّان .

وخرج فى ليلة مقمرة يطلب الإغارة ، فغلب عليه النوم آخر الليل ، فبينما هو ملتفّ بكساء، جَثَم عليه رجلٌ مثله ، شديد البأس ، عظيم القوّة ، وأمسك على يديْه ، ومنَعه التحرّك ، وجعل يلهزه ويؤذيه ، ويقول له : استأسرْ ياخبيث ، فاجتهد سليك حتى خلّص إحدى يديه ، فضمّ الرجلَ إليه ضَمّة ، وعصره عصرة ، فضرَط ، فقال له : أضرِطاً وأنت الأعلى[1] ! فأرسلها مثلا ، فلما تخلّص منه ، قال له : من أنت ؟ قال : أنا رجل افتقرت فقلت : لأخرجَنّ ولا أرجع إلى أهلى حتى آتيَهم وأنا غنىّ . فقال له السُّليك : انطلق معى ، فانطلقا فوجدا ثالثاً ، قصّتُه قصّتهما ، فاصطحبوا حتى أتوا وادياً لمُراد ، فلما أشرفوا عليه إذا فيه نَعَمٌ ، قد ملأ نواحيه من كثرته ، فقال لهما السُّليك : كونا قريباً منّى حتّى آتىَ الرِّعاء ، فأعلمُ علمَ الحىّ : أهو قريب أم بعيد ؟ فإن كان قريباً رجعت ، وإن كان بعيداً أوحيت إليكما بقولىْ فأغيرا . فأتى الرِّعاءَ فاستخبرهم عن الحىّ ، فأخبروه ببعد الحىّ ، وأنهم إن طُلبوا لم يدرَكوا ، فقال للرّعاء : ألا أغنّيكم؟ قالوا : بلَى ، فرفع صوته فغنّى :

يا صاحِبَىّ ألا لا حىّ فى الوادِى سوى عبيدٍ وآمٍ بين أذْوَادِ[2]
أتنظران قريبا ريث غفلتِهِمْ أم تغدوان فإن الريح للعادِى!

فلما سمعا ذلك أتياه ، وطردوا الإبل فذهبوا بها ، ولم يبلغ الصريخُ الحىّ ، حتى فاتوا بالإبل[3] .

(١) الميدانى ١ : ٤٢٠ ، جمهرة الأمثال ١ : ١٣٠
(٢) الريح هنا : القوة
(٣) الشعر والشعراء ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

قال ابن الأعرابى : آم مقلوب آيم ، وهم العزّاب ، جمع أَمَة[(١)] .

وكان السّليك من أدلّ الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها ، وكان يستودع الماء بيضَ النعام فى الشتاء ، ويدفنه فى المفاوز العظيمة ، فإذا كان الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار على رَبيعة ، وشرب من ذلك الماء . وكان يقول : اللّهم إنى أعوذ بك من الخيْبة ، وأما الهيبة فلا هيبة .

* * *

قوله : «عِدْوته» ، العِدوة بالكسر : الحالة ، وبالفتح المرة الواحدة ، فيريد الحريرىّ أن إسراعهما إلى الوالى كان كعدوة السليك .

* * *

فَلَمَّا حَضَرَاهُ ، جَدَّدَ الشَّيْخُ دَعْوَاهُ ، واسْتَدْعَى عَدْوَاهُ . فاسْتَنْطَقَ الْغلاَمَ وَقَدْ فَتَنَهُ بمَحَاسِنِ غُرَّتِهِ ، وَطَرَّ عَقْلَهُ بِتَصْفِيفِ طُرَّتِهِ ، فقالَ : إِنَّهَا أَفِيكَةُ أَفَّاكٍ ، عَلَى غَيْرِ سَفَّاكٍ ؛ وعَضِيهَةُ مُحْتَالٍ ، على مَنْ لَيْسَ بِمُغْتَالٍ . فقال الوالى للشَّيخ : إِنْ شَهِدَ لَكَ عَدْلاَنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلاَّ فاسْتَوْفِ مِنْهُ الْيَمِينَ . فقال الشيخُ : إِنَّهُ جَدَّلَهُ خاسِياً ، وَأَفَاحَ دَمَهُ خالِياً ، فَأَنَّى لِي شاهِد ، ولَمْ يَكُنْ ثَمَّ مُشاهِدٌ ! ولَكِنْ وَلِّنِي تلقِينَهُ الْيمِين ، ليَبِينَ لك : أيصدق أم يَمِينُ ! فقال له : أنت المالك لِذَلِكَ ؛ مَعَ وَجْدِكَ الْمُتَهَالِك ، على ابنِك الهالك !

* * *

واستدعى عدواه ، أى طلب إغاثته وأعداه الحاكم : أغاثه . استنطق : أمره أن ينطق، وقد بيّن سرّ هذا الاستنطاق فى الرابعة والثلاثين عند شراء الغلام

(١) نقله فى اللسان ١٨ : ٤٧ .

قال : « ثم استنطقته عن اسمه ، لا لرغبة فى علمه ، بل لأنظر أين فصاحته من صباحته ، وكيف لهجته من بهجته[1] » . وكذلك لم يُرِد الوالى أن يستنطقَه ليقول حجته ؛ بل ليعلم حلاوته من صورته التى فتنته . وقد ذكرنا أنّ فائدة الحسن إنما تدور على اللسان .

[ إبراهيم النظام وبعض أخباره وشعره ]

وهذا الاستنطاق هو الذى ذهب بإبراهيم بن سيار النظّام ، الّذى هو إمام فى علم الكلام إلى علاقة غلام ؛ وذلك أنه لَقِيَ غلاماً جميلَ الوجه ، مقبول الصورة ، فاستحسنه ، وتصوّر فيه الصورة الباطنة المناسبة لخِلقته الظاهرة ، فقال له : يا غلام ، إنه لولا ما سبق من قول الحكماء ، لما جعلوا السبيل لمثلى إلى مثلك بقولهم : لا ينبغى لأحد أن يصغُر عن أن يقول ، ولا أن يكبُر عن أن يقال له ، لَمَا أنستُ إلى مخاطبتك ، ولا انشرح صدرى إلى محادثتك ، لكنّه سبب الإخاء وعَقْد المودّة ، ومحلُّك من قلبى محلّ الروح من جسد الجبان ، فقال له الغلام ـ وهو لا يعرفه : لئن قلتَ ذلك أيُّها الرجل ، لقد قال أستاذُنا إبراهيم بن سيار النظام : الطباع تجاذِب ما شاكلها بالمجانسة ، وتميل إلى ما قارنها بالموافقة ، وكيانى مائل إلى كيانك بكلّيتى ؛ ولو كان الذى انطوى عليه لك عَرَضاً لم أعتدّ به ودًّا ، ولكنه جوهر جسمى ، فبقاؤه ببقاء النفس ، وعدمه بعدمها ، وأقول كما قال الهذلىّ :

فتبيَّنى أنى بكم كلِفٌ ثم اصنعى ما شئت عن عِلْمٍ[2]

فقال له النظام : إنما كلّمتك بما سمعت ، وأنت عندى حَسن الصورة غلام ، ولولا أنّ محلّك محلٌّ مقيم ما تعرّضت لك ، ثم اعتلقه النظام بعد ، وقال فيه جريا على علمه :

---

(١) متن المقامات ص ٣٧٣ ( طبع الحسينية ) .
(٢) ديوان الهذليين ٩٧٣ ، ونسبه إلى أبى صخر ( طبعة مدنى ) .

توهّمه طرفى فآلم خدّه فصار مكان الوهم من نظرى أثْرُ[1]
وصافحه كفّى فآلم كفّه فمِنْ لمس كفّى فى أنامله عَقْرُ
ومرّ بفكرى خاطراً فجرحته ولم أر خَلْقا قطّ يَجْرحه الفِكْرُ[2]

وقال فيه أيضا :

وإذ تأمّل فى الزّجاجة ظلّه جرحته لحظة مقلة الظّلّ

وقال فيه أيضا :

أفرغ من نور سماوىٍّ مصوّرٍ فى جسم إنسىّ
وافتقر الحسن إلى حسنه فجلّ عن تحديد كيفىّ

وقال فيه :

يا مشرقا ملأ العيو ن فلحظها ما يستقلّ[3]
أوفى على شمس الضُّحى حتى كأنّ الشمس ظلّ
أتريد قتلِى عامداً ولَقَتْلُ مثلِى ما يحلُّ !

فصرّف فى شعره من صناعته ، وأبدع فى تخيله ببراعته .

* * *

قوله: «غرّته» ، أى وجهه . طَرّ ،أى قطعوأذهب . تصفيف طُرّته: شعره المعتدل على جبهته . أفيكة أفّاك : كِذبة كذّاب . سفاك: قتّال . عضيهة: بهتان وباطل . مغتال : قاتل الغيلة . استوف : استكمل . جدّلهُ : صرَعه وألقاه على

(١) أمالى المرتضى ١ : ١٨٨
(٢) بعده فى أمالى المرتضى:
يمرّ فمن لينٍ وحُسْنِ تعطّفٍ يقال به سكرٌ وليس به سُكْرُ
(٣) ديوان المعانى ١ : ٢٣١

الجدالة ، وهى الأرض : خاسياً : متباعداً ممنوع الكلام ، كأنه قهره ومنعه أن يصيح عند قتله ، ولذلك لم يجد عليه شاهداً ، وأصله الهمزة فسهله ليوافق «خاليا» إن أخذتَه من خسأت الكلب ، وإن أخذته من خَسِيَ البصرُ إذا كلّ ، فلا تسهيل فيه ، ومعناه قريب من الأول ،أى أنه أضعفه بالضرب حتى لم يستطع الكلام ثم قتله . أفاح دمه، بحاء مهملة: أراقه . قال أبو زيد فى نوادره : أفحت دمه ففاح فَيْحا وفيحانا ، وأنشد :

نحن قتلنا الملك الجحْجَاحَا ولم نَدَعْ لسارحٍ مُرَاحَا

* إلاّ دياراً أو دما مُفَاحَا *

وقال أبو حاتم: أراد : ودما مفاحا أى مُهراقا . خاليا : بمعنى «منفردا» . أنّى ، بمعنى كيف . مُشاهد : من شاهد حاله وحضر عليها . وَلِّى : مَكِّنِّى . تلقينه : تفهيمَه وإلقاءه عليه . يمين : يكذب . وجْدك : حزنك . المتهالك : الكثير التفاوت ، وتهالكت المرأة عليه : تراخت عليه ، وتكاسلت،قال الأعشى(1) :

تهالك حتى ينكر المرء عقلَه وتُسْبِى الحكيمَ ذا الحجى بالتَّقَتّلِ(2)

* * *

فَقَالَ الشَّيْخُ لِلْغُلَامِ : قُلْ : وَالَّذِى زَيَّنَ الْجِبَاهَ بِالطُّرَرِ ، وَالْعُيُونَ بِالْحَوَرِ ، وَالحواجِبَ بِالْبَلَجِ ، وَالْمَبَاسِمَ بِالْفَلَجِ ، وَالْجُفُونَ بِالسَّقَمِ ، والأنوفَ بِالشَّمَمِ ، وَالْخُدُودَ بِاللَّهَبِ ، وَالثُّغُورَ بِالشَّنَبِ ، وَالْبَنَانَ بِالتَّرَفِ ، وَالْخُصُورَ بِالْهَيَفِ ، إِنِّى مَاقَتَلْتُ ابْنَكَ

(١) اللسان ـ فيح ، ونسبه الى أبى حرب بن عقيل .

(٢) ديوان الأعشى ٣٥٣

(٣) الديوان : « حتى ينكر المرء عقله » . وتهالكت المرأة فى مشيها : تمايلت .

سَهْواً وَلاَ عَمْداً، وَلاَ جَعَلْتُ هَامَتَهُ لِسَيْفِي غِمْداً ، وإلاَّ فرَمَى اللهُ جَفْنِي بالعَمَشِ ، وَخدِّي بالنَّمَشِ ، وَطُرَّتِي بالجَلحِ ، وَطَلْعِي بالبَلَحِ ، وَوَرْدَتِي بالبَهارِ ، ومِسْكَتِي بالبُخَارِ ، و بَدْرِي بالمحاقِ ، وفِضَّتِي بالاحْتِرَاقِ ، وشُعَاعِي بالإظلامِ ، ودواتى بالأقلام .

° ° °

قوله : « الذى زيّن الجباه بالطرر . . » ، إلى آخر يمينه ، إنما ذكر صفات الحسْن شيئاً بعدشىء ، ليُرى هذا الوالى كال الغلام ،فيشتدّ حبّه فيه ، فإذا ذكر صفةً من صفاته نبّه الوالى بذكرها على النّظر إليها ، فوجدها كما يصف ، فهو الآن فى هذه اليمين يجلُو محاسنَ الغلام عليه .

الطّرَر : جمعُ طُرّة ،وهى اعتدال الشعرعلى الجبهة ، والطُّرّة عندهم أن يقطع للجارية من مقدّم ناصيتها حتى لا يبلغ الشعر حاجبيها ، فيبقى ما بين شعر ناصيتّهاوحاجبيها من جبهتّها نقيًا ، والشعرعليها معتدل ، كطُرّة الثوب ثم تسمّى الشعور الحسان طُرَراً .

أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاث فاتنات : الشّعر الحسَن ، والوجه الحسن ، والصوت الحسن ».

عائشة رضى الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« ملائكة السماء يسبّحون بذوائب النساء وبلحى الرجال ، فيقولون : سبحان الّذى زيّن الرجال باللحى ، والنساء بالذوائب » .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد أحدكم أن يتزوّج المرأة فليسأل عن شعرها كما يسأل عن وجهها » .

قالوا : الشعر الحسن يزيد الوجه حسناً وجمالا ، وقال ابن صارة[1] ــ وكأنه وصف طرة هذا الغلام ــ يصف بها أبا الفضل بن الأعلم ، وكان من أجمل الناس وأذكرهم[2] فى علم النحو والأدب ، وقرأ النحو قبل أن يلتحىَ ، فقال فيه :

أكرم بجعفرٍ اللبيب فإنه ... مازال يوضح مُشْكِلَ «الإيضاحِ»[3]

ماء الجمال بخدِّه مترقرقٌ ... فالعين منه تجول فى ضَحْضَاحِ[4]

ما خدُّه جرحته عينى ، إنَّما ... صَبَغت غِلالَته دِمَاءُ جِراحِى

لله زَاىُ زبرجدٍ فى عسجدٍ ... فى جوهرٍ فى كَوْثرٍ فى رَاحِ

ذى طُرَّةٍ سَبَجيَّة ذى غُرَّةٍ ... عاجيَّة كالليل والإصْبَاحِ

رشأٌ له خدُّ البرىءِ ولحظُه ... أبداً شريك الموت فى الأرْوَاحِ

* * *

[ مما قيل فى أنواع الحسن والجمال ]

ونذكر بعدهذا الحوَر فى العينين ، وهو شدة بياض البياض وسواد الكحل، وكلّ ذلك عندهم ممدوح . وقد أكثر الشعراء من وصف ذلك حتى لو تركنا ذكره لشهرته لكان لنا فيه عذر ، على أنَّا نِلمّ ببعض ما قيل فى ذلك ، وأمّا ما يزهّد فيه من ذلك ، ويقلّ ذكره فى أشعارهم فالزّرَق ؛ على أنه قد جاء فى حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الزّرَق فى العينين يُمْن» .

---

(١) ط : « صارمة » ، تصحيف . (٢) نفح الطيب : «وأذكاهم» .

(٣) نفح الطيب ٥ : ٢١٣ ، ٢١٤ ، وكتاب الإيضاح فى النحو لأبى على الفارسى .

(٤) الضحضاح : الماء القليل .

وقال معاوية لصُحار العبدىّ : إنك أحمر ، قال : والذهب أحمر ، قال : إنك لأزرق ، قال : والبازى أزرق .

ولبعض أصحابنا :

أحبّك أن قالوا بعينيك زُرْقَةٌ ... كذاك عِتاق الطير زُرْق عيونُهَا

وقال الصّنوبرىّ :

قالوا به زُرْقـــة ، فقلت لهمْ ... بذاك تمت خصالُهُ البَهِجَهْ[1]

ما كَحَل العين مثلُ زُرْقتها ... كم بين ياقوتة إلى سَبَجـــهْ!

وقال آخر :

ما مثلُ ذا الظّبى فى الظِّباء ... الأزرق الأزرق القَبـــاء

يجول فى مقلتيْه طرفى ... فى زُرْقة المـــــاء والسماء

يا بأبى الشّقْر ما عليهمْ ... من ذلك النّور والبَهـاء

شُقْرَةُ شعـــرٍ على بياضٍ ... شعاع شمس على هـــواء

وكلّ هذا اعتذار حاءٍ على وَفْق مدح سواد الألوان ، ولسواد الألوان فى التاسعة فِصل مستطرف فقف عليه .

واختلفوا فى الحَوَر ، فقال أبو عبيدة : الحوراء : الشديدة بياض بياض العين فى شدّة سوادها .

وقال أبو عمرو : الظبية الحوراء : السوداء العين الّتى ليس فى عينها بياض ، ولا يكون هذا فى الإنس، إنما يكون فى الوحوش .

---

(١) يتيمة الدهر

وقال يعقوب : الحَوَر سعة العين وكبر المُقلة وكثرة البياض .

وقال قطرب : الحوراء : الحسَنة المحاجر ، صغرت العين أم كبرت .

واشتقاق « ح و ر » يدل على صحة قول يعقوب وأبى عبيدة ؛ لأنهم إنما يوقعونه فى الغالب على البياض مثل الدقيق الحوارىّ للدرمك الشديد البياض ونحوه ، وقلّما يتفق شدة بياض العين إلاّ مع شدّة سوادها ، ألا ترى أن بياضها مع الزَّرَق ليس هناك فى النقاء ، وقال القاضى التنوخىّ فى أحور :

حَوَرٌ بعينيه أطال تحيُّرى  ترك الدموع بخدَّىَ المتعصفرِ[1]

غصنٌ تأوّد فوق غُصْنٍ من نقًا  ليل تبلَّج عن نهارٍ مُسْفِرِ

كالشّمس إلا أنه متنفّس  عن مسكةٍ متبسّمٌ عن جوهرِ

والبَلَج : أن يكون ما بين الحاجبين نقيًّا من الشعر ، وهو من علامات السياده عند العرب ، ويُتمدّح به ويُتيمن بصاحبه ، ويُتطيّر بمقرون الحاجبين ؛ ويقال : أبلج وأبلد ، وهى البلجة والبلدة ، قال كثير :

جميلُ المحيَّا أبلجُ الوجه واضحٌ  حليم إذا ما زلزلته الزَّلازِلُ

الفلَج : أن يكون بين منابت الأسنان تباعد ، وقد فاج ثغره فلَجاً ، وهو مستحبٌّ فى الثغر. قال وجيه الدولة : وهومما يليق بهذا الموضع لذكره أوصافا ذكرها الحريرى رحمه الله هنا :

إذا عدم الرَّوْضَ المنوَّرَ ناظرِى  أرانيه ظبىٌ فاتر الطَّرْف أدعجُ

فصدُغاه ريحانِى وعيناه نَرْجسِى  ومنْ ثغره لى أقحوان مفلَّجُ

وواحَرَ بَا من حسن وردٍ بخدّه  يُطيف به من عارضيه بنفسجُ

(١) الأبيات فى يتيمة الدهر ٢ : ٣١٨ .

(٢) بعده فى اليتيمة :

وأطالَ مِنْ ليلى وقصر ليله  أنّى سهرت وأنّه لم يسهرِ

الجفون : أغطية العيون ، ثم تسمّى العين جفناً مجازاً .

والسقم : فتور العين ، ومن حَسَن التشبيه فى ذلك قول أبى نواس :

فطبْ بحديث من نديم مساعدٍ    وساقية بين المراهق والحلْمِ(١)
ضعيفة كَرّ الطرف تَحْسِبُ أنّها    قريبة عهد بالإفاقةِ من سُقْمِ

وقال أيضاً :

وشادنٍ قال لى لمّـــا رأى سَقَمِى
وضعف جسمِىَ والدَّمع الذى انْسَجَمَا
أخذتَ دمعك من لفظى ، وجسمك من
خَصْرى ، وسُقْمَكَ من طرفى الّذى سَقِمَا

وقال ابن الرومىّ :

قلبى من الطرف السقيم سقيمُ    لو أنّ من أشكو إليه رحيمُ

وقال ابن الزّقاق :

ومقلةِ شادنٍ أَوْدَتْ بجسمى    كأنّ السُّقْمَ لى ولها لباسُ(٢)
يسلّ اللّحظ منها مَشْرفيّـــا    لقتلِى ثم يغمِـــدُه النُّعَاسُ

ولأبى العلاء بن زهر فى مثل ذلك :

يا راشقِى بسهامٍ مالهـا غرضُ    إلّا فؤادى وما منها له عِوَضُ

---

(١) ديوانه ٣٢ ، حماسة ابن الشجرى ١٩٥ ، وذكر البيت الثانى وبعده :

تفوّق مالى من طريف وتالدٍ    تفوّقَ الصَّهباء من حلَب الكَرْم

قال : قوله « تفوق مالى » هو من الفواق ؛ وهو ما بين الحلبتين .

(٢) ديوانه ١٩٠

ومرضى بجفونٍ كلّها سَقَمٌ صَحّتْ وفى طبعها التمريضُ والمرضُ
امنن ولو بخيالٍ منك يؤنسُنِي فقد يسدّ مسدّ الجوهر العَرَضُ

الشمم : ارتفاع فى لين الأنف ، وهو من علامات الجمال والسؤددِ ، قال الفرزدق :

بكفّهِ خَيْزُرَانٌ ريحُهُ عَبِقٌ من كفّ أرْوَعَ فى عِرْنِينِهِ شَمَمُ[1]
يُغضِي حياء ويُغْضَى من مَهَابَتِهِ فلا يُكلّمُ إلا حينَ يبتسمُ

وقال آخر :

فى باعه طولٌ وفى وجهِهِ نورٌ وفى العرنين منه شَمَمْ

وقال النابغة[2] :

* شمّ العرانين ضرّابُونَ للهَامِ *

اللهب : اشتعال النار بغير دخان ، فشبّه الحمرة فى الخدّ وضياءه بحمرة النار ، وكُنِيَ به أبو لهب لجماله .

وقال ابن وكيع ؛ لجمع السُّقم واللّهب :

واحزنى من جفون ظبيٍ أقام عُذْرِى بها عِذارُهُ[3]
أسقَم جسمى بسقم طَرْفٍ حيّرنى فى الهوى احْوِرَارُهُ
عجبت من جَمْرِ وجنتيه يحرِقُنى دونَهُ استعارُهُ
هو اختيارى فأبصروه[4] شاهدُ عقلِ الفتى اختيارُه

(١) ديوان الحماسه — بشرح المرزوقى ١ ، ١٦ .
(٢) ديوانه ٧٣ ، وصدره :
* مستحقبِي حَلَقَ الماذىّ يَقْدُمُهُمْ *
(٣) يتيمة الدهر ١ : ٣٤٢ ، وفيه : « واحربى » .
(٤) اليتيمة : « هذا اختيارى » .

وله قريب منه :

كأنّ صدغاً له تراهُ — وهو على خدّه مُدارُ(١)

بيتٌ من الحسن لى إليه — حجٌّ مدى الدّهر واعتمارُ

ولابن الزّقّاق :

بأبى من لم يدع لى لحظُه — فى الهوى من رمقٍ منذُ رمق(٢)

جعلت نكهتُه فى ثغره — عبَقاً فى نَسَقٍ يسبى الحدَقْ

وبدت خجلتُه فى خدّهِ — شفقاً فى فَلَقٍ تحت غَسَقْ

وقال الخفاجى(٣) :

ياباناً تهتزّ فيْنانةً — وروضةً تنفحُ مِعْطارَا

كم دمع عينٍ فيك قد أجريتَهُ — وقلب صبٍّ فيك قد طارَا

كنّى فسمّى قوسَه حاجباً — رمزاً وسمّى النّبل أشفارَا

فإن رَمى يجرَحنى طرفُهُ — لحظتُهُ أجرحه ثارا

فيصبغُ الدّرّ عقيقاً بهِ — وأصبغ الألوان أزهارَا(٤)

يُدِيرُ للأعينِ من وَجْهِهِ — كعبةَ حُسْنٍ حيثما دارَا

قد طبع الحسنُ به درهماً — تسبك منه العين دِينَارَا

فلِى به عينٌ مجوسيّةٌ — تعبد من وَجْنَتِهِ نَارَا

غيره :

وأغيد تَدْمى وجنتاه من اللّمحِ — تخلّق إلاّ مِنْ صدُودِىَ بالشّحِّ

غَدَا قاتلى أن ظلت أجرَحُ خدَّه — متى صار بالقتل القصاص من الجُرْح!

(١) يتيمة الدهر ١ : ٣٣٣ .

(٢) ديوانه ٢٠٨ .

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة ، ويعرف بالخفاجى أيضا ، والأبيات فى ديوانه ١٢٥ .

(٤) الديوان « وأصبغ النوار » .

الثغور : جمع ثغر وهو السنّ . وتقدّم الشنَب فى الثانية .

وقال العباس بن الأحنف فى طيب الفم :

ذكرتكِ بالتفّاح لمّـا شممْتُهُ … وبالرّاح لما قابَلَتْ أوجهَ الشَّرْبِ(١)
وتذكَّرت بالتّفاح منكِ سوالِفاً … وبالرّاح طعماً من مقبَّلِكِ العَذْبِ

وقال ديك الجنّ ، واسمه عبد السلام :

بأبى فمٌ شهد الضَّميرُ له … قبـل المذاق بأنه عَذْبُ
كشهادةٍ لله خالصــــةٍ … قبل العيان بأنَّهُ الرَّبُّ

وقال أحمد بن محمد الغسانىّ :

له مبسمٌ برقُـه خاطفٌ … عقولَ الرجال إذا ما ابتَسَمْ
أقــــول له إذ بدا دُرّه … شهدنا لصانعه بالحِكَمْ
أرَى الدّر تثقبه الناظمونَ … وماثقبوا إذا فكيف انتظَمْ!

وقال أبو بكر البلوىّ :

تَقْطِفُ من ثغره ووجنَتِهِ … أناملُ الطَّرْفِ زهرةً عَجَبَا
شقيقها مُذهباً يُرَى خجلاً … وأقحواناً مفضَّضاً شَنَبَا

وقال ابن بشر الكاتب :(٢)

ولم نَزَلْ ، والظلام حارسُنَا … جسميْنِ مستودَعَيْنِ فى جِسْمِ
ألثمُهُ فى الدُّجَى وبرق ثنا … ياهُ يريني مواقِـعَ اللّثْمِ

(١) ديوانه ٤٤
(٢) هو الحسن بن على بن بشر الكاتب ، والأبيات فى نهاية الأرب ٢ : ١٠٤

ثم افترقنا عند الصَّباح وَقَدْ أثَّر فيه كهيئة الخَـــتْمِ

وقال الشريف الرضىّ :

بتْنَا ضجيعين فى ثَوْبَىْ هوًى و تُقًى يلفّنا الشَّوْق من فَرْقٍ إلى قَدَمِ (١)

وبات بارق ذاكَ الثَّغر يُوضح لى مواقعَ اللَّثْم فى داجٍ من الظُّلَمِ

وقال المتنبى :

حِسان التثنّى ينقش الوشىُ مثلَه إذا مِسْنَ فى أثوابهنَّ النَّواعِمِ (٢)

ويبسِمْن عن دُرٍّ تقلّدن مثلَه كأنّ التراقى وُشِّحَت بالمباسِمِ

فهذه معانٍ مختلفة فى أوصاف الثغر كلها حسان .

* * *

قوله : « والبنان بالترف » ، أى الأصابع باللين والنعمة ، وأحسن ماقيل فى ذلك قول النابغة :

بمخضَّبٍ رَخْصٍ كأنّ بنَانَهُ عَنَمٌ يَـكادُ من اللَّطافَةِ يُعقَدِ (٣)

فهٰذا تشبيه بديع .

وقال امرؤ القيس :

وتعطُو بِرَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنّهُ أساريعُ ظَبْيٍ أو مساويكُ إسْحِلِ (٤)

وقال غيره :

يا قمراً أبصرتُ فى مأتمٍ يندُب شجواً بين أتراب (٥)

---

(١) ديوانه ٧٢٣

(٢) ديوانه ٢ : ١١١ ، : وفيه :« فى أجسامهن » .

(٣) ديوانه ٣٠

(٥) ديوانه ١٧

(٦) لأبى نواس ، ديوانه ٣٦١ ، مختار الأغانى ٣ : ١٣٠

أبرزَه المأتم لى كارهــاً من بين راياتٍ وحُجّابِ
يبكى فيُذرِى الدُّرّ من نرجس ويَلطُمُ الوَرْدَ بعُنّــابِ

وقال عُكّاشة(١) :

سقيا لمنزلنا الّذى كنا به يوم الخميس عشيّةً أصحَابَا
إذْ نحنُ نُسْقَاهَا شَمُولاً قَرْقفاً تدَعُ الصّحِيح بعقلِه مُرْتَابَا
من كفّ جارية كأنّ بنانها من فضّة قد قُمِّمَتْ عُنّابَا
وكأنّ يُمناها إذا ضربت بها تُلْقِى على يدها الشِّمال حِسَابَا

وقال آخر :

وحوراء اللواحظِ بين قلبى وبين جُفونها حَرْبُ البَسُوسِ
ترى ماء النّعيم يجولُ فيهـا كمثل الخمر فى صافِى الـكئوسِ
كأنّ بنانَها أقـلام عاجٍ مرصّعة الرأس بآبنوسِ

ووصف الخصور بالهَيَف ، وهو الضّمر والرقة ، وسنذكر معها مايستظرف ، وقد تقدّم قول ابن عبد ربه :

يا مَنْ تقطّعَ خَصْرُه من رِقّةٍ ما بالُ قلبِك لا يكون رقيقَا(٢)

وقال ابن الرومىّ :

وَهَبَتْ له عَيْنِى الْهُجُوعَا فأثابها منه الدُّمُــــوعَا
ظبىٌ كأن بخَصْره من ضُمْره ظَمَأً وجُوعَا

---

(١) هو عكاشة بن عبد الصمد العمى ، منسوب إلى بنى العم ، من شعراء الأغانى ، والأبيات فى مختار الأغانى ٤ : ٨٠٥ .
(٢) مطمح الأنفس ٥٢ .

وقال عبيد[1] الله بن عبد الله :

سَلْمَى وما سَلْمَى تَفُوقُ الْمُنَى   والحسْنَ أوصافا وألْوَانَا
وِشاحها يحسد خَلْخَالَهَا   لجائعٍ يحسُد شَبْعَانَا

وقال كشاجم فى مقلوبه :

مــزولة الــكَل غير بطن   منقَلٍ فهى عنسكبوتُ
حجُولها الدهرَ فى اضطرابٍ   ووشْحها كاظمٌ صموت

وقال حبيب :

مَهَا الْوَحْشِ إلا أن هاتَا أوانسٌ   قَنا الخطّ إلاّ أن تلك ذوابلُ[2]
من الهيف لو أنّ الخلاخيل صُيِّرتْ   لها وشُحًا جالت عليها الخلاخلُ

أخذه القاضى ابن لبال فقال :

جلوتِ لنا شيئا من الدرّ عاطلاً   بعيشِك لِمْ جنَّبْتِه الجِيدَ والنَّحْرَا
فقالت ولم تــكذب خشيتُ سقوطَه   وأومت إلىّ فيها فنظّمته ثَغْرَا
كذلك إن عَضَّ السِّوارُ بمِعْصَمِى   وحاذرت أن يدميه حمّلْتُه الخصْرَا

وأكثر ما يذكرون الخَصْر بالرّقة مع ذكر الكَفَل بالعِظَم ، كما قال ديك الجن :

وتمايلتْ فضحكتُ من أرْدَافِهــا   عجباً ، ولــكِنّى بكيتُ لخصْرِهَا[3]
تسقيك كأس مُدامةٍ من كَفِّها   ورديّةٍ ، ومُدامَةٍ مِنْ ثَغْرِهَا

وقال القاضى أبو حفص بن عمر :

---

(١) ط : « عبد الله » ، وهو عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأخباره وشعره فى ابن خلكان ١ : ٢٧٣ ، والبيتان فى ديوان المعانى ١ : ٢٥٠ .
(٢) ديوانه ٢٥٦
(٣) الأغانى ١٤ : ٥٥ .

مشتْ كالغصن يثنيه النّسيمُ ويعــدُوه النَّسيم فيستقيمُ
لها رِدْفٌ تعلّق من ضعيفٍ وذاك الرِّدْفُ لى ولها ظَلُومُ
يعذّبنى إذا فكّرت فيه ويتعبها إذا رامت تقومُ
وما حُبِّى لها إلا عذابٌ عليه من نضارتها نعيمُ

* * *

قوله: «سهواً»، أى خطأ. والهامة: الرأس. وإلا فرمَى الله جَفْنى بالعمَش، إنما ذكر العمش والنَّمش وما بعده لأنها أضداد لما تقدم، وعند الإشارة لها يتبيّن من الغلام عند الوالى أضدادُها، فيزداد حسناً.

* وبضدِّهَا تتبيَّنُ الأشيَاء *(١)

والعَمَش: انتثار شعر العينين. والنَّمَش: أخفى من البَرَش. الجلَح: الصَّلَع، وهو انحسار الشعر من النّزعتين، وفعله جَلَح الرجل واجْلَحَّ، كاسودَّ. والطّلع: قد تقدّم فى الثانية، وإذا علتْه خضرة سُمِّىَ بلحاً. والبَهار: نرجس المغرب، وهو أصفر، والورد أحمر، فدعا له بعلّة تذهب جمال وجهه وتصفّر حمرة خده. والبخار: كالبخَر: النّتن. والمسكة: أطيب العطر، فدعا له بتغير الرائحة. وتقدّم أن أطيب الطيب أنفاس عبقة من كبد سليمة. وتقدّم فى الثانية معنى قوله: «ووردتى بالبهار» منظوماً، وقال الصابى فى أبخر:

نطق ابنُ نصرٍ فاستطارت جيفةٌ فى العالمين لنتن فيه الفاســدِ (٢)
فكأنّ أهل الأرض كلّهمُ فسَوْا متواطئين على اتّفاق واحـدِ

وقالت جنان فى أبى نواس:

فإذا ما أردت أن تحمد اللّـ ـهَ على ما أعطى وأولاك شُكْرا
فليكن ذاك بالضمير فمن سَبَّحَ بالفسْو نال إثماً ووِزْرا

---

(١) للمتنبي ديوانه ١ : ٢٢، وصدره :

* ونذيمُهم وبهمْ عُرفنا فضْلَهُ *

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٦٣ .

وقال آخر :

أهدى زريق قطّةً لقمةً ... قد لا كها فى فمِهِ الأبْخَرِ
فبادر القِطّ إلى دَفْنِهَا ... يحسبها من بعض ما قد خَرِى

قوله: «وبدرى بالمِحاق» ، المِحاق: أن ينمحق ضوء القمر فلا يبقى منه شىء . واحتراق الفضة : اسودادها . وشُعاعى بالظلام ، أى صَباحة وجهه ووضاءته بسواد اللحية ، أى عاجلنى الله بالالتحاء ، ويريد بهذا كلِّه أن يكسوَ بياض وجهه سواد الشعر ، فيكسد ولا يُلْتَفَتُ إليه .

وقال ابن المعتزّ فى مثل هذا الدعاء :

يا ربّ إن لم يكن فى وصلِهِ طَمَعٌ ... وليس لى فرجٌ من طول هجرتِهِ[1]
فاشْفِ السَّقامَ الّذى فى طرف مُقْلته ... واستر ملاحَةَ خَدَّيْهِ بلحيتِهِ

ونقل لفظ احتراق الفضة من قول أبى الحسين النَّغرىّ[2] ، وهو من شعراء اليتيمة:

لى حبيبٌ يزهَى بحسنٍ عجيبٍ ... وبقدٍّ مثل القضيب الرطيبِ
أحدقت بالسواد فضة خدَّيْـ ... ـه ، فقد أحرقت سوادَ القلوبِ

[ ذكر العِذار والالتحاء ]

ونذكر هنا ما يليق بهذا الموضع مما قيل فى العِذار وفى الالتحاء مما مدح به وذُمّ ، قال ابن عبد ربه :

ومعذَّرٍ نقش الجمال بمسْكِهِ ... خَدًّا له بدم القلوبِ مُضَرَّجَا[3]
لما تيقَّن أن سيف جفونِهِ ... من نرجسٍ جعل النّجادَ بنفْسِجَا

وقال ابن صارة[4] :

(١) ديوانه ١ : ٧١
(٢) هو أبو الحسين محمد بن عمر النغرى الكاتب ، من شعراء العراق ، والبيتان فى اليتيمة ٢ : ٣٤٦ .
(٣) العقد ١ : ٣٣
(٤) ط : « صارمة » ، تصحيف ، والبيتان فى نهاية الأرب ٢ : ٨٦ .

ومعذَّر رقّت حواشى حسنِه ... فقلوبنا حذَرًا عليـــه رِقَاقُ
لم يَـكْسُ عارضَهُ السوادُ وإنَّما ... نَفَضت عليه سوادَها الأحْدَاقُ[١]

وقال عبد المحسن الصورىّ :

ومعتذر العِذار إلى فؤادى ... لجـــرمٍ سابقٍ من مُقْلَتَيْهِ[٢]
وكم أعرضْتُ عنه فأعرضَتْ بى ... عن الأعراض خضرةُ عَارِضَيْهِ
ولمَّا قلتُ إنَّ الشّعر يسعَى ... لِقلبى فى الخلاصِ سَعَى عَلَيْهِ

وقال أبو القاسم الزّاهى :

لولا عِذارُك ما خلعتُ عِذَارِى ... لكنْتُ فى وَزَرٍ من الأوْزَارِ[٣]
ما كنتُ أحسبُ أن أعاينَ أو أرَى ... تخطيطَ ليلٍ فى بياض نَهَارِ
حتى نظرتُ إلى عِذارك فاغتدَى ... سَقَمَ القلوبِ ونزهـةَ الأبصَارِ

وللمعتمد بن عباد :

تمَّ له الحسنُ بالعِذَارِ ... واختلَطَ اللَّيل بالنَّهارِ[٤]
أخْضَرُ فى أبيضٍ تبدَّى ... ذلك آسِى وذَا بَهَارِى
لقَدْ حوَى مجلسى تمامًا ... إن يكُ من ريقه عُقَارِى

وقال ابن حمدون :

ظلَّ على خـــدّه العِذارُ ... فافتضح الآسُ والبَهَارُ
وأبيضّ هذا واسودّ هذا ... واجتمع اللَّيل والنَّهَارُ
أغُضُّ عينى عنه لأنِّى ... عليه من مُقْلَتِى أغَارُ

(١) والبيتان أيضا فى الذخيرة ١ : ١ : ١٢٣ .
(٢) يتيمة الدهر ١ : ٢٥٧
(٣) يتيمة الدهر ١ : ١٩٩
(٤) الذخيرة ١ ـ ق ٢ : ٤٤ ، ١ ـ ق ٢ : ١٤

فهذا كله حسن فى مدح العِذَار ؛ وإن كان النّذيرَ بموت الجمال، فإذا تقوّى العِذار واسودّ ؛صاروا إلى نعيه ، كما قال أبو بكر البلَوىّ :

انظرْ إلى ميّتٍ ولكنّه ... خِلْوٌ من الأكفان والغَاسِلِ
قد كتب الدهر على خدّه ... بالشّعر : هذا آخرُ البَاطِلِ

وله فى ضدّه:

لمّا التحى مَنْ قد هويتُ ... وقلت رسمٌ قد دَثَرْ
عاينتُ من طلّابه ... زُمَراً مواصلةً زُمَرْ
وكذاك أصحاب الحديث ... نِفاقهم عند الكِبَرْ

وكما قال أبو الحسن بن الحاجّ :

أبا جعفرٍ مات فيكَ الجمالُ ... فأظهر خدّك لُبْسَ الحِدَادِ
وقد كان ينبت زهرَ الرِّياضِ ... فأصبح يُنْبِتُ شوكَ القَتَادِ
أبِن لى متى كان بدرُ السما ... ء يُدْرَكُ بالكونِ أو بالفَسَادِ !
وهل كنت فى الملك من عبد شمسٍ ... فأخفى عليك ظهورُ الفَسَادِ

وقال سعيد بن حميد فى غلام التحى :

هلّا وأنت بماء وجهك يُستقى ... روضُ الشّباب قليل شعر العَارِضِ
فالآن حين بدت بخدّك لحيةٌ ... ذهبت بحسنك ملء كفّ القابِضِ
مثل السّلافة عاد خمر عصيرها ... بعد اللّذاذة مثلَ خلّ الحَامِضِ

وقال علىّ بن بسام فى أخيه جعفر[1] :

يا مَنْ نَعَتْهُ إلىّ الإخوان لحيتُه ... أدبرتَ والدّهر إقبالٌ وإدْبارُ
قد كنتَ مّمن يهشّ الناظرون له ... تُغضّ دونك أسماعٌ وأبصارُ
أيّامُ وجهك مصقولٌ عوارضُه ... وللرّياض على خدّيك أنْوَارُ

(١) هو على محمد بن نصر بن بسام البغدادى ،والأبيات فى الذخيرة ١ ــ ق ١ :١١٩ .

فيا لدهرٍ مضَى ما كان أحسنَه ... إذ أنت ممتنعٌ ، والشَّرْط دِينَارُ
حانت منيَّتـه فاسودَّ عارضُــه ... كما تُســوِّد بعد الميّت الدَّارُ

وفيه يقول أيضاً :

حانتْ وفاتُك يا أبا العبـاسِ ... فدع المِكاس فلاتَ حينَ مِكاسِ
ما بالُ وجهك بعد كثرة نُورِهِ ... قد سوَّدُوه بحالك الأنقاسِ !
أينَ الدَّنانيرُ التي عــوّدتها ... هَيْهَاتَ جاء الشَّعر بالإفــلاسِ
كانت بخــدّ ثيابه ديباجةٌ ... فاستبْدلت حِلساً من الأحلاسِ
وكذَا البناء فغيْر مرتفعٍ إذا ... كانت بليتُه من الآســـاسِ

وقال مُصعب الماجن :

قد صافحتْ أقطارَ خدِّك لحيةٌ ... تركتْه وهـــو مسوّدُ الأقطارِ
فكأنَّ خـط الشَّعر فى جَنَبَاتِهِ ... ليلٌ أقام على نجومِ أو نَهــارِ

وكان لمحمد بن بشر بابان يُدخِل من الأكبر أصحابَه ، ومن الأصغر أحبابَه فجاء يوماً غلامٌ مليح ، وأراد الدخول من الأصغر على عادته ، فمنِـع ، فجعل يخاصم البوّاب لإدلاله ، فبلغ ذلك ابن بِشْرٍ ، فكتب إليه :

قلْ لمن رامَ بجهــلٍ ... مدخل الظَّبي الغَــرِيرِ
بعد أنْ علق فى خدّيــه مخــلاةَ الشَّعِيرِ
لَيْتَهُ يدخــلُ إن جاءَ مِنَ البابِ الكبيرِ

وقال ابن الأبّار :

لستُ بصابٍ إلى معــذَّرْ ... بل أنا فى حُبِّه معذَّرْ
لا أعشَق الظبى ذا لجامٍ ... لأنه فى الظبــاء منكَرْ

أحسنُ ما فيــه أن تراه　　بين مهاةٍ وبين جـؤذَرْ

ننظر قوله : «لأنه فى الظبا منكر» إلى قول حبيب:

تعشُّقك الـكبارَ يدلّ عنــدِى　　على أنَّ الرحى قلبت ثِفالاَ(١)

وقال آخر :

لى فى أبى يحيى ومعشوقِــــه　　شغل على ذِى شغل شاغـــلُ

يا ليت شعرى قــول ذى حيرةٍ　　مَنْ منهما المفعــولُ والفاعِلُ!

وقال ابن حصين فى محبوب صغير :

بأبى ظبى صغير الســـنّ حازت ثلثَ سِــنِّى

سَرَّنى أن ليــس يدرِى　　مــذهبِى فيــه وفَنِّى

فهـــو يدعونىَ عَمًّـــا　　وأنا أُدعــوه بابْنى

وللخبز أرزىّ :

قالوا عشقتَ صغيراً قلت أرتَعُ فى　　روضِ المحاسن حتى يُدرِكَ الثَّمَرُ(٢)

ربيع حسن دعانى لاتّباع هوًى　　لمّا تفتّح فيه النّوْر والزَّهَرُ

وقال التَّنُوخى فى جَسيم :

من أين أستر وجدى وهو منتهَكٌ　　ما لِلمتيّم فى نيل الهوى دَرَكُ(٣)

قالوا عشقت عظيمَ الجسمِ قلت لهمْ　　الشَّمْس أعظم جسمٍ ضمَّه الفَلَكُ

وللفقيه ابن حزم :

وذى عذَلٍ فيمنْ سبانِى حسنُهُ　　يُطيل ملامى فى الهوى ويقولُ(٤) :

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٠ ( طبع المعارف )

(٢) يتيمة الدهر : ٣٣٨ .

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٣١٨ .

(٤) الذخيرة ، القسم الأول ١ : ١٤٧

أفى حسن وجهٍ لاح لم تر غيرَه ... ولم تدرِ كيفَ الجسم، أنت قتيلُ!
فقلتُ له: أسرفْتَ فى اللَّوم ظاهرًا ... وعندىَ ردٌّ لو أردتَ طويـــلُ
ألم تَرَ أنِّى ظاهِـــرِىٌّ وأنَّنى ... على ما بَدَا حتى يقــومَ دليلُ!

وأحسنَ حبيبٌ حين قال:

قال الوشاةُ بدا فى الخدّ عارضُه ... فقلت لاتنكروا وماذاك عائبُهُ[1]
الحسن مِنْهُ على ما كنتُ أعهده ... والشّعر حِـــرْزٌ له ممَّن يطالبُهُ
أحلَى وأعذب ما كانت شمائلُه ... إذْ لاحَ عارضُه واخْضرَّ شاربُهُ
وصار مَنْ كان يلحَى فى مودّته ... إن سِيلَ عنى وعنه قال صاحبُهُ

وقال الحلوانىّ:

قالُوا التحى فامّحتْ بالشَّعر بهجَتُه ... فقلت: لولاَ الدُّجى لم يحسن القمرُ[2]
خطَّت يدُ الحسن فيه فوق وجنتِه: ... هذِى محاسن -ياأهل الهوى- أُخَرُ

وله أيضاً:

لى حبيبٌ إذا شكوت إليـه ... سامنى بالهـــوى عذاباً شديدَا[3]
لستُ أدعو بالشَّعر غيظاً عليـــه ... خيفةً أن يكون حسناً جديدَا
غير أنِّى أدعو بقلبٍ قـــريحٍ ... أن أراه مِثلى مُحبّاً عَمِيـــدَا

وقال غيره:

قدحلّ فى سوقكَ الكساد ... مذ لاَح فى خدِّكَ السَّوَادُ[4]
كأنما الشّعر فيـــه زرعٌ ... والنَّتْفُ منه لَهُ حَصَادُ

(١) ديوانه ٤٣٢، وفيه: «لاتكثروا».
(٢) نهاية الأرب ٢: ٨٥، من غير نسبة الذخيرة ٤ ــ ١: ٢٢٠.
(٣) الذخيرة ق ٤ــ١: ٢٠٠ (٤) الذخيرة ق ٤ــ١: ٢٢٢ ونسبها إلى الحلوانى أيضاً.

وقوله : « ودواتى بالأقلام » ، أى ابتلاه الله أن يُلاط به ، قال الفنجديهىّ : أنشدنى بعضُ الشعراء بمَرْوَرُوز لبعضهم :

دوادار الأميـــــر له دواةٌ  كمثل الياسمين بغير صُــــوفِ
يُرَى قلم الأمير يغوصُ فيهـــا  مغاص عصيــدةٍ فى حَلْق صوفِى

ونقل لفظ الدواة والأقلام من قول ديك الجن ؛ وكان يهوى غلاماً من حِمْص ، اسمه بـكر ، فجلس معه ليلة يتحدّث بها حتى غاب القمر ، فقام بـكر ليمشى ، فقال :

دع البدر فليغْرُبْ فأنت لنا بدرُ  إذا ما تجلّى عن محاسنك الشَّعْرُ(١)
إذا ما انقضى سحر الذين ببابلٍ  فأنت لنا سحرٌ وريقُك لى خَمْرُ
ولو قيل لى قُمْ فادع أحسنَ مَنْ ترى
لصِحت بأعلى الصّوت: يابَـكْرُ يابـكْرُ !

وكان هذا الغلام شديد التصاون والتمنع ، فاحتال عليه قومٌ من حِمْص ، فأخرجوه إلى متنزَّهٍ ، فأسكروه وفسقوا به ، فبلغ ذلك ديك الجن فقال :

يا بـكْر ما فعلت بك الأرْطَامُ  يا دارُ ما فعلت بِـك الأيّامُ(٢)
فى الدار بعدُ بقيـــــة نستامها  أم ليس فيك بقيـــــة تُسْتَامُ
شغَل الظّلامُ كرالكَرَى أبوابهم(٣)  فتفرّغَت لدواتك الأقْـلاَمُ

وله فيه أيضاً :

قولا لبـكر بن مهدىّ إذا اعتكرتْ
عسا كرُ الَّليْل بين الطّاسِ والجـامِ(٤)

(١) الأغانى ١٤ : ٦٠ ، وفيه : « من محاسنك الفجر » .
(٢) الأغانى ١٤: ٦٢، وفيه : « ما فعلت بك الأرطال » .
(٣) الأغانى: « فى ديوانه »
(٤) الأغانى ١٤ : ٦٢ ، وفيه: « قولا لبكر بن دهمرد » .

ألم أقل لك إنَّ الكِبْر مَهْلَكَةٌ    والْبَغْى والعُجْب إفسادٌ لأقْوَامِ
قد كنتَ تفرَقُ من سهم تعايِنُه[1]    فصرت غيرَ رَميم رقمةَ الرَّامِى
وكنت تفزع من لمسٍ ومن قُبَلٍ    فَقَدْ ذللتَ لإسراجٍ وإلجَامِ
إن تَدْمَ نخذاكَ من ركض فربَّما    أمسى وقلبى منك الموجع الدّامِى

قال أبو علىّ بن رشيق : كنت أوصى غلاماً وضيئاً ، كان يختلف إلىّ ، وأحذّره من كثرة التخليط ، فخرج يوماً فى جماعة من أصحابه ، فأوقع به ، فأخبرت بذلك ، فقلت :

ياسوء ما جاءتْ به الحالُ    إنْ كان ماقالوا كما قالوا
ماأحذق النَّاس بصوغ الخنا    صيغ من الخاتم خَلْخَالُ

وهذا من قول ابن المعتزّ :

مَضَى خالدٌ والمال تسعون درهما    وآب ورأس المال ثلث الدّرَاهِم[2]

وهذا المعنى الخبيث يتبين بعقد التسعين والثلاثين فى اليد .

وقال ابن رشيق :

سقطت ثنيّتُه فأوجِـــع قلبُه    لسقوطها وجرى عليه عظيمُ[3]
فإذا مررتَ به فسلٍّ فـــؤاده    عنها وقُلْ صبراً كذاك الريمُ
عجبا للؤلؤةٍ هوَتْ من سِلْـكِهَا    والسّلك لا وَاهٍ ولا مفصــومُ
أتعدّياً يا خطبُ وهو مصوّن    أبداً بخـــاتم ربّه مختـــومُ

---

(١) الأغانى : « لغانية »
(٢) نقله فى التتف ٥٨ .
(٣) نقله فى التتف ٦٥

ويستحبّ لمن وُسم بوَسْمة الجمال ، أن يكون شديد التصاوُن ، قليلَ التبذُّل ، فذلك أدْعَى للسلامة ، وقد قال ابن وكيع فى ذلك :

قالوا عشقت كثير البخل ممتنعاً فقلت : هيهات عنكم غاب أطيَبُهُ[1]
لو جاد هان ، وقنت الجود عادَتُهُ وإنما عَزَّ لَمَّا عَزَّ مطلبُـــهُ

فإذا تبذَّل وأجاب كلَّ من دعاه صار عرضةً للظنون ، ونبتْ عن محاسنه العيون ، لأنّ النفس الحرّة لا تنفك من غيْرة ، وقد قال العباس بن الأحنف :

يا قومُ لم أهجـرْكمُ لملالةٍ منّى ولا لمقالِ واشٍ حاسدِ[2]
لـكنّنى جـرّبتـكمْ فوجدتُـكمْ لا تصبرون على طعام واحدِ

وقال أبو الوليد بن حزم :

لمّا استمالك معشرٌ لم أرضَهمْ والقول فيك كما علمتَ كثيرُ
داويتُ دونك مُهجتِى فتماسكتْ من بعد ما كادت إليك تطيرُ
فاذهب فغير جوانحِى لك منزلٌ واسمعْ فغير وفائِك المشكورُ

وله أيضاً :

يقول وقد لمتُه فى الهـوى فلان،وعرّضت شيئاً قليلاَ :
أتحسدُنى؟ قلت:لا، والذى أحلّك فى الحبّ مَرعًى وبيلا
وكيف وقدحُلّ ذاك الإزارُ وقد سلك النّاس تلك السبيلا

(١) يتيمة الدهر ١ : ٣٣٧
(٢) ديوانه ١٠٦ ، الزهرة ١٥٠ ، الأغانى ١٥ : ١٣٢ ( ساسى ) ، الشعر والشعراء ٧٩٢ .

وقال محمد بن السرىّ :

قايستُ بين جمــاله وفَعالِه ... فإذا الملاحَةُ بالخيانَةِ لا تَفِى[1]
والله لا كلَّمْتُــه ولو أنه ... كالبدْرِ أوكالشَّمسأوكالمـكتَفِى

وقال آخر :

أيا حسناً أزرتْ قبائح فعــله ... عَلَيْهِ كماأزرىالـكُسوفعلىالبدرِ
لقد فُقْتَ كلّ الناسحسناً وزينةً ... ولـكنَّما قَبَّحْتَ ذلك بالغــدْرِ

وقال ابن عيينة :

ضيعتِ عهد فتًى لعهدكِ حافظٌ ... فى حفظِه عجبٌ وفى تضييعكِ
إن تقتليه وتذهبى بفؤادِه ... فبحسن وجهكِ لا بحسن صنيعكِ

* * *

فقال الغُلامُ : الاصْطِلاَء بالبَلِيّة ، وَلا الإيلاء بهذه الأليّة ، والانقيادَ لِلقَوَدِ ؛ وَلا الحَلفَ بِما لَمْ يَحْلِفْ به أَحَدٌ . وَأَبَى الشيخُ إلاَّ تَجْرِيعَهُ اليمينَ الَّتِى اخْتَرَعَهَا ، وَأمقَرَ لهُ جُرَعَها . وَلَمْ يَزَل التَّلاَحِى بينهُمَا يَسْتَعِرُ ، ومَحَجَّةُ التَّرَاضِى تَعِرُ ، والْغُلامُ فى ضِمْنِ تأَبِّيهِ ، يَخْلُبُ قَلْبَ الْوَالِى بتَلَوِّيهِ ، وَيُطْمِعُهُ فى أن يُلَبِّيهِ ، إلَى أنْ رانَ هَـوَاهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وألَبَّ بِلُبِّـهِ ، فَسَوَّلَ لهُ الْوَجْـدُ الَّذِى تيَّمَهُ ، والطَّمَعُ الَّذِى تَوَهَّمَهُ ، أنْ

---

(١) إنباه الرواة ٣ : ١٣٧ ، ابن خلكان ١ : ٥٠٣ ، وبعده هناك :

حلفت لنا ألاَّ تخُون عُهُودنا ... فـكأنَّما حلفت لَنا ألاَّ تَفِى

يُخَلِّص الغُلامَ وَيَسْتَخْلِصَهُ ، وَأَنْ يُنْقِذَهُ من حِبَالَةِ الشَّيْخ ثُمَّ يَقْتَنِصَهُ .

* * *

قوله : «الاصطلاء» ، أى الاتصال والتلبُّس . والبلية ، أراد دعوة الباطل التى ادّعى عليه الشيخ . والإيلاء : الحَلِف . والأَلِيَّة : اليمين . والقَوَد : قتل النفس بالنفس ، فيقول : الصبر على الضرب أو القتل أهون من هذه اليمين التى لم يحلف بها أحد اخترعها : استنبطها . أمقر : أمرّ ، من المَقْر ؛ وهو الصَّبِر .

[ من ألوانٍ من الحلِف ]

وهذه اليمين المخترعة ، حكى الأصمعىّ شبهها ، فقال : اختصم أعرابيّان عند بعض الولاة فى دَيْن ، فجعل المدّعَى عليه يحلف بالطلاق والعَتاق ، فقال المدّعِى : دعنى من هذه الأيمان ، واحلف بما أقول لك ، فقال : ما قولك ؟ قال : قل : لا ترك الله لك خُفًّا يتبع خُفًّا ، ولا ظِلفاً يتبع ظِلفاً ، وحتّك من أهلك وولدك ، كما يُحاتّ الورق من الشجر ؛ إن كان بَقِىَ لى هذا الحق قِبَلَك . فأعطاه حقّه ولم يحلف له .

وحكى المسعودىّ أنّ الفضلَ بن الربيع قال : صار(١) إلىَّ عبدُ الله بن مصعب ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، فقال : إنّ موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب قد أرادنى على بيعته ، فأخبرت الرشيد بذلك ، فجمع بينهما ، فقال الزبيرىّ لموسى : سعيتم علينا ، وأردتم نقض بيعتنا ودولتنا ، فقال له موسى : ومن أنتم ! فغلب الرّشيدَ الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف لئلا يظهر منه الضحك ، ثم قال موسى : يا أمير المؤمنين ، هذا المشنِّع علىّ ، خرج مع أخى محمد على جدّك المنصور ، وهو القائل [من أبيات](٢) :

قوموا ببيعتكم ننهضْ بطاعتنا إنّ الخلافة فيكم يا بنى الحسنِ

(١) ط : « سار » ، وما أثبته من ا ، ب . (٢) من المسعودى .

وليست سعايتُه حبًّا لك ، ولا مراعاةً لدولتك ؛ ولـكن بغضاً لنا جميعاً أهلَ البيت[١] ، وأنا أستحلفه بيمين ، فإن حلف بها أنِّى قلت ذلك ، فدمى حلال لأمير المؤمنين. فقال له الرشيد: احلف له ياعبد الله، فامتنع ، فقال له الفضل: لِمَ تمتنع وقد زعمتَ أنه قال ماذكرته؟ قال:فإنى أحلف له ، قال موسى:قل: تقلّدت الحولَ والقوّةَ دون حول الله وقوّته إلى حولى وقوّتى ، إن لم يكن ماقلته حقاً . فحلف له ، فقال موسى : الله أكبر ! حدثنى أبى عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلاّ عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث » ، وهأنذا بين يدى أمير المؤمنين فى قبضته ، فإن مضت ثلاث ولم يحدث له حادث ، فدمى حلال لأمير المؤمنين .

قال الفضل: فو الله ماصلّيت العصر فى ذلك اليوم ، حتى سمعت الصراخ من داره[٢] . فدخلت عليه، فوالله ما كدت أعرفه : لأنه صار كالزِّق العظيم، ثم اسودّ حتى صار كالفحم ، فعرّفت الرشيد فى الحين ، فما انقضى كلامنا حتى عرَفنا أنه قد مات ، فبادرت بتجهيزه ،وتولّيت الصلاة عليه. فلما وُورىَ فى قبره انخسف به ، وخرجتْ رائحةمفرطة النّتن، ومرّت أحمال شوك على الطريق، فأمرت بها فطرحت فى قبره، فانخسف ثانية ، فأمرت بألواح ساج، فطرحت على قبره وألقى التراب عليها، وانصرفتُ ، وأعلمت الرشيد . فأكثر التعجّب، وأحضر موسى ؛ فأعطاه ألف دينار ، وقال له : لِمَ عدلت عن اليمين المتعارفة عند الناس ؟ فقال : أخبرت بالسند المتقدّم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حلف بيمين كاذبة مجّد الله فيها ، استحيا الله من تعجيل عقوبته ، ومن حلف بيمين كاذبة نازع الله فيه حوله وقوّته إلّا عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث[٣] » .

* * *

قوله : «التلاحى»، السّباب والتشاتم . علىّ رضى الله عنه، قال النبى صلى الله

(١) بعدها فى المسعودى : « ولو وجد من ينتصر علينا جميعا لكان معه ، وقد قال باطلا » .
(٢) ب والمسعودى : « من دار عبد الله » .
(٣) الخبر فى المسعودى ٣ : ٣٥١ ـ ٣٥٣ .

عليه وسلم : «من لاحَى الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته ، ومازال جبريل ينهانى عن ملاحاة الرجال كما ينهانى من عبادة الأوثان ». وفى المثل: من لاحاك فقد عاداك .

يستعر : يتّقد . محجّة التراضي : أى طريق الرضا . تَمرُ : تصب . وفى ضمن تأبيه ، أى فى أثناء كلامه وامتناعه . يخلِب: يخدع ويأخذ قلبه . تلوّيه: انعطافه. يطمعه : يدعوه للطمع . يلبّيه : يجيبه لمراده . ورانَ : غلب وغطّى . أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أذنب العبد نُكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب صقلت ، وإن عاد زادت حتى تعظم فى قلبه ، فذلك الران » ، قال الله تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾[1] .

ألبّ : أقام. لبّه : عقله : سوّل : زيّن. الوجْد : حرقة القلب. تيّمه : عبّده وذلّله ، والمتيّم : المستعبَد لهواه. توهّمه : ظنه . يستخلصه: يختصه لنفسه. حِبالة : آلة الصيد . يقتنصه : يصيده ؛ يقول : إنّ هذا الغلام فى أثناء كلامه بالتمنّع وترك الانقياد للشيخ يُطمع الوالى فى الانقياد له ، وإنه إذا دعاه لما يريده منه أجابه ، وإنما فعل هذا حين رأى إدامة نظر الوالى فى وجهه ، واستحسانه كلامه ، ولو فسّر الوالى حال الغلام بمنظومٍ لأنشد :

يهدى لك الدُّرَ من لفظٍ ومبتسمٍ ضربان : منتثر منه ومنظُـــومُ
يجنى الذنوب، وأحنو أن أؤاخذه من أجل ذلك قيل الحسن مرحومُ

ولأنشد إذا غلب عليه هواه :

مرآك مرآكَ لا شمسٌ ولاقمــرٌ وورد خـدّيك لاوردٌ ولا زَهرُ[2]
فى ذمَّة الله قلبٌ أنت ساكنُهُ إن بنت بان فلا عينٌ ولا أثرُ
لولا محلّك من قلبي لمـا أسفتْ نفسي عليك ، فرفقاً أيُّها القمرُ

هذه الأبيات لأبى الوليد بن حزم ؛ وقد كرر معنى البيت الأخير فقال :

---

(١) المطففين ١٤ (٢) نفح الطيب ٤ : ٤ .

أذكيتَ من قلبي بنأيك لوعةً ... حتى خشيت على محلِّك فيه

وبما يتعلق بهذا المعنى قول الآخر :

ولمَّا رماني بالسهام تعمُّــداً ... وفيها نصال الهجر حتى امتلا صَدْري

فقلت له لا ترمِ قلــبي فإنَّهُ ... مكانُك والمرميّ أنت ولا تدرِي

وقال آخر :

حملتُك في قلبي فهــل أنت عالِم ... بأنَّك محمول وأنت مُقيــمُ !

ألا إنَّ شخصاً في فؤادي محــلّه ... وأشتاقه ، شخصٌ عليّ كريمُ

وقال التِّهاميّ :

قلبي فداؤُك وهــو قلبٌ لم يزلْ ... تُذْكَى شهاب الشّوق في أثنائِهِ[1]

جاورته شرّ الجـــوار وزرتُه ... لمَّـا حللتَ فناءه بفنـــائِهِ

حرِّق سوى قلبي ودعه فإنني ... أخشى عليك وأنت في سودائِهِ

وقال آخر :

أودع فـــؤادي حرَقا أودَعِ ... نفسك تؤذى أنت في أضْلُعِي

أمسك سهام اللَّحظ أو فارمِها ... أنت بمــا ترى مصابٌ مَعِي

موقعهــا القلبُ وأنت الذي ... مسكنُه في ذلك الموضِـــعِ

* * *

فقالَ للشَّيْخِ : هَلْ لكَ فِيما هُوَ أَلْيَقُ بالأقوَى ، وَأَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ! فقال : إلَامَ تُشِيرُ لأقتَفِيهِ ، وَلَا أُقِفُ لكَ فِيه ؟ فقَالَ : أرَى أنْ تُقْصِرَ عن القِيلَ وَالقالِ ، وَتَقتَصِرَ مِنهُ عَلَى مائةِ مِثقَالِ ،

(١) ديوانه ٨٨ .

لأتحمَّلَ منها بعضًا ، وأَجْتَبِيَ الباقِيَ لَكَ عَرْضاً ، فقالَ الشيخُ : مَا مِنِّى خِلاف ، فلا يَكُنْ لِوَعْدِكَ إخْلافٌ ، فنقده الوالى عِشرين ، وَوَزعَ عَلَى وزَعَتِه تكملةَ خمسِينَ . وَرَقَّ ثَوْبُ الأصيلِ ، وَانقطعَ لأجْلِهِ صَوبُ التَّحْصِيلِ ، فقال له : خُذْ ماراجَ ، ودَعْ عَنْكَ اللَّجاج ، وَعَلَيَّ فى غَدٍ أنْ أتوَصَّلَ ، إلى أنْ يَنِضَّ لكَ البـاقى وَيتحَصَّل ، فقالَ الشَّيخُ : أَقْبَلُ منْكَ عَلَى أن أُلازِمَهُ ليلَتِى ، وَيَرْعاهُ إنسانُ مُقْلَتِى ، حَتى إذا أغْـفَى بَعْدَ إسفارِ الصبحِ ، بمَا بَقِىَ مِنْ مال الصُّلح ، تَخلَصتْ قائبةٌ من قُوب ، وَبَرِئَ براءة الذِّئب مِن دَم ابنِ يعقُوبَ ، فقال لهُ الوالى : ما أَرَاكَ سُمْتَ شَطَطاً ، وَلاَ رُمْتَ فَرَطا .

قال الحارث بن همام : فلمَّا رَأَيتُ حُجَجَ الشَّيخِ كالحُجَجِ السُّرَيجيَّةِ ، عَلِمْتُ أنَّهُ عَلَمُ السَّرُوجيَّة

* * *

قوله :« أليق» أى أشكل وأصقل . بالأقوى : بصاحب القوّة . والذى هو أقرب للتقوى ، هو العفو لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[١] . أقتفيه :أتبعه . لا أقف لك فيه ، أى لا أتوقَّف فيما تشير به . تُقصر: تكفّ . عن القيل والقال ، أى عن كل كلام . أجتبى : أجمع . عَرْضا : كلّ ما ليس فيه روح من الأمتعة غير العين ؛ وهو ليس بنقد من السِّلَع التى يُتّجر فيها من متاع ورقيق وغيرذلك . أتحمّل : أضمن ، وفلان حميل بكذا ،أى ضامن له . إخلاف : كذب وعد . نقَده : أعطاه نقداً . وزّع : فرّق . وزَعَتُه : شُرْطته الذين يكفون

(١) سورة البقرة ٢٣٧ .

عنه الناس ، واحدهم وازع مثل كافر وكفرة ، وقد وزعته وَزَعاً كففته ، وأيضاً دفعته .وقال الحسن البصرىّ رحمه الله: لا بدّ للسلطان من وَزَعَة . الأصيل العشىّ . وثوبه:ضوء الشمس ، وهو فى ذلك الوقت رقيق.صَوْب : وقع،وصاب السهم صوبا وصيّبًا : وقع بالرميّة،وصاب السحاب الموضع:أمطر.والتحصيل : أن يحصّل بقية المال . راج : حضر وتيسّر ، ويقال:راج الشىء رَوْجاً فهو رائج إذا جاء جاء سريعاً . قوله: « إنسان مقلتى»،أى سواد عينى .يرعاه :يحفظه وينظره. أعْفَى : أتى بالبقيّة ، والعفاوة : بقية المرق فى القِدْر . تخلّصت: انفصلت. والقائبة : البيضة . والقُوب : الفرخ ، وهذا مثل يضرب للرجلين يفترقان بعد الصّحبة ، وجاء مقلوباً لأن الذى ينفصل ويخرج إنما هو الفرخ من البَيْضة ، والقُوب ، من تقوّب الشىء إذا انتشر ، ومنه القوباء لداء الحِزاز[١] . وابن يعقوب هو يوسف عليهما السلام ، وبراءة الذئب من دمه ، هو ما يحكى أنّ إخوته لما جاءوا إلى أبيهم يبكون على يوسف ، علموا أنه لا يصدّقهم ، فاصطادوا ذئباً فلطّخوه بدم ، وأتوه يبكون ، وقالوا له : هذا الذئب قد ضرِىَ ، أكل أغنامنا وأكَلَ يوسف أخانا ، قال لهم : أطلقوه ، ودعا الله يعقوب أن ينطقه له ، فقال للذئب: ادنُ منّى ، فجعل يبصبص بذنَبه ويدنو منه ، حتى وضع خدّه على فخذ يعقوب ، فقال له : لِم أكلتَ ابنى ، وفجعتنى فيه ؟ فقال : لا والله يانبىّ الله ، ما رأيته ولا أكلته ، وإنى لغريب فى أرضكم اليوم ، وصلت من مصر فى طلب أخ لى فقدته ، فأوثقنى هؤلاء وساقونى إليك ، فقال لهم يعقوب عليه السلام : الذئب مع أخيه أوْفَى منكم مع أخيكم .

قوله:«سُمْتَ»: أى كلّفت . شطَطًا: شيئاً بعيداً ، والشّطَط:مجاوزة القدر . ورمت فَرَطاً: طلبت شيئاً متفاوتا ، وكيف لم يسمّه شططا ، وقد حرمَه لذة ليلةٍ مع هذا الغلام أحسن من ليلة الخفاجى[٢] حيث يقول :

---

(١) فى القاموس : الحزاز ؛ كـكتاب : وجع فى القلب من غيظ أو نحوه .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسى ، صاحب الديوان المنسوب إليه .

وليلة طَلْقَةٍ قضتْنِي ... من موعدٍ للحبيب دينْاَ[1]

بتْنَا نجرّ الذيولَ فيها ... والخمر تمشى بنا الهوينَى

أرسل في روض وجنتيْه ... لحظةَ عين تفيض عيناَ

كأنمّـا اللحظ كيمياء ... تُذهب من وجهه لُجَيْناَ

وما توهَّمت أنّ طرفا ... يقلب عين اللجين عيناً

أو ليلة الآخر حين يقول :

لمّا رأى مَنْ ظلتُ فيه متيماً ... جسمى ضئيلا والفؤاد مولَّهَا

جادت شمائله علىّ بليـــلةٍ ... أهدت إلى الصبّ المعنّى ما اشتهَى

عانقت فيها البـــدْر ليلةَ تِمِّهِ ... يا من رأى بدراً يعانقه السُّهاَ !

[ ذكر أحمد بن سريج أحد أئمة الشافعيّة ]

قوله: «الحجج السُّريجية» منسوبة إلى أحمد بن سُريج، وهو من كبار أصحاب الشافعيّ، وكان حسن الاحتجاج، مليح المناظرة .

وقال الفنجديهىّ: السُّريجيّة منسوبة إلى الإمام أبى العباس أحمد بن عمر ابن سريج إمام أصحاب الشافعىّ على الإطلاق، ومن لا نفسَت ذات دَرّ بمثله فى الآفاق، حججُه فى أحكام الشرع أوضح الحجج، وأقواها وأمتنها على مرور الأيام والحِجَج، وكان يلقّب بالبازى الأشهب، وبالشافعىّ الثانىّ، لتبحّره فى استنباط المعانى، من غوامض الأخبار والمثانى، دلائله فى فنون العلم متينة، وبراهينه مبينة.

وقال: رأيت فى المنام كأنا أمطِرْنا كبريتاً أحمر، فملأتُ كُمّى وحجرى وجيبى منه، فعُبِّر لى أنى أُرْزَقُ علماً غزيراً كعِزَّة الكبريت الأحمر .

وسُمِع يتمثّل بهذه الأبيات :

(١) ديوانه : ٣٤٠ ، المغرب ٢ : ٣٦٩

فلا تحسد الكلب أكلَ العظامِ فعند الخـــراءة ما ترحَمُهْ
تراه وشيكاً شكساً إستهُ كلوما جناها عليه فَمُهْ
إذا ما أهان امرؤٌ نفسَـه فلا أكرم الله مَنْ يكرمُهْ

وكان يناظر محمد بن داود ، فقال له ابن داود يوما وقد أكثر عليه السؤال : أبلِغْنى ريقى ، فقال له : قد أبلعتك الدِّجْلة والفُرات[1] .

وقال له مرة : أمهلنى ساعة ، فقال : قد أمهلتك من الساعة إلى أن تقوم الساعة[2] .

وقال له ابن داود يوما : أكلك من الرِّجْل وتجيبنى من الرأس ! فقال له : كذلك البقر إذا حفيتْ أظلافها ، وهنت قُرونها .

واجتمع أبو العباس بن سُريج وأبو بكر بن داود الأصبهانىّ فى مجلس عيسى بن الجراح الوزير ، فتناظرا فى الإيلاء ، فقال ابن سريج : أنت بقولك: مَنْ كَثُرتْ لحظاته ، دامت حسراته ، أبصرُ منك فى الكلام فى الإيلاء ، فقال له ابن داود : لئن قلتَ ذلك ، فإنى أقول :

أنزّه فى روضِ المحاسن مقلتِى وأمنع نفسى أن تنال مُحَرَّما[3]
وأحمل من ثقل الهوى مالو أنَّهُ يُصَبُّ على الصَّخْر الأصمّ تهدَّما
ويَنطِقُ طرفى عن مترجم خاطِرى فلولا اختلاسى رَدّه لتكلَّمَا
رأيتُ الهوى دعوى من الناس كلِّهمْ فلستُ أرى حبًّا صحيحاً مسلَّما

وقال له ابن سُريج : بم تفتخر ؟ ولو شئت قلت :

(١) طبقات الشافعية ٣ : ٢٤ ( طبع الحلبى ) .
(٢) طبقات الشافعية ٣ : ٢٤ .
(٣) طبقات الشافعية ٣ : ٢٧ .

ومُساهرٍ بالغُنجِ من لَحَظَاتِهِ قد بتُّ أمنعُهُ لذيذ سِنَاتِهِ[1]
أصبُو لحُسْنِ كلامه وحديثه وأُكرِّر اللحَظات فى وجَنَاتِهِ
حَتى إذا ما الصبحُ لاح عموده ولَّى بخاتِم رَبِّه وبَرَاتِهِ

فقال له أبو بكر : أصلح الله الوزير ! يحفظ عليه ماقال ، حتى يقيم عليه شاهدين عَدْلين ، أنه ولَّى بخاتَم ربه وبراءته ، فقال له ابن سريج : فيلزمنى فى هذا مايلزمك فى قولك :

* وأمنع نفسى أن تنال محرَّما *

فضحك الوزير ، وقال : لقد جمعتُما ظَرْفاً ولطفا وعلماً وفَهْماً .

اشتملت هذه الحكايةُ على أنَّ هذين الرجلين العالِمين على اشتهارهما بالعلم والفضل والدِّين كانا يرتاحان إلى التعشّق على سبيل التظرّف والتزام التعفّف على مايليق ويشكل بمنصبهما ؛ وإذا كان التَّعشُّق بشرط العفاف ، فإنّما يزيد الرَّجُلَ الفاضل رقَّة طبع ، وحلاوة شمائل .

وقال ابنُ سريج فى مَرَضه الذى مات فيه : أُريتُ فى المنام البارحة كأنَّ قائلا يقول : هذا ربُّك يخاطبك ، فسمعته يقول : ماذا أجبتم المرسلين ؟ فقلت : بالإيمان والتّصديق ، قال : فقيل : ماذا أجبتم المرسلين ؟ فوقَعَ فى نفسى أنه يُراد منى زيادة فى الجواب ، فقلت : بالإيمان والتصديق ، غير أنا قد أصبنا من هذه الذنوب ، فقال : أمّا إنّى سأغفرها لك .

وتُوفِّىَ لخمس مضيْن من جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة ، وبلغ سنه سبعاً وخمسين سنة وستة أشهر ، ودفن فى حجرة بسويقة غالب ببغداد رحمة الله عليه .

[ طائفة من شعر النسيب ]

ونذكر الآن من نفيس الشعر المضمّن « مَنْ » ظفر من محبوبه بمراده من

(١) طبقات الشافعية ٣ : ٢٧ .

الوصال ، ثم عفّ عما يخلّ بأهل الجلال » ، قال إدريس بن اليمان :

لم تدر ماخلّدت عيناك فى خلدى … من الغرام ولا ما كابدتْ كبدى
أفديك من زائرٍ رام الدنوّ فلم … يسطعه من حُرَقٍ فى الدمع متّقدِ
خاف العيون ، فوافانى على عجَلٍ … معطّلا جيدُهُ إلاّ من الغَيَدِ
عاطيتُه الكأس فاستحيتْ مدامتُها … من ذلك الشّنَب المعسول والبَرَدِ
حتى إذا غازلتْ أجفانه سِنةٌ … وصيّرته يدُ الصّهباء طوعَ يَدِى
أردتُ توسيدَه خدّى وقلّ له … فقال : كفُّك عندى أفضلُ الوُسُدِ
فبات فى حرمٍ ، لا غدر يُزْعِجهُ … وبتُّ ظمآن لم أُصْدِرْ ولم أرِدِ
بدرٌ ألمّ وبدرُ التمِّ منمحقٌ … والأفق محلولكُ الأرجاء من حَسَدِ
تحيّر الليل فيه ، أين مطلعُه … أما درى الليل أن البدر فى عضُدِى!

وقال الرّمادىّ :(١)

وليلةٍ راقبتُ فيها الهَوَى … على رقيب غيرِ وَسْنَانِ
والرّاح ما تنزل عن راحتى … وقتًا ومن راحة ندْمانِى
وربّ يومٍ قيظه منضجٌ … كأنّه أحشاء ظمآنِ
أبرزَ من خدّيْه لى رشحَهُ … طَلاًّ على وَرْدٍ وسَوْسَانِ(٢)
وكان فى تحليل أزْرَارِه … أقْوَدَ لى من ألف شيْطانِ
فتحتُ الجنّة من جَيْبِه … فبتّ فى جنّةِ رضْوانِ
مروءةٌ فى الحبّ تنهى بأن … يُجاهَرَ اللهَ بعصيان

وقال سعيد بن حميد :

زائرٌ زارَنا على غير وعدٍ … أهيف الكَشْحِ ، مُثْقَلُ الأردافِ

---

(١) هو يوسف بن هارون الرمادى ؛ والأبيات فى المطرب لابن دحية ؛

(٢) الرشح : العرق ؛ والطل : قطرات الندى .

غالب الخوف حين غالبه الشّوْ ق فأخفى الهوى وليس بخافِ
غضّ طرفى عنه تقى الله واخترْ تُ على بذله بقاء التّصافِى
ثم ولّى والخوف قد هزّ عِطْفَيْ ـهِ ، ولم تَخْلُ من لباس العفافِ

وقال بعض الطالبيين :

رمونِى وإيّاها بشَنْعاء همْ بها أحقُّ ، أدال الله منهم وَعَجّلاَ
بأمرٍ تركناه وربّ محمدٍ جميعا ، فإما عِفّـةً أو تجمُّلاَ

وسنزيد ما يستحسن فى العفاف وضده فى الثانية عشر .

قوله : « عَلَم السّرُوجيّة » ، أى مشهورها . والعلَم : الجبل .

* * *

فلَبِثتُ إلى أنْ زَهَرَتْ نجومُ الظّلامِ، وَانتثَرَتْ عُقودُ الزِّحامِ، ثُمَّ قصَدْتُ فِناءَ الْوَالِى ، فإذا الشّيْخُ لِلْفتَى كالِى ، فنشَدْتُهُ الله : أهُو أبو زيد ؟ فقال : إى ومُحِلِّ الصّيْدِ ! فقُلْتُ : مَنْ هذَا الْغُلامُ ، الّذِى هَفَتْ لهُ الأحلاَمُ ، قال : هُوَ فى النّسَبِ فَرْخِى ، وفِى المُكْتَسَبِ فَخّى ، قُلْتُ : فهَلّا كَفَيْتَ بمحاسِنِ فِطْرَتِهِ ، وكفيْتَ الوالِىَ الافتِتانَ بِطُرّتِهِ ! فقال : لَوْ لم تَبْرزْ جبْهَتُه السِّينَ ، لمَا قَنَفَشْتُ الخَمْسِينَ ، ثُمَّ قالَ : بِت الليلة عندِى لِنُطفِئَ نَارَ الجَوَى ، وَنُدِيلَ الْهَوَى من النّوى ، فقَدْ أَجْمَعْتُ على أن أنسَلّ بِسُحْرَة ، وَأُصْلِىَ قلْبَ الوَالى نَارَ حَسْرَة .

* * *

لبثت : أقمت. عقود : جمع عقد ، أراد ما يعقد من جموع النّاس في الزّحام . انتثرت : افترقت . زهرت : أضاءت. الفِناء : ما حول الدار . ناشدته : سألته . هفت ، أي طارت. الأحلام : العقول. فطرته : خِلْقته. تبرز : تظهر. والطرّة : قد تقدمت ، وشبّه اعتدالَ الشَّعر على الجبهة بشكل السين على السّطر ، وأخذه من قول التّهاميّ :

يارُبَّ معنًى بعيد الشأن نَسْلُكُهُ ... في سلك لفظٍ قريب الفهم مُخْتَصرِ [1]
لفظٌ يكون لِعِقْدِ القول واسطةً ... ما بين منزلة الإسهاب والخَصَرِ
إن الكتابة صارت تحت أنمله [2] ... والجود فالتقيا منــــه على قَدَرِ [3]
تردّ أقــلامُه الأرماحَ صاغرةً ... عكساً ، كعكس شُعاع الشَّمس للقمَرِ [4]
وفي كتابك فاعذُرْ مَنْ يهيم بهِ ... من المحاسن ما في أحسن الصُّوَرِ
الطِّرْس كالخدّ والنونات دائرة [5] ... مثل الحواجبِ والسِّينات كالطُّرَرِ

ومن ملح الخبزأرزيّ :

وبنفسي من إذا خمّشْتُه ... نثر الوردُ عليـــه وَرَقَهْ
وإذا مَسَّتْ يدي طرّتَهُ ... أفلتت منه فعادت حَلَقَهْ

أخذها من حكاية لعمر بن أبي ربيعة ؛ حدّث المغيرة بن عبد الرحمن ، قال :

---

(١) ديوانه ٤٥ ، وفيه : « أسلكه » .
(٢) الديوان : « سارت » .
(٣) الديوان : « فالتقيا فيه » .
(٤) بعده في الديوان :

يجلو بياضَ المعاني سودُ أحرفِها ... إنّ الظّلامَ ليجلو رونق السّحَرِ

(٥) الديوان « الطرس كالوجه » .

حججت مع أبي وأنا غلام ، عَلَيّ جُمَّة[1] ، فجئت عمرَ فسلَّمت عليه ، فجلست عنده ، فجعل يمدّ الخُصْلة من شعرى ثم يرسلها ، فترجع على ما كانت عليه ، ويقول : واشباباه ! حتى فعل ذلك مرارا ، ثم قال لى : يابن أخى ، قد سمعتَنِى أقول فى شعرى: قالت وقلت ... وكلّ مملوكٍ لى حرّ إن كنتُ كشفت عن فَرْج امرأة حرام قطّ ، فسألت عن رقيقِه ، فقيل لى: أما فى الحوْك فسبعون سوى غيرهم[2].

وساير عمرَ عُروة بن الزبير يحدِّثه ، فقال : وأين زين المواكب؟- يعنى ابنه محمداً ، وكان يُعرف بذلك لجماله- فقال عروة: هو أمامك ، فركد يطلبه، فقال له عروة: يا أبا الخطّاب ، أولسنا أكفاء كراماً لمحادثتك ! قال : بلى ، بأبى أنت وأمى ، ولكنى مغرًى بهذا الجمال حيث كان ، ثم التفت إليه ، وقال :

إنّى امرؤٌ مُولَعٌ بالحسن أتبعُه ‏ لاحظَّ لى فيه إلاّ لذّةُ النظَرِ[3]

أخذه العباس بن الأحنف ، فقال :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتِكُمْ ‏ فعندكم شهواتُ السّمع والبَصَرِ
لا يضمر السُّوء إن طالت إقامته ‏ عفُّ الضمير ولكن فاسق النَّظَرِ

[ مما قيل فى حلق الشعر ]

ومما يتعلق بذكر الشَّعر حِلاقه ، والشعر فيه كثير ؛ فنلمّ منه باليسير .

وأول من قَرَع هذا الباب - فيما يذكر - القائل :

حَلَقُوا رأسَهُ ليكسُوه قُبْحاً ‏ خيفة منهمْ عليه وَشُحَّا

---

(١) الجمة : شعر الرأس .

(٢) الخبر فى الأغانى ١ : ٧٧ .

(٣) الأغانى ٣ : ١٤٦ ، ١٤٧ .

كان من قبل ذاك ليلاً وصُبْحاً  فمحوا لَيْلَهُ وأبقوه صُبْحاَ

وقال أبو العباس القُرَيعيّ :

كان إلاّ قَمَرا تحتَ دُجًى  فانْجَلى اللَّيلُ ولاح القمَرْ
أو كزهْرٍ فى كمامٍ كامنٍ  شققتُ عنه فنَمّ الزَّهَرْ

وقال أبو العباس بن حَيّون :

حلقوكَ فى تغيير حسنكِ رغبةً  فازداد حسنُكَ بهجةً وضِياء
كالخمر فُضّ ختامه فتشعشعتْ  والشّمع قُطّ ذُبالُهُ فأضاء

* * *

قوله: «قنفشتْ» ، أى أخذت بسرعة ، تقول : قفشت الشيء ، قفشا إذا جمعت عليه كفّك بسرعة ، وقد انقفشت العنكبوت ، إذا دخلت جُحْرها .

قوله: «الجوى» ، أى مرض القلب. نُديل: نعوّض ، والإدالة: أن يكون الشيء لك مرة ولغيرك أخرى وهى من الدَّوْلة. النوى: البعد أو يريد: هلّا نجدّد المودّة فى هذه الليلة ، ويكون ذلك عِوَضاً من طول الفراق ، فقد عزمت على أن أنسلّ بالسَّحَر وأفرّ ، والانسلال: الخروج مستخفياً . أُصْلِى قلب الوالى : أجعله متحرّقا بالتحسر والتفجع .

* * *

قال : فقَضَيتُ اللَّيْلَةَ مَعَهُ فى سَمَرٍ ، آنَقَ مِنْ حَدِيقَةِ زَهَرٍ ، وَخميلَةِ شجر ، حَتّى إذَا لألأ الأُفُقَ ذَنَبُ السِّرْحانِ ، وَآنَ انبلاجُ الفَجْرِ وحانَ ، رَكِبَ مَتْنَ الطَّرِيق ، وَأذاقَ الوالِيَ عذَابَ الحرِيق ، وسلّمَ إلَيّ سَاعَةَ الفِرَاقِ ، رُقعَةً مُحْكَمَةَ الإلْصَاقِ ،

وقالَ : ادْفَعْها إلَى الْوَالِي إذا سُلِبَ القَرار ، وَتَحَقَّقَ مِنْهُ الفِرَار ؛ فَفَضَضْتُها فِعْلَ المتملِّس ، مِن مِثْلِ صَحِيفةِ الْمُتَلَمِّسِ .

* * *

قَضَيْت : أتممت . سَمَر : حديث بالليل يُسْمَرعليه . آنق: أحسن. حديقة: بستان ، ولا تكون إلا تحت حائط أو زَرْب . زَهْر : نوْر . خميلة :روضةفيها شجر . لألأ : لمع وأضاء . الأفق : جهات السماء . ذَنَب السِّرْحان ، هو الفجر الكاذب، وهو ضوء يظهر قبل الفجر دقيق متصعِّد إلى السماء. والسِّرْحان: الذئب، شبّه ضوءه بذَنَبه . آن : حانَ وقَرُب . انبلاج الفجر : ظهور ضوئه . متن: ظهر. الحريق: النار . سلّم : ترك . محكمة الإلصاق : متقنة الطيّ . القرار: السكينة، يريد أنّ الوالىَ إذا أخبر بِهَربنا ذهب عقله، فجعل يتململ ولا يقرّ . فضضتها : كسرت ختامها .

[ ذكر المتلمس وصحيفته ]

والمتلمّس، شاعر مشهور ، اسمه جرير بن عبد المسيح ، وسمّيَ المتلمّس بقوله :

فهذا أوانُ العِرْضِ جُنَّ ذبابُه　　زنابيرُه والأزرق المتلمِّسُ(١)

وهو مأخوذ من تلمّس الرجلُ الحاجةَ ، إذا طلبها سرًّا من غيره،وأصل ذلك من التّلمّس باليد ، كالذى يلمس بيده فى الظلام مواضعَ خفيّةً يطلب منها شيئاً ضاع منه ، أو كلمس الأعمى شيئاً بيده .

(١) الشعر والشعراء ١٣٣ ، قال فى شرحه:العرض : الوادى ، ويروى : «حى ذبابه ».

ومن كلام عامّتنا: فلان يتْلمّس، بسكون التاء، أى يَدخل بين الناس باستخفاء ولا يُشعَر به.

والمتلمّسُ أحد الثلاثة الذين اتفق العلماء على أنهم أشعر المقلّين فى الجاهلية، وهم: المتلمّس والمسيّب بن عَلَس وحُصين بن الحِمام.

والمتّملس، بالميم قبل اللام، هو المتخلّص الذى يطلب السلامة والخلاص بسهولة، وقد أملس إذا خرج من بين القوم هارباً وهم لايشعرون، وقدأملس الشيء، إذا سقط من يدك ولم تشعر به لملاسته.

والصحيفة: الكتاب. وقصتها [1] أن المتلمّس وطَرَفة كانا يتنادمان مع عَمْرو ابن هند ملك الحيرة - وكان سيّىء الُخُلق شديده، وهو الذى حرّق من تميم مائة رجل، فهجوه، فقال فيه المتامس - وكان طرده لشيء بلغه عنه:

أطردتنى حَذَر الهجاء ولا واللّات والأنصاب لاتئل [2]

أى لا تنجو.

وقال فيه أيضاً:

إن الخيانة والمغالةَ والخَنا والغَـدْرَ نتركه ببلدة مفسدِ [3]
ملك يلاعب أمّــــه وقطينها رِخْو المفاصل أيْرُهُ كالمِبْرَدِ
فإذا حللت ودون بيتىَ غاوَةٌ [4] فابرِقْ بأرضك ما بدالك وارعُدِ

وقال طَرَفة:

فليت لَنَا مكان الملك عمرٍو رَغُوثًا حول قُبّتنا تَخُورُ [5]

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٥٧٩ - ٥٨٢، الميدانى ١ : ٣٩٩.
(٢) الأغانى ٢٣ : ٥١٦ (طبع الثقافة ببيروت).
(٣) شعراء النصرانية.
(٤) غاوة: قرية من قرى حلب.
(٥) ديوانه ٩٠ - ٩٦، والرغوث: النعجة المرضع.

لعمرك إنَّ قابوس بن هندٍ ليخلط ملكَه نوْكٌ كثيرٌ(١)

فى أبياتٍ شهرتُها تنبى وتغنى عن ذكرها ؛ فاستحيا أن يقتلهما بحضرته ، وبينهما إدلالُ المنادمة ، فكتب لهما بصحيفتين ، وختمهما لئلاَّ يعلما ما فيهما ـ هو أوّلُ مَنْ ختم الكتاب ـ وقال لهما : اذهبا إلى عاملى بالبحرين ، فقد أمرتُه أن يصلَكما بجوائز . فذهبا فمرَّا بطريقهما بشيخ يحدِث ويأكل من خبز بيدِه ، ويتناول القمل من ثيابه ويقصعه ، فقال المتلمّس : ما رأيت شيخاً كاليوم أحمق من هذا ! فقال الشيخ : ما رأيتَ من حُمْقى ! أخرِج الداء ، وآكل الدّواء ، وأقتل الأعداء. ويروى: أقتل عدوًّا ، وأدخل طيّباً ، وأخرج خبيثا ، أحمقُ والله منّى مَنْ يحمل حتفَه بيده .

فاستراب المتلمّس بقوله ، وطلع عليهما غلام من أهل الحيرة من كتّاب العرب ، فقال له المتلمّس : أتقرأ ياغلام ؟ قال : نعم ، ففك الصحيفة فإذا فيها : فإذا أتاك المتلمس فاقطع يديْهِ ورجليْه وادفنه حيًّا : فقال لطرفة : ادفع إليه صحيفتك ، فإنّ فيها مثل هذا ، فقال طرَفة : كلا لم يكن ليجترئ علىّ ـ وكان غرًّا صغير السّنّ ـ فقذف المتلمس بصحيفته فى نهر الحيرة ، وقال :

قذفتُ بها فى الثِّنْىِ من جَنْب كافرٍ كذلك أقنُو كل قطّ مضلّلِ(٢)
رضيت لها بالماء لمّا رأيتُها يجولُ بها التّيار فى كل جَدْوَلِ

وأخذ نحو الشأم وقال :

ألقَى الصحيفة كى يخفّفَ رَحْلَه والزّاد حتى نعلَه ألقاها

أراد :أنه تخفف للفرار ، فألقى مالا يُثقِل ، وما لابدّ للسفر منه .

---

(١) النوك : الحماقة

(٢) الشعر والشعراء ١ : ١٣١ . الثنى : منعطف النهر . كافر : اسم علم لنهر الحيرة ، وأقنو ، أى أجزى .

وقال حين نجا :

مَنْ مبلغ الشّعراء عن أخويهِمَ خبراً فتصدُقَهم بذاكَ الأنفسُ[١]
أودَى الذى علِق الصحيفة منهمَا ونَجَا ـ حِذار حبائِه ـ المتلمّسُ
ألْقِ الصحيفة ، لا أبالك إنّمَا يُخشَى عليكَ من الحِباء النِّقْرِسُ[٢]

وأما طَرَفة فوصَل إلى البحْرين ، فلما قرأ العامل صحيفته ، وسأله عن المتلمّس فأخبره بفراره ، عفا عنه لصدْقه ورعايتِه لطابع الملك حيث لم يفكّه .

وقيل : إنه سَجَنه ، وبعث إلى عمرو بن هند ، وقال له : ما كنت لأقتُل طَرَفة ، وأعادى قبيلته، فإذا أردت قتله ، فابعث إليه مَنْ يقتله . ففعل وخُيِّر فى قتله ؛ فاختار أن يُسقى الخمر، ويُفصَدَ أكْحَلُه[٣]؛ ففُعِل به ذلك حتى مات نزفًا ، ودفن بهجَر . وقيل فى قتله غير ذلك .

وقال البحترى يصدّق ما تقدم :

ولقد سكنت إلى الصدود من الهَوَى
والشَّرْىُ أرْىٌ عند طعم الحنظَلِ[٤]
وكذاك طرْفة حين أوجس ضربةً فى الرأس هان عليه فَصْدُ الأكْحَلِ

وقال ، وهو فى السجن يخاطب قومه :

أسلمنى قومى ولم يغضبُوا لسوءةٍ حلّت بهم فادحَهْ[٥]
كلّ خليلٍ كنتُ خاللتهُ لا ترك الله له واضحَهْ
كلّهم أروغُ من ثعلبٍ ما أشبَهَ اللَّيْلَةَ بالبَارِحَهْ !

(١) الشعر والشعراء ١ : ١٣١ ، ١٣٢ .
(٢) النقرس : داء معروف فى الرجلين ، وفسره فى اللسان ٨ : ١٢٧ بالداهية .
(٣) الأكحل : عرق فى اليد ، ويسمى عرق الحياة .
(٤) ديوانه ١٧٤٣ .
(٥) العقد الثمين ٥٤ .

وقال يخاطب عمرو بن هند فى السجن :

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتى ... ولم أعطِكُم بالطَّوْعِ مالى ولا عِرْضِى (١)

أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبْق بعضَنا ... حنانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ من بَعْضِ

وقتِل وهو ابن عشرين سنة ، والعرب تقول : أشعر الناس ابنُ العشرين ، يعنيه ، إلاَّ أنَّ أبا العباس أنشد لأخته ترثيه :

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وعشرين حِجَّةً ... فلما توفَّى واسْتَوَى سَيِّداً ضَخْما (٢)

فُجِعْنا به لَمَّا رَجَوْنَا إيابَهُ ... على خَيْرِ حالٍ ، لا وليداً ولاَ قحْمَا (٣)

وهلك المتلمِّس فى الجاهليّة ببُصْرى.

* * *

فإذَا فيهاَ مَكْتُوبٌ :

قُل لِوَالٍ غَادَرْتَهُ بعْدَ بَيْنِى ... سادِمًا نادِمًا يَعَضُّ اليَدَيْنِ

سَلَبَ الشيخُ مَالَهُ ، وَفَتَاهُ ... لُبَّهُ ، فاصطَلَى لَظَى حَسْرَتَيْنِ

جادَ بالْعَيْنِ حِينَ أعْمَى هَوَاهُ ... عيْنَهُ فانْثنى بِلاَ عَيْنَيْنِ

خَفِّضِ الْحُزْنَ يامُعَنَّى فما يُجْـ ... ـدِى طِلاَبُ الآثارِ مِن بَعْدِ عَيْنِ

وَلَئِن جَلَّ مَاعَرَاكَ كما جَلَّ لَدَى المسلمين رزء الحُسَيْنِ

فقدِ اعتَضْتَ مِنهُ فهماً وحزماً ... واللَّبِيبُ الأريبُ يَبغِى ذَيْنِ

فاغضِ مِنْ بَعدِهَا المطامِعَ وَاعْلَمْ ... أنَّ صيدَ الظِّباءِ لَيسَ بهَيْنِ

---

(١) ديوانه ٢٠٩، ٢١٠ .

(٢) الكامل للمبرد ١ : ٢٠٨ . وروايته : « فلما توفاها » :

(٣) القحم : الرجل المتناهى سنا .

لا ولاكلُّ طائرٍ يلجُ الفَـــخَّ وَلَوْ كان مُحْدقاً باللُّجَيْنِ
ولَـكِنْ مَنْ سَعَى ليصطادفاصطِـ ـيدَ ولم يَلْقَ غيرَ خُفَّيْ حُنَيْنِ

* * *

قوله : «غادرته» ، أى تركته . يعضّ اليدين : تندماً . سادماً : متغيّراً ، والسادم : المتغيّر العقل من الغمّ ، من قولهم : ماء سدِم ، ومياه سَدِم وأسْدام ، أى متغيّرة ، وقيل : السَّدِيم : الحزين الذى لا يُطيق ذهاباً ولا مجيئاً ، من قولهم : بعير مسدَّم ، إذا منِع من الضِّراب ، فكأنَّ الحزين منع من الذهاب والمجىء ، فيقول: تركته يعضّ يديه تندماً وتلهُّفاً. اللظى: لهب النار ، وقد لظت النار : عَلاَ لهبُها ؛ فيريد أنّ الشيخ أخذ مالَه والفتى عقلَه ، فاحترق بنار فَجْعَتَيْن جاد : سَمح . العين : الذهب . هواه : تعشُّقه وميله : انثنى . رجع . بلا عينين ، أى بغير مال ولا بصر . خفّض : سكّن . معنًّى : معذَّب . يجدى : ينفع ، والعين ها هنا : الشخص .

* * *

[ أصل المثل : طلب أثراً بعد عين ]

وقولهم : طلب أثراً بعد عين ، كأنّ رجلا تمكّن من عدوّه أو مِنْ صيد ليرميَه ، فتراخى عنه حتّى فاته ، ثم شدّ فى طلبه بعد الفَوْت ؛ وأوّل مَنْ قال ذلك مالك بن عمرو العامرىّ ؛ وكان بعض ملوك غسان أخذه وأخاه سماكاً بسبب قتيلٍ كان له فى عماله ، فحبسهما زماناً ، ثم قال لهما: إنى قاتلٌ أحدكما ، فجعل كلّ واحد منهما يقول : اقتلنى مكان أخى ، فقتل سماكاً وخلّى مالكاً، فقال سِماك حين ظنّ أنه مقتول :

وأقسم لو قتلوا مالـكاً لـكنتُ لهم حيَّةً رَاصِدَهْ
برأس سبيل على مرقبٍ ويوما على طُرُقٍ وَارِدَهْ
أأمَّ سماكٍ فـلا تجزعِي فللموتِ مَا تَـلِدُ الوَالِدَهْ

وانصرف مالك إلى قومه ، فلبث فيهم زمانا . ثم إن ركبا مرُّوا بهم وأحدهم يغنِّى بهذا البيت :

* وأقسم لَوْ قتلوا مالـكا *

فسمعتْ بذلك أمّ سماك ، فقالت : يامالك ، قبّح الله الحياة بعد سماك! اخرج فى طلب ثأر أخيك ، فخرج فَلَقِيَ قاتل أخيه فى ناسٍ من قومه ، فقال : مَن أحسّ لى الجمل الأحمر ! فعرّفوه ، فقالوا له : لك مائة من الإبل ، وكُفّ عنه ، فقال : لا أطلب أثراً بعد عين ، فذهبت مثلاً ، ثم حَمَل على قاتل أخيه فقتله[1] .

* * *

قوله : «جَلّ» ، أى عظم . عراك : قصدك . رزء الحسين : المصاب بقتله حين قتل بـكربلاء .

[ رزء الحسين * ]

وحديثه أن معاوية لمَّا مات أرسل إليه أهل الـكوفة أنْ قد حبسنا أنفسنا على بَيْعتك . وطُولب بالمدينة أن يبايع يزيد ، فخرج إلى مكة ، وأرسل ابنَ عمّه مسلم ابن عَقِيل إلى الـكوفة وقال له : إن كان حقًّا ما كتبوا به ، فعرّفنى ألحق بك . فخرج من مكّة للنصف من رمضان ، وقَدِم [ الـكوفة ] لخمسٍ خَلَوْن

---

(١) جمهرة الأمثال ٢ : ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، وأورد فى معنى الأثر قول حبيب :

قالُوا أتبكى على رسمٍ فقلتُ لهمْ من فاتَهُ العينُ هَدّى شَوقَه الأثرُ

(*) انظر خبر مقتل الحسين فى تاريخ الطبرى حوادث سنتى ٦٠ ، ٦١ .

من شوّال ،وأميرها النّعمان بن بشير ، فدخل مستتراً ، فبايعه من أهلها ثمانية عشر ألفا .فكاتبه[1] بذلك. فلمّا همّ بالخروج لقيه ابنُ عَباس رضى الله عنهما، فقال له: يا بن عمّ ، أهلُ العراق أهل غدرٍ ، وإنّما يدعونك للحرب ، فقال له : يا بنَ عمّ ، كتب إلىّ مسلم باجتماع أهل الكوفة علىّ ، فقال له : قد جرّبتهُم ، وهم أصحاب أبيك وأخيك . وقتلتُك غداً مع أميرهم ، إذا بلغ ابنَ زياد خبرُك استفزّهم، فكان الذين كتبوا إليك أشدّ عليك عن عدوّك ، فإن أبيتَ إلاّ الخروج فلا تخرجَنّ بنسائك وولدك معك ، فإنّى لخائف أن تُقتَلَ كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه . فردّ عليه : لأن أُقتَلَ بموضع كذا[2]، أحبُّ إلىّ من أن أستَحَلّ بمكة .

واتّصل الخبر بيزيد ، فكتب إلى عُبيد الله بن زياد بتوليتِهِ الكوفة . فخرج مسرعا ، فدخلها فى حَشَمه وهو ملثّم ، والناس يتوقّعون قدومَ الحسين ، فجعل عُبيد الله بن زياد يسلّم على الناس ، والناس يقولون : وعليكَ السلام يابنَ رسول الله ، قدمت خير مقدمٍ ،حتى انتهى إلى القصر .

فحسر اللّثامَ، ففتح له النعمان الباب ،وتنادى النّاس: ابن مَرْجانة ، فحصبوه بالحصباء ، ففاتهم . ووضع الرّصد فى طلب مُسلم ، فصاح مسلم : يا منصور — وكان شعارهم — فاجتمع له فى ساعة واحدة ثمانيةعشر ألفا . فأحاطوا بالقصر فقاتلوا ابنَ زياد ، فلم يُمسِ المساء ومعه مائة رجل. فلما رأى تفرّقهم سار نحو أبواب كِنْدة ، فبلغ الباب ومعه ثلاثة ، فخرج وليس معه أحد ، فبقىَ حائراً لا يدرى أين يتوجّه ، فنزل من على فرسه، ودخل أحد أزقّة الكوفة ، فانتهى إلى باب مولاة لمحمد بن الأشعث ، فاستسقاها فسقته ، وأعلمها حاله ،

(١) أى كاتب الحسين .

(٢) تاريخ الطبرى « فقال له حسين : إنى أستخير الله وأنظر ما يكون » .

خرقّت له ، فآوته وأعلمت محمد بن الأشعث بمكانه ، فشى إلى ابن زياد ، فأعلمه ، فوجّه معه سبعين رجلا ، فاقتحموا عليه، فقاتلهم مُسلم ، وأمّنه محمد بن لأشعث ، وحمله إلى ابن زياد فضرب عنقَه ، و بعث برأسه إلى يزيد بن معاوية ، فصلَب جُثّتَه .

وانتهى الأمر إلى الحسين، وقد بلغ القادسيّة، فهمَّ بالرجوع ، فقال له إخوة مسلم: لانرجع أو نُقتَل ، أو نأخذ بثأرنا ، فقال الحسين : لا خيرَ في العيش بعدكم ، فسار حتى لَقِيَ خيلاً لابن زياد ، وعليها عمر بن سعد بن أبي وَقّاص ، فعدَل إلى كرَبلاء ، وهو في نحو خمسمائة فارس ، فلما كثرت العساكر أيقن أنّه لامحيص له ، فقال: اللهمّ احكُم بيننا و بين قوم دَعَوْنا لينصرونا، ثم هُمْ يقاتلوننا ! ثم خطب قومه فقال: يا عبادَ الله ، اتّقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر ، فإن الدنيا لو بقيت على أحدٍ ، أو بقيَ عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقّ بها و بالبقاء، غير أنّ الله خلقها للفناء ، فجديدُها بالٍ ، ونعيمها مضمحِل ، وسرورها مكفهِرّ ، والدارُ قُلْعة ، والمنزل تَلْعَة[(١)] ؛ فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون .

ثم قاتل حتى قُتِل رضي الله عنه وفيه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ؛ وتولّى قتله سِنان بن أنس النَّخَعيّ ، واحتزّ رأسه ، وانطلق به مسرعاً إلى ابن زياد ، وهو يقول :

أوقِرْ ركابى فضةً وذهباً  إنى قتلت الملكَ المحجَّبا
* قتلتُ خير الناس أمًّا وأبا *[(٢)]

وبعث معه الرأس إلى يزيد بن معاوية ، وعنده أبو بَرْزة ، فجعل ينكت بالقضيب على فيه ، وهو يقول :

نفلّق هاماً من رجالٍ أعزّةٍ  علينا ، وهم كانوا أعقّ وأظلما[(٣)]

(١) يقال : هو على قلعة ، أى على رحلة ، والتلعة : مجرى الماء من أعلى بطون الأرض والنزول عليه مخوف .

(٢) بعده فى الطبرى :

* وخيرَهم إذ يُنسَبون نسبا *

(٣) حصين بن الحمام المرى ، من المفضلية ١٢

فقال له أبو برزة : ارفع قضيبك عن فمه ، فلقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلثمُه .

وقتل يوم عاشوراء سنة إحدى وستين ، وقتل معه سبعة وثمانون ، منهم عليٌّ ابنُه الأكبر ، ومن ولد أخيه الحسن عبد الله والقاسم وأبو بكر ، ومن إخوته العباس وعبد الله وجعفر ومحمد وعثمان بنو عليّ ، ومن بنى عمّه جعفر ومحمد وعون أبناء عبد الله بن جعفر . ومن ولد عَقِيل عبدُ الله وعبد الرحمن وجعفر ، ودفنهم أهل القادسيّة بعد قتلهم بيوم ، وقتلوا هم من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانين .

* * *

قوله : «اعتضت» : اقتلعت من العِوَض . يبغى ذين : يطلب هذين . الظِّباء : الغزلان . يَلِج : يدخل . محدَقاً باللّجين ، أى محاطاً بالفضة ، والصائد يفرّق حول الفخ حبَّ القمح وشبهه ، فيلقطه الطائر حتى يتوصّل إلى ما نُصِب له فيقع ، فقال : ما كلُّ طائر يُخْدَع ، ولو حُلّق له الفخّ بحبّ اللّجين بدلا من القمح ، وإنى من هذا الصنف .

قوله : « ولكم مَنْ سعى ليصطاد فاصطيد » ، من قول الصابى :

يا قمـــراً كالخشْف فى نظرتهْ وكالقضيب اللَّدْن فى نُضْرَتِهْ
خِلتُكَ صيداً كان فى قَبْضَتِي فصرتُ من صيدِكَ فى قَبْضَتِهْ

والسابق له كعب بن زهير فى قوله :

طافَ الرُّماة بصيدٍ راعهم فإذا بعضُ الرُّماة بنبْل الصيد مقتولُ(١)

* * *

(١) لم يرد هذا البيت فى ديوانه ، وأورده الميمنى فى ملحق الديوان ٢٥٩ ، نقلا عن الشريشى .

[ أصل المثل : رجع بخفى حنين ]

وخُفَّا حُنَين ، يضرب بهما المثل للخائب الخاسر ، واختلف فى حُنين ، فقال يعقوب: إنه كان رجلا مُدّعياً ، فجاء إلى عبدالمطلب ، وعليه خُفَّان ، فقال : ياعم إنى من ولد هاشم ، فأنعَمَ النَّظر فيه ، وقال: لا وعظام هاشم ، ما أرى فيك شمائلَ هاشم ، فارجع خائباً خاسراً .

وقيل: كان رجلاً مغنّياً ، فدعاه قوم من أهل الكوفة ليُطربَهم فى نزهة، فخرجوا به إلى الصحراء ، فضربوه وسلبوا ثيابه ، وتركوا عليه خُفَّيْهِ ؛ فلما رجع إلى زوجته ـ وكانت تنتظر رجوعَه على عادته بما يفضُل من أطعمة النزهة ـ ورأته على تلك الحالة قالت لكل من سألها : رجَع حُنين بخُفَّيه .

وقيل: إنه كان صانعاً ، فساومه أعرابىّ بخُفَّين ، وماكسه حتى أحرجه . فلما ارتحل الأعرابىّ ، أخذ حنين إحدى الخفين فوضَعها على الطريق ، ثم مشى وألقى الأخرى فى موضع آخر على الطريق ، وكمن له ، فلما مرّ الأعرابىّ بالخفّ قال : ما أشبه هذه بخفّ حُنين ؛ ولو كان معها الأخرى لأخذتُها . فلمّا انتهى إلى الأخرى ، نَدِم على ترك الأولى ، فأناخ راحلَته ، وأخذها ورجع إلى الأولى ؛ فلما غاب عَمَد حنين إلى راحلته بما عليها فركبها ، ومضى بها ، ورجع الأعرابىّ إلى قومه دُون الخفَّين ، فكان إذا سئل عن حاله قال : رجعت بخُفَّىْ حنين فصار مثلا .

وقيل : كان حُنين لِصًّا حقيراً فأُخِذَ وصُلِب ، فجاءته أمّه وعليه خفّان فانتزعتهما ورجعت ، فقيل : رجعت بخُفَّىْ حُنين ، أى رضيت منه بذلك .

* * *

فتبصَّرْ ولاَ تَشِمْ كلَّ بَرْقٍ ربَّ برقٍ فيهِ صوَاعِقُ حَيْنِ
واغضُضِ الطَّرْفَ تَسْترِحْ مِنْ غرَامٍ تَكْتَسِي فيهِ ثوْبَ ذلٍّ وشَيْنِ
فبلَاءُ الفَتَي اتّباعُ هَوَى النَّفْسِ وَبِذْرُ الْهوَى طَمُوحُ عَيْنِ

قال الراوى : فمزَّقتُ رُقعتَهُ شَذَرَ مَذَرَ ، ولَمْ أُبلْ أَعَذَلَ أم عذَرَ .

* * *

قوله «تبصر» : أى أحسن النظر . حَيْن : هلاك . والصاعقة : نار ترسل مع الرعد والبرْق ، وجمعها صواعق ، وصعق الرجل إذا أصابته ، وصعق إذا مات ، وقيس تقول : صاعقة ، وبنو تميم صاقعة ؛ وقد صقع . غرام : عذاب الحب . شيْن : عيب . والبَذْر : زرع الحبّ فى الأرض .

طموح : ارتفاع يريد أن أصل العشق مداومة النظر ، ألمّ فيه بقول عيسى عليه السلام : « لا يزنى فرجُك ما غضضتَ بصرَكَ » ؛ وقد تقدَّم : من كثرتْ لحظاته دامت حسراته .

وقال سابق البربرىّ فى اتباع الهوى :

وهجر الهوَى للمرءِ فاعلم سعادةٌ
وطُول الهوى رَيْنٌ على القَلْبِ رَائنُ
فكن دافناً للشَّرّ بالخير تسترحْ من الشرّ إنّ الخير للشرّ دَافِنُ

وقال آخر :

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادَكَ الهوى
إلى كلّ ما فيــه عليك مقالُ

وقال المتنبي :

عزيزٌ أسى مَنْ داؤه الأعين النُّجلُ ... عناء به مات المحبون مِنْ قَبلُ[(١)]

فمن شاء فلينظر إليّ فمَنظري ... نذيرٌ إلى مَنْ ظنّ أنّ الهوى سَهلُ

وما هى إلا لحظةٌ بعد لحظةٍ ... إذا نزلت فى قلبه رَحَلَ العقلُ

وقال ابن زيدون :

مَنْ يسأل الناس عن حالي فشاهدُه ... محضُ العيان الذى يُغنى عن الخبَرِ[(٢)]

أما الضّنَى فجنتْه نظرة عَنَنٌ ... كأنّهـــا والرّدَى جاءا على قَدَرِ

فهمتُ معنَى الهوى من وَحْيِ طرفك لى

إن الحوار لمفهـــــــومٌ مِنَ الحَوَرِ

وقال العبّاس بن الأحنف :

الحبّ أوّل ما يكون لجاجةٌ ... تأتى به وتسوقُه الأقدارُ[(٣)]

حتى إذا اقتحم الفتى لججَ الهوَى ... جاءت أمورٌ لا تُطاقُ كِبَارُ

فهذا كله يبيّن بيت الحريرىّ .

قوله : « مزقت » : قطعت . شذَر مذَر : قِطَعاً متفرقة فى كلّ جهة ، وأصل الشّذر قطع الذهب ، ومذَر اتباع لها .

لم أبَل : أى لم أبالِ . عذل : لام . عذر : قَبِل العذْر .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٨٠ .

(٢) ديوانه ٢٠١ .

(٣) ديوانه ١٩٦ .

فهرس المقامات

# فهرس الموضوعات (*)



(*) وهى الموضوعات التى وردت فى أثناء الشرح .

صفحة

صفحة

# استدراك وتعليق *

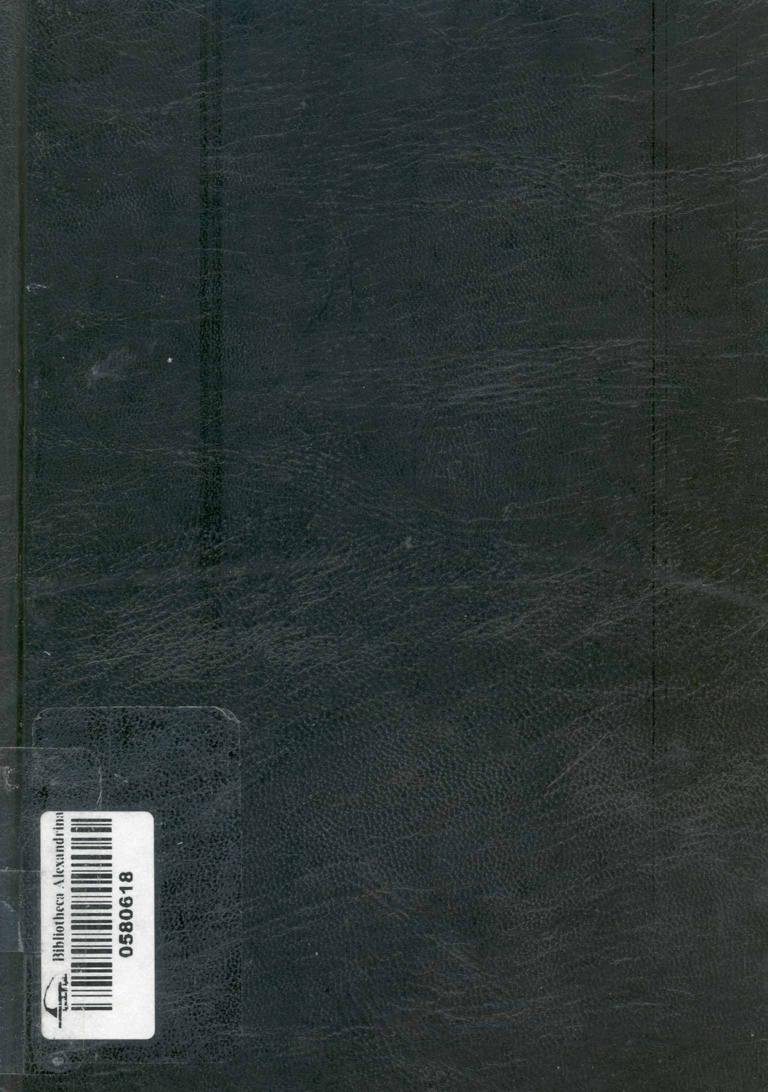
| صفحة | سطر | |
|---|---|---|
| ٦ | ٢٠ | أبو الحجـــاج الأبذيّ خطأ ، وصوابه : « الأندى » ، منسوب إلى أنده ، مدينة من كورة بلنسية بالأندلس . وانظر الروض المعطار ٣١ ، وبغية الملتمس للضبي ٤٧٧ . |
| ١٠ | ١٣ | أبو عبد الله بن إمام الأئمة الراشدين ، هو محمد ابن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أحد ملوك دولة الملثمين بالمغرب ، بويع بالخلافة سنة ٥٩٥ وتوفى فى سنة ٦١٠ ، وابنه يوسف ولى عهده . وانظر المعجب فى أحوال المغرب ٣٨٦ ، ٣٨٧ . |
| ٢٥ | ٩ | هو أبو بكر بن اللبانة الدانى . |
| ٥٦ | ٨ | الصواب أن اسمه أبو حفص بن عمر السلمى قاضى قرطبة . من أهل أغمات ، وولى أيضاً قضاء فاس وتلمسان وإشبيلية ، وله شعر كثير مطبوع . توفى سنة ٦٠٤ . وانظر نفح الطيب ١ : ٢٧٣ وصلة الصلة لابن الزبير رقم ٣٠ ، والتكملة لابن أبار برقم ١٨٣١ . |

(١) ومعظم هذه الاستدراكات مما أفدته من الصديق العلامة الدكتور محمود مكى عند قراءته لهذا الجزء بعد طبعه .

| | | |
|---|---|---|
| ص ٦٣ | ٢ | صواب كتاب البيت : |
| | | فاحذر هدايا الناس تأمن من المنّ |
| | | بها أو قول واش يشي |
| ص ٦٣ | ١٧ | الخبر والأبيات فى زهر الآداب ٧٧ ، ٧٨ |
| ص ٦٦ | ٢٢ | (حاشية٤) فى ترجمة أبى عمران بن موسى بن عمران : توفى سنة ٦٠٤ ، وله تراجم أخرى فى التكملة لابن أبار برقم٢١٤٧ والغصون اليانعة ١٣٥ ، وألف باء للبلوى ١ : ٢٣ ، ٣٥٦ ، ١٥٣، ١٥٥، ٣٨٩. |
| ١٠٧ | ١ | أبو جعفر بن برد ، خطأ والصواب أن اسمه أبو حفص بن برد ، والبيتان فى الذخيرة ق ١ ج ٢ : ٤٨ ، ٤٩ ، وله ترجمة فى جذوة المقتبس للحميدى ١٩٢ والذخيرة لابن بسام ق ١ ج٢: ١٨ ـ ٥٢ ، ومطمح الأنفس ٢٧ ، ٢٨ . |
| ١٠٨ | ٢ | أبو بكر الأبيض، وهو أحمد بن محمدالأنصارى الإشبيلى ، وانظر ترجمته فى المطرب لابن دحيه ٧٠٦ . |
| ١٢٨ | ٢١ | الحلوانى القيروانى ، هو عبد الكريم بن فضال الحلوانى القيروانى ، وله ترجمة فى المطرب ٥٩ ، ٧٥ ، والذخيرة لابن بسام ٤ : ٢١٩ ، والرايات لابن سعيد ١٠٧ |
| ١٣٩ | ٣ | هو أبو بكر بن الجد |

| | | |
|---|---|---|
| ١٧٧ | ١٦ | هو موسى بن عمران المارتلى |
| ١٧٧ | ١٦ ، ١٧ | الصواب أن الأبيات لأبى عامر بن شهيد ، وانظر الذخيرة لابن بسام ق ١ ج ١ : ٢٥٧ |
| ١٧٨ | ٣ ـ ٦ | هذه الأبيات تنسب للمنفتل ، وانظر الذخيرة لابن بسام ق ١ ج ١ : ٢٥٧ . |
| ١٧٨ | ٧ ، ٨ | البيتان فى الذخيرة لابن بسام ق ١ ج١ : ٢٥٨ |
| ١٧٨ | ١١ ، ١٢ | البيتان فى الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٨ |
| ص ١٧٨ | ١٣ | نسبة البيتين لأبى بكر بن بقى ، وهما بهذه النسبة فى الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٨ |
| ١٧٨ | ١٧ ، ٢٨ | البيتان فى الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٨ |
| ٢٠٩ | ١٢ | هو وهب بن سلمة القرطبى ، من أهل النسك والورع بالأندلس ، ذكره الرازى فى كتاب أعيان الموالى برقم ٢٧٢٨ . |
| ٣١٣ | ٢ | الصواب : « اليكىّ » ، بالياء ، واسمه أبو بكر ابن يحيى بن سهل ، وانظر ترجمته فى المغرب لابن سعيد ٢ : ٢٦٦ |
| ٣١٧ | ٩ | الحلوانى ، هو عبد الكريم بن فضّال القيروانى ، والأبيات فى الذخيرة ٤ : ٢٢٠ |
| ٣٢٠ | ١٣ | الأبيات فى قلائد العقيان ٣٠٠ |
| ٣٢١ | ٢٢ (الحاشية١) | الغِفارة فى الاصطلاح الأندلسى ضرب من العباءة أو الطيلسان . |

| | | |
|---|---|---|
| ٣٤٢ | ٦ | كذا في جميع الأصوال بنسبة هذا البيت ، إذا لم أجد في بلدة ما أريده فعندى لأخرى عزمة وركاب إلى أبي الطيب ، والصّواب أن البيت لأبي فراس من قصيدته البائية الرومية ، ديوانه ٣٨ |
| ٣٩٨ | ٩ (العنوان) | يكتب هكذا : مما قيل في أنواع الحسن والجمال أيضاً . |


Bibliotheca Alexandrina
0580618